

حكايات من أغاني الأصفهاني



يوميات المغنين والجواري

كمال النجدي

كل من كان ذاهياً وحرناً فقد قرأ
غير محبوبة الموت يشتري



دار الهلال

الناشئ

حكايات من الأغاني

بوراك النقيب والجوّاري



بقلم
كمال النجمي



دار الهلال

الغلاف مريشة
الناصري
الفنان بهجت عثمان

مقدمة

قبل ألف سنة كتب أبو الفرج الاصبهاني ، أو ((الاصفهاني)) كتاب الاغانى ، فصار من أشهر الكتب فى عصره ، ولبت محتفظا بسهرته وقيمتة هذا الزمان الطويل ، وسوف يبقى كذلك ..

فان ((كتاب الاغانى)) موسوعة ممتعة باهرة ، للادب والفن والتاريخ والاخلاق والمروءة والفكاهة والشجاعة ، وكل شىء تنريبا .. شهد بذلك طلاب العلم وطلاب التزاة وطلاب التسلية ، على امتداد العصور التى قرىء فيها هذا الكتاب الممتع الفريد .

وطوال مئات السنين ، حاول كثير من الادباء ((اختصار)) كتاب الاغانى ، او ((تلطيف)) حجمه الضخم ، بتجريد من الغننة والاستطراد والتكرار وبعض الحكايات ، فاجتمعت فى المكتبة العربية عدة مختصرات للاغانى ذهب أصحابها مذاهب مختلفة فى الاختصار والتجريد والانتقاء ، وظن كل منهم أن عمله أوفى بالفرض من سواه ، واجتهد فيه ما وسعه الاجتهاد ..

وفى عصرنا وجد كاتبو ((الدراما)) مادة لاعمالهم فى ((كتاب الاغانى)) فانقلب صفحات كثيرة من هذا الكتاب العظيم ، الى مرئيات ومسودعات درامية ، ولكن ما يصلح للدراما من هذا الكتاب يحتاج الى التصرف الواسع ، بالحذف او الاضافة او التخييل او التعديل الذى يخرج به عن أصله ! ..

ولم يبق بعد هذا كله مجال لا للتجريد والاختصار ، ولا للاعمال الدرامية الا فى الليل ، ولا يحسن أن ننسج على نفس المنوال فنختصر أو ننتقى او نجرد أو نبني من صفحات الكتاب العظيم اعمالا درامية ، فذهبنا فى النظر اليه مذهبا آخر ، يعلو فيه قدره فوق الاختصار والتجريد ، وفوق التدقيق مرئيا أو مسموعا ، وحاولنا أن نقدم الكتاب جديدا جذابا ، ولكن بلا هدم لأصله فى اللغة والرواية والروح ابداعية والفنية التى كتبه بها قبل ألف عام صاحبه الاديب الفنان العبقري أبو الفرج الاصبهاني .

لهذا جاء كتابنا هذا الجديد ، فى شكل يوميات للشخصيات التى تعيش على صفحاته ، ولكن القصص الكبيرة والحوادث التاريخية ثابتة فيه متماسكة ، وان لم تتعاقب وتتشابك ، كتعاقب الليل والنهار ، ساعة بعد ساعة ! ..

فاذا قرانا الفصول الزاخرة التى كتبها أبو الفرج ، راعنا كثرة الايام التى تفصل بينها الايام والشهور والسنون .. فتجرب حكاية من الحكايات

فى هذا اليوم ، ثم تتلوها حكاية فى ذاك اليوم ، وبينهما عشرون عاما ، فمن هنا تضافرت أيام كتاب الاغانى وتباعدت وتقايرت وتداخلت ، وعلى هذا الاساس جمعناها فى كتابنا هذا ، فجعلنا الحكاية يوميات ، وجعلنا اليوميات تتسع فى الزمان أو تنقص كما يقتضى المقام ، فقد نبسط يوميات مطرب أو مطربة فوق عشرات السنين ، وقد تتركز فى أيام أو ساعات ..

وكتاب الاغانى حافل بقصص وحكايات عن القادة والزعماء والعلماء والصلحاء والشعراء والادباء ، فضلا عن المغنين والمغنيات ، وقد آثرنا أن نبدأ بما كتبه عن المغنين والمغنيات فى هذا الجزء الذى نرجو أن تتلوه أجزاء تستكمل بقية قصص الكتاب عن أهل الغناء من المطربين والجواري ثم عن غير هؤلاء من أبطال الكتاب الذين تتألف من سيرتهم صورة تامة للملاحم لمجتمع العصر العباسى الاول وما قبله من العصور الاسلامية والعربية ..

والغناء هو أصل كتاب الاصبهانى ، وانما استطرده من قصص الغناء الى النقص الاخرى .. فجاء بما لم يسبقه اليه أحد فى التأليف ، وجعل كتابه هذا معرضا للغة الصحيحة والبيان الرفيع ..

وحين أخذت فى كتابة هذه اليوميات الغنائية ، بدا لى أن أحاول الاقتراب بأسلوب الكتابة فند الاستطاعة ، من أسلوب مؤلف الاغانى العظيم الذى هو أمام فى البلاغة ، ونسبيج وحده فى صياغة الكلام ، والتعلق به يمنح كتابنا هذا نفعة من عقب التاريخ ، مع التزامنا بتقريبه الى قارئنا المعاصر ، لهذا أبقيت شلرات واضحة من أصول الكتاب العظيم العريق ينسجم القارئ عبرها خلال السطور ، وحاولت تطويع النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى الذى تم فيه تأليف « كتاب الاغانى » لمقتضيات الكتابة فى أيامنا ، لكيلا يقع فى كتابنا هذا تفاوت بين طبقات التعبير ، أو تنافر بين القديم والجديد .

ولست أظن طريقتى هذه أمثل الطرائق ، ولكننا - فيما يبدو - غير مسبوقه فى بابها ، وقد لا تكون كذلك ، إذ لم نطلع على كل ما أخذ المؤلفون من كتاب الاصبهانى ، ولكنى أرجو لها على أية حال كرم التبول من قرانها ، وسماحة الاغضاء عن هفاتها ..

ولعلنا بهذه الطريقة نسهم فى عقد صداقة بين القارئ العصرى وبين كتاب عظيم قرأته الاجيال أكثر من ألف سنة .. كتاب الاغانى للاصفهانى ، أو الاصبهانى ! ..

كمال النجمى

حكاية أول مطرب في المدينة

● اليوم الاول :

انا - ولا فخر - أول من رفع عقيرته بالغناء في المدينة المنورة بعد أن خرجت من ظلام الجاهلية الى نور الايمان !
لا أضرب بالعود مثلما يفعل الآخذون من غناء الاعاجم ، كابن مسجج في مكة ، وسائب خاثر في المدينة ، ولكني أنقر بالدف وأتمشى به خلال الغناء بين صفوف المستمعين ، أحسن مشية ، على مذهب أهل الحجاز في التمشي على نقر الدفوف ! ..

صوتي أجمل الاصوات ، كما يقول العرفاء بالغناء ، ولو أنصفني الدهر لاغتنيت من صناعة الغناء ، ولكني - لكي أعيش - أجمع الى هذه الصناعة الجيلة ، صناعة الاضحاك والتسرية عن السراة من أهل المدينة واني لاكسب من أضاحيكي ونوادري أكثر مما أكسب من غنائي ! .. فان الناس لايتخرجون من سماع النواذر والاضاحيك أما الغناء فيتأثم منه اكثرهم ، الا من كانت في طبيعته سحابة وأريحية كعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أشده الناس معرفة بالدين وعملا بأحكامه ! .. وقد انتزع للمغني سائب خاثر عطاء من الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، أخرجه له من بيت المال مع أعطيات أهل المدينة ، وقال ابن جعفر لمعاوية وهو يذكر له أحقية سائب خاثر في عطاء من بيت المال

- حسب هذا الرجل من فضل ، تحسينه الشعر بصوته وألحانه !

لم يعترض معاوية ، وأعطى سائب خاثر ما اقترحه له ابن جعفر من عطاء ! ..

أما أنا فما أخذت درهما واحدا من بيت المال ، فلا عطاء لي ، بل أنا مطارد منهم بالعيب والفساد ! ..

اسمى عيسى بن عبد الله ، ولقبى « طويس » وقد نسي الناس اسمي فلا يذكرون الا لقبى أصلي عجمي ، وسادتي من بني مخزوم في قريش .. نشأت بالمدينة أدخل بيوتها فلا يحجبونني ، فعرفت دخالهم ، وحفظت أنسابهم ، وصحبت أمي في طوافها بيوتهم تخدمهم وتمشي بالأنميمة بينهم ، فتعلمت منها النميمة والوقية ، ومشيت بهما بين الناس كما مشت

امى من قبل حتى اتقونى لحدة لسانى وطوله وخوضه بالوشاية والنميمة
فى كل مجال ! .. ولكنى - والله - أفعل كل ذلك بحسنة ! ..

وانا ممتع الحديث حاد الفهم ، أرعى واحفظ حق المجالسة ، وأعظم
موالى من بنى مخزوم ومن اليهم من سائر قريش .. مسالم لا أحب التحكيك
بأحد ، الا من ظلمنى ، فانى اقتصف منه ، والبادىء اظلم ! ..

ابناء المهاجرين والانصار فى المدينة يكتنفونى ويحبسون مجالستى
وينصتون الى حديثى ، ويشتهون غنائى .. ولولا ما اشاعه أعدائى حولى من
سوء القالة لما بقى أحد من قريش والانصار الا ادنانى وأعطانى ! ..

يقولون انى على ظرفى وحلاوة غنائى ، مشنوم ! .. فقد ولدت يوم مات
النبي صلى الله عليه وسلم ، وفطمت يوم مات أبو بكر الصديق رضى الله
عنه ، وختنت يوم طعن أبو لؤلؤة المجوسى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين
وتزوجت يوم قتل الناثرون عثمان بن عفان ، وانبجت ولدا يوم مقتل على
ابن أبى طالب .. ولدا آخر يوم مات الحسن بن على رضى الله عنهما ! ..

وانا رجل طويل احول ، ولدتنى امى بعين واحدة هى هذه العين الحولاء
اما الاخرى فولدتنى بها عمياء ! .. لكنى برغم ذلك أحسن الناس علما وطرفا
وحسن غناء وجودة نقر بالدف ، واضحك التكللى بترادرى ! ..

أقرأ كتاب الله ، ولست مثل ذلك الشخص المختل الذى قبض عليه
حاكم المدينة فقال له

- أيها الرجل هل تقرأ أم الكتاب ؟

فقال المختل :

- والله ما أقرأ بناتها ، فكيف أقرأ أمهن !

فقتله حاكم المدينة ، وكان محقا فى قتله ! ..

وبعض الناس يحاولون أن ينسبونى الى هذا النوع من الاشخاص ، وكل
من ينسبنى اليهم فهو عدوى أو حاسد .. والله بينى وبينه .. وسأتعلق
برقبته يوم القيامة أطلب الاخذ بحقى منه !

● اليوم الثانى :

جاء ابان بن عثمان بن عفان أميرا على المدينة من قبيل الخليفة عبد الملك
ابن مروان .. فلما دنا منها تلقاه أهلها ، وخرجت معهم فسلمت عليه وهو
يعرفنى وقد سمع غنائى مرات .. فقلت له : أيها الأمير ، انى كنت أعطيت
الله عهدا لئن رأيتك أميرا لاختصم يدى بالحناء الى المرفقين ثم أقفى
بالدف بين يديك وأغنى وأمشى على نقراته أحسن مشية رآها أهل الحجاز
كله ! ..

ثم أخرجت يدى مخضوبتين ، وأخرجت دفى وتقنيت

ما بال أهلك يا وباب

خزوا كانهم غضاب

فطرب ابان بن عثمان حتى كاد أن يطير ، وجعل يقول لى : حسبك يا طائوس ، ولا يقول لى : يا طويس ، حتى لا يصغر اسمى ، ثم أمرنى بالجلوس ، وقال لى متبسطا متفكها :

— قد زعموا انك كافر يا طويس ! ..

قلت :

— جعلت فداك ! .. والله .. انى لاشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأصلى الخمس ، وأصوم رمضان ، وأحج البيت ! ..

قال الامير :

— فانت أكبر سنا ام أخى عمرو بن عثمان بن عفان ؟

قلت :

— أنا والله كنت غلاما صغيرا أتمثر فى أذيال نساء قومى يوم رُفَت « أمك المباركة » الى « أبيك الطيب » ! ..

فاستحيا الامير ابان بن عثمان وأطرق الى الارض عندما ذكرت له زفاف أمه الى أبيه !

غير انه أعجب بفطنتى وحذقى ورقة أدبى ، فانى لم أقل له : « أمك الطيبة » الى « أبيك المبارك » .. لأن ذلك يحمل معنى فى لغة العرب ، يعرفه الرجل اذا خلا بالمرأة « الطيبة » التى تلذ الخلوة بها ! ..

ثم قال لى وقد رفع رأسه :

— يقولون انك مشنوم .. فما بلغ من شؤمك ! ؟ ..

فذكرت له ما يتناقله الناس عنى فى هذا الباب ، فضحك وقال لى مداعبا :

— اخرج فنى ، أبعدك الله ! ..

● اليوم الثالث :

أمطرت السماء اليوم مطرا شديدا الغزارة أسال كل شيء حتى صار وادى العقيق بالقرب من منزلى فى المدينة يرمى ماؤه بالزبد كأنه نهر القرات ، فخرجت أتنزه فى هذا اليوم المطير الذى يطيب فيه الهواء ، فوجدت عند العقيق عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، سيد بنى هاشم يتنزه هناك مع صحب له بينهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ..

استدنانى ابن جعفر ، والسماة تدير انهما را بالغيث ، فقال لاصحابه :

— هذه سماء خليفة ان تبلى ثيابنا ، فهل لكم فى منزل طويس فانه قريب ، فتمسكن فيه ، ويحدثنا ويضحكنا ويفيننا ! ؟ ..

قال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت
- جعلت فداك ، وما تريد من طويس المختث عليه غضب الله ؟
قال له عبد الله

- لا تقل ذلك ، فانه مليح خفيف ، لنا فيه انس ١٠٠
فاظني كلام عبد الرحمن بن حسان ، ولكن لم اكد اسمع قول عبد الله
ابن جعفر حتى تعجلت الى منزلي فقلت لامراتي
- ويحك ! قد جاءنا عبد الله بن جعفر سيده الناس ، فما عندك من
طعام ؟ ١٠٠

قالت

- نذبح هذه العنز السمينة !
فذبحنها واختبزنا خبزاً راقاً ، وخرجت فتلقيت عبد الله بن جعفر مقبلاً
وصحبه ، ومشيت بين ايديهم حتى نزلوا داري ، فحدثتهم وضحكتهم حتى
جاء الطعام ، فاكل ابن جعفر واكل القوم ، فاعجبه واعجبهم طعامي ٠٠ فلما
غسلوا ايديهم ، استأذنته في ان اغنى شيئاً ٠٠ ثم غنيت :

يا خليلي نابني سهلي
لم تنم عيني ولم تكسد
فشرابي ما اسبيغ وما
اشمتكي ما بي الى احد
كيف تلحوني على رجل
انس تلتذه كبدي ؟
نظرت يوماً فلا نظرت
بعده عيني الى احد

فطرب القوم وقلت لابن جعفر
- اتدري يا سيدي لمن هذا الشعر ؟

قال :

- لا والله ، ما أدري لمن هو ، الا اني سمعت شعراً حسناً في غناء حسن
قلت :

- هذا الشعر للعارفة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت وكانت تتعشق
عبد الرحمن بن الحارث المخزومي فقالت فيه هذا الشعر !

فنكس عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رأسه الى الارض حتى التصق
رأسه بصدره خزيًا ، فلو انشقت الارض له لدخل فيها ، من سوء ما سمعه
عن عمته ! ٠٠

هكذا انتقمته منه لنفسى ، اذ وصفني بالتخنث ودعا على بفضب الله ،
ونهى عبد الله بن جعفر من النزول في داري . ٠٠

● اليوم الرابع :

قدم مطرب مكة المشهور عبيد بن سريج المدينة فغنى أهلها فاستحسنوا غناؤه ، وقدموه على كل من غناهم من المطربين ، وطلعت عليهم فسمعتهم يبالغون فى مدحه ، وهو بينهم منتفش كالديك ، فاستخرجت دفا من حضنى ونقرت به وغنيتهم حتى طربوا ، وصاح ابن سريج

— هذا والله أحسن الناس غناء ، وإن كان لا يضرب بالعود ولا يصرف نغماته ! ..

وابن سريج هذا هو أحد فحول المغنين الذين أخذوا من فنون الفرس والروم فى ضرب العود ، وعربوا هذه الفنون ، واستبعدوا منها ما لا يتفق وذوق العرب ولغتهم وباطن قلوبهم ونفوسهم .. وقد رأيت من هؤلاء المغنين فى المدينة نشييطا الفارسى وسائب خائر وجميلة المغنية البارعة .. أما فى مكة فاستأذهم ابن مسجح ، وعنه أخذ ابن سريج ثم زاد عليه حتى لم يعد أحد يذكر ابن مسجح ! ..

قلت لابن سريج

— أنا والله أول من صنع غناء الهزج والرمل ، والناس يضربون بى المثل فيقولون « أهزج من طويس » ! ..

قال ابن سريج

— صدقت والله ، وما سمعت قط مثل هزجك ، ولكنى فى الرمل — بفتح الميم — أبرع خلق الله !

فعجبت لشأنه على نفسه ، ثم ذكرت انى سبقته بالثناء على نفسى ، فزال عجبى !

● اليوم الخامس :

رأيت جارية حسنة المشية ، جميلة الوجه ، فتبعتها ، فراوغتنى ولم تكلمنى ، فلم أنقطع عنها ، فأسرعت فى المشى لتبعد عنى فلم أنقطع عنها ، فلما هرت بمجلس حافل بالناس ، وقفت فقالت لهم

— يا هؤلاء .. لى صديق لى زوج لى مولى يملكنى ، فسلوا هذا الصفيق ما يريد منى ؟! ..

فخرجت من قولها حتى تمنيت انى لم أمش وراءها خطوة واحدة ! .. ثم تمالكت جاشى حين انصرفت المرأة فغنيت القوم غناء جميلا حتى أنسبهم قبح ما صنعت معها ، فلما طربوا وضعت دفى فى حضنى وقلت لهم

— اكتبوا على هذه الزلة ، فانى ما تبعت هذه المرأة لريبة ، ولكن أعجبتنى مشيتها ! ..

قالوا

قد سترنا عليك هذه الزلة فلا تعد الى مثلها !

أستاذ المطربين

● اليوم الاول :

الناس يسمعون غنائي فيطربون أشد الطرب ويقولون لي انك يا سعيد ابن مسجح لمنقطع القرين في صناعة الغناء ، والمقدم بين المطبوعين البارعين فيها ، وانك لتفنى على مذهب في هذه الصناعة اشتقته لنفسك على غير مثال سابق في غناء العرب ، فكيف تم لك ذلك ؟!

أرجع بذاكرتي الى أيام طفولتي وأقول لهم كنت في صباى مملوكا لبعض السادة في مكة ، أخلو بنفسى قاترنم ، فسمعتنى مولاي مرة فأعجبه غنائي وقال لي ليكون لك يا غلام شأن ، فان لك حلقا طيب المسحوع ، كأنك طويس أو سائب خاتر

ولم أكن في ذلك العهد أعلم شيئا عن طويس أو سائب ، ولا أعرف كيف يغنيان ، فانهما مطربان كباران في المدينة المنورة ، وأنا غلام صغير أسود مسكين في خدمة سيد من سادات مكة !

فاتفق بعد ذلك أن معاوية بن أبى سفيان ، وقد صار خليفة ، أراد أن يبنى بيوتا له في مكة ، ولم يكن فيها من البنائين من يتقن بناء المنازل الملوكية الفخمة ، بالأجر الأحمر والجص الأبيض والرخام ، فاستجلب معاوية بنائين من بلاد فارس ، فكانت أسمعههم يتغنون في أثناء البناء بالآغاني الفارسية ، فأعجبني الكثير من غنائهم ، فلزمتهم ، أصيخ اليهم ، وأنقل ما أنتخيه وأستحسنه من الحانهم الى الشعر العربى ، متصرفا في اللحن على مقتضى الذوق العربى الذى ينفر من تنطع الاعاجم !

سمعتنى مولاي بعد أن برعت في تركيب الالحان الفارسية على الكلام العربى فقال لي : من أين لك هذا الغناء العجيب ؟!

قلت سمعت هذه الاعاجم التى تبنى بيوت أميرا المؤمنين تتغنن بالفارسية فقلبت بعض ما استحسننت من الحانهم الى الكلام العربى ! .. فهتف بى سيدي معجبا اذهب فانت حر لوجه الله !

صرت حرا فطلبت الشعر والادب ، واتسعت في الغناء ، وصنعت لنفسى الحانا لم أسمعها من الفرس ولا من غيرهم فافتتن الناس فى مكة ببا صنعت وقالوا لي أنت زهرة أصحاب هذه الصناعة ، وانك فيها لخير من مطربي المدينة فهذا الذى تعمله هو نظام هذه الصناعة وقوامها وعمادها ،

وسيتبعك في هذا الطريق كل مغن ومغنية في مكة والمدينة ! ..
هكذا استفتحت باب الخبر في صناعتي وانقلبت الى الرفاهية والرغد
والسعد في الحياة ، وصار لي تلاميذ يتعلمون مني ، فمنهم ابن سريج أحسن
الناس صوتا ، ومنهم الغريض النائح المطرب وغيرها ! .. وصرت بحمد
الله أستاذ المطربين ..

ثم رحلت الى الشام وأخذت من الحان الروم شيئا وحورته الى الدورق
العربي وزدت عليه من صناعتي ، وقصدت الى فارس فتعلمت ضرب العود
واشتريت عبدا نا كثيرا ، ثم عدت الى مكة وقد أخذت محاسن تلك النغم ،
وصدفت عما استقبحت من النبرات والانغام ، وهي كثيرة في غناء الروم
والفرس ، تخرج عن غناء العرب ولا توافق أعاريض أشعارهم وقوافيها
وتوزينات كلماتهم واستتبعت مذهبا في الغناء العربي ، جديدا متقنا
ولحنت الاشعار فيه ، وتبعني المقنون في هذا المذهب حتى تكاثروا

● اليوم الثاني :

تدقضى الايام وصناعة الغناء في مكة تزدهر ، وأنا على رأسها ، وقد
رحلت الى المدينة مرات وسمعت مطربيهها وليس فيهم حتى الآن من يتقن
الغناء على العود ، ولكن بعضهم سمع الغناء الفارسي والرومي وأخذ منه
شيئا وبني عليه غناء عربيا ، فكأنه كان معي في ذلك على ميعاد ..

ونحن الآن في زمان ممرع معشب بالفتن الجسام مات معاوية وابنه
يزيد ومروان ، وجاء اثنان يتنازعا الخلافة أحدهما في دمشق وهو عبد
الملك بن مروان .. والاخر في مكة وهو عبد الله بن الزبير ..

والحرب بينهما لا تنقطع ، وفي بلدنا مكة تغيرت أحوال كثير من الناس ،
فأصاب الخمول أناسا ، وارتفع آخرون ، وإن خمول مائة من فضلاء الناس
لاهون عندي من ارتفاع شخص واحد من السفلة !

احترق المسجد الحرام في معسارك ابن الزبير وابن مروان .. فان ابن
الزبير سمع ذات ليلة أصواتا فوق الجبل فخاف أن يكون جند ابن مروان
قد وصلوا الى مكة ، وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديدة صعبة ورعد وبرق ،
فرفع نارا على رأس رمح لينظر ما يجري من حوله ، فطارت الريح النار
فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها وتساقطت الكعبة ، وماتت امرأة من
قريش في الحريق ، فخرج أهل مكة كلهم في جنازتها خوفا من أن ينزل
الله العذاب بهم ، وسجد عبد الله بن الزبير ، يدعو ويقول « اللهم اني
لم أتعص ما جرى ، فلا تهلك عبادك بذنبي ، وهذه ناصيتي بين يديك » !

فلما مضى يوم ولم ينزل العذاب على الناس ، ابتدأ ابن الزبير يهدم
ما تبقى من الكعبة ، وتبعه القعدة ، حتى بلغوا الى قواعدها ! ..

ثم دعا بنائين من الفرس والروم ، فأخذوا في بنائها !

مررت بالمسجد الحرام وهؤلاء الروم والفرس يبنونونه وينشدون أغانيهم

فأعادني ذلك الى صباى ، حين سمعت أغانيهم لأول مرة ، وبنيت عليها
مذهبي فى الغناء !

تبدو لى أغاني هؤلاء الناس الآن ساذجة كثيرة النشاز ، متشابهة فقيرة
الالحان ! .. وأين هى مما صار اليه الغناء العربى فى وقتنا هذا من الثراء
النفسى الباذخ والايقاعات المبتكرة التى لا يفرقها الفرس ولا الروم ! ..

لقد اتخذ الغناء العربى سمنا خاصا به ، وارتفع شأنه ، وانحدر غناء
هؤلاء الاعاجم والموالى وعاقته أسماع العرب ، فلا تجد أحدا الآن يصغى
اليه ! ..

● اليوم الثالث :

وضعت الحرب أوزارها بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ،
بعدهما رأينا الحجاج بن يوسف قائد المروانيين يرمى الكعبة بحجارة
المجانيق فتتهدم مرة أخرى عقب أن بناها ابن الزبير .

انتهت الفتنة بهزيمة عبد الله بن الزبير ومصرعه ، ودخلت مكة كما دخل
الحجاز كله فى طاعة عبد الملك بن مروان ، ووطأ الحجاج الثقفى له المنابر ،
وفتح له بعد السيف قلوب الرجال ، فملاها رهبا ورغبا ..

وجاء الينا فى مكة والد جديد من رجال عبد الملك ، فأسرع اليه بعض
حسادى يزعمون ان فتيان مكة انشغلوا بى عن كل شىء ، وانفقوا أموالهم
على سماع غنائى ! .. فكتب الوالى الى الخليفة فى أمرى ، وحرصه على
اخراجى من مكة ومعاقبتى ، فأرسل اليه الخليفة يأمره بمصادرة أموالى
وتسييرى الى دمشق ليحاسبينى بنفسه على جنايتى ! .. فأمرنى الوالى أن
أضى الى الخليفة فى دمشق ، وحذرنى مغبة أمرى ان توانيت أو هربت !

دخلت دمشق بعد رحلة طويلة شاقة ، وليس فى كيسي الا درهمسات
بقيت لى بعد المصادرة ، فوقفت عند مسجدتها فسألت أحد الخارجين من
الصلاة :

— من أخص الناس بأمير المؤمنين هنا ؟

قال :

— هؤلاء النفر من قريش من بنى عمه !

فسلمت عليهم وقلت

— يا فتيان .. هن فىكم من يضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟!

نظر بعضهم الى بعض ، وسمعت أحدهم يقول ضاح والله موعدنا مع
« برق الافق » ! ..

تناقلوا عن اجابتي ، على ما فيهم من كرم ، الا فتى منهم هزته أروعيته
العربية فقال : أنا أضيفك أيها الحجازى ! ..

ثم قال لاصحابه

- انطلقوا أنتم الى دار برق الافق ، وأنا اذهب مع ضيفي الى داري ..
قالوا

- لا .. بل تجيء أنت! وضيفك معنا ! ..
ذهبنا جميعا الى بيت برق الافق ، وهي مغنية في دمشق ، تفتنى في دارها جوارى مغنيات تبرهن لعلية القوم من بنى أمية ، فيتغنين لهم ويفرن بجوائز وهدايا وتفوز ربة الدار بنصيب الاسد ! ..
فلما أتوا بالفداء قلت لهم على استحياء :

- اني رجل اسود ، ولعل فيكم من لا يحب الاكل ممي ، فانا اجلس ناحية وأنناول طعامي ! ..

فلما فرغوا من تناول الطعام ، وفرغت أنا أيضا ، جىء بالشراب ، فشربوا وشربت ، ثم أخرجت « برق الافق » لنا جاريتين من جواريهما المغنيات ، فكانها أطلعت علينا قمرين مضيئين ، أو شمسين تبهران العيون .. فتحدثت هذا البيت

فقلت شمس أم مصاصيح بيعة
بدت لك خلف السجف ام أنت حالم

ففضبت احداهما وقالت

- يضرب هذا الاسود بنا الامثال ١٩

وقال لي بعض الحاضرين

- قم فانصرف فقد ثقلت علينا !

فلما تهيأت للقيام أمسك بي الرجل الذي أضافني وقال

- بل اقم معنا واحسن أدبك !

غنت احدى الجاريتين لحنا مشهورا من الحاني يتردد على حناجر المغنين والمغنيات من مكة الى المدينة الى دمشق ، فأساءت أداءه وكثر خطؤها حتى استغفرتني فوثبت قائلا

- أخطأت وأسأت !

فنظر القوم الى نظرا منكرا ، واعتذروا للجارية الفاضبة ، فلم تقبل اعتذارهم وامتنعت من الغناء ..

وغنت الجارية الاخرى لحنا من الحاني أيضا فاخطأت في بعض أقسامه ، ولكنها كانت أفضل من الجارية الاولى ، فقلت لها :

- أحسنت ، ولكنك لم تكمل احسانك ! ..

ثم اندفعت بتبر اذن منهم ، فغنيت هذا اللحن على وجهه الصحيح ، فوثبت الجارية تصيح

- هذا والله أبو عثمان سعيد بن مسجح ! ..

قالوا لها

- ومن أدراك !؟

قالت

- هذا الاحسان في الغناء لا يبلغه الا ابن مسجح ! ..

قلت :

- انى والله انا هو !

فالتفت القوم حولي وقد اكبروا شأنى ، فغنيت لهم الى آخر الليل ،
ثم سالوني عما أقدمنى الى دمشق فأخبرتهم ، فقال الرجل الذى أضاعنى
- انى أسمع غدا مع أمير المؤمنين ، وهو لا يسمع الغناء ، فهل تحسن
الحداء !؟

- نعم ! .. وان كنت لم أحد قافلة ولا جملا واحدا طوال حياتى !
ومضى صاحبنا من الغد الى عبد الملك بن مروان وحده عني ، وعن براعتى
فى الحداء .. فلما مثلت بين يديه حدثت :

انك يا معاذ يا ابن الفضل

ان زلزل الاقدام لم تزول

فقال عبد الملك لصاحبه القرشى

- ان حداءه لحسن ، فمن هو !؟

- رجل حجازى قدم قاصدا أمير المؤمنين !

- قال لى الخليفة

- هل تغنى غناء الركبان !؟

فغنيت له واستحسنه .. فقال

- هل تغنى الغناء المتقن !؟

فغنيت له بعض الحانى فاهتز الخليفة طربا وقال لى وهو يتفحصنى

- من أنت !؟ .. ان لك لقصة !

- نعم يا أمير المؤمنين أنا المظلوم الذى صودر ماله وأخرجته والى
مكة من وطنه ! .. أنا سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى

فتبسم عبد الملك وقال

- قد وضح الآن عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم !

وأمر لى بجائزة ، وكتب الى عامله فى مكة أن يرد الى أموالى ، وألا يتعرض
لى بسوء ! ..

فدائے مملکت و آلاء مملکت و آرزوی



و شریک است مملکت و آرزوی

وجه الباب

● اليوم الاول :

الناس يلقبوني « وجه الباب » وأنا لا أغضب من هذا اللقب ، أما اسمي فهو أشهر الاسماء في المدينة ومكة والحجاز والشام ، فانا « ابن سريج » أمير الغناء في عصرى هذا ، لا يبارئنى أحد ، حتى الذين سبقونى الى الغناء المتقن ، فان لهم فضلهم ، ولكنى زدت عليهم بما اخترعت وأضفت الى هذا الفن !

يتعجب الناس من العود الذى أضرب عليه وأغنى وفق نغماته ، وهو على مثال عيذان الفرس ، وقد رأيت مثله مع العمال العجم الذين قدم بهم عبد الله بن الزبير لاعادة بناء الكعبة بعد ان احترقت وتهدمت .. وأنا فى الضرب بالعود أشد حذقا من كل المطربين ، ولم يسبقنى أحد الى الاخذ عن غناء العجم الا ابن مسجح فى مكة وسائب خاثر فى المدينة ، ولكنى تقدمت عليهما .. ثم انتهى أمرهما وبقيت ! ..

اذا غنيت أسدلت قناعا على وجهى ، ذلك اننى أحول ، ولا أحب أن يرى الناس الحول فى عيني فانه يزداد حين أغنى ! ..

وأنا أحمر الوجه لان أبى كان مملوكا تركي الاصل ، نشأ عند سادته من بنى نوفل بن عبد مناف .. وعاش فى مكة ، وولدت له فيها ، ونشأت هناك وتكلمت بفصاحة قريش ، ورأيت أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأنا طفل ، وحضرت الفتن والقتال فى عهده وبعد عهده ..

اسمى « عبيد » .. وابى هو « سريج » وكان يكنى « أبا يحيى » واسم أمى « راتقة » ، ولا أصل لى فى مكة الا أبى وأمى ، وصناعتى هى التاج الذى أضعه فوق رأسى ! ..

مرت الايام فصار لى منافسون .. أما فى مكة فمعى مطرب ملحن قدیر اسمه « ابن محرز » .. وأما فى المدينة فان فن الغناء فيها قد انتهى الى اثنين بارعين أولهما « معبد » والآخر تلميذه « مالك بن أبى السمح » .

ويعترف الجميع لى بالسبق والاستاذية ، فان معبدا - على فضله وعلو قدره - اذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سريجي .. أى كانه « ابن سريج » فى احسانه وبراعته ! ..

وسمعت بعض المعجبين بى يقول

- ما خلق الله تعالى بعد داود عليه السلام أحسن صوتا من ابن سريج ،
ولا صاغ الله عز وجل أحدا أحذق بالغناء من ابن سريج ! ..

وقال لى آخر

- كأنك يا ابن سريج قد خلقت من كل قلب ، فانت تغنى لكل انسان
ما يشتهى قلبه ! ..

وأنا لم أبدأ حياتى مغنيا ، بل بدأتها نائحا ، يدعوني الناس لآنوح على
موانهم ، ثم أرسل الحاكم الفاسد يزيد بن معاوية جيشه الى الاندلس بقيادة
مسلم بن عقبة فقتل أهلها وأباحها لجنده ثلاثة أيام يفتكون فيها ويهتكون
كأنها من بلاد الكفار وهى مدينة رسول الله وموطن أصحابه من المهاجرين
والانصار !

فلما وقعت هذه الحادثة الفاجعة التى هزت الاسلام والمسلمين ، صعدت
جبل أبى قبيس فنحت بهذا البيت

يا عين جودى بالدموع السافح وابكى على قتلى قرش البطاح

فبكى الناس من اللوعة ، ونكا غنائى جراحهم ، وكان هذا أول شهرتى ،
وتقدمت على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف وغيرها ، وكانوا كثيرين ! ..

ثم بعثت سيدتى سكينه بنت الحسين الى دارى بمملوك لها اسمه
عبد الملك ، اعلمه النياحة ، فلم أزل اعلمه مدة ، ثم توفى عنها محمد بن
على الملقب « ابن الحنفية » ، وكنت عليلا علة صعبة فلم أقدر على النياحة
فى ماتم ، فانتدبت للنياحة مملوكها عبد الملك الذى تعلم على يدي ، فكان
نوحه عند سامعيه غاية فى الجود ، وقيل وقتئذ هذا نوح غريض ، فلقبوا
عبد الملك هذا بالغريض ، وقال لى بعض الناس يغيظنى :

- والله لقد ناح عبد الملك أجود نياحة ، حتى فضله الناس عليك ! ..

فحلقت الا أنوح بعد ذلك اليوم ، وتركت النوح الى الغناء .. وبدأ به
مجدى الحقيقى ، ولكن نفصنى ان « الغريض » أيضا عدل عن النياحة الى
الغناء ، فصارت بيننا منافسة ، وهو تلميذى ! .. ولكننى تفوقت عليه
وتقدمت عنه جميع الناس !

● اليوم الثانى :

لقيت الفقيه العظيم عطاء بن ابي رباح ، فى موضع بمكة وأنا ألبس
ثيابا مصبغة وفى يدي جرادة مشدودة الرجل الى خيط أطيرها به ثم أجذبها
كما يفعل الاطفال فى ألعابهم ، فقال لى الفقيه العالم الزاهد العظيم :

- يا فتان ! .. ألا تكف عما أنت عليه ؟ كفى الله الناس مؤثنتك !

قلت

- وما على الناس من تلوينى ثيابى ، ولعبي بجرادتى ١٩ ؟
قال :

- تفتنهم أغانيك الخبيثة ١٠٠ ؟
قلت له :

- سألتك بحق من تبعتهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
الاما سمعت منى بيتا من الشعر ، فان سمعت منكرا أمرتنى بالامساك عما
أنا فيه ٠٠ وأنا أقسم بالله لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالامساك عما
أنا عليه لأفعلن ذلك فلا أغنى أبدا ٠٠

فطمع الفقيه العظيم فى اقلاعى عن الغناء ، فقال لى
- اذن قل

فاندفعت أغنى فى شعر جرير :

ان الذين غلوا بلبسك غادروا
وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعنى عطاء بن أبى رباح - وهو الزاهد فى الدنيا وزخرفها -
أضطرب اضطرابا شديدا ، ودخلته أريحية ، وحلف ألا يكلم أحدا بقية يومه
الا بهذا الشعر ، وصار الى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه
سائلا عن حلال أو حرام أو خير من الأخبار ، لا يجيبه الا بأن يضرب يده على
الآخرى وينشد هذا الشعر ، حتى صلى المغرب ٠٠ ولم يعد بعد ذلك الى
التعرض لى فى أمر الغناء ٠٠

وقد أعجبني ذلك جدا ، فان ابن أبى رباح هو الفقيه الجليل الذى
سمعت متاديا فى موسم الحج ينادى بأمر الخليفة
- لا يفتى الناس فى الموسم الا عطاء بن أبى رباح ١٠٠ ؟

● اليوم الثالث :

حج يزيد بن عبد الملك فى هذه السنة بالناس - وهو لى عهد -
وخرجت مع الشاعر عمر بن أبى ربيعة على جملتين ملبسين بالدباج فجعل
عمر بن أبى ربيعة يتلقى الحاج ويتعرض للجملات من النساء كمادته التى
عرفها الناس الى أن أظلم الليل وطلع القمر فجلسنا على كتيب رمل مرتفع ،
واندفعت أغنى صوتا لى جديدا ، فطلع علينا رجل راكب فرسا فارها فسلم
علينا وقال لى :

- ايمكنك - أعزك الله - أن تعيد هذا الصوت ١٩ ؟

فأعدته عليه ، فقال لى

- بالله أنت ابن سريج ١٩ ؟

- نعم

- حياك الله !

والتفت الى عمر وسأله

- بالله أنت عمر بن أبى ربيعة ؟!

- نعم !

- حياك الله !

- فقال له عمر

- وانت فحياك الله ! .. قد عرفتنا فعرفنا نفسك ! ..

قال

- انا يزيد بن عبد الملك

فوثب اليه عمر فأعظمه ، ووثبت أنا فقبلت ركاياه ، فنزع حلته وخاتمه
فدفعهما الى ومضى يركض حتى لحق ثقله !

فدفعت الحلة والخاتم الى عمر وقلت له :

ان هذين بك أشبه ، وأنت بهما أحق ! ..

فأخذهما عمرو وأعطاني ثلاثمائة دينار ، وغدا فيهما الى المسجد الحرام ،
فعرّفهما كثير من الناس ، وجعلوا يتعجبون ويقولون

- كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه !

وعمر بن أبى ربيعة من أعطر الناس وأحسنهم هيئة ، وقد اتخذ بعيرا
عظيما مخضوبا بالحناء ، والرحل من فوقه يتضوأ بلون ذهبي .. ومع عمر
غلام يقود فرسا له أدهم أغر محجلا يسميه « الكوكب » فى عنقه طوق من
ذهب وأنا معهما أركب بغلة شقراء جميلة والناس يعجبون من حسن
هيئتنا ! ..

كذلك كنا فى موسم الحج ! .. فللة تلك الايام ! .. وشستان بينهما
وبين ايام كان يحكم فيها مكة عبد الله بن الزبير ، قبل هزيمته ومقتله وقيام
حكم بنى أمية فيها ..

فقد خرج ابن الزبير ليلة الى جبل أبى قبيس فسمع غناء ، فلما انصرف
وجده أصحابه مضطربا فقالوا ان بك لشرا ! .. قال انه ذاك ! ..
قالوا ما هو ؟! .. قال لقد سمعت من الجبل صوتا ان كان من الجن
انه لعجب .. وان كان من الانس فما انتهى منتهاه شيء ! ..

قالوا له انه ابن سريج !

فى تلك الايام كنت أجد القوت بصعوبة فقد منح ابن الزبير الفداء وحرمه ،
فكنت اذا أردت أن أغنى نفسى خلوت ليلا فى الجبل فغنيت وبكيت ! ..

● اليوم الرابع :

بعد ذهاب دولة ابن الزبير ، دعانى فتية من بنى أمية ، فدخلت اليهم
وأنا فى ثياب غلاظ جافية ، وهم فى ملابس الوشى يرفلون كأنهم الدنانير
الهرقلية تلمع فى الشمس ، فغنيتهم وأنا محتقر لنفسى قول الاحوص

دعى القلب لا يزدد خبالا من الذى

به منك أو دارى جواه المكتما

ومن كان لا يعدو هواه لسانه

فقد حل فى قلبى هواك وخيما

وليس بترويق اللسان وصوغه

ولكنه قد خالط اللحم والدم

فتضائل فتيان بنى أمية فى عينى لما داخلنى من الزهو بفنائى حتى
ساويتهم فى نفسى ، ورايتهم يعظموننى ويطربون ويتراضعون لى ، وظلمت
أغنيهم حتى رقصوا طربا ثم جلسوا بين يدى وخلعوا حللهم كلها حتى غطونى
بها ، فمثلت لى نفسى اننى الخليفة وأن أبناء الخلفاء هؤلاء هم بعض أتباعى ،
فلأنى التيه حتى خشيت أن أفتضح ! ..

ذكرت هذا اللقاء الذى مضت عليه سنوات طوال حين زارنى اليوم فى منزلى
بمكة بعض شبان بنى أمية قادمين من دمشق وكانوا قد سمعوا بالمدينة
مالكا ومعبدا فاعجبوا بهما .. فلما دخلوا بيتى وجدونى مريضا فقالوا :

– أتيننا مسلمين عليك ، وكنا نشتهي أن نسمع غناك !

– انى مريض كما ترون !

– ان الذى نكتفى منك به يسير !

فخجلت وأنا أعرف أقدار هؤلاء العلية من القوم أن أردهم ، فقلت
يا جارية هاتى جلبابى وعدوى ! .. فأتتنى الخادمة بهما ، وأسدت قناعا
على وجهى كما أفعل عادة عندما أغنى ، لقبح ما صار اليه وجهى بعد ما كبرت
منى وسقط شعر رأسى وازداد الحول فى عينى ..

فغنيت حتى اكتفوا ، وعدت أعتذر اليهم بمرضى ، فقالوا

– والله ما سمعنا قط أحسن مما أسمعنا ، فأحسن الله عليك ، ومسيح
مايك من العياء !

واجزلوا لى العطاء ، وانصرفوا يتعجبون مما سمعوا من غنائى على
ما بى من المرض !

فبلغنى انهم لما مروا بعد ذلك بالمدينة منصرفين الى الشام ، غناهم معبد
ومالك ، وكانوا قد طربوا لهما قبل أن يسمعا غنائى ، فلما سمعوا منهما
هذه المرة جعلوا لا يطربون ولا يستحسنون شيئا مما يقنيه معبد ومالك ،
فقال أهل المدينة لهم

- تحلف بالله انكم سمعتم ابن سريج فى مكة قبل قدومكم
قالوا :

- اجل سمعناه ، فسمعنا ما لم نسمع مثله قط ، ولقد نفص علينا
كل غناء نسمعه بعد غنائه مهما كان جميلا ! ..
تذكرت اللقاء الاول ..

وجاءنى خبر الاثر الذى تركه هذا اللقاء الثانى
واعجبتنى نفسى ، وان نفسى لتعجبني حتى اخاف أن يقتلنى الاعجاب
بالنفس ! ..



ابن الرومية

● اليوم الاول :

نشأت خلاسيا ، مديد القامة ، أحول .. أُمى بيضاء .. أبى اسود ، وأنا منهما بين الاسود والابيض كان أبى من الخدم الارقاء عند بعض أتباع الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وكانت أُمى جارية رومية بيضاء عنده ، زوجها لابی فجئت أحمل من لونه ولونها هذا المزيج الاسمر الذى يصفه بعض الناس بالجمال ، ويقولون لولا ان معبدا أحول ، شديد الحول لكان من أجمل الناس بلونه وامتداد قامته !

جئت الى الدنيا محكوما بالرق مثل أبى وأُمى ، فرعيت لسادتي اغنامهم وابلهم وأنا صغير ، وسافرت البلاد بتجارثهم وأنا كبير ، وعدت اليهم بارباحها ، ولم أربح منها الا شرف الخدمة !

كنت مع ذلك أختلف أحيانا الى المفتى الفارسى (نشييط) الذى كان يقيم بالمدينة المنورة ، فاتعلم منه شيئا ثم اجلس الى (سبائب خاثر) المفتى الحاذق ، مملوك عبد الله بن جعفر الهاشمى فأرى كيف يغنى ويصنع صنعته فى فن الغناء العربى ، وكان هذا الفن وقتئذ فى نشأته يرتفع ويتسع على أيدي أمثال نشييط وسبائب خاثر ، حتى أخذت منهما ما شئت من أسرار الصناعة واشتهرت بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت وصنعت الالحان فأجدت وتفوقت عليهما ، وصار لى فى ضرب العود واستنباط الالحان طريقة انفردت بها فتقدمت على أهل عصرى من عرفاء هذه الصناعة ..

كان الغناء العربى المتقن قد نشأ بمكة أيضا كما نشأ عندنا فى المدينة ، وشق طريقه ومهدته هناك العبقري ابن مسجح ، وسار على طريقته ابن سريج والغريز وغيرهما فتجاوبت أصداء فحول المفتين على الطريق بين العربيين ..

يقول الناس الآن : ليس فيمن يغنى بالمدينة ومكة والحجاز والشام ، أحد أعلم بالغناء من معبد ! ..

والحق انه لولا الاوائل الذين فتحوا لنا باب الغناء العربى المتقن ، ما بلغت فى هذه الصناعة شيئا .. وما زلت أذكر كيف كنت غلاما مملوكا لبعض موالى الخليفة معاوية وكانوا تجارا يكلفوننى برعاية تجارتهم ، فكنت

إذا تعبت أسندت رأسي إلى صخرة ، فاسمع وأنا نائم صسوتا يجرى في مسامعي ، فأقوم من النوم فأحكيه كإنى تلقنته وحفظته نائما ! ..

وسمعت مرة بعض من يحيون غنائي يقولون ان معبدا من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة وأحسنهم حنجرة وحلقا وهو فحل المثنى وامام أهل المدينة في الغناء ، لا يدانيه الا فحل المثنى وامام أهل مكة في الغناء « ابن سريج »

وسئل مالك بن أبي السمح وهو من أحسن المثنى أنت أحسن غناء أم معبد ؟ .. قال مالك والله ما بلغت قط شراك نعل معبد ! ..

ويعجبني الانصاف والصدق في القول ، وإن مالكا على تواضعه هذا لي ، لمن أحسن المثنى في المدينة ومكة وسائر الأمصار

● اليوم الثاني :

تعلمت مني الغناء جارية تدعى « ظبية » .. وجاء رجل من أهل العراق فاشتراها ثم علمت انه باعها في البصرة لرجل من أهل الأهواز فعاشت معه في منزله هناك وأعجبته كل الإعجاب وحفظت عنها جواريه أكثر الألحان التي تعلمتها مني .. وكانت كلما طارحتهن لحنا قالت لهن : هذا من صنعة أستاذي معبد فيقول لها سيدها لقد شوقتنا إلى رؤيته يا ظبية !

ثم ماتت ظبية وانقطعت عني أخبار هذا الرجل الذي لم أره قط ولا أعرفه

خرجت أخيرا من مكة أريد البصرة ، ثم بدا لي في البصرة أن أقصده الأهواز فنزلت في سفينة امتلأت بالجوارى وليس معهن الا رجل واحد هو صاحبهن ، وهن ملك يمينه ..

فلما صرنا في نهر « الأبله » أمر الرجل جواريه فغنن وسمعهن مليا وأنا ساكت ، حتى غنت احداهن لحنا من الحاني فغلطت فيه ، فصاحت بها يا جارية ، ان غناءك هذا ليس بمستقيم !

فغضب مولاها وقال لي

— صه ! .. ما شأنك أنت بالغناء ؟

فعدت إلى السكوت ، فغنت جارية أخرى لحنا لي من شعر عبد الرحمن ابن أبي بكر

بابنة الأزدي قلبي كئيب

مستهام عندها ما ينيب

ولقد لاموا فقلت : دعوني

ان من تهون عنه جيب

انما ابل عظامى وجسمى

حبها والحب شيء عجيب

فاختلت بعض أقسام اللحن فى حلق الجارية ، فقلت لها مغضيا

— يا جارية لقد أخللت بهذا الصوت ! ٠٠

فصاح الرجل

— ويلك ! ٠٠ ما أنت والغناء ! الا تكف عن هذا الفضول !؟

ثم غنت الجارية الثالثة لحنا لى فى قول كثير عزة

خليل عوجا فابكيا ساعة معى

على الربع نبلغ حاجة ونودع

وقولا لقلب قد سلا : راجع الهوى

وللعين : أذى من دموعك أو دعى

فلا عيش الا مثل عيش لنا مضى

مصيفا القنا فيه من بعد مريع

فقلت لها ما قلته لزميلتيها وبينت لها خطأها فوجدت صاحب
الجوارى يكاد يسيل سيفه ليقتلنى من شدة غيظه منى ، فاندفعت أغنى هذا
الصوت على وجهه الصحيح ، واجتهدت فى أدائه وتحفظت ، فصاحت
الجوارى وقد زلزلت السفينة عليهن وعلى صاحبهن طربا وعجبا ، وثب
الرجل فقبل رأسى ، وقال

— سيدى أخطانا عليك ولم نعرف موضعك وقدرك ، وأنا أعتذر اليك
ما جرى !

فقبلت اعتذاره وسألته

— ممن أخذت جواريك هذه الالحان !؟

— من جارية كانت لى ، وقد ماتت ، وكانت - رحبها الله - قد أخذت
هذه الالحان من « معبد » سيد مطربى المدينة

— اكان اسمها « طيبة » ؟؟

— نعم ! فمن أدراك !؟

— هى من تعليمى وتخريجى فانا معبد !؟

فاكب الرجل والجوارى على يدى ورجلى يقبلونها ويقولون

— كنتمنا نفسك طول الوقت حتى جفوناك فى المخاطبة ، واسأنا

عشرتكم ، وأنت سيدنا ومن كنا نتمنى على الله أن تلقاه ! ٠٠

ثم قام الرجل فجاءنى بخلمة من أفخر ملبسه ، وأعطانى ثلثمائة دينار
وهدايا وطيوباً ، وانحدرت معى فى السفينة الى الاهواز وأقمت فى منزله
أطارح جواربه الحانى حتى حفظنها وبرعن وصارت فيهن واحدة أو اثنتان

فى مثل براعة « طيبة » رحمها الله ! ..
كان أهل الحجاز طوال هذه المدة يسألون عنى ويبحثون حتى عدت اليهم
وقد انقضت شهور كثيرة ! ..

● اليوم الثالث :

جاء البريد من دمشق الى المدينة يطلبينى ..
قال لى صاحب البريد : ان أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، قال : لقد
اشتقت الى معبد ! ..
دخلت على أمير المؤمنين ، فاذا هو جالس عند بركة قد ملئت بماء ورد قد
خلط بمسك وزعفران فقال : غننى يا معبد :

لهفى على فتيه دان الزمان لهم
فما يصيبهم الا بما شاءوا
مازال يعلو عليهم ريب دهرهم
حتى تقانوا وريب الدهر عدا

فما غنيت اللحن ، حتى نزع ثيابه وألقى نفسه فى بركة ماء الورد
والمسك والزعفران ، ففاص فيها ، ثم خرج منها ، فاستقبلته الجوارى
بثياب غير الثياب الاولى ..
ثم شرب وسقانى من ابريق ، وقال : غننى يا معبد :

يا ربع مالك لا تجيب متيما
قد عاج نحوك زائرا ومسلما
جادتك كل سحابة عطالة
حتى ترى عن زهرة متبسما
لو كنت تدرى من دعاك اجبت
وبكيت من حرق عليه افن دما

فغنيت اللحن واجتهدت فى غنائه بملء صوتى واحساسى ، فرأيتنه قد
أخذته رعدة الطرب ، فألقى نفسه بثيابه فى البركة ففاص فيها ثم خرج ،
فنزعت الجوارى ثيابه وألبسته غيرها ، ثم شرب قدحا وسقانى ، وقال لى :
- بحياتى غننى :

عجبت لما أدتنى
انذب الربع المحيلا
واقفا فى الدار أبكى
لا أرى الا الطللولا
كلما قلت اطمأنت
دارهم فالوا : الرحيلا

فلما غنيته وثب في البركة ثم خرج يرتعد ، لا أدري أمن الطرب أم من
برد أصابه لكثرة ما رمى بنفسه في الماء ، فجاءت الجوارى بالمجامر والبخور
حتى سرى فيه الدفء فسكن وشرب قدحا وسقاني ! ..

وانتشى الوليد ، وبأن في وجهه السرور بى في ذلك اليوم ، وقال لى
مبتهجا مبتسما :

— يا معبد سررتنى ، وأسمعتنى شيئا لم أسمع من خلق مضى ولا مغنية ،
ولا أظن انى أسمع مثله أبدا ..

ثم دعا بخمسة عشر ألف دينار فصحبها ذهباً نضارا يبرق بين يدى ..
وقال :

— يا معبد .. من اراد أن يزداد عندنا حظوة فليكنتم الاسرار !
قلت :

— ذلك ما لا يحتاج سيدى الى ايصالى به ! ..

● اليوم الرابع :

تمضى الايام ، وتزحف الشيخوخة على جسدى كله ، وبخاصة حنجرتى
وحلقى ، فانا الان أكاد أعجز عن الغناء وهو حياتى ! ..

أصابنى الفالج ، أرتعشت أوصالى .. بطل صوتى .. صار من كان
يطرب لى ، يهزأ بى ويضحك اذا حاولت أن أنطق حرفا ..

أمر أمير المؤمنين الوليد بن يزيد بحملى اليه حين سمع بحالى ، وقال لى :
— لو كانت الصحة والعافية مما يمكن شراؤه ، لاشتريتهما لك
بالتفاس ! ..

وانزلنى أمير المؤمنين فى قصره ، لتعتنى بى الجارية المغنية الحاذقة
سلامة القس التى تعيش هناك منذ اشتراها أبوه الخليفة يزيد بن عبد الملك
هى وزميلتها « حبابة » التى توفيت منذ بضعة وعشرين عاما ..

وقفت سلامة على سريرى تبكى وتغنى بصوت خافت لحنا لى تندبنى به
والموت يحوم على سريرى :

قد لعمسرى بت لى

كاخى الداء الوجيع

ونجى الهيم منى

بات أدنى من فجيى

كلما ابصرت ديفى

خاليا فاظت دموعى

قد خلا من سيد كان

لنا غير مضيع

ففاضت دموعي حزنا وطربا وأنا على قيد أنملة من الموت .. ورأيت الخليفة
وبعض اخوته قد تجردوا في قمصانهم وأرديتهم الخفيفة يحفون بسريري !
وما أبالي أن ياخذني الموت بعد ساعة أو بعض ساعة ، فقد أخذت نصيبي
من الدنيا ، وما فرطت في أمر الآخرة من شيء ! ..
الموت يزحف ، وسلامة تفنى وتبكي .. والخليفة مشغور في أمري ،
يريد أن يخرجني بنفسه الى موضع قبري ، تكريما لي ! .. فالحمد لله
أولا وآخر ! ..



بطة الأفراح

● اليوم الاول :

نشأت في (الحيرة) من أرض العراق ٠٠ منزلي الآن بمدينة الكوفة ، وأهل من قدماء العرب سكان هذا الاقليم منذ الجاهلية ، عاشوا فيه تحت حكم (المناذرة) ملوك الحيرة المشهورين ، حتى جاء الاسلام فدخل فيه أكثر أهل الحيرة مع أكثر أهل العراق ، وبقي على دينهم القديم أناس ٠٠

في صباى الباكر كنت خفيفا رشيقا حسن المنظر ، ابيع الفساکهة والرياحين ، أحملها الى قصور الامراء والكبراء فى الكوفة ، فيأذنون لى أن أستمع عندهم الى جوارهم المغنيات اللاتى جلبن من الحجاز والشام ٠٠ ولا يتردوننى لما عرفوا عنى من خفة الروح واللباقة والهيام بالغناء حتى لاستغنى به عن الطعام والشراب وكل لذائذ الحياة ٠٠ ويسمحون لى - فى عطف بالغ - بالوقوف قرب مجالسهم أصيخ الى المغنيات ، حتى حفظت الكثير من الألحان ٠٠ وكنت منذ صباى مطبوعا على الغناء ، حسن الصوت ، سريع الحفظ ، فاشتريت عودا وتعلمت الضرب عليه ٠٠ ثم أردت الزيادة من العلم بالغناء فرحلت الى بعض نواحي الحجاز وأخذت من أهل هذه الصناعة كثيرا من أسرار صناعتهم حتى دخلت فى الصنعة وأحكمتها ٠٠ وصرت وحدي مطرب العراق كله ، فليس فى العراق غيرة من الكوفة الى البصرة الى النجف ٠٠ الى شرقه وغربه ، الا بعض الضعفاء ممن لا يؤبه لهم فى هذه الصناعة ولا يطلبهم أحد من الكبراء وأهل الثراء ٠٠

ومع صناعة الغناء ، لم أنقطع عن عمل آخر لى ، فاني أكرى الايل الى الشام وغيرها ، وكنت دائما جمالا نشيطا ، لان صناعة الغناء كانت تكسب فى العراق أحيانا ، حين يجرى البنا أمير لا يحب الغناء فيأمر بمنعه ! ٠٠

وأنا أتنقل بين الكوفة والحيرة والنجف والبصرة ، أحمل عودى وأرتزق وما أصعب الارتزاق بالغناء فى العراق ! ٠٠

يقول الناس ان مطربي الحجاز يكسبون عشرات الالوف من الدراهم فى سهرة واحدة ٠٠ واذا طلبهم الخليفة فى دمشق انفتح لهم باب الثراء ! ٠٠ وأين أنا من ابن سريج ومعبد والفريض ومالك ابن أبى السمح وابن عائشة وحكم الوادى وغيرهم ممن سمعنا عن ثرائهم ١٩ ٠٠

هؤلاء أغناهم عملهم بين مكة والمدينة ودمشق ، ولم يكسب بينهم الا

(ابن محرز) على تفوقه فى الغناء والتلحين ، لانه منزول فى بيته لا يقصد
الناس الا قليلا ٠٠

وقد جاء ابن محرز أخيرا الى الكوفة قاصدا أميرها ، فتلطفت له حتى
دعوته الى منزلى وغنيته لحنى :

أنا حنين ومنزلى النجف

وما نديمى الا الفتى القصف

اقصرع بالكاس ثغر باطية

متسرعة تارة واغتصوف

من قهوة باكر التجار بها

بيت يهود قراها الخسوف

والعشى غضى ومنزلى خصب

لم تغدنى شقوة ولا عنف

فلما سمعنى ابن محرز وهو البصير بالغناء ، قال لى :
— أحسنت يا حنين والله ، ولم تبق شيئا جميلا لم تأت به ، من الشعر
الى اللحن ! ٠٠

فشكرته وسألته أن يسمعنى بعض غنائه ، فغنائى هذا اللحن :

وحر الزبرجد فى نظمه

على واضح الليث ذان العقودا

يفصل ياقوته دره

وكالجمر ابصرت فيه الغريلا

فسمعت من غنائه ما هالنى وحيرنى ، وأذهلنى تلحينه وجمال حنجرته ،
فخشيت أن يسمعه الأمير ثم يسمعه الناس فيستولوا عليهم بروعة غنائه
ويسقط غنائى وتبور بضاعتى ٠٠ فقلت له :

— كم تمنيت من المال حين فارقت بلدك قاصدا العراق !؟ ٠٠

— ألف دينار ! ٠٠

— فانك لا تجمع هذه الدنانير كلها الا بعد أن تغنى بضعة أشهر فى
فى العراق ، ولك منى هذه الدنانير الخمسمائة فخذها عاجلة ضربة واحدة
تملا بها كيسك ، وانصرف راشدا الى بلدك ! ٠٠ ثم احلف لى انك لا تعود
الى العراق مرة أخرى فانه مورد رزقى ، ولك فى الحجاز والشام متسع !

أخذ ابن محرز ما أعطيته وانصرف ٠٠ ولو أعطيته أقل من ذلك لرضى به
لانه لا يجب معاشره الملوك ولا السعى الى الناس ، ولا يؤثر على الخسوة
شيئا ! ٠٠

● اليوم الثاني :

جاء الى الكوفة أمير جديد اسمه خالد بن عبد الله القسري ، فأبطل
الفناء بالعراق كله ، فصرّت لا أستطيع الفناء عند أحد من الناس ، حتى
ساعات حال وانقطعت كارها الى صناعتي الأولى ، أكرى الأبل بين المراق
والشام .. وهي صناعة لا يكفيني رزقها ..

انتظرت طويلا ، فلم يرحل عنا هذا الأمير كانما خلت الدولة الاموية من
الامراء فلا ترسل اليها بأمير آخر يكون له رأى حسن في الفناء وأهل
صناعته ! ..

فلما طال الانتظار ، وساءت الحال ، وأحوجت الخاصة ، دخلت اليه
يوما مع عامة الناس حين أذن لهم بالدخول ، ومعى العود أخبته في ثيابي ،
فقلت له :

- أصلح الله الأمير .. كانت لي صناعة أعود بها على عيالي ، فحرمها
الأمير فأضر ذلك بهم وبى ! ..
قال الأمير :

- وما صناعتك ؟ ..

فكشفت عن عودى وقلت : هذا ! ..

فعبس الأمير فظننت أنه سيامر بقتلى أو سجنى ، ولكنه قال لي وقد زال
عبوسه :

- غن ! ..

فحركت أوتار عودى وأنا أقول في نفسى : « هذا رجل صالح يحب من
يعظه ويذكره بالموت والآخرة » .. ثم غنيت في هذا المعنى :

أيها الشامت المعير بالدهر

أنت المبرا الموقر

أم لديك العهد الوثيق من الايام

بل انت جاعل مفرود

من رايت المنون خللن أم من

ذا عليه من أن يضام خفير

فبكى الأميرهما ورد عليه من الاتعاض بذكر الموت في هذا الفناء ، ولا أظنه
طرب لغنائي أو التفت الى لحنى .. ثم قال لي :

- قد أذنت لك وحدك خاصة بالفناء .. فلا تجالس سفيها ولا معريدا
في غنائك ! ..

قلت :

- نعم .. أصلح الله الأمير ! ..

ومضيت فرحا فقد. فتح الأمير من جديد باب الرزق لي وكأنه يظن اني سأغني الناس عن « الموت » كما غنيته هو ، وأنتى سأجلس في أفراحهم أضرب العود وأغني بالمواظ بينما العروس في الجلوة ، والناس يضجون بالسرور .

● اليوم الثالث :

نقل الخليفة أميرنا خالدا القسرى ، وجاءنا غيره ، فلم يكذب يجلس في دار الامارة بالكوفة حتى سأل عنى ، فأسرعت اليه أقول له : لبيك سيدي ! وكنا ليلة في سهرة عند هذا الأمير ، فإذا حاجبه يدخل ويقول له ان الفقيه العظيم « الشعبي » يطلب الاذن بالدخول ، فأشار عليه بعض الحاضرين ان يعتذر له من عدم لقائه في هذه الساعة من الليل ، حتى لا يرى ما نحن فيه من الغناء ..

ولكن الأمير اذن للفقيه الامام الشعبي فدخل .. وقال له الأمير :
- يا أبا عمرو .. لو كان غيرك لم آذن له ونحن على هذه الحال ! ..
قال الشعبي في ذكائه ولباقته وحلاوة منطقته المأثور عنه :
- أصلح الله الأمير ، عندى لك الستر لكل ما أرى منك ، والشكر على ما تولينى ان شاء الله .
- كذاك الظن بك يا أبا عمرو .. وأنت أنت ! ..

ثم التفت الشعبي نحوى فتضاءلت وانكشيت كأننى أريد أن أختبئ منه ولو فى جوف عودى ! .. فابتسم وقال لى :
- كيف أنت يا أبا كعب ؟ ..
قلت :

- بخير يا سيدي أبا عمرو ! ..
قال لى :
- أحزق الزير فى عودك وأرخ البهم ، فذلك أفضل لنفمة هذين الوترين !
ففعلت ذلك ، وضربت فوجدت نفمة العود أحلى ، فقال الأمير لاصحابه هامسا :

تلمونننى على أن آذن لهذا الشيخ الجليل بالدخول فى كل حال ؟ ..
ثم أقبل الأمير على الشيخ الامام الشعبي قائلا :
- يا أبا عمرو .. من أين عرفت حزق الزير وارشاء البهم فى أوتار العود؟!
قال الشعبي باسمه
- ظننت ان الامر هناك ! ..
قال الأمير :

— فان الامر كما ظننت هناك كله ! •

ثم قال له الامير غامزا بعينه :

— فمن أين عرفت حينئذ !؟ •••

فالتفت الى الشعبي وقال :

— هذا بطة أعراسنا وأفراحنا فكيف لا أعرفه !؟

فضحك الامير وجلساؤه ، وغنيت فأجدت وأطربتهم ورأيت الشعبي ينصت منبسط الاسارير ، وأعجبني جدا انه قال عنى : هذا بطة أفراحنا •
أمر لى الامير بجائزة كبيرة •• وكانت ليلة لم أر مثلها ، ولا استتمعت بشيء فى الدنيا أمتع منها ، لوجود الشعبي فيها ، وهو من هو بين الناس ، خاصتهم وعامتهم •••

● اليوم الرابع :

اجتاز أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك الكوفة فى طريقه الى الحج ، فوقفت له فى بعض الطرقات ومعى عودى والى جانبيه زامر يزمر لى ، وأنا أغنى :

امن سلمى يظهر الكوفة

الآيات والطلل

يلوح كما تلوح على

جفون الصيقل الخلل

فقال هشام لمن معه :

— من هذان !؟ ••

قالوا :

— حنين المغنى وزامره ! ••

فأمر بى وبالزامر فحملنا فى محمل على جمل ، وسار بنا ، فغنيت وهشام يسمع •

صاح هل ابصرت بالغبتين

من اسماء نارا

موهنا شميت لعينيك

ولم توقد نهسا

كتلال البرق فى المزن

اذا البرق استطارا

اذكرتنى الوصل من سعدى

واياما قصارا

فلم ازل أغنى لهشام حتى نزل ، فأمر لى بمائتى دينار ، وللزاهر بمثلها !
وكانت عطية قليلة ، فان بعض الامراء يعطون المغنين أضعافها ، ومع ذلك
حسدنى بعض الناس وقالوا لى :

— أنت تفنى منذ خمسين سنة ، ما تركت لكبير من الكبراء مالا ولا دارا
ولا عقارا الا أتيت عليه ! ..

قلت لهم :

— بابى أنتم ! .. اما هذه أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفتلوموننى ان
أغلى بها الثمن ؟! ..

● اليوم الخامس :

جاءتنى دعوة من ابن سريج ومعبد والغريص أن أزورهم فى الحجاز ،
فخرجت اليهم ، فلما كنت على مرحلة من المدينة جاءوا مع جمبع عاقل
يتلقوننى ، وذهبوا بى الى منزل السيدة سكينه بنت الحسين ، فلما دخلنا
أذنت للناس كلهم أن يدخلوا فقصت بهم الدار وصعدوا فوق السطح ، ثم
سألونى أن أغنى لحنى الذى أوله : « هلا بكيت على الشباب الداهب » ..
فغنيتهم وازدحم الناس على السطح ليسمعونى فسقط الرواق على من تحته
فسلموا جميعا وخرجوا أصحاء ! .. الا أنا فقد تهشمت عظامى ! ..

وسمعت سكينه بنت الحسين تقول :

— لقد انتظرنا حنينا مدة طويلة كأننا والله كنا نسوقه الى الموت ! ..

وأرانى لا بد ميتا ، فانى أشعر بالموت يتمشى فى جسدى علوا وسفلا ! ..
وأرى بعينى شبح الموت ! ..

غلام من اليمن

● اليوم الاول :

أول ما عرفت قسوة الدنيا كنت غلاما صغيرا ، هاجرت من بلدى فى اليمن مع أمى واخوتى واخوانى الايتام ، لا نملك شيئا ، قد أجديت أرضنا ، وأخذ الجوع يخنقنا .. فنزلنا « المدينة » وهى يومئذ مزدهرة بأهلها الامائل الذين كثر فى أيديهم المال مما يفرهم من أعطيات الخلفاء ، وصاروا مضرب الامثال فى التغنم والرفاهة وطيب العيش ! ..

أويننا الى خص على مشارف المدينة المنورة ، وقالت لى أمى :

— اذهب يا مالك فاسأل الناس ، فانهم متى رأوا يؤسك أشفقوا عليك وأعطوك مما أعطاهم الله ! ..

فكنت قليلا ما أسأل الناس ، الا على مقربة من دار بعض أحفاد عبد الله ابن الزبير ، فسمعت يوما صوتا عجا ينبعث من هذه الدار ، فوقفت على بابها أتسمع ، فاذا غناء لم أسمع مثله قط ، سألت بعض خدم الدار عنه فقالوا لى : هذا « معبد » أشهر المغنين فى المدينة ! ..

صار دأبى بعد ذلك الا أسأل الناس احسانا الا وأنا واقف على باب هذه الدار التى ينبعث منها غناء « معبد » كل ليلة تقريبا .. فاذا عدت الى أمى واخوتى الجياع ، لم أعد الا بقليل من الزاد لا يشبعهم ، فتقول لى أمى غاضبة :

— كأنك لا تطوف بالمدينة ولا تطلب من أحد شيئا ، ول تقف فى مكان واحد لا تريم ، فمن مراك وأعطاك أخذت منه ، ومن منعك لم تلحف عليه فى السؤال ، والناس لا يعطون الا لمن يسألهم الحافا ..

قلت لأمى :

— هو ذاك والله ! .. وإنى يا أماء لمشغول البال بما هو أجدى علينا من استجداء الناس ! ..

قالت غاضبة

— وأى شيء أجدى علينا من أن تنشيط فى السؤال فى كل مكان بالمدينة ؟ .. وماذا يشغلك أيها الاحمق الجاهل عن طلب الديش لاختوتك الصغار الجياع المساكين ؟ ! ..

قلت لها :

- غناء أسمعه من دار بعض آل الزبير بن العوام ، لا يتعلق به أحد من
المفنين في المدينة كلها ! ٠٠

فلطمت أمي خديها وصاحت :

- اخوتك واخواتك يقتلهم الجوع وأنت واقف على باب أولئك السادة
تسمع الغناء ؟ ٠٠ أية مصيبة يا ربى حلت بنا من حماقة هذا الغلام وبلادة
حسه ؟ ٠٠

● اليوم الثاني :

ضربتني أمي ضربا مبرحا لاني لم أكتسب شيئا أمس ، ولكني لا أبرح
موضعي على باب آل الزبير ، استمع الى معبد ، فاحفظ ألحانه ، ولا أنبئ
كلمات الشعر الذي يفتنيه ، فاكتفى بحفظ النغمات دون الكلمات ، فاذا رددت
اللحن مترنما كان لحننا خالصا لا أعرف له كلاما ! ٠٠

واليوم رآني صاحب الدار واقفا عند بابه كعادتي كل يوم وليلة فقال لي :

- اظنك تقف على بابي لتسمع غناء معبد ؟ ٠

- نعم يا سيدي ! ٠٠

- من أنت ؟ ٠٠

- غلام من اليمن ، اسمي مالك بن أبي السمع أصابنا الجذب فجلت المدينة
ومعي أمي واخواتي واخوتي الصغار ، وأنا أسأل الناس لهم ، وقد لزمت
باب دارك ، أسمع معبدا وأسأل الناس ! ٠

- فكيف وجلت ملازمتك لبائنا ؟ ٠٠

- أما الغناء الذي أسمعه فلا شيء مثله ، وأما العيش فوالله ما شجبت
على بابك شبة قط ، ولا انقلبت منه الى أهلي بخير ! ٠٠

جزع الرجل وتجهم ، وأمر لي ولأمي واخوتي بمنزل ورزق يجرى علينا
وكسوة ، وخادم يخدمنا ، وعبه يحمل إلينا الماء ! ٠٠ وقال لي :

... هل تستطيع أن تغني شيئا مما سمعت ؟ ٠٠

كان معبد قد حضر كعادته ، فجلس يسمعي وأنا أترنم بألحانه دون
كلمات ، فاديتها كلها بما فيها من نبراته وتعليقاته وصيحاته وقراراته
وعطفاته ومداته ولياته ، نغمة نغمة ٠٠ حتى رأيت الدهشة في وجه معبد
كما رأيته في وجه النبيل الزبيري الذي أدخلني داره بعد أن وقفت على بابها
أياما وليالي !

قال الرجل لمعبد :

- خذ هذا الغلام فخرجه وأطلععه على أسرار الغناء ، فاذا عرفه الناس يوما ،

كانت محاسنه منسوبة اليك وقالوا : هذا خريج معبد وتلميذه ! ٠٠

● اليوم الثالث :

مضت مدة منذ اجلسنى معبد لاول مرة يطارحنى الالحان ويعلمنى ، وقد مهرت وحذقت حتى ادهشت معبدا بحذقى ومهارتى ٠٠ ووجدنى معبد اقلعه فى التلحين ، فنصحنى الا افعل ذلك ، ولكنى لم انتصح ، وصرت الحن على طريقته ، فاذا سمعنى الناس قالوا : هذه الحان معبد ، فاقول لهم : بل الحانى ! ٠٠

غضب معبد وذهب الى صديقه الزيرى وقال له :

— هذا الغلام قد عرف طريقتى وادعاها لنفسه ، وهو يتزايد على الايام لانه ما زال شابا ، وأنا اشيخ واطف ، ويجف حلقى ، ويتغير صوتى حتى يتجافانى من كان يشتهى سماعى ! ٠

قال له يواسيه :

— سيقول الناس انك عوضتهم من نفسك بهذا الغلام الذى يجوى فى نهجك !

قال معبد وهو منكسر :

— صدقت أيها الامير !

فامر الرجل لمعبد بجائزة وكسوة حتى طابت نفسه ، وقمت انا الى معبد فقبلت رأسه ، وقلت له :

يا ابا عباد ٠٠ اساءك منى هذا الغناء الذى أجرى فيه على طريقتك !؟ ٠٠ والله لا أغنى لنفسى شيئا أبدا الا نسبته اليك وقلت للناس : هذا من صنعة معبد ٠٠ فطب نفسا وارض عنى !

قال معبد :

— اوتفعل هذا ، وتفى به يا مالك بن أبى السمع !؟ ٠٠

قلت :

— أى والله وأزيد عليه ان شئت ! ٠٠

قال معبد :

— ان رأيت ألا تفعل ذلك كان أقرب الى العدل ، فانك أحق بشمرة عملك !

● اليوم الرابع :

سافرت الى مكة أغنى عند بعض نبلائها من قريش ، فنزلت بدار صديق لى ، فسمعت غناء من غلام يشتغل حائكا عنده ، فقلت للغلام : أعلم علينا هذا الغناء ، فغناه حتى حفظت اللحن فأخذته ووجدت كلامه ردينا فاخترت له شعرا جيدا والبسته هذا اللحن فصار جميلا رائعا ، وغنيته للناس فرأيتهم

يقولون : هذا لحن مالك ، ووالله ما هو الا ما سمعته من ذلك الحائك ولا
أدرى من أين وقع له ، ولعله من فطرته وطبعه في الغناء ! ..
افتتن الناس هنا بغنائي حتى مدحني شاعر منهم فقال :

لاعيش الا بمالك بن أبي السمع
فلا تلحنى ولا تلم !
ابيض كالبنر أو كما يلمع البارق
في حالك من الظلم
من ليس يعصيك ان رشلت ولا
يهتك حق الاسلام والحرم
يارب ليل لنا كحاشية البرد
ويوم كذاك لم يدم
نعمت فيه ومالك بن أبي السمع
الكريم الاخلاق والشيم

صنعت في هذا الشعر الجميل لحننا طرب له الناس ، وربحت في هذا
اللحن ثناء الشاعر وثناء كل من سمع الشعر واللحن ! ..
وقال لي أحد العارفين بصناعة الغناء :

— يا أبا الفضل .. ان الناس ينسبون الحانك الى معبد ، فما تقول ؟ ..
— اني أخذ الحانته فأحسنها وأهيئها فينسبها الناس لي ..
— ليس الامر كذلك والله يا أبا الفضل ولكنك تقي المعبد بما وعدته حين
كان يملك الغناء ، من نسبك ألحانك اليه عرفانا بجميله ! ..
— أترى ذلك ؟!

— نعم ، فان لك صنعة كثيرة حسنة ، تجرى في أسلوب واحد ، ويشبه
بعضها بعضا ، ولو كنت تدعى الالحان لاختلف غناؤك .. وقد سمعنا
لحنك : « لاعيش الا بمالك بن أبي السمع » .. فهل هذا أيضا من تلحين
معبد ؟! ..

فلم أحر جوابا ولزمت الصمت ! ..

● اليوم الغامس :

أشخصني أمير المؤمنين الوليد بن يزيد اليه في دمشق ، فغنيت له أول
مرة فلم يعجبه غنائي واحتبس صوتي تهيبا له ، فلما خرجت من حضرته
قيل له :

— يا أمير المؤمنين ان هذا المغنى قد هابك فاحتبس لسانه فأبعت اليه مرة
أخرى ..

فلما أرسل يطلبني ، وقفت قبل دخولي مجلسه في دهليز بالقصر ، فقلت

للفراش : اسقنى قدحا من شراب ولك دينار ، فسقانى وأخذ الدينار ، ثم
وأدنى قدحين آخرين وأخذ دينارين أيضا ٠٠ حتى انتشيت ودخلت على الوليد
ابن يزيد أخطر فى مشيتى فلم أسلم عليه وأخفت بحلقة الباب ففقتها ، ثم
رفعت صوتى فغنيت :

لا عيش الا بمالك ابن أبى السمح
فلا تلجنى ولا تلم ! ٠٠

فطرب الوليد ، ورفع يديه ، حتى بدا ابطاه ، وقام فاعتنقنى وقال لى :
ادن يا ابن أخى ٠٠ وأمرنى فأعدت اللحن مرات ، وهو يزداد طربا ، وأجزل
صلى ٠٠

ثم غنى المطرب القدير ابن عائشة ، فازداد طرب الوليد ، وهو يفضل
ابن عائشة على غيره من المغنين ويقول ان غناؤه يتركه كأنه يتقلب على الجمر
من فرط حرارته ! ٠٠

وابن عائشة يظن نفسه أعقل الناس ويتهمنى بالحق ، وما الحق الا فى
رأسه هو ! ٠٠

فبينما نحن فى سرور عند أمير المؤمنين الوليد وقد فرغنا من الغناء وفرنا
بالجوائز ، هجم على القصر جماعة الثائرين على أمير المؤمنين ممن يتهمونهم
بشتى التهم ، وأولها انشغاله بالغناء والنساء والشراب وتبذيره فى أموال
الدولة وتبديدها فى لذاته ! ٠٠

ولما رأيت السيوف مصلنة فى أيديهم تريد رأس الوليد النفث الى ابن
عائشة فقال لى :

— اثبت بنا فى مكاننا فان هؤلاء لا يقصدوننا !
قلت له :

— بل اهرب بنا أيها الغبى المتعاقل !

فجادلنى فى ذلك الموقف الضنك وقال لى : لماذا نهرب نحن ، وماذا يريدون
من أمثالنا !؟ ٠٠

قلت له وقد نفذ صبرى وملانى الخوف والسيوف تقترب :

— لو أخذوا رأسينا لجعلوا بينهما رأس الوليد ، ثم جمعوا الناس وقالوا
لهم تحسينا لفضلهم : أمسكنا بهذا الفاسق ، ومعهم هذان الفاسقان يفتنيانه
ويشربان فى مجلسه ٠٠ فجمعنا رءوس الثلاثة ! ٠٠ فيكون قولهم هذا
تبريرا وتحسينا لامرهم عند العامة ! ٠٠

فرايت ابن عائشة قد فهم كلامى ، وجرينا كنرسى رهان فى دهايز القصر
حتى خرجنا ونحن لا نصدق اننا نجونا ! ٠٠

قال لى ابن عائشة وقد ابتعدنا عن دمشق وأخذنا طريقنا الى الحجاز :

— ما رأيت منك عقلا ولا حكمة قط الا فى ذلك اليوم ! ٠٠ فلو بقينا مع

الوليد ، لرفع القتلة على رماحهم ثلاثة رؤوس لا رأسا واحدا ! .

● اليوس السادس :

تمضى الايام .. يتناقص صوتى ويجف حلقى كما حدث لمعبد وغيره من
شيوخ المطربين ! ..

مررت امس بفتية من قريش جلوسا فسألوني ان اغنيهم فاعتذرت بذهاب
صوتى وضيق انفاسى ، فقالوا : يكنينا منك القنيل ! .. فرفعت صوتى فلم
أقدر ، ثم خفضته فلم أقدر ، فبكيت وجعلت أصيح : واشباباه ! ..

ضعف بصرى فصرت كفيفا ، فبينما أنا فى الحمام الكبير بالمدينة ، وصاحب
الحمام يدعك جسدى وينظفه ، سمعت حس انسان بجانبى يقول لى : يا عماء
.. من أحسن الناس غناء ؟!

قلت له : كم بلغت من السن أيها الفتى ؟

قال : عشرين سنة ! ..

فبكيت وصحت بما تبقى فى صررتى :

— واشباباه !



الزرقاء تلنقط اللؤلؤتين

● اليوم الاول :

تحدث الكوفة كلها عنى الآن ، ويقول ظرفاؤها وعشاق الجمال فيها :
ما على وجه الارض مثل سلامة الزرقاء ، حسنا وحلاوة ورقة وبراعة فى
الغناء ، فلا يلحقها الوصف فى ضرب من ضروب جمالها وفتفتها !

وافتنن بى محمد بن الاشعث الكاتب الكوفى ، فقال هذه الابيات التى
ملأت الكوفة وسارت بها الركبان الى مكة والمدينة ودمشق والبصرة :

امسى لسلامة الزرقاء فى كبدي
صدع هقيم طوال الدهر والابد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه
وكيف يشعب صدع الحب فى الكبد
الا بوصل التى من حبها انصدعت
تلك الصلوع من الاسقام والكمد

وقد صنعت لحننا فى البيت الثانى من هذه الابيات وغنيتها محمد بن الاشعث
فصاح وقد تملكه الوجد والطرب :

- كيف يشعب صدع الحب فى كبدي يا سلامة !؟ .. كيف يشعب صدع
الحب !؟ ..

وأنا مع ذلك غير سعيدة فى حياتى ، فما أنا الا جارية فى دار عبد الملك
ابن رامين تاجر الجوارى فى الكوفة ، ومعى جارتان جميلتان تحسان الغناء
هما « ربيعة » و « سمدة » وعدد من الوصائف ..

وأغنياء الكوفة وأهل الشرف والوجاهة يدخلون دار ابن رامين ويخرجون
.. يسمعون جواريه يغنين أو يتحدثن .. وهو يبيع الوصائف الجميلات
ولكنه يحتفظ بى وبزميلتى ربيعة وسمدة ، ليجمع المال من هؤلاء الوجهاء
الكرام بعد غنائنا بين أيديهم ..

وأمس اجتمع غنيدنا معن بن زائدة وروح بن حاتم وعبد الله بن المقفع
وبعض ذوى الرئاسة فى الكوفة من رجال الدولة الاموية ، فقال لى سيدى
ابن رامين :

- يا زرقاء .. غنى ..

اية حال يا ابن رامين

حال المعجين المساكين

فغنيت هذا الصوت ، ورددته مرارا حتى استبد الطرب بالقوم ، فقام معن بن زائدة فصوب بين يدي عشرة آلاف درهم ، ثم قام روح بن حاتم فصوب مثلها .. ولم يكن في يد ابن المقفع ساعتئذ مال ، فأخرج صك ضيعة له وقال لي : هذه ضيعة لي خذيها ، فليس عندي من الدراهم شيء يصلح لك ! ..

فلما انقضى المجلس ، اجتمع لابن رامين عشرون ألف درهم وضيعة كبيرة ولم يكن لي في هذا كله الا جهد الغناء ، وعناء استخراج المال من خزائن اصحابه ! ..

● اليوم الثاني :

يعاملني ابن رامين الآن معاملة طيبة ، فانا أكبر موارد رزقه .. يجيء الناس الى داره لسماع صوتي والنظر الى وجهي .. ثم يصدرون عن داره وقد ملأوها أموالا ..

وهو يعطيني بعض المال الذي يكسبه من المعجين بي ! ..

وقد جاءنا محمد بن الاشعث الذي اكسبني شعره شهرة في العراق والشام والحجاز ، وهو من ظرفاء الكوفة وفتيان قريش فيها ، وحبه للجواري لا يقف عند حد ..

لم يكد ابن الاشعث يجلس حتى بصر باحدى الوصائف الجميلات فاعجبته ، فقال لي : هبي لي هذه الجارية يا زرقاء ! .. فوهبتها له ، فلما أخذها ومضى بها الى بيته ، نظرت ارى أثر ذلك في ابن رامين وهو صاحب الجارية ومالكها ، فوجدته لا يتكلم ولا يعارض ما صنعت ، كأنني أنا المالكة لهذه الجارية أتصرف في أمرها كيف أشاء ، وأهبها لمن أشاء ، فيخسر ابن رامين ثمنها وما أنفقه عليها ..

لقد أدرك ابن رامين أخيرا ان ما يدخل خزائنه من المال ، انما هو من عملي ، فصار لا يبالي أن أحب لاحد أصدقائي جارية جميلة لا يقل ثمنها عن ثلاثين ألف درهم ! .. وما وهبتها له الا نكابة في ابن رامين ! ..

● اليوم الثالث :

غنيت الليلة ساعة أو ساعتين لبعض وجهاء الكوفة ، ثم جاء الخادم يستأذني في دخول يزيد بن عون الصيرفي الملقب بالماجن .. فأذنت له .. وقد صار الاذن لي دون مولاي ابن رامين ، فانا صاحبة الامر في هذا بعد أن كان هذا اليه وحده ! .. ان شئت اذنت بالدخول ، وان شئت منعت ! ..

دخل يزيد بن عون الصيرفي ، فألقى بين يدي ، وهو أثر عندي لظرفه وكرمه وحبه لي وتمييزه الجيد من الرديء في الغناء تمييزا دقيقا لم أره عند

أحد سواء ممن يفشون بيت ابن رامين لسماعى ، مع كثرة العارفين بالغناء
منهم ٠٠

ادخل « الماجن » الصيرفى يسه فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين ، وقال لى :

— انظرى يا زرقاء ٠٠ جعلت فداك ! ٠٠

نظرت الى اللؤلؤتين ، فحلف لى انه نقد فيهما بالامس أربعين ألف درهم .
قلت له :

— فما أصنع بذلك ياماجن !؟ ٠٠

قال :

— أردت أن تعلمى ! ٠٠

فغنيت صوتا تأنقت فى أدائه تأنقا خلاف ما كنت أفعل قبل حضوره ،
حتى أحس ذلك وفهمه كل من حضر ، ثم قلت له :

— يا ماجن ٠٠ هب لى اللؤلؤتين ٠٠ ويحك !

قال :

— ان شئت والله وهبتهما لك !

قلت :

— قد شئت !

قال :

— اليمين التى حلفت بها لازمة لى أن أخذتهما الا بشفتيك من شفتى
يا زرقاء ! ٠٠

تهامس الحاضرون ، يقول بعضهم لبعض :

— ان أصحاب هذا البيت انما ينكسبون مما ترون ، ولولا الماجن وأمثاله
لما جمع ابن رامين ما جمع من الذهب والفضة ٠٠ واللؤلؤ ٠٠

ولم يتشاغل الحاضرون فى الانصراف ، فقد فهموا انى لا أريدهم شهودا
لنظر التقاطى اللؤلؤتين بشفتى من شفتى الصيرفى الماجن ! ٠٠

ووثب ابن رامين يقول متكلفا سببا للانصراف :

— يا غلام ٠٠ ضع لى ماء للوضوء ! ٠٠

ثم خرج ليخلى المكان ٠٠ وكانت على رأسى جارية تخدمنى فأومأت اليها
أن تخرج ، فانصرفت مستأذنة كأنها تريد حاجة ! ٠٠

وخلا المجلس الا منى ومن يزيد الصيرفى الملقب بالماجن ! ٠٠

فمشى على ركبتيه وكفيه ، واللؤلؤتان فى شفتيه فقال لى : هاك ! ٠٠

فلما ذهب آخذهما بشفتى صد عنى يمينا وشمالا ليستكثر من
ملاستهما ، فلما وجدته يزوغ منى مرة بعد مرة أمسكته حتى انتزعت

بشفتى اللؤلؤتين من شفتيه ، وقد رشح جبينى عرقا حياء من ذلك ! ٠٠
فلما اخذتهما أردت أن أعرفه اننى غلبته ، وأنه المخبون فى هذه الصفقة
فقلت له :

– المخبون منا من خسر اللؤلؤتين ! ٠٠
فقال لى :

– أما أنا فما أبالى ٠٠ لا يزال طيبه هذه الرائحة فى أنفى وفى أهدا
ما حييت ! ٠٠
وقد فرح ابن رامين باللؤلؤتين ، وأخذهما ليضيفهما الى كنوزه ! ٠٠

● اليوم الرابع :

سقطت الدولة الاموية ٠٠ واضطربت احوال الكوفة ، اذ صارت
عاصمة الدولة الجديدة ، دولة بنى هاشم أو بنى العباس ، وبدأ ابن رامين
يبيع جواريه ، فباع ربيحة وسعدة لبعض الهاشميين الحكام الجدد ٠٠
وباعنى أنا للهاشمى جعفر بن سليمان بن على ٠٠ ومضى بى جعفر الى البصرة
التي أصبح والده واليا عليها ٠٠

لم يكن الوالى سليمان بن على يعلم ان ابنه جعفرا اشتراى حتى وشى بنا
بعض الوشاة ففاجأنا الرجل ليلة وأنا أغنى والعود بين يدى ، وجعفر يصيح
طربا ٠٠ فقال الرجل لابنه :

– ويحك ٠٠ أما علمت ان عبد الله بن على قد تحرك بالثورة ، وقد يهجم
علينا وينتزع منا البصرة ، ويقتلنا جميعا ، وأنت على هذا الحال ومعك
جارية تغنيك قد اشتريتها كما بلغنى بثمانين ألف درهم ! ٠٠

فوثبت الى الوالى فأكببت على رأسه فقبلته ودعوت له بالنصر على أعدائه
وأظهرت له فى كلامى من العقل والنهم ما أعجبه ، فانصرف ولم يعد الى
مغاضبة ابنه فى شأنى ! ٠٠

وبعد أن استقرت الاحوال ، وأخفق الناثرون على الدولة ، دعا جعفر إياه
ليسمع غنائى ، فاقترح الرجل أن أغنيه :

إذا ما أم عبد الله

لم تحلل بواديه

ولم تشف سقيما هيج

العزى دواعيه

فقلت للشيوخ :

– فديتك ٠ قد ترك الناس مثل هذا الغناء منذ زمان ٠٠ ولكنى أحفظه
وأغنيه ! ٠٠

ثم غنيت له هذا اللحن القديم ، فرأيت بهز رأسه طربا .. فعجبت لقلة علمه بالغناء المتقن .

● اليوم الخامس :

لم أر مثل هذا اليوم منذ صرت جارية لجعفر بن سليمان ، فقد انفجرت غيخته فجأة ، ومضى يستجوبني ، ويمطرنى بالسؤالات العجيبة عن أيامى الماضية فى بيت ابن رامين ، ولم تقنعه جواباتى ، حتى قال لى :

— هل ظفر منك أحد ممن كان يهواك بخلوة أو قبلة فى بيت ابن رامين ؟
فعلمت من سؤاله هذا ان شينا قد بلغه ، وعزمت أن أصدقه ، ايشارة للمسلامة ، فقلت له :

— لا والله .. الا يزيد بن عون الصيرفى الملقب بالماجن ، فانه قبلنى قبلة !

ورويت له باختصار شديد قصة هذه القبلة واللؤلؤتين ! ..

فرايت وجهه قد احتقن ، ولم يتكلم ، وخرج ولم يعد الا بعد وقت طويل ! ..

ويا عجباً ! .. كيف يطلب هذا الرجل من جارية كانت فى كل وقت معروضة للبيع ، أن تبقى مصونة لا تمس طوال ماضيها قبل شرائه اياماً !

● اليوم السادس :

ليتني لم أعش حتى أرى هذا اليوم ! ..

جاء جعفر بن سليمان بيزيد الصيرفى الماجن ، بحيث أرى وأسمع ما يجرى له ..

وسأله عن أمور لفقها له ، فدافع الماجن عن نفسه ونفى كل تهمة .. ولم يدر الماجن ان تهمة الحقيقية التى يستجوبه عنها هى قبلة اللؤلؤتين التى مضت عليها سنوات ! ..

لم يستطع جعفر أن يمسك الماجن بجرم ، ولكنه أصر على اتهامه بجرائم ملفقة ! ..

وأمر جعفر الجند فخلعوا ثياب الماجن ، ووثبوا يضربونه بالسياط ! .. ووضعت أصابعى فى أذنى حتى لا أسمع صراخ الماجن ، وقد زاد عدد السياط التى ضربوه بها على خمسين سوطاً ..

ثم خفت صوته حين جاوز عدد السياط مائتين .. ثم كفوا عن ضربه .. وحملوه ميتاً .. والأمير جعفر يغمره الارتياح ، فقد قتل غريمه المسكين !

مجلس الطرب والفكاهة

● اليوم الاول :

زميلتي « مكنونة » جارية مقيمة حاذقة ، جميلة الوجه ، لكنها نحيفة مكشوفة من وراء ! ..

إذا رأيتهما من خلف وهي تمشي رأيت في قوامها استواء تاما كاستواء خشبة صلبة ، من ظهرها الى عجزها الى فخذيهما ، حتى قال لها بعضهم مازحا : يا مكنونة .. ظهرك جميل الاستواء كظهر الطست ! ..

ولكن مكنونة لا تبالى ما يقولون عن ظهرها ، فهي بارزة الصدر ، حسنة البطن ، مكتملة الحسن في كل شيء تواجه به الناظرين .. وتمشي مشية لطيفة ، تشد قوامها فيكون صدرها متقدما عليها ، كأنه يقول عنها للناس : أنظروا ! أو يقول لهم : افسحوا لها الطريق ! ..

وأنا والله أجمل منها وجها ، وأحسن غناء ، ولكن حظها عظيم ، وحظي قليل ، فإن « المهدي » ولي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، اشتراها بمائة ألف درهم ، ولا علم لابيه بذلك ، ولو علم ، لانتزعها منه وباعها واسترد دراهمه ، فإن أباه هذا بخيل متشدد ! ..

والناس يسمونني « بصبص » .. ولا أعلم اسما لي غيره ، وأعيش منذ طفولتي في دار مولاي يحيى بن نفيس في المدينة ، ويجيء الاشراف والظرفاء فيسمعون غنائي ، وغناء زميلاتي جوارى ابن نفيس ، ولكني أبرعن جميعا ، وأشدهن تقدما في الغناء ..

وممن يغني دارنا ليسمعني ، محمد بن يحيى ، حفيد الامام الحسين ، وعبد الله بن مصعب من آل الزبير بن العوام ، وكثير من الهاشميين والقرشيين ! ..

وأبخل زوارنا وأبعثهم للضحك اسمه « مزبد » .. يبلغ في بخله حد الجنون ، الا انه لطيف خفيف ! ..

قلت لجلسائي أمس : أنا آخذ لكم من مزبد درهما كاملا لا ينقص وزنه شعرة واحدة ! ..

فصاحوا :

- والله ما يقدر الشيطان نفسه أن يأخذ درهما من مزبد ، ولا مقدار حبة شعير من الدرهم ! ..

وقال لى سيدى ابن نفيس :

— أنت حرة لئن أخذت منه درهما ، ان لم اشتر لك قلادة ذهب وجوهر
بمائة ألف دينار ، وثياب وشى بما شئت من المال العظيم ، ثم اجعل لك
مجلسا بالعقيق خارج المدينة عند العشب والماء ، فانحر فيه لك ناقة أو
بقرة ، واجمع لك ظرفاء المدينة ! ..
فقلت له :

— جىء به وارفع عنى الغيرة ، مهما داعبته ! ..
قال :

— أنت حرة فاصنعى ما شئت ، فقد رفعت عنك الغيرة ! ..
فذهب عبد الله بن مصعب الى مزبد فقال له :

— أبا اسحاق .. أما تحب أن ترى بصبص جارية ابن نفيس ! ..
فتوسل اليه أن يصحبه الى مجلسى ! ..

فلما جاء وغنيت صوتا شرب ابن نفيس والقوم معه أقداحا ، وتصنعوا
السكر وتناوموا ، فأقبلت على مزبد فقلت :
— يا أبا اسحق ، كأنك تشتهى أن أغنيك :

لقد حثوا الجمال ليهربوا

مننا فلم يثلوا

فالقى الرجل نظرة على القوم النائمين فاطمان وهمس :

— هل تعلمين الغيب ؟! .. فهذا والله ما أشتهى ان أسمه الساعة
منك ! ..

فغنيتها وهو ينعر ويصفق طربا ، وأنا أسأله الا يفعل ، حتى لا يصحو
النائمون ! ..

ثم نظرت فى عينيه وقلت له :

— أبا اسحاق ! .. أليس فى نفسك أن أقوم فأجلس لصبيقة بك
وأغنيك !

قالت وابشتها وجمدى فبجت به

قد كنت قلما تحب الستر فاستتر

الست تبصر من حولى فقلت لها

غطى هسواك وما ألقى على بصرى

فصاح طربا ، وقال :

— كأنك تعلمين مافى الارحام ، وما تكسب الانفس غدا ، وبأى ارض
تموت ! .. وكأنك .. وكأنك ..

قلت له :

— استغفر ربك يا أبا اسحاق ، ولا يخرجك الطرب الى مثل هذا القول
تم غنيته هزجا :

انا ابصرت بالليل

غلاما حسن النحل

فقصن البان قد أصبح

مسقيا من الطل

فكاد يخرج من ثيابه طريا ، وصاح :

— كانك نبية مرسله فى هذه الصناعة ! ..

فقلت له وقد قربت منه جدا : « قد نهيتك عن مثل هذا الكلام .. فالان
برح الخفاء ، وظهر ما احتجب من حبك لى ، وأنا أعلم انك تستهى أن تقبلنى
قبلة شق التين » ! ..

فدنا منى ، فنحيته متلطفة ، وقلت له وقد ملكته كخاتم فى أصبعي :

— أبا اسحاق ! .. أرايت اسقط من هؤلاء السائمين .. يدعونك
ويخرجوننى اليك لاغنى ولا يشترون ريحانا بدرهم !؟

يا أبا اسحاق : هلم درهما نشتري به ريحانا ! ..

فتغير وجهه حتى كلع وصار كوجه الكلب حين يتهيا للعض أو العراك ،
ثم وثب صارخا مستغيثا :

— واحرباه ! .. أيتها الخاطئة ! .. والله لو غيبتنى مائة صوت ،
ومنيبتنى مائة من « شق التين » .. ما كان ذلك كفاء درهم ولا دائق يخرج
من كيسي ! .. الا ان انقطع والله عنك ذلك الوحي الذى كنت ظننت انه
يوحى اليك ! ..

فضج القوم بالضحك ، وخرجوا من تناوهم ، وركبوا الرجل بالدعابة
والسخرية ، وقالوا لى :

— أما حذرناك من درهمه ودانقه . وقلنا لك انه لو علم ان الجنة
لا يدخلها الا بدرهم ، لرحزح نفسه عنها الى النار ! ..

● اليوم الثانى :

كثر المعجبون بى ، وكلهم يزعم انه انما يحب غنائى ، ولكن أشعارهم
تم عليهم ، وتشى بمشقةم لى لا لغنائى ! ..

هذا شاعر يقول :

بصبص أنت الشمس مزدانة

فان تبذلت فانت الهالال

سبحانك اللهم ما هكذا

فيما مضى كان يكون الجمال

إذا دعت بالعود في مشهد
وعاوتت يمني يديها الشمال
غنت غناء يستفز القتي
حذقا وزان الحلق منها الدلال

وبالامس حضر مجلسي أبو السائب المخزومي فغيت :

قلبي حبيس عليك موقوف
والعين عبرى والدمع مذروف
والنفس في حسرة بفتتها
قد شف ارجاءها التساوي
ان كنت بالحسن قد وصفت لنا
فانني بالهوى لموصوف
يا حسرتا حسرة اموت بها
ان لم يكن لي لديك معروف

فطرب السائب وبكى ولطم خديه وقال :

— لاعرق الله قدرى ان لم أعرف لك معروفك ! .. بأبي والله أنت ! ..
اني لارجو أن تكوني عند الله من الشهداء لما تولينا من السرور !
وجمل يصيح : واغوثاه ! .. واغوثاه ! .. يالله لما يلقى الماشقون ! ..
فلما هدأ السائب المخزومي ، سألت فتى في المجلس أعرف انه يحبني ،
أن يأتيني بحاجة ، فقام ليأتي بها ففسي أن يلبس نعله ومشي حافيا ، فقلت
له : نسيت نعلك ! .. فتنبه ولبسها وقال لي :
— أنا والله كما قال الشاعر :

وجبك ينسيني عن الشيء في يدي
وشغلني عن كل شيء أحاوله

فظننت به حقا ، لا عشقا ، لانه يذكرني والتعل في بيت واحد ! ..

● اليوم الثالث :

قدم أمير المؤمنين المنصور المدينة منصرفا من الحج ، وقيل ان بعض
حاشيته يزعم أن زميلتي « مكنونة » التي اشتراها ولي العهد « المهدي » قد
حظيت عنده ، حتى نافست زوجته « الخيزران » .. وان مكنونة قد ولدت
بنتا سميتها « علي » وانها تعلمها الغناء منذ طفولتها .. فليت شعري ، أظن
مكنونة ان ابنتها الصغيرة هذه ، ستكون مغنية تباع في سوق الرقيق
مثلها ، فهي تنسئها على ما نشأت عليه !؟ ..

استقبل أهل المدينة مقدم الخليفة بفطور ، ولما أخذ يتأهب للروح ، قال

عبد الله بن مصعب ، حفيد عبد الله بن الزبير :

ارائج انت ابا جعفر
من قبل ان تسمع من بصيصا
هيهات ان تسمع منها اذا
جاوزت العيس بك الاعوصا
احلف بالله يميننا ومن
يحلف بالله فقد اخلصنا
لو انها تدعو الى بيعه
بايعتها ثم شقت العصا

فبلغت الابيات الخليفة ، فغضب ودعا عبد الله بن مصعب فقال له :
- أما انكم يا آل الزبير قديما ما قادتكم النساء ، وشققتم معهن العصا ،
حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات ! ..

يشير الخليفة في كلمته هذه الى خروج جد هذا الفتى « الزبير بن
العوام » ، رضى الله عنه ، في وقعة الجمل مع السيدة عائشة رضى الله عنها ،
مع ان الزبير انصرف من الوقعة تائما ولم يحارب وقتلوه غدرا ! ..

وجاءنى عبد الله بن مصعب فسألته عن حاله بعد غضب الخليفة عليه
فقال : والله لا أبالي .. ولئن خرجت عليه يابصبص لا يابعنك ، فما هو عندى
بأفضل منك ! ..

● اليوم الرابع :

رحل المنصور ، فبلغنى من بعض من شيعوا موكله خارج المدينة ، انه
قال : و يعجبني الحداء ، فانه أحسن فى السمع من غناء بصيص وامثالها
من القيان المتبذلات ، وأحرى أن يختاره أهل العقل ! ..
ثم أمر فحدا به الحادى :

انى وان كان ابن عمى كاشحا
لمزاحم من دونه وورائه
وممبه نمرى وان كان أمرا
متزحزا فى ارضه وسمائه
واذا ترش فى غنائه وفتره
واذا تصعلك كنت من قرنايه
واذا غدا يوما ليركب موكبا
صعبا فعلت له على سيسانه

فقال المنصور :

- هذا والله أحت على المروءة ، وأشبه بأهل الادب من غناء بصيص التى

يزعم ذلك الزبيرى الاحق انه يبايعها بالخلافة ! ..

ثم اراد ان يتكرم على الحادى فامر باعطائه درهما واحدا ! ..
فقال له الحادى :

- يا امير المؤمنين .. حدوث بهشام بن عبد الملك منذ سنين فامر لى بعشرين
الف درهم ، وتامر لى انت پدرهم واحد ؟ ! ..
فقال المنصور :

- ذلك رجل ظالم كان يفتصب الخلافة ويأخذ مال الله من غير حله ،
ويتفقه فى غير حقه ! .. وانى امرك بأن ترد المال الذى أخذته منه ! ..
فبكى الحادى وقال :

- يا امير المؤمنين ، قد مضت لهذا السنون ، وقضيت به الديون ،
وتمزقته النفقات ، وما بقى عندى منه شيء ! ..

فلم يزل المقربون الى الخليفة يسألونه ان يعفى الحادى من رد المال الذى
أخذه من الخليفة الاموى هشام ، حتى كف عنه ، على أن يعدو به ولا يأخذ
شيئا ، واسترد منه الدرهم اليتيم الذى كان أعطاه ! ..

فهذا الخليفة والله أشنع بخلا بدراهمه من « مزبد » .. وأنبج منه فى
معاملة الناس ! .. فهل يلام ذلك الفتى الزبيرى الذى حلف يميناً لو اننى
شققت العصا على هذا الخليفة لخرج معى عليه وبايعنى بالخلافة ؟ ! ..

تلميذة الموصلى وجارية الرشيد

● اليوم الاول :

نشأت فى بيت واسع يهوج بالجوارى والغلمان ، صسفارا وكبارا .. كل يوم أرى جارية أو غلاما يخرج من هذا البيت ولا يعود ، ثم يجيء غلام أو تجيء جارية لا نعرفها ولم تكن معنا من قبل فى البيت ! ..

صاحب البيت اسمه « قرين » صناعته « نخاس » يبيع الجوارى والغلمان ويشتريهم .. وهو من هذه التجارة فى ربح ينهر عليه كالطر بلا انقطاع !

جوارى « قرين » النخاس .. قسمان : أحدهما قسم الجوارى الفاتنات والمغنيات ، والآخر قسم جوارى الخدمة ، ومن لا موهبة لهن الا موهبة الفتاة العادية .. وشتان بين الثمن الذى تباع به الجارية من القسم الاول ، والثمن الذى تباع به جارية القسم الثانى ! ..

وكذلك الغلمان ! ..

فمن كان منهم مغنيا أو ذا موهبة ترفع من ثمنه عند المشترين ، اهتم به « قرين » النخاس وجاء اليه بالمدرسين ومن يشقفه ويعلمه أصول الحياة فى بيوت السادة .. ومن لم يكن كذلك باعه كيفما اتفق ، ورضى فيه بما تيسر من الربح ! ..

كنت صغيرة السن حين اشترائى « قرين » من سوق الرقيق وضمنى الى جوارى بيته .. وبدت له منى مخايل الذكاء ، فضلا عن جمالى ، وقد عرف النخاس الذكى اللماح الذى حنكته التجارب أن جمالى هذا سوف يصبح باهرا ساحرا بعد سنوات قلائل .. فقال لى يوما وهو يلاطفنى :

— يا ذات الخال .. أراك أجمل الناس وجها ، ولك خال على خدك لم ير الناس أحسن منه فى موضعه ، وانك لجديرة بأن تباعى للسراة والاعيان والكبراء ، ولكنى أحب أن أسمعك تفتن لحننا مما تحفظين ، فان رأيت أن لك حنجرة عذبة ، جئت لك بمن يطارحك الالحن ويعلمك الغناء ، فانك عندئذ تصبحين من أغلى الجوارى ثمننا ، فأبيعك لعظماء بغداد ، وأربح أنا ، وتعيشين أنت فى قصورهم معزة مكرمة ! ..

فلما غنيته ما أحفظ من الالحن ، نهر وصفق ورقص ، وقال لى والبهجة تعصر ملامح وجهه فرحا وطمعا :

- ويحك يا ذات الخال .. والله انك لجميلة الصوت جمالا مفسرطا ،
كانما اتفق صوتك ووجهك على أن يتقاسما ما في الدنيا من متاع الاسماع
والابصار ، ومثلك - اكرمك الله - لا يصلح لتثقيفه في الغناء الا كبير
المغنين في بغداد ورأس صناعتهم ، ابراهيم الموصلى ! .. وان غلا ثمن
الدروس عنده ! ..

● اليوم الثاني :

جاءنى سيدى « قرين » النحاس بكبير المطربين والملحنين ابراهيم
الموصلى ، وأفرد لى حجرة خاصة ، فسيحة مريحة ، واشترى لى عودا ..
وأسرف فى برى واكرامى ، كأننى أعز أولاده وبنااته :

تأملنى الموصلى وقال لى والاعجاب بجمالى يظفر من عينيهِ :

- ما اسمك يا صبيحة الوجه !؟ ..

- ذات الخال ! ..

- أهذا اسمك أم لقبك !؟ ..

- اسمى « خنت » .. ولكنى لا أسمهم هنا ينادوننى الا بذات الخال ،
لا ترى من موضع الخال على خدى هذا ..

وأشرت الى خدى ، والخال الاسود الجميل الذى يتخذ فيه موضعا بديعا
يلفت العيون والقلوب ..

اهتز الموصلى طربا لجوابى هذا ، وافتتن بظرفى وحلاوة اشارتى ..
وقال لى :

- والله لاعلمنك حتى تحذقى بالصناعة فلا يفوتك منها شيء ، ولا تفورك
فيها مغنية فى بغداد كلها ..

ثم بدأ الموصل درسه الاول .. وتعلمت فى هذا الدرس الاول كيف
أمسك بالعود وأضرب عليه ضرب المبتدئين ! ..

فلما أتم الموصلى الدرس ، تنفس كأنه يزفر من الوجه ، وسلم وحيا
وانصرف ، وهو لا يريد أن يصرف عنى عينيه ! ..

ثم توالى الدروس فى أيام كثيرة حتى برعت فى الغناء وضرب الصود ،
وأخذت عن الموصلى ألحانا كثيرة من غناء الفحول القدماء ومن غنائه هو ..

وتوثقت علاقتنا حتى صارت حبا .. وما كنت أظن أن مثله فى شهرته
وثروته وجامه يتعلق بمثلى ، ولا ظننت انى أتعلق بمثله ! ..

● اليوم الثالث :

جاء الموصلى يطارحنى الالحان ، فقال لى :

- اتعلمين من يريد شرائك الآن يا خنت ١٩

- لا أعلم ! ٠٠

- هارون الرشيد ! ٠٠

هزنى الخبر ، سألته بلهفة وقد تعاطفنى الخبر حتى ظننت أن الموصلى
يعزج :

- ومن أدواه بى وبمكاني يا سيدى ١٩ ٠٠

- أنا ! ٠٠

صحت إبراهيم الموصلى ، ونظرت اليه باهتة ، فقال لى متلطفا ياسما :
- لا تعجبنى ، فما يصلح لك أن تعيشى الا فى قصره ، وما يعرف قدر
غنائك وصنعتك أحده كالرشيد ٠٠

وجاء من القصر قهرمان اشترانى من قرين النخاس ، فاشتط فى الثمن
حتى باعنى بسبعين ألف درهم ، وقد كان يقول لى من قبل انه اشترانى
بخمسين درهما وأنا طفلة صغيرة ! ٠٠

ووجدت فى القصر جارتين اصطفيتهما من دون سائر الجوارى هما :
ضياء ٠٠ وسحر ٠٠ « بكسر السين » ٠٠

كانتا من أحب الجوارى الى الرشيد ، فصرت معهما ، وحظيت مثلهما ٠٠
ثم تفوقت عليهما بتقدمى فى صناعة الغناء ! ٠٠

ويزعم بعض الناس ان الرشيد قال شعرا فينا نحن الجوارى الثلاث ،
ويدعون أن هذا الشعر بيتان هما :

ان سحرا وضياء وخنت

هن سحر وضياء وخنت

اخدت سحر ولا ذنب لها

ثلثى قلبى ، وترباها الثلث

لم يقل الرشيد هذا الشعر ، ولكن لفته عليه بعض الوضاعين الذين
كثروا فى بغداد وكثر وضعهم للشعر ونحله للشعراء ولغير الشعراء ٠٠
وأشد من هذا امعانا فى التلفيق قولهم ان الرشيد قال فينا هذه الابيات:

ملك الثلاث الانسات عنانى

وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البرية كلها

واطيعهن وهن فى عصياني

ما ذاك الا أن سلطان الهوى

وبه عزّون أعز من سلطاني

وانما قال هذا الشعر العباس بن الاحنف ، كأنه يتفكه ، فلم يجيء الا
بما يسمح عند سامعه ممن يعرف الرشيد وحفاظه وهيبته ! ٠٠

● اليوم الرابع :

سهر الرشيد ، فدعاني فوافيته في مجلسه فلم أجد معه الا الموصل ، فقال لي الرشيد :

— يا خنت غنى صوت « الروم » ..

فغنيت هذا اللحن وكان يسميه « صوت الروم » لانه يصف الجوارى الروميات :

جنن من الروم وقاليقلا

يرفلن في المرط ولين الملا

مقرطقات بصنوف الحل

يا حبذا البيض وتلك الحل

فاستحسن غنائي ، ثم أمر الموصل ، فغنى :

جزى الله خيرا من كلفت بحبه

وليس به الا الموه من حبي

وقالوا لها : هذا مجبك معرضا

فقالت : أرى اعراضه أيسر الخطب

فما هو الا نظيرة بتبسّم

فتتشب وجلاه ويسقط للجنب

فرغ الموصل من غنائه ، فصرفه الرشيد ولم يامر له بجائزة .. وصمت برهة ثم قال لي :

— يا خنت .. أسألك عن شيء ، فاصدقيني ! .. هل كان بينك وبين ابراهيم الموصل شيء حين كان يطارحك الالحن في دار الفخاس « قرين » ١٩

دهمني سؤاله وحبرني ، فتلكأت في الجواب ، ولكني لم أستطع أن أكذب لكيلا يسأل ويتحرى ويعرف الحقيقة ويماقبني .. قلت :

— نعم ! .. مرة واحدة .. ولم يكن شيئا ذا بال ! ..

وجم الرشيد ، وقال :

— فلهذا نظم الموصل فيك وغنى هذه الاشعار الكثيرة التي يرويها الرواة ويفنيها المغنون ! ..

ورأيت الكراهة في وجهه ، وأرسل من فوره الى « حموية » الوصيف في القصر ، فقال له :

— يا حمويه .. قد وهبت لك هذه الجارية فخذها ..

● اليوم الخامس :

جاءني حمويه اليوم يقول لي :

- سأحدثك بما يسرك ويشرح صدرك ! ..

- خيرا .. ان شاء الله ..

- طلبني أمير المؤمنين منذ ساعة فقال لي : ويلك يا حمويه ، أوهبنا لك الجارية لتسمع غناءها وحدك !؟ .. فقلت له : يا أمير المؤمنين : مر فيهما بأمرك ! .. قال : نحن عندك غدا ! ..

قلت لحمويه :

- قد كنت في قصره لا أغني له الا وأنا في الوشي والديباج والجوهر والذهب .. فأى شيء أردتديه أو أتحملي به ، وأنا عندك !؟ ..

قال :

- لا تبتئسى ، فوالله لن تبرزى اليه الا في أبهى الحلل ! ..

ثم مضى حمويه فاستأجر من بعض الجوهرين في الكرخ ملابس فاخرة مما اعتاد أصحاب الجوارى استئجاره لهن في الأفراح والليالي والاعراس .. ثم مضى الى بعض من يعرفهم من الجوهرين البغداديين ممن يهابونه لمنزلته في القصر ، فاستأجر لى منهم عقودا من اللؤلؤ والجوهر ثمتها اثنا عشر ألف دينار ! ..

فلما جاء الرشيد وأخرجني اليه ، تعجب الرشيد لحسن منظري ، وقال لحمويه :

- ويلك يا حمويه ! .. من أين لك هذا وما وليتك عملا تكسب فيه ما تشتري به هذا الجوهر الثمين وهذه الثياب التي أراها على جاريك !؟ ..

فأخبره حمويه بما فعل من استئجار الجواهر والثياب حتى تبدو في زى لائق في حضور أمير المؤمنين ..

فجلس الرشيد ، ففنيته ما اقترح من الالمان حتى اكتفى ، وأمر لى بجائزة عظيمة ، وقضى لى حوائج كثيرة ، ثم بعث الى التجار أصحاب الجوهر فأحضرهم واشتراه منهم ، ووهبه لى ! ..

فلما هم بالانصراف قال لى في عطف بالغ :

- أبقيت لك حاجة !؟

قلت في امتنان :

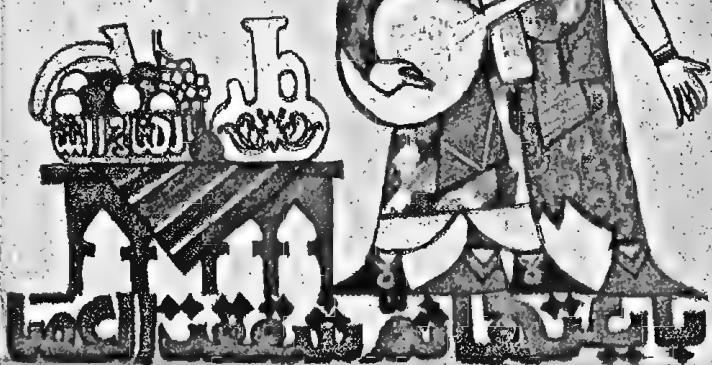
- لم تبق لى حاجة الا قضيتها لى يا أمير المؤمنين ، ولكنى أسألك أن تولي حمويه عملا في بلاد المعجم بضع سنين !

فولاه الرشيد الحرب والخراج في بعض المواقع هناك ، وأن حمويه لمن أحسن وأبرع أرباب السيوف في عسكر الرشيد ..

● اليوم السادس :

بينما نحن في أسعد الاوقات بقصرنا في هذه الجهة من بلاد فارس ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سمعت وسمع حمويه صوت مفن يأتى من دار قريبة منا ، يقنى هذه الابيات
من شعر ابراهيم الموصلى وصنعته :

تقول ذات الخيال

لى : يا خلى الببال

فقلت : حاشاك من أن

يكون حالك حالى

اعرضت عني لما

اوقعتنى فى الحببال

ان الخلى هو الفا

فل الذى لا يبالى ! ..

فلما فرغ المفن من اللحن ، تفكر حمويه قليلا ثم قال لى وقد اعتكر
مزاجه وتريد وجهه :

- لولا أن يقول الناس : قتل حمويه جاريته لريبة ، لقتلتك الساعة ،
لما ورد على قلبى من هذا الشعر وهذا الفناء ! .. فمن صاحبهما !؟ ..
قلت :

- هذه من مداعبات ابراهيم الموصلى حين كان يطارحنى الالخان ، وأنا
أستحق بهذا الشعر التكرمة والاعزاز منك ! .. ألا تراه يعترف بأننى قد
أعرضت عنه وأننى غافلة عنه غير مبالية به !؟ .. فما ذنبى !؟ ..
تهلل وجه حمويه ، وقال :

- نعم .. صدقت ! .. ليس لك ذنب ! ..

السجن طريق الشهرة

● اليوم الاول :

ما فكرت يوما أن أحترف الغناء ، ولا تصورت انى أمسك بالعود وأضرب على أوتاره وأغني للناس وأتلقى استحسانهم ثم أتلقى أجر الغناء قليلا كان أو كثيرا ..

غنيت تلذذا بالغناء ، أطرب نفسي وأصحابي ولا أكتب شيئا .. وهربت في صباى من جميع الكتائب التى الحقنى بها أهل ، أسعى وراء المقتنين ، أسمع منهم ، وأتعلم وأتطرب ولا أتكسب .. ونسيت في غمرة طلبى للغناء أن أتعلم القراءة والكتابة ، فعشت حتى مطلع شبابى أميا أجهل كيف أكتب اسمى ..

واستبد بى حب هذا الطريق ، حتى صار يطرقنى فى المنام طيف رائع الجمال ، لا أدري أهو جنى أم انسى .. فيغنينى ألحانا لم أسمع مثلها حلاوة وبراعة فى الصنعة والأداء والنبرات وامتداد الانفاس ، مع ضرب بالآوتار كأنه يخرج من أصابع ساحر مبدع ! .. وكنت أسأله :

— لماذا أصبح من نومي فأجدنى غير قادر على أداء ما تسمعني من هذه الألحان ؟ ..

فيجيب دائما :

— ستجدها متفرقة فى ألحانك طوال حياتك .

فأعود أسأل :

— وهل ستكون لى الحان ؟!

فيضحك وينصرف ! ..

وقلت له يوما وقد تجارينا فى الكلام عن الغناء وكان قد غثنانى لحنا كاد أن يذهب بعقل :

— هب لى هذا اللحن حتى أحفظه وأغنيه ، ثم لا تهب لى بعده شيئا ! . فشملتني منه نظرة حنان كأنى طفل وقال لى :

— يا بنى لو حفظته فغنيته الناس لاصيبوا بالجنون .. فما حظك من ذلك ؟ ..

ثم انصرف الطيف في لمحة عين ! ..

● اليوم الثاني :

كنت جالسا وقد أغلقت باب بيتي ، ومجلسي ليس فيه غري ، وعودي في يدي أترنم وأجس أوتاره ، وأنشط نفسي للفناء ، فلا تنشط !

وإذا بشيخ ذي هيئة وجمال ، في قدميه خفان قصيران وعلى بدنه قميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة قد لزقت برأسه كأنها منه ، وبجانبه عكازة من الفضة ، ورائحة المسك تفوح منه حتى ملأت البيت ، فأذهلتني المفاجأة ، وهممت أن أسأله كيف دخل والباب موصد ، فسبقني فسلم فأحسن السلام ، فرددت عليه ، ودعوته الى الجلوس ..

وحدثني فوجدت عنده أدبا وظرفا .. فسألته : هل لك في الطعام ؟ .. فقال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : هل لك في الشراب ؟ .. فقال : ذلك اليك ..

شربت في قدح كبير ، وأعطيت ضيفي مثله ، فلما شربه ، قال لي : هل لك أن تغني شيئا من صنعتك أو من صنعة الاوائل ، فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنيت ما لا يحسن أحد من المطربين أن يغني مثله ، فلم يزد الشيخ على أن قال : أحسنت ! ..

فاظنني استحسانه القاتر لفنائي ، فهمت به ، ولكنه بادر يقول مبتسما : هل لك أن تزيدنا ؟ .. فنظرت اليه مستهينا بعقله ، وقلت في نفسي : ظننت الشيخ ممن يعقلون هذه الصناعة ، وهو لا يكاد يعصرف شيئا فيها ، واندفعت أغني لحنا ، مجتهدا فيه لا مبالاة بهذا الشيخ المتطفل على بيتي ، وانما تقفنا في الصنعة وتطربيا لنفسي ! ..

لم أفرغ من اللحن حتى قال لي : أتأذن لي في الفناء ، فهذه نوبتي ؟ .. فاستصغرت هذا الشيخ جدا ، واستضعفت عقله إذ يغنيني بعد الذي سمعته مني ، وخطر لي ما قد يجيء في غنائه من سخف فضحكت حتى استغريت من الضحك ، فقال : ما يضحكك ؟ .. قلت : شيء خطر ببالي ، فامض لما عزمتم عليه من الفناء .. أمتعنا الله بك ! ..

أمسك الشيخ بالعود فجسسه وربط أوتاره ، وضرب .. فوالله لكانه ينطق بلسان عربي مبين ، ثم انطلق يغني ، فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن غنائه ، حتى خلت والله اني أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه ، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي .. ثم غنى صوتا ثانيا فكاد عقلي أن يذهب طربا وارثيا لما سمعت ..

وفرغ الشيخ من غنائه ، فنظر لي مليا ثم قال : هذا غناء ومهية لك فغنه للناس ، فقلت متلهفا : أعدده يا سيدي حتى أحفظه ! .. فقال : لست تحتاج الى اعادته مني فانك حفظته وأحكمت حفظه ! ..

فالتفت ورائي اطلب شيئا ، وما كانت لفتتي هذه الا كلمحة البرق ،
واقبلت بوجهي على الشيخ فاذا به قد اختفى من المجلس في هذه اللحظة ،
قارتعت وقمت أعدو وأصبح نحو الباب فوجدته مغلقا كما تركته قبيل
ظهور الشيخ في البيت ، ففتحت الباب وعدوت الى الباب أسأله ، فقال
لي : أى شيخ تسأل عنه ؟! .. ما دخل اليك اليوم أحد ! ..

● اليوم الثالث :

تعدت اتأمل امرى ، فاذا صوت يقول ولا أرى صاحبه : لا بأس عليك
يا صديقى ! .. أنا الطيف الذى تسمع غناؤه فى نومك ! .. وأنت الآن
أحسن المغنين ، فلا تحجم عن احتراف الغناء ، فان هذا العصر هو عصرك ،
وأنت رأس هذا الفن منذ اليوم ..

واختبرت نفسى فوجدتني أحفظ ما غنانيه هذا الشيخ ، وأنا الى ذلك
أحسن الناس صنعة فى الغناء وأغزهم غلما به .. وصرت أغنى لبعض
كبراء الهاشميين من رجال الدولة ، حتى سمع عنى أمير المؤمنين المهدي ،
فطلبني ولازمته أغنى فى مجلسه ، وما سمع قبلي أحدا من المغنين الا اثنين
لا أكثر .. فقد مضى عهد أبيه الخليفة المنصور من قبله ولم يكن يسمع الغناء ،
وكذلك كان الخليفة عبد الله السفاح من قبله .. فانقضت خمس وعشرون
سنة لا يدخل المغنون قصر الخليفة العباسي ، اذ كانت خلافتهم فى أول
أمرها ، وهم انما ناروا على بنى أمية لما كان من تعاطيهم الشراب ، وادمانهم
سماع الغناء والملاهي وتضييعهم أموال المسلمين فى اللهو والسماع .

فلما جاء ثالث الخلفاء العباسيين المهدي ، سمع الغناء وأجاز عليه ..
ولكنه كان لا يشرب النبيذ ولا غيره من الاشربة ، فلما صرت فى بطانته
أرادني على ترك الشرب فابيت عليه ، وكنت أقتيب عنه الايام ، فان جثته
جثته منتشيا ، فضربني وجبسنى مدة وتعلمت القراءة والكتابة فى العيس ،
وكنت قبل أن أتعلم فصيحاً ألهج بالشعر كبنى تميم لانى تربيت فى بعض
بيوتهم ، فاكتملت فصاحتي بالقراءة والكتابة ..

هكذا بدأت قصتى فى الغناء .

وصرت فى بطانة الخليفة المهدي فلم أجد فيها سعادة ولا راحة ،
وكنت أظن أنني وقد وصلت الى الخليفة وصرت ثالث من يغني للخلفاء
العباسيين وأولهم اتفاقا للصنعة والاداء ، قد بلغت أعظم ما أرجو لنفسي
فى الحياة ! ..

ضيق المهدي على الخناق ومنعني أن أغنى للناس ، حتى اجترات يوما
فقلت :

— يا أمير المؤمنين ، انما تعلمت هذه الصنعة للذتى وعشرتى لاخوانى ،
ولو أمكننى تركها لتركها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل ! ..

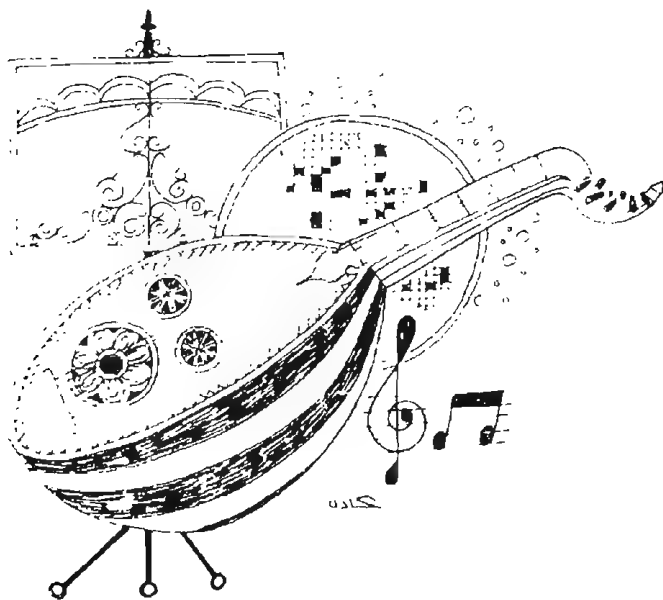
فغضب المهدي غضبا شديدا من جرأتى هذه وشدهد على النكير ! ..

وكان وليا عهد المهدي ، موسى الهادي ، وهارون الرشيد شباين
صغيرين ، فكانا يحبان سماعي سرا ، حتى وشى بهما أحد الخدم وقال
لايهما انهما لا يكتفيان بسماع الغناء ، بل يضيفان الى سماعه شرب النبيذ
ويستهتران بشربه مع الموصلين ..

فجئء بي الى الخليفة فأمر بضربي ثلاثمائة وستين سوطا ، وقيدني بأغلال
ثقال حتى ظننت انني ساموت من هذا العذاب ، فاجترأت وقلت للمهدي :

- يا امير المؤمنين .. ان جرمي ليس من الاجرام التي يحل لك بها
سفك دمي !

فاستشاط الخليفة غضبا ، ووثب فضربنى بالسيف وهو في قرابه ،
فشجنى به ، وسقطت مغمشيا على .. فلما أفقت أخرجوني وأنا أرى
الدنيا صفراء وحمراء وخضراء من حر ضرب السياط ، والبسوني على جلدي
الممزق جلد كبش ذبيح لتهدأ جراحي ! ..



لعبة الجارية

● اليوم الاول :

المال عندي - بحمد الله - كثير لا ينفد ، ولكنني أخاف من نفاده اذا حبس عني أمير المؤمنين الرشيد عطاءه ولو شهرا واحدا أو بعض شهر . وقد سافر - أعزه الله - لغزو الروم منذ مدة ، فاعتراني خوف من الفقر ، على كثرة ما عندي من المال ، فقلت في نفسي : أقصد الى جعفر بن يحيى البرمكي الوزير ، فانه محب لي ، وهو كريم لا يراني حتى يأمرني . بجائزة ..

كانتني كنت ناسيا من شدة خوفي على المال الذي في خزانتي ، وشدة رغبتي في المال الذي في خزانة جعفر بن يحيى ، فما خطوت خارج داري حتى تذكرت ان جعفرا يصحب الرشيد في غزاته هذه التي لا أدرى متى يفرغ منها ، فانه عبأ الجيش ومضى ليؤدب « كلب الروم » - كما يسميه - مع انه « منك الروم » العظيم « تقفور » الذي يقال انه أقوى الملوك ! ..

قلت في نفسي : أذهب اذن الى الفضل بن يحيى البرمكي فانه لا يقل كرما عن أخيه جعفر ! .. ركبت دابتي ومضيت اليه تتنازعني الآمال ! .. قلت له ، وقد غنيته صوتا شرب عليه وطرب

- يا أبا العباس ، جعلت فداك ، هب لي دراهم أو دنانير ، فان الخليفة في الغزو ، ولا أعلم متى يعود ! ..

قال الفضل

- ويحك يا أبا اسحاق .. ما عندي من المال ما أرضاه لك ، ولئن أعطيتك قليلا ، ليقولن الناس : الفضل بن يحيى أعطى إبراهيم الموصلي عطاء البخلاء ! ..

جزعت وقلت للفضل :

- فما العمل أيها الأمير !؟

تفكر شيئا فقال

- ما هنا فرصة طيبة ! .. أتانا رسول من صنعاء ، يعمل الينا ولاء حاكم اليمن ويرفع الينا حوائجه .. ووجه الينا صاحب اليمن بخمسين ألف دينار يشتري بها محبتنا ، وهو يعلم اننا لا نأخذ منه هذا المال ،

فالتمس منا أن يشتري لنا به ما نشاء من أسواق بغداد ! ٠٠ وقد علمت
أنك تعرض جاريتك « ضياء » للبيع ، فأنا أقول لرسول صاحب اليمن :
أذهب الى ابراهيم الموصلي فاشتر منه جاريتك ضياء ، وجئنا بها فأننا نقبلها
هدية من سيدك صاحب اليمن ! ٠٠

ثم قال لى الفضل :

— يا ابراهيم ٠٠ اذا جاءك هذا الرجل يشتري جاريتك فلا تنقصها عن
خمسین ألف دينار !

● اليوم الثانى :

بكر على دارى رسول صاحب اليمن ومعه صديق لى يتشفع به عندى ،
فقال لى الرسول :

— يا أبا اسحاق ٠٠ جاريتك ضياء ، هل تبيعها ؟ ٠٠

قلت :

— لا والله ، فقد تعبت فى تعليمها حتى صارت فى الغناء حاذقة راوية
محسنة كل الاحسان ، وقد طلبها منى الامراء والوزراء فأبيت أن أخرجها
من دارى ! ٠٠

فوثب صديقى الذى جاء معه فقال :

— يا أبا اسحاق ٠٠ قد تشفع الرجل بى عندك فشفعنى !

فلم أجبه بشيء ، وأغمضت عيني كأنى افكر وأقلب وجوه الراى ، فقال
لى صديقى :

ناشدتك الله أن تقبل وتشفعنى ، فقلت له :

— قد شفعتك ! ٠٠

فوثب رسول صاحب اليمن فسألنى :

— فبكم تبيعنى الجارية ؟!

قلت :

— بخمسين ألف دينار ، لا أنقص منها دينارا واحدا ٠٠

قال الرجل :

— هل لك فى ثلاثين ألف دينار مسلمة لك معجلة ؟!

فلما وقع فى سمعى ذكر ثلاثين ألف دينار ، ارتج على ، ولحقنى خوف
وشبه ارتعاد ، كأننى أصبت بالحصى ، وقلت فى نفسى وأنا أعالج اضطرابى
ورعدتى : قد كان شرائى هذه الجارية على أربعمائة دينار فقط ، فالربح
فيها بأكثر من تسعة وعشرين ألف دينار ! ٠٠

وأشار على صديقى الذى معه بالبيع ، وركبتنى الوسائس فخفت أن

تموت الجارية فى تلك الساعة قبل أن أبيعها ، أو أموت أنا ، أو يموت
الفضل بن يحيى ، أو يموت رسول صاحب اليمن هذا : فيضيع المال !
فقلت للرجل :

هات المال - وخذها بارك الله لك فيها ! ..

● اليوم الثالث :

بكرت على الفضل بن يحيى فى قصره ، فإذا هو جالس وحده ، فلما بصرت
بى ضحك كثيرا ، ثم قال لى :

- يا ضيق الحوصلة ! .. ياتسرع ! .. يا شديد الحرص ! .. حرمت
نفسك عشرين ألف دينار ؟ ! ..

قلت :

- جعلت فداك ! .. دع ذا عنك ، فوالله لقد داخلنى شيء أعجز عن
وصفه لك ، وخفت أن تحدث بى حادثة ، أو بالجارية أو بالمشتري .. أو
.. بك ! .. أعاذك الله من كل سوء ، فبادرت بقبول الثلاثين ألف
دينار ! ..

فلم يفضب الفضل وقال لاحد غلمانه :

- جىء بالجارية ضياء ! ..

فجاء الغلام بجاريتى وكان رسول صاحب اليمن قد أهداها اليه بمقرب
شرائها وخروجه وإياها من دارى ..

وقال لى الفضل :

- خذ جاريتك مباركاً لك فيها ، فالما أردنا منفعتك ولم نرد الجارية !

فلما نهضت وأخذت الجارية ، ضحك الفضل وقال لى :

- مكانك يا إبراهيم ، فإن رسول صاحب ولاية أرمينية قد جاءنا فقضينا
حوادثه ، وجددنا خدمته ، ونفذنا كتبه .. وقد ذكر أنه جاءنا بثلاثين ألف
دينار يشتري لنا بها ما نحب .. وسارسله اليك فأعرض عليه جاريتك هذه
ولا تنقصها عن ثلاثين ألف دينار ! ..

● اليوم الرابع :

طرق بابى رسول صاحب إمارة أرمينية ، فقلت للغلمان : لا تجيبوه
ولا تفتحوا الباب له حتى يتعب ! ..

فلما تعب الرجل من وقوفه على بابى ، أمرت الغلمان فأدخلوه ، وكان
معه صديق آخر لى يتشفع به عندى كما فعل رسول صاحب اليمن من
قبل ! ..

فقاولنى الرجل بالجارية ، فقلت له متأففا :

— تمنيا ثلاثون ألف دينار ، لا أنقصها دينارا ! ..

قال :

— معى عشرون ألف دينار تأخذها معجلة مسلمة لك فى مجلسنا هذا !

فلم أكد — مع كلام الرجل حتى اعترانى من الخوف مثل الذى اعترانى عند لقائى برسول صاحب اليمن ، وجهدت أن أتماسك وأصر على الثمن الذى أمرنى به الوزير الفضل بن يحيى ، فما استطعت شيئا ، وأخذت المال من الرجل .. عشرين ألف دينار فقط ، وسلمته الجارية ، ومضى بها الرجل ليبديها الى الفضل ! ..

مكثت فى بيتى أياما لا أجرو على زيارة الفضل ، حتى أرسل يدعونى ، فلما رآنى ضحك حتى ضرب الأرض برجله وقال :

— ويحك يا ابراهيم ! .. حرمت نفسك عشرة آلاف دينار !؟

قلت :

— أصلحك الله ! .. خفت والله ما خفت فى المرة الاولى !

فعاد الفضل يضحك ثم قال :

— لا ضير ! .. يا غلام .. اخرج جارية ابى اسحاق اليه ..

فأخذت الجارية ، وعدت الى دارى فقلت لها :

— أنت حرة لوجه الله تعالى ! .. كسبت لى فى أقصر مدة خمسين ألف دينار ! ..

ولما صارت الجارية حرة ، تزوجتها على صداق قدره عشرة آلاف درهما

❶ اليوم الخامس :

جاءنى بعض خدم الخلافة يقولون :

— أجب أمير المؤمنين ! ..

قلت مبتهجا :

— أو قد عاد أمير المؤمنين من غزاته !؟

قالوا :

— انه يدعوك أن تسافر اليه فى الشام ، فانه عاد من الفزو ، وهو الآن يريح الجيش هناك ! ..

فلما بلغت معسكر الرشيد فى الشام ، دخلت اليه فى مجلس لم أر

أحسن منه ، مفروش بأنواع الرخام ، فهناك بالنصر على « كلب الروم » وهو لا يقبل من أحد أن يسمى ملك الروم إلا بهذا الاسم ! ..

دعاني الرشيد الى طعامه ، ثم توليت منادته الى العصر ، وغنيت له حتى طرب وانتشى ، وخلع على خلعة من فاخر ثيابه ، وأمر لي بجائزة كبيرة ! ..
ثم قال لي

- يا ابراهيم .. ما أحدثت بعدى فى بغداد !؟

ققصت عليه قصة جاريتي ضياء ، وما صنعتها ، وما صنع الفضل ابن يحيى ، ورسولا صاحب اليمن وصاحب أرمينية ، فضحك الرشيد ، حتى ظننته لا ينقطع عن الضحك ! ..

ودخل جعفر البرمكى ، فوجده مستغرقا فى الضحك ، فالتزم الصمت حتى فاء الرشيد الى نفسه ، فأمرنى أن أقص عليه قصتى مع شقيقه الفضل ! ..

وعاد الرشيد يضحك ، يشاركه فى ضحكه جعفر ! ..

ثم قال الرشيد

- يا جعفر .. قد أخذ ابراهيم من الفضل خمسين ألف دينار فى أقصر وقت ، فكم تعطيه أنت على هذه القصة !؟ ..

إقطاعية ذى الرمة

● اليوم الاول :

سمعت الوزير جعفر بن يحيى البرمكي يقول أن أمير المؤمنين الرشيد يحفظ ديوان الشاعر ذى الرمة كاملا ، حفظ الصبا ، ويعجبه ويؤثره ويجب أن يسمع الغناء فيه ! ..

قلما كانت السهرة في قصر الرشيد ، غنيته لحنا في شعر لذى الرمة فاطربه .

وأمر لي بجائزة عظيمة ، فقلت بين يديه فقلت له :

— يا أمير المؤمنين : لي حاجة بعد هذه الجائزة التي أكرمتني بها ، وهي حاجة تقوم عندي مقام كل فائدة ! ..

قال :

— أى شيء حاجتك هذه ؟ ..

قلت :

— تقطعني شعر ذى الرمة ، أغني فيه ما أختاره ، وتحظر على المغنين جميعا أن يداخلوني فيه ، فاني أحب شعره واستحسنه ، ولا أحب أن ينتصه على أحد منهم ! ..

تبينت السرور في وجه الرشيد لما قلته ، وأجابني الى ما سألته ، وقال :

— ما سألت شططا يا إبراهيم ! .. قد أقطعتك شعر ذى الرمة كله خالصا لك وحدك لا يتنازع فيه أحد من المغنين ! ..

فأريت المغنين من حولي يضحكون ويستصغرون عقلي ، ويقولون هازئين :

— لقد استضخمت القطيعة يا إبراهيم .

فلم التفت اليهم ، وقلت للرشيد :

— أأذن لي في التوثق يا أمير المؤمنين ؟

قال الرشيد وقد بان التعجب في ملامحه :

— توثق كيف شئت ، فما سألنا الا قطيعة سهلة لا قيمة لها ولا منفعة

فيها لاحد ! ..

قلت :

- بالله وبحق رسوله وبتربة أمير المؤمنين المهدي ، الا جعلتني على ثقة من ذلك ، بأنك تحلف لي انك لا تعطى أحدا من المغنين جائزة على شيء يغنيه في شعر ذي الرمة ، فان ذلك وثيقتي التي تثليج صدري !!

فضحك الرشيد ، وحلف لي مجتهدا لئن غناه أحد من المغنين في شعر ذي الرمة ، لا أنا به شيء ، ولا سمع غناؤه !!

شكرت أمير المؤمنين ، وانصرفت بعد ذلك مع زملائي المغنين !

فلما كنا في بعض الطريق قال لي اسماعيل بن جامع ، ذو الصوت الذهبي والصنعة الجميلة في الغناء :

- يا أبا اسحاق ! والله لقد هزئت بك كما هزىء بك سائر المغنين في مجلس الرشيد ، عند طلبك شعر ذي الرمة خالصة لك دون جميع أهل صناعتك ، ثم تقيتني الى خيئك وبراعة تدبيرك حين رأيته تستحلف أمير المؤمنين الا يسمع غبرك أحدا يغني في شعر ذي الرمة ، ولا يجيزه بشيء ، فقد دلتني ذلك على انك علمت ان الرشيد يحب هذا الشعر ، ويجب أن يسمع الغناء فيه ، فأردت أن تستأثر بجوائزه كلها ..

قلت :

- هو والله كذلك ! ..

قال :

- ما رأيت أشد حمقا من هؤلاء المغنين فقد علموا من قديم دهائك ودقة تدبيرك ، وفاتهم أن يتبينوا ما وراء تدبيرك في شمس ذي الرمة عند أمير المؤمنين ! ..

● اليوم الثاني :

لم أستطع أن أنظم شعرا أغني فيه لحننا جديدا للرشيد ، وخانتني قريحتي فلم تسعفني ببيت واحد من الشعر ، على غزارة ما تفيض به حين لا أكون محتاجا الى فيضها ! ..

دخلت الى بعض حجرات دارى مغموما ، فاسبلت الستور ، وغلبتني عيني فتمت فتشلت لي في النوم شيخ عجيب الخلقة ، فقال لي : يا موصلي مالي أراك مغموما ؟ ! قلت : لاني لا أجد شعرا أغني فيه الرشيد الليلة ؟ ! .. قال : وأين ذهب عنك قول ذي الرمة :

الا يا اسلمي يا دارمي على البلى
ولا زال منهلا بجروعاك القطر

وان لم تكوني غير شام بقسرة
تجر بها الاذيال صسيفية كسج
اقامت بها حتى ذوى العود في الثرى
وساق الثريا في ملائته الفجر

ثم غناني الشيخ لحنا جميلا في هذا الشعر وكرره حتى حفظته وأحكيت
وانتبهت من النوم وأنا أتغنى به كأنني أنا الذي صنعته ، فنأديت جاريه لي
فأحضرت لي عودا ، وما زلت أترنم بالصوت حتى استوى لي على أحسن وجه
.. وطارحته الجارية حتى حفظته وأتقنته ! ..

فلما جلست في السهرة بين يدي الرشيد ، غنيته هذا اللحن ، فطرب
واستعادني فاعدته مرات .. وأسكت المغنين جميعا ، وما زال ليلته كلها
يستعيدني هذا اللحن .. ثم أمر لي بثلاثين ألف درهم ! ..

● اليوم الثالث :

جلست الليلة بين يدي الرشيد ، وعن يميني « زلزل » أعظم ضاربي
العود .. والى يساري د برصوما ، أبرع زامر ، وغنيت :

صحا قلبي وعاد الى عتلي
واقصر باطل ونسيت جهلي
رايت الغانيات وكن صورا
الى هجرني ولظعن حبلي

وضرب زلزل علي غنائي أحسن ضرب بالعود سمعته قط ، وزمر برصوما
في الناي أحسن زمر يقدر عليه الانسان ، حتى ظننت ان الجدران من
حولنا تتحرك طربا لما تسمع من هذا الغناء والضرب والزمر ، واشته طرب
الرشيد حتى وثب على رجله وصاح : يا آدم .. لو رأيت من يحضرني من
ولذلك اليوم لسررت بهم ! ..

ثم فاء الرشيد الى نفسه فجلس وقال : استغفر الله ! ..

والرشيد على شغفه بالغناء ، كثير الذكر لله عز وجل ، وما رأيته أسرف
في الطرب مرة ، الا شفع ذلك بالاستغفار ! ..

وهذا الشعر الذي غنيت فيه ، من نظم أبي العتاسية ، وكان حاضرا
مجلسنا فرأيت يبكى حتى أخضلت لحيته ، ولكنه كف عن الطرب والبكاء
عندما أمر الرشيد لي ولزلزل وبرصوما بجوائز ضخمة ، ولم يأمر له بشيء ،
وهمس لي :

— عجبت لأمير المؤمنين .. اليس ما غنيته فيه من كلامي !؟ ..

فكيف يأمر لك بجائزة ويتساني ..

قلت له

- انه لا يعرف انك صاحب هذا الشعر يا أبا العتاهية !

قال لى :

- فأذكر له اذن انى صاحبه ! ..

فلما ذكرت ذلك للرشيده ، ابتسم .

وقال لابی العتاهية كانه يعاتبه :

- انما طربت للغناء والضرب والزمر . لا لشعرى ! ..

فاوشك أبو العتاهية أن يقع متشيا عليه من الغم والكمد ، حتى أسعفه
الرشيده قائلا :

- ولك أنت أيضا يا أبا العتاهية جائزة ! ..

❶ اليوم الرابع :

قال لى الرشيده الليلة قبل أن يجتمع عنده المغنون فى السهرة :

- أتلعب بالنرد ؟!

قلت :

- نعم يا أمير المؤمنين ، ولكنى اذا قمريت من الالعاب أخذت حقى منه ، واذا
قمرنى أخذ منى حقه ! ..

قال :

- ويحك ! .. أتلعب القمار ؟!

قلت :

- فهذا والله هو الشرط ! ..

فلعبنا . على الثياب التى كانت على بدنى ، والثياب التى كانت على بدن
الخليفة . فلما رأيت الرشيده أقل معرفة منى بالنرد ، تقامرت له ، فقمرنى
وقلت له :

- لقد غلبتنى يا أمير المؤمنين ، وحكم النرد الوفاء بشرطه ، فانا الآن
أخلع ثيابى فتلبسها فقال لى :

- ويلك ! .. أنا ألبس ثيابك كأننى بعض المغنين ؟!

قلت :

- أى والله ، اذا أنصفتنى يا أمير المؤمنين ! .. واذا لم تنصفنى أمكنك
ذلك ! ..

قال :

– ويلك ! .. الا تقبل منى فدية ١٩ ؟
قلت :

– بلى .. وما الفداء ١٩ ؟
قال :

– أعطيك كل ما على جسدى من ثياب !
قلت :

يأمر لى أمير المؤمنين بذلك ، وأنا استخير الله ! ..
فضحك الرشيد ، ودعا بغير ما عليه من الثياب فلبسه ونزع ما كان عليه
فأخذته فاذا شيء عظيم القيمة جدا ! ..
ثم قال لى الرشيد فجأة :

– يا ابراهيم .. ما رأيت أحذق منك فى كل شيء .. أتظن انى غفلت
عن براعتك فى الرد ، وانك تقامرت لى فغلبتكم وأنا قليل الاهتمام بالرد
وليس لى به شغل يجعلنى أغلب فيه أصحابه والمستغلين به من أمثالك ١٩ .
فقلت بسرعة أحاول تبرئة نفسى :

– والله يا أمير المؤمنين ، ما فاتنى انك لا تهتم بالرد ولا تشتغل به ،
ولكنك فى هذه المرة غلبتنى وقمرتنى بحق ، فان هيبتك منعتنى من
استحضار الذهن ، فصرت كأننى لم أر الرد فى حياتى ! ..
قال ضاحكا :

– ما يفليك أحد يا ابراهيم .. فما فعل شعر ذى الرمة عندك ، وكم
كسبت منه حتى يومنا هذا ١٩ ؟

فورد على قلبى من سؤاله هذا الذى فاجأنى به ، ما أوشك أن يسكت
قلبى عن الخفتان ، وعلمت انه لم يفته معنى استخلافى اياه الا يسمع مغنيا
غبرى فى شعر ذى الرمة وان الرشيد لبألف الذكاء ، ولكنه يدارى ذكاءه
أحيانا ، ليبلى ما يريد بلوغه من أمر .. وقد ظننت انه لم يكن متنبيا الى
معنى استنارارى فى مجالسه بالغناء فى شعر ذى الرمة ! ..
استحثنى الرشيد :

– أجب يا ابراهيم .. كم بلغ ما أخذت على غنائك فى شعر ذى الرمة ١٩ ؟
قلت :

– ألف الف درهم .. يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك !
فضحك وقال :

– لقد أقطعتك ما أحببت ! ..

ثم أمر الرشيد فدخل المغنون وبدأت السهرة ، وكنت قد أعددت لها لحنا
جديدا فى شعر ذى الرمة ! ..

غضب الرشيد وكرمه

● اليوم الاول :

مررت عصرًا ببستان مزدهر أنيق ، مفتوح الباب ، وإذا مغن يصدح في البستان بصوت جميل وصنعة متقنة ، وحوله مستمعون قلائل تبدو عليهم نظرة النعيم ، وقد تملكهم الطرب فهم يتصايحون ويشربون ، وأراهم من كتب ولا يرونني لانشغالهم بأمرهم ، فحدثتني نفسي أن أدخل عليهم بغير إذن ، فقلت لنفسي أعظها وأحذرهما مغبة التطفل : قد علمتنا مجالسة الخلفاء والكبراء ومنادمتهم ، أن نستأذن في كل دخول أو خروج ، بل في كل نطق أو سكوت ! فقالت لي نفسي : ولكن هؤلاء الجالسين مع مغنيهم في هذا البستان ليسوا بخلفاء ولا كبراء ، وإن بدت عليهم النعمة ، ووالله ما أنت في هذا بخير من ابن ذي الجناحين الطيار في الجنة !

قلت لنفسي :

– تعين عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب !؟

قالت :

– نعم .. هو بعينه .. عليه السلام وعلى آل بيت رسول الله ..

قلت :

– ويحك يا نفسي .. وأين أنا منه !؟ .. وهذا نسبه الشريف يجمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم في جده عبد المطلب !؟ وكيف أساميه فأكون أحق من بشار بن برد حين زعم أنه لو ملك من المال ما كان يملكه ابن جعفر ، لساماه في الجود ولم يترك فقيرًا إلا أعطاه من دراهمه ودنانيره !

ضحكت نفسي وقالت :

– دع هذا عنك ، فلا أكلفك أن تساميه في الجود ولا في الحساب والنسب ! .. ولكن أقول لك : اصنع كما صنع هذا الشريف حين صنع مرة غناء عند قوم فدخل عليهم بغير إذن وقال لهم :

– إنما ادخلني عليكم مفتيكم لا سمعته يفتني :

قل لكسرام يبابنا يلجوا

ما في التصابي على الفتى حرج

قلت لنفسى : افعل اذن .. غير متشبه بابن عم رسول الله ، فأين أنا منه ، بل أين منه خليفتنا هارون الرشيد نفسه ، وهو ملك المشرقين وسيلطان الخاقين ، وهو ابن عم رسول الله أيضا ؟ !

دخلت البستان على استحياء ، فلما صرت أقرب ما أكون منهم ، وجدته لا أعرف أحدا منهم الا مغنيهم فانه تلميذى ومريدى هاشم بن سليمان ، ووجع القوم لرؤيتي ولعلمهم قالوا فى أنفسهم : من هذا الطفل الذى يقتحم علينا بلا اذن منا ؟ ! .. ولعلمهم هموا بزجرى وطردى ، الا ان هاشما المغنى وثب من بينهم يجرى حتى لقيتنى ، فعانقنى وقبل يدى ، وسلم تسليم صديق مشتاق شديد المحبة لصديقه ! ..

جلست الى القوم ، فرحبوا وانطلقت أسارىهم بعد تجمهم ، الا أنهم لم يعرفونى .. فقلت لهم :

- انى اجتزت بكم فسمعت غناء هاشم بن سليمان فاستخفنى وأطربنى فدخلت اليكم ، واثقا بأنه لا يعاشر الا فتيانا ظرفاء مثله ، وها أنتم هؤلاء تغربوننى بظرفكم وحلاوة شمائلكم ..

قال أحدهم :

- ان نفوسنا صارت متعلقة بك وبمعرفتك ، فمن أنت ، أمتع الله بك ؟ !

فصاح هاشم المغنى :

- ويحكم .. اما تعرفون أبا اسحاق ابراهيم الموصلى ؟ !

بهت القوم لحظة ثم وثبوا فضمروا رأسى بالقبلات ، وقالوا : انعمت علينا وسررتنا وبذلت لنا مودتك ، وأجلستنا منك مجلسا يتمناه الاشراف والكبراء ولا يظفرون به ! ..

● اليوم الثانى :

قلت اليوم لابنى اسحاق وقد رأيته منتفشا بما صار اليه من الحذف فى التلحين والفناء ومعرفة تراث الاقدمين فى هذه الصناعة

- أما سمعت اللحن الجديد الذى صنعته فى قول عمر بن ابي ربيعة :

ليت هذا انجزتسا ما تعد

وشفت أنفسنا مما تجد

فنظر الغلام الى نظرة منكرة وقال :

- لا والله يا أبت ما سمعته ! ..

قلت وانا أفكر فى نظرتي التكرار هذه ، ما سببها ؟ ! ..

- اسمعه اذن .. ثم هات رأيك بصراحة !

غنيته الصوت مجتهدا فى أدائه كل الاجتهاد ، كأننى أغنى فى حضرة

خليفة أو ولي عهد أو وزير ، لعلنى بما بلغه ابنى هذا من العلم بالالحان ورواية غناء القدماء ، فضلا عن جودة صنته ودقة غناؤه وأدائه على صغر سنه ..

فلما فرغت من اللحن ، وضمت العود جانبا ، وتطلعت الى ابنى انتظر رايه ، كائننى والله كنت فى امتحان هو فيه الامتاذ وأنا التلميذ !

لكنه لم ينطق ، ونكس راسه متجهما مفكرا ، فصحت به استجته :

— الا تقول شيئا ؟

فتحمل كأنه يعالج هما ثقيلًا يحاول زحزحته عن صدره ، ثم قال فى صوت خافت :

— يا أبت .. ان الملحنين والمغنين من حولك يعدون عليك انقاسك ، ويعيبون محاسنك ، وأنت عنهم فى شغل .. ولو سمعوا لحسنك هذا لخاصموك فيه وعابوه وانتقصوا من قدرك وأنت رأس هذه الصناعة ، وهم ذيول وزعانف !

قلت : ولم ذلك لله أبوك ؟

قال : لان ابن سريج امام القدماء من أهل الصناعة قد عمل فى هذا الشعر لحنا رائعا وجئت أنت فعارضته بهذا اللحن الذى لا يقاربه . ولن يترك الناس لحن ابن سريج افتنانا بلحنك هذا .. وستجده منهم من يقول : قد جرى الموصلى فى غبار ابن سريج فكبا دون مداه ، وظهر تقصيره ، وثبت لابن سريج فضله وتقدمه !

قلت لابنى وقد أخذتنى العزة :

— اترك كل شعر صنع فيه ابن سريج لحنا فلا تصنع فيه لحنا جديدا ، لكيلا يقال اننا نعارضه بالحنانا فنقصر عنه ؟

قال هادئا :

نعم .. تترك ما تداوله ابن سريج والقدماء من الشعر فى غنائهم الذى يرويه الرواة ، وتأخذ فى غيره ، فان الشعر كثير ، ولخير لنا أن ننظم الشعر ونلحنه ، من أن نعبد الى شعر صنع منه القدماء الحانا فائقة ، فنصنع فيه ما يتركنا نحجل وراءهم كأننا أصابنا الكساح !

غضبت أشد الغضب من جرأة هذا الولد ، فانه جعل ابن سريج قمة الغناء ، وجعلنى السفح أو دون السفح ، وجعله فرسا يجرى فى الرهان ، وجعلنى كسيحا أحجل وراءه ، فما أشعر الا ويدي تمتد الى الغلام فتلطيه على وجهه لطمة هائلة ، فذهض لا يتكلم ، وخرج ! وبقيت فى مكانى خزيان اسفا ، لا أدري ما أقول ولا ما أصنع !

● اليوم الثالث :

اعتكفت العشية فى منزلى ، فجاءنى خادم من خدم الخليفة الرئيسيه

فاستحثني بالركوب اليه ، فخرجت اليه شبيها بالراكض حتى دخلت عليه
 فلما هو جالس على كرسي في صحن واسع بالدار ، ليس عنده الا خادم
 يسقيه ، فلما رأني هتش لي وسر وقال : « يا موصلي .. اني اشتيت أن
 أجلس اليك ، وأحببت الا يكون معي ومعك أحد » .. ثم صاح بالخدم ،
 فوافاه مائة وصيف كانوا مستترين بالاعمدة ، فجاءني بعضهم بمقعد
 فجلست عليه تجاه الرشيد ، وقال لي : « بحياتي أطربني بما قدرت » !!
 ففعلت واجتهدت في ذلك ورجوت الجائزة ، فبينما أنا كذلك ، جاء الخادم
 مسرور الكبير فآسر في أذن الخليفة كلمة ثم تنحي ، فاستشاط الخليفة
 غضبا ، واحمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ثم صاح :

« حتام اصبر على آل بنى ابي طالب !؟ » .

ذعرت من صيحة الرشيد ، وكدت أموت خوفا من منظره غاضبا ، ووعيده
 لآل ابي طالب بالقتل الذريع .. وقلت في نفسي : أنا لله .. ليس عند هذا
 الملك الجبار الساعة أحد يخرج غضبه عليه سوى .. وأحسبه مسيقع بي
 ويقتلني ، فيذهب دمي هدرًا ، فما أنا من آل ابي طالب فأكون شهيدا ، وأنا
 أنا مغب مجاء يغنيه ويسليه ! .

ثم حملني الطمع في النجاة من القتل على أن أندفع مغنيا هذه الابيات :

نعم عونا على الهمسوم ثلاث

فترعات من بعدهن ثلاث

بعدها اربع تتممة عشر

لابطاء لكنهن خثاث

فاذا ناولكنهن جوار

عطرات يفيض الوجوه خثاث

تم فيها لك السرور وما طيب

عيشنا الا الخثاث الاناث

صاح الرشيد في وجهي وقد حاجه الغناء :

ـ ويلك ! .. اسقني ثلاثا لا أمت هما ! ..

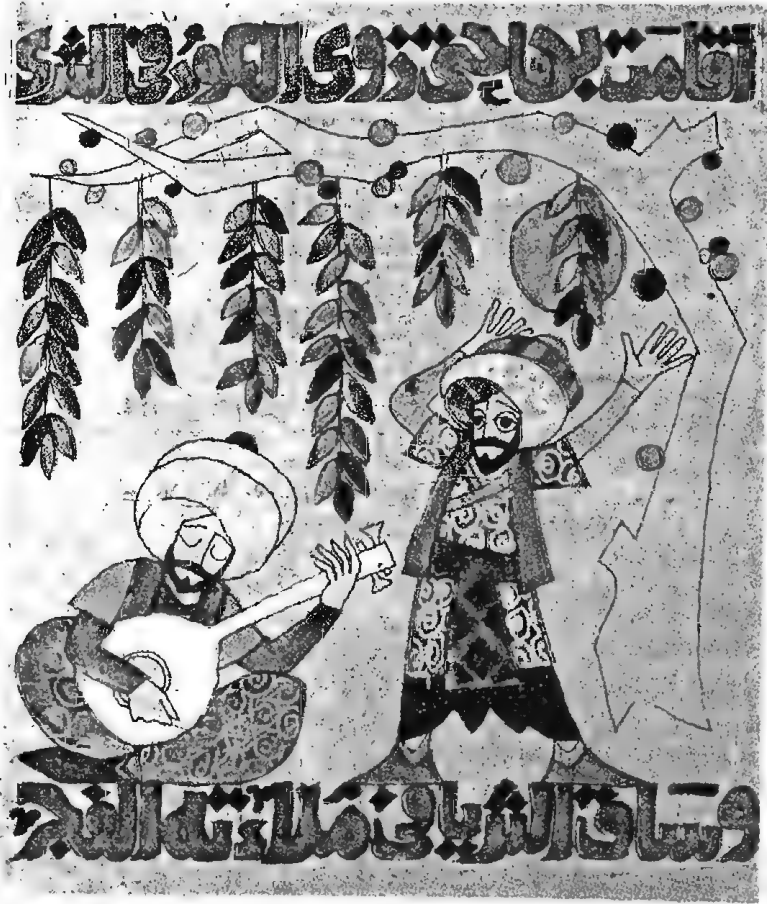
فشرب ثلاثا متتابعات ، وقال : « غن هذه الابيات مرة أخرى .. ويلك »
 فلما غنيتها ثانية ، هدا قليلا وقال : « هات ثلاثا أخرى .. وأعد غناء
 الابيات » فأعدتها ، فقال : « حث على بأربع تنمة العنتر كما يقول الشعر »
 وأتم الرشيد العنتر فانتشى وانبسطلت أساريره ، وعادت اليه أريحيته ،
 وانقشع غضبه ، ونسي المؤمرين به من آل ابي طالب ـ أبناء عمومته ـ
 ثم نهض مثقلا بالنشوة خفيفا بها في وقت معا ، وقال لي : « ثم ياموصلي
 فانصرف الى بيتك » !

نقمت بملؤني الغم لضياح الجائزة ، فلم أكد أخطو خطوة حتى نادى

الرشيد مسرورا الخادم فقال بلسان ينطق في نشوة ، وبلهجة متومسلة
لا يحتاج اليها خليفة في اصدار امره النافذ الى خادمه المطيع :

- يا مسرور .. اتقيت عليك بحياتي ، ويحقي ، الا سبقت الموصل
الى منزله بمائة ألف درهم ، لا استأمر فيها ولا في شيء منها !

فلم اصدق ما سمعت من كلام الخليفة لخادمه ، ولكنني امنت من خوف ،
ومضيت الى منزلي منهملا .. فما دخلت من الباب حتى وجدت مسرورا
وأعوانه يخرجون منه وقد سبقوني الى منزلي بالمائة الالف درهم .



تاجر الجوارى

● اليوم الاول :

كثير من زملائي علم صناعة الغناء يحسدونني ويقولون : فاز والله إبراهيم الموصلی بنصيب الأسد من جوائز الخليفة هارون الرشيد .

ويعلم زملائي علم اليقين اننى واياهم مضطرون الى الاشتغال بأعمال تجارية ، وأعمال أخرى متنوعة ثقيلة على النفس ، نمارسها سرا وعلانية لنجمع نفقات حياتنا الباهظة التى لا تفى بها مكاسبنا من صناعة الغناء وحدها ، مهما كثر ما يحصل عليه المغنى من جوائز الخليفة وهدايا الامراء والكبراء ..

وقد غمرتني عطايا الخلفاء والوزراء والنبلاء ، حتى بلغ ما اعطانيه الخليفة موسى الهادى - رحمه الله - مائتى ألف دينار من خالص الذهب فى يومين اثنين فقط ! .. كان ذلك كرما منه لم يحظ بمثله مغن آخر غيرى ، ولو عاش الهادى لينبت حيطان منزلى بالذهب والفضة ، ولكنه لم يعيش فى الخلافة الا عاما وبعض عام ، وجاء يعقبه أخوه هارون الرشيد ، وهو بالقياس الى الهادى يعد شبه بخيل وان كان من الاجواد بالقياس الى الاغنياء الاشحاء فى هذا الزمان ، ولا استثنى الا البرائكة الكرام ! ..

لو عاش الهادى لاكتفيت بصناعة الغناء وما يأتينى من جوائزه المائلة ، أما الآن فان جوائز الرشيد لا تكفى مطالب الحياة المرهقة فى بغداد ، وسط البذخ الذى يتقلب فيه ساداتنا الذين فتنى لهم !

فهل يلومنى أحد على احترافى التجارة فى الجوارى المغنيات .. أعلمهن اصول الغناء وأصقلهن حتى يصلحن لحياة القصور ثم ابعهن للنبلاء من بنى هاشم ، والاثرياء من العرب والعجم المستعربين المتحكمين فى المناصب العليا للدولة ! ..

وأحمد الله اننى أبيع الجوارى بيعا شرعيا ، لا أقدمهن للإمور والسمير فى ليالى بغداد ، ثم أقودهن فى مطلع الفجر عائداً الى بيتى ! ..

وأنا أجتلب الجوارى من أسواق الرقيق ، صغيرات جميلات الوجوه والاجساد ، واشترط فى لون بشرتهن البياض أو الشقرة أو السمرة المائلة الى البياض .. ولا أشتري الجوارى الصفر المجلوبات عن الصين ، ولا القاتمات الالوان المأخوذات من الهند والسند ، ولا الزنجيات المستوردات

من أفريقية ، فان هؤلاء الصقر والسود لا يصلحون الا للخدمة فى المطبخ .
أو كنس المنازل ، أو رعاية الاطفال ..

وأنا أول من ذهب فى تقسيم الجوارى هذا المذنب ، فجعلت السود
للخدمة ، والبيض للفناء والمنادمة ..

وكان الناس قبل ذلك يجلبون الجوارى البيض الحسان للمتعة أو
« لتبييض النسل » على حد قول جفاة الاعراب الباحثين عن زوجات أو اماء
من غير نساء البادية الجافيات ! ..

وأما الغناء فكان الناس يعلمونه لذوات الاصوات الجميلة من الجوارى
الصقر والسود ، وحجنتهم فى ذلك ان الرجل لا حاجة له فى الجارية السوداء
أو الصفراء الا الغناء وحده ، وليس به حاجة عندها الى شىء سوى الغناء .

وقد استطعت أن أقلب هذه القاعدة فى نخاسة الجوارى واستخدمهن ،
فصارت البيضاء والشقراء للغناء والمنادمة ، وانصرفت السوداء والصفراء
الى الخدمة فى البيت والمطبخ ! ..

ثم نشأت طائفة من الجوارى الصقر والسود حظين عند ساداتهن وولدن
لهم البنين والبنات ، حتى كثر الخلاسيون من نسلهن ، وكلما رأيت زميلنا
فى الصناعة « الامير ابراهيم بن المهدي » وهو أخو الخليفة الرشيد ،
تذكرت هذا الصنف من الجوارى ، فان ابراهيم بن المهدي اسود اللون ،
لا يشك أحد فى لون من ولدته من الجوارى اللاتي كن فى ملك الخليفة
المهدي رحمه الله ! .. وان زميلنا الامير ابراهيم بن المهدي ليشمخ علينا
مع هذا ، ويفخر بأنه هاشمى النسب من أحفاد عباس بن عبد المطلب بن
هاشم ، وان كان غارقا الى أذنيه مثلنا فى صناعة الغناء ! ..

وقد نفقت بضاعتي عند الخلفاء والامراء والوزراء والاثرياء ، وبعث
الجوارى البيض المغنيات بأثمان عالية ، واقتدى بى المطربون والملحنون
جميعا وامتلات مقاصير بيوتهم بالجوارى الحسان البيض والشقر من بنات
الروم والكرد والفرس والارمن وغيرهن ! ..

● اليوم الثانى :

ضحكت حين سمعت صديقا شاعرا لى يهجونى ، لانه اعتبرنى مسئولا
عن غلاء اسعار الجوارى المغنيات .. كان هذا الشاعر قد أحب جارية فاراد
شراءها من مولاهما فأغلى عليه ثمنها حتى أعجزه عن شرائها ! .. هذه الجارية
تعلمت الغناء على يدي وبعثها لمولاهما هذا الذى يقالى بها السوم حتى يبلغ
أقصى ربح يستطيعه ..

ولما ينس الشاعر من الحصول عليها قال معرضا بى

لا تجزى الله الموصلى إيا أسحاق

عنا خيرا ولا احسانا

جاءنا مرسلًا بوحي من الشيطان
اغلي به علينا القيسان
من غناء كانه مسكرات الحب
يصيب التلويح والاذان

وسمع هارون الرشيد عن جارية مغنية عندي ، فطلبها واشترعا مني
بسةة وثلاثين ألف دينار ، فأقامت عنده ليلة واحدة ، ثم أرسل الى حاجبه
الفضل بن الربيع يقول له : اننا اشترينا هذه الجارية من ابراهيم ونحن
نحسب انها من « بابتنا » وتصلح لنا فيما يصح به مزاجنا ، وليست كما
ظننتها ، وما قربتها ، وان كنت سمعت بعض غنائها • وقد ثقل علينا
تمنها ، فاذهب الى ابراهيم فقل له ان يحطنا من ثمنها ستة آلاف دينار ••
فجاءني ابن الربيع في منزل وأخبرني بما قاله الرشيد ، فقلت له : أراد أن
يلو قدرك عندي ، فقال ابن الربيع : ذاك أراد ! •• فقلت : قد حططتك
انتي عشر ألف دينار !

فرجع الفضل بن الربيع الى الرشيد بالخبر فقال له الرشيد : ويلك !
•• أدفع الى هذا الرجل ماله ، فما رأيت سوقة قط أنيل منه نفسا ! ••

وكان ولدي اسحاق قد علم بما حططته من المال ، فاستكثره وقال لي :
ما كان لحطيطة هذا المال معنى ! •• فقلت له : أنت أحمت ، فوالله لو
أخذت ثمن الجارية ولم أحطط منه شيئا لما أعطانيه الرشيد الا وهو كاره ،
ثم يحقه على وأكون عنده صغير القدر ، ولكنني مننت عليه - وهو الخليفة
العظيم - ومننت على حاجبه أيضا ، فانبسطت نفسه وعظم قدرى عنده ، ثم
دفع الى المال كله لا ينقص دينارا واحدا ، وانما اشتريت هذه الجارية من
سوق الرقيق بأربعين ألف درهم تساوي ثلاثة الاف دينار أو أقل ، فربحت
فيها هذا الربح العظيم ! •

ثم قلت لولدي :

- كيف رأيت يا اسحاق !؟ •• من البصير •• أنا أم أنت !؟ ••

قال :

- بل أنت •• جعلني الله فداك ! •• وقد تعلمت منك درساً يفيدني
مدى عمري ! ••

● اليوم الثالث :

يمتلئ منزلي الآن بالجوارى المغنيات اللاتي أودعهن أصحابهن عندي ،
وهم جميعا من المطربين والممثلين اصدقائي الذين يسافرون الى الامصار
للارتزاق ثم يعودون ••

هؤلاء الاصدقاء يسافرون الى أقصى البلدان آمنين على جوارهم في بيتي ،
ولا يأمنون عليهم في بيت احد سواى من أهل صناعتنا •• حتى بلغ

ما اجتمع منهم عندي الآن ثمانين جارية مغنية ، كلهن ودائع لاصدقاء أعزاه
ياكلن ويشربن ويكتسبن من مالى ، وأرى أن ذلك واجب لابد لى من أدائه
لاصدقائى الذين استودعوني جواريتهم وهن رأس مالهم ، أو جزء كبير من
رأس مالهم ! ..

وكل جارية حين ترد الى مولاهما ، لابد لى من كسوتها واعطائها بعض
المال ، حتى تعود اليه وهى فى أحسن حال ، فضلا عما تكتسبه من زيادة
العلم بصناعة الغناء ..

وهذا ما جعل الرشيد يقول مرة فى مجلس الغناء أمام جميع الحاضرين :
ما أعرف احدا أكثر أصدقاء من ابراهيم ! ..

وهو يصغنى بأننى أكثر السوقه نبلا ، وانما يقصد بالسوقه عامة الناس
من ليسوا من أولاد الخلفاء ولا من بنى هاشم ولا من طبقة الحكام ! ..

● اليوم الرابع :

اصبحت السماء متغيمة ، تطلش طشبا خفيفا ، فنشطت للصباح ،
والغناء .. واذا بتلميذى « مخارق » صاحب الصوت الذهبى يدخل منزلى
فيسلم ويجلس وهو يترنم ببعض النغمات ..
قللت له :

— يا مخارق .. ان صناعة الغناء ما عادت تفى بمعيشتى ! ..
فدهش مخارق وقال :

— وكيف ذلك يا أستاذ وانت أقرب اهل الصناعة الى الخليفة وعظماء
الدولة ، ولك من عطائهم نهر يجرى بلا انقطاع ! .. ولك من بيع الجوارى
المغنيات نهر اخر يجرى بالزيادة لا بالنقصان ، وقد سمعتك مرة تقول انى
ما دخل خزانك من بيعهن بلغ عشرين ألف ألف درهم .. فمن الذى يملك
هذا المال كله ويشتكى ضائقة العيش ايها الاستاذ !؟ ..
قلت له :

— اسمع ويحك ، أنت حدث غر لا تدري من هذه الدنيا شيئا .. أقعد
ويحك ! فقد أتانى خبر ضيعة تجاورنى فتمنيت أن املكها ، ولكن تمنها
مائة ألف درهم ! ..

قال مخارق ..

— وما تكون مائة ألف درهم ، وفى خزانك اضعاف اضعافها والحمد
لله !؟

قلت :

— صدقت .. ولكن نفسى لا تطيب بدفع هذا المال ، فاجلس وخذ عنى
هذا اللحن :

فام الخليسون من هم ومن مسلم
وبت من كثرة الاحسزان لم انم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا
اعمد ليحيى خليف الجود والكرم

فلما أخذ مخارق هذا اللحن متى وأحكمه ، قلت له : امض الساعة الى باب يحيى بن خاله البرمكى الوزير ، فاستاذن عليه ، وحدته بخبر الضيعة وأعلمه انى صنعت هذا اللحن ولم أر أحدا يستحقه الا « فلانة » جاريتة ، فإنه سيدهوها حتى تطرح عليها الصوت وتحفظه ..
فقبل مخارق ذلك ، فأمر له الوزير بمشرة الاف درهم ، وأمر الخدم بأن يحملوا الى دارى مائة ألف درهم ثمن الضيعة ! ..

● اليوم الخامس :

جاء مخارق وقال : ما أراك الا سارعت فاشتريت الضيعة ! .. قلت : لا والله .. فما كدت أرى المال محمولا على رءوس الخدم حتى شجحت به فصار مثل أموالى التى حوتها خزائنى ! .. فاجلس حتىلقى عليك صوتا يفوق ذلك الصوت :

وفرح بالمولود من آل برمك
بفاة الندى والسيف والرمح ذو النصل
وتبسط الآمال فيه لنفسه
ولا سيما ان كان من ولد الفضل

فسمع متى مخارق ما لم يسمع مثله قط من روائع الالكان ، فلما أحكم حفظه أمرته أن يذهب الى الفضل بن يحيى البرمكى ويعلمه بخبر الضيعة وما وصلنى أمس من مال أبيه .. فلما سمع الفضل القصة قال ضاحكا : أخرى الله ابراهيم فما أبخله على نفسه مع كرمه على الناس ! .. ثم دعا جارية فأخذت منه اللحن ، وقال له : أحسن والله أستأذك الموصلى التلحين وأحسننت أنت الغناء ، ثم أمر لمخارق بعشرين ألف درهم ، وأمر لى بمائتى ألف درهم ، لم أكد أراها حتى شجحت بها على الضيعة ، فلما جاءنى مخارق قال لى : والله ما أظن أحدا نال فى هذه الدولة ما نلت يا أبا إسحاق ، فلماذا تبخل على نفسك بشيء تمنيته دهرًا وقد ملكك الله أضعاف ثمنه ١٩

ثم اننى ألقيت على مخارق لحنًا ثالثًا فذهب فغناه جعفر بن يحيى وقص عليه قصة الضيعة فأمر لمخارق بثلاثين ألف درهم ، وأمر لى بثلاثمائة ألف درهم ! ..
وجاء مخارق فقال لى : ما خبر الضيعة ١٩ .. فان عندك الان من يحيى البرمكى وولديه ستمائة ألف درهم ، ستة أمثال ثمن الضيعة ! ..

فقلت له : هذا صك الضيعة ! .. لم أشتريها من هذه الستمائة ألف درهم ، بل أشتريها لى الوزير يحيى بن خاله البرمكى من ماله وكتب الى

قائلا : « قد علمت يا ابا اسحاق ان نفسك لا تسخو بشراء الضيعة من مال يحصل لك ولو حيزت لك الدنيا كلها ، وقد ابتعتها من مالي ووجهت لك بصكها » ! ..

فنظر مخارق في وجبي مبهوتا متحيرا ، فانفجرت باكيا احرا بكاء ، وظلمت ابكى حتى اشتفيت ، ومخارق يبكي معي ! ..

ثم قلت له : يا مخارق اذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء ، واذا غنيت فمثل هؤلاء ! .. هذه ستمائة الف درهم ، وضيعة بمائه الف ، ولك انت ستون الفا .. حصلنا ذلك اجمع وانا جالس في مجلسي لم ابرح منه ، فمتى يدرك زماننا احدا مثل هؤلاء ؟ ..

من غناء كاتبة سكرات الحب



الليالى الأربع

● اليوم الاول :

ضج الخدم واستيقظت الجوارى فى بيتى قوئبت مذعورا أصبح ليهم :
ما أيقظكم فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وقد نام الناس وليس فى بغداد
كلها يقظان غيركم ؟!

دنا خادم منى وقال بصوت يرجف رعبا :

— هذا أمير المؤمنين هارون الرشيد يقف على باب دارك وحوله ما لا يحصيهم
إلا الله من الخدم والاتباع ! ..

ارتديت ملابسى كلسج البرق .. جريت والخدم تفتح الابواب .. تفصارت
فى نفسى الظنون ! .. فما الذى يحمل الخليفة العظيم على زيارتى ، وأنا
خادمه وصنيعته ، ولو بحث فى طلبى ، لكنت عند قدميه فى أية ساعة من
ليل أو نهار ؟!

أسرعت الى الباب وبى مثل الجنون من الخوف والزهو والفرح وسوء
الظنون ، فتلقيت أمير المؤمنين فاهويت على حافر حماره فاشسجت حافر
الحمار تقبيلا ، ثم رفعت رأسى أقول :

— يا أمير المؤمنين ، أنى مثل هذه الساعة تظهر ؟!

قال :

— نعم .. شوق طرق لك بى ! ..

ثم نزل فدخل وجلس فى طرف من الايران واجلسنى الى جواره ، فقلت له :
— سيدى أنتشط لشيء تأكله ؟!

فأصاب من الطعام شيئا يسيرا ، ثم دعا بشراب كان خدمه يحملونه ..
فلما فرغ قلت :

— سيدى ، أوغنيك ، أم تغنيك اماؤك ؟!

قال :

— بل الجوارى ..

فاخرجت اليه كل جارية مغنية فى بيتى ، فاخذن مجلسا قبالة وفى
أيديهن عيادتهن ..

فقلت :

— يا سيدى .. اضرين كلهن ، ام واحدة واحدة !
قال :

— تضرب اثنتان ، اثنتان .. وتغنى واحدة فواحدة .

فضربت الجوارى وغنن ، والرشيذ يسمح ولا ينشط لضرب ولا غشاء ،
فانه سمع فحول المغنين جميعا ، وصار له بالغناء بصير وذوق ودقة فهم لم
أجد مثلها فى أحد ، الا فى الوزير جعفر البرمكى ..

فلهذا عجزت الجوارى عن اطرايه ، على أن فيهن بعض المجيدات لكنهن
أقل مما يطلبه فى الغناء اجادة وحذا ..

فخشيت أن يخرج من بيتى متكبرا ، حتى غنت جارية صغيرة كانت آخر
من غنى :

يا موى الزند قد أعيت قوادحه

اقبس اذا شئت من قلبى بمقباس

ما اقيح الناس فى عينى وأسمعهم

اذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فطرب الرشيد لغنائها ، واستعاد اللحن مرارا ، وشرب عليه ، ثم سأل
الجارية :

— من صاحب هذا اللحن ؟

فخرجت أن تكذب الجارية فى الإجابة لأن الصدق فى هذا المقام قد
يفضيه ، الا انها أمسكت عن الكلام ، ونضج جسمى عرقا وعلمت أن الرشيد
لا يخرج من بيتى حتى يعرف اسم صاحب اللحن ، وهو ما أخشى أن يعرفه !
فاستدناها فتعاسمت ولم تقترب منه خوفا ، فأمر فأقيمت حتى وقفت بين
يديه فأخبرته بشئ أسرته إليه ! .

انتفض الرشيد واقفا ، ولم ينظر ناحيتى ، وخرج من بيتى ، فدعا بجماره
فركبه ، ثم التفت فقال لى :

— يا ابراهيم .. ما ضرك الا تكون خليفة ! ..

ثم انصرف وحوله الخدم والحشم يضيئون الظلام بشاعلهم ويوقظسون
ليل بغداد ..

كدت أموت خوفا وجزعا ، فان الجارية أخبرته ان اللحن من صنعة أخته
الاميرة عليه بنت المهدي .. وكانت عليه قد وجهت الى بهذه الجارية لاطارحها
بعض الحانى لتحفظها وتحكمها وتؤديها اليها ..

فهذا ما أسخط الرشيد ، لانه شديد الغيرة على حرمة ، وانه ليسمع غناء
أخته عليه ولكنه يغار عليها ، ويتقصى أخبارها ، ويضيق عليها فى شراء
الجوارى والعلمان ، وان كان يأذن ل أخيها ابراهيم بن المهدي بالغناء مع سائر

المغنين ويهب له الجوائز كما يهبها لهم ..

قبل طلوع الشمس ركضت الى قصر الخلافة فالتقيت بمسرور الفرغانى
خادم الرشيد ، فسألته :

— اكننت على علم بما انتوى امير المؤمنين من زيارتى فى تلك الساعة ولم
تخبرنى ؟!

قال مسرور :

— لا والله ! .. ولكن امير المؤمنين هب من نومه ليلا ، فدعا بحماره الاسود
القريب من الارض فركبه ، وهو يؤثر ركوبه ويرتاح على ظهره ، وليس
دراعة من الوشى وتلثم بعمامة موشاة والتحف بازار من الوشى ايضا ، ونادانى
فقلت له : أين يريد امير المؤمنين فى هذه الساعة من الليل ؟ .. قال : اريد
منزل ابراهيم الموصلى ! .. فخرج وأنا بين يديه ومعى اربعمائة خادم أبيض
سوى الفراشين ، كما رأيت عندما وصلوا الى دارك ! ..

فقلت لمسرور

— أرايته غاضبا بعد انصرافه ؟!

قال :

— ولماذا يفضب ؟! .. لقد نشط لتلك الحركة فى الليل ، وسر بها ، فلما
كان الصباح ، استدعى أخته عليّة . وأمرنى أن أقف على الباب .. ثم لم
ألبث أن سمعت عليّة تغنى لحنا كأنه اللحن الذى غنته جاريتهما التى سمعها
فى بيتك ؟!

قلت لمسرور

— اكننت تعزف يا مسرور ان هذه من جوارى عليّة أخت امير المؤمنين ؟!

قال مسرور فى خيلاء :

— لو جهلت ذلك لما استحققت ثقة امير المؤمنين ! ..

● اليوم الثانى :

جاءنى اليوم مخارق ، وهو مطرب صغير السن ، مطبوع يدعى الصنوت
.. لم أسمع صوتا يقاربه أو يساويه الا صوت اسماعيل بن جامع ، وصوت
ابراهيم بن المهدي ..

هؤلاء الثلاثة أجمل الاصوات فى أيامنا ، وقد أخذ عني مخارق فنسونا
كثيرة ، وعرف الصنعة حتى برع ، فصار يحب سماعه .. وكان مخارق قبل
ذلك خادما بقصر الخلافة فى غمار الخدم الذين لا يحصيهم الا الله ..

جلس مخارق بين يدي ، فطارحته لحنا فى شعر للاحوصى حتى أخذ اللحن
وحفظه وأحكمه ، ثم غناه لى ، فسمعت والله أطيب غناء يخرج من حلق هذا
الفتى الناشئ ، فجعلت أبكى وأقول له :

— يا مخارق .. أنت والله بعمى صاحب اللواء فى هذا الشأن ! ..

● اليوم الثالث :

خرجت ركضا من بغداد الى قرية فيها امرأة تصنع أطيب التبيد ، لها بنت من أجمل النساء وجها وقواما وافتنهم حديثا ، لا يراها ذو قلب الا استحلاها وتعلق بها .. ولو كانت جارية تباع لاشتريتها بما أملك من المال ولو كانت تقبل التزويج لتزوجتها ..

قلت لها :

- انك يا خليلي رجل ظالم ، زعمت انك تهوانا ثم هجرتنا ! ..

قلت لها

- انى أستجير بك من ظلمك ! ..

ثم عدت من هناك وأنا أردد بيتين نظمتهما

وزعمت انى ظالم فهجرتنى

ورميت فى قلبى بسهم نافذ

ونعم ظلمتك فاعفوى وتجاوزى

هذا مقام المستجير العائد

ثم عكفت على تلحين ما نظمت ، ولعله يعجب أمير المؤمنين ..

● اليوم الرابع :

ضربت اليوم خادما من خدم الخليفة ضربا مبرحا ، ثم ركبته الى الخليفة لاخبره قصته ..

وفى طريقى الى القصر تذكرت كيف اننى منذ شهر بكرت على أمير المؤمنين حتى تصطبج ، فاذا أنا به خاليا وبين يديه جارية حلوة المنظر ، فقال لها : غنى فقد جاء الموصلى ! .. ففنت فى شعر أبى نواس :

توهمه قلبى فاصبح خده

وفيه مكان الوهم من نظرى اثر

ومر بفكرى خاطرا فجرحته

ولم ار جسما قط يجرحه الفكر

وصافحه قلبى فآلم كله

فمن غمز قلبى فى انامله عقر

فذهبت الجارية والله يعقل نحسن غنائها ، حتى كدت أفتضح فقلت : من هذه يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ؟ ! ..

فقال ضاحكا :

- هى التى يقول فيها الشاعر :

لها قلبى الغداة وقلبا لى

فنتن كذلك فى جسدين روح

ثم غنت مرة أخرى ، فطار عقل شعاعا ، حتى تنبه الرشيد وأدرك أن قلبى
تعلق بالجارية ٠٠ فشرب وسقانى وسقاها ، ثم قال : غن يا ابراهيم فغنيت
حسب ما فى قلبى غير متحفظ من شيء :

تشرب قلبى جها ومشى به
تمشى حميا الكاس فى جسم شارب
ودب هواها فى عظامى فشنها
كما دب فى اللسوع سم العقارب

فطن الرشيد بتعريضى هذا ، وكانت جهالة منى ، فأمرنى بالانصراف ،
ولم يدعنى الى مجلسه شهرا ، ثم دس الى خادمه هذا الذى ضربته اليوم ٠٠
جاءنى هذا الخادم برقعة مكتوب فيها :

قد تخوفت أن اموت من الوجد
ولم يدرك من هويت بما بى
يا كتابى فاقر السلام على من
لا أسمى وقل له يا كتابى
ان كلما اليك قد بعثتنى
فى شقاء مواصل وعذاب

فلما قرأت الرقعة فطنت لما وراءها وقلت للخادم : ما هذا ؟ قال :
رقعة الجارية فلانة التى غنتك بين يدى أمير المؤمنين ! ٠٠ فوثبت على الخادم
وضربته ضربا مبرحا ، ولما ركبت الى الرشيد وأعطيته الرقعة ، ضحك حتى
كاد يستلقي ، ثم قال : « على عمد فعلت ذلك بك لامتحن مذهبك وطريقتك »
٠٠ ثم أمر لى الرشيد بجائزة عظيمة ! ٠٠

والله يعلم انى ما فعلت الذى فعلت من ضرب الخادم وتسليم الرقعة الى
الخليفة ، جنوحا الى العفاف ، وزهدا فى الجارية الحسناء ، ولكن خوفا من
القتل ، فانى لم أكد أقرأ تلك الرقعة حتى عرفت ان الخليفة يمتحننى ! ٠٠

بائع الأهزاج

● اليوم الاول :

كاننى مللت طول البقاء فى الدنيا ، على ما أجد من حب الملوك لى : وحب الخاصة والعامة لفتاتى والى ، وبخاصة أهزاجى ، فكلهم يقول : هافى الدنيا مثل « حكم الوادى » فى تلحين الإهزاج وغنائها .
ولكن الزمان امتد بى ٠٠ من عهد الامويين ٠٠ الى عهد الرشيد فى دولة بنى العباس ٠٠ وان ثمانين عاما عشتها وعانيتها ، لطويلة بفيه .

كان أبى « يحيى بن ميمون » رجلا فارسى الاصل اشتراه الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك واعتقه ، فعمل حلاقا للوليد يهذب شعر راسه ولحيته ٠٠ فرأيت فى طفولتى نعمة الخلفاء ، وثا بلغت الشباب صرت طويل القامة ولكن فى احدى حولا فكنت اسمع الناس يقولون : ما أحسن هذه الفتى لولا انه أحول ٠٠ ولم أكن أظن انى أصبح مفتيا فى يوم من الايام ، فقد كنت وأنا صغير السن ، أكرى الأبل وأنقل عليها الزيت من الشام الى المدينة المنورة وجدة وغيرها من مدن الحجاز .

ثم أخذت الفناء من عمر الوادى فى وادى القرى بين الشام والمدينة ، فكنت أقطع هذا الوادى أغنى بالأهزاج ، من أول قرية فى الوادى الى آخر قرية ، وهو من أوله الى آخره قرى منظومة متتابعة لا تنقطع ، فعرفتني الناس هناك ، وسميت « حكم الوادى » ! ٠٠ ثم صارت كنيى « أبا يحيى » !

ولست اكتب الآن يوميات ، ولكنى اكتب ذكريات فى يوميات ، فقد انقضى العمر الا ذبالة الشمعة التى أوشكت أن تذوب ثم يبلغ الكتاب أجله ، وأمضى فى الداهيين ! ٠٠

عمرت طويلا جدا ٠٠ حسبك أن تعلم اننى عشت من زمن بنى عبد الملك فى دولة بنى أمية ، حتى غنيت هارون الرشيد خامس خلفاء بنى عباس ، قرأت الدهر يتقلب تحت عيني ، والدنيا تتغير من حال الى حال والناس من باطلها فى غرور ! ٠٠

كان أكبر أساتذتى فى شبابى عمر الوادى ، ولكنى رأيت أيضا وسمعت جماعة من حذاق المغنين ، منهم عمر بن زاذان الذى كان الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك يشير اليه حين يغنى فى حضرته ويقول : « هذا جامع لذتى » ٠٠ لان هذا المغنى كان يجمع فى غناؤه لذات الطرب كلها ، فاستحق أن يصفه الوليد ويجزل له المكافاة ٠٠

وَمَا يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ لِقَائِهِ



وَمَا يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ لِقَائِهِ

سمعت في وادي القرى مغنين آخرين وكل هؤلاء كان يصنع الالحان ويفنى
فيحسن فيما يصنع ويفنى ! *

أول غناء استحققت عليه جائزة كان في زمن الوليد بن يزيد « الخليج »
الذي مات قتيلا متهما بالفجور والخلاعة *

ادخلني عمر الوادي على هذا الخليفة الاموي ، وهو يهم بالخروج من قصره
وقد ركب حمارا وعليه جبة وشي ، ورداء وشي ، وفي رجليه خف وشي ، وفي
يده عقد جواهر ، وفي كفه شيء لا أدري ما هو .. فقال الوليد لمن حاف به
من المغنين ، وكلهم كبار بارعون :

— من غناني ما أستهي قلّه مافي كمي وما على جسدي وما نحتي *

فغنوه كلهم ، وهو على ظهر حماره يسمع ولا يطرب ، فلما أوشك أن يمضي
بحماره ، التفت فقال لي :

— أتغني يا غلام ؟

قلت :

— نعم يا أمير المؤمنين ! ..

قال :

— غن يا غلام اذن ، فما يسرنى أن أمضي حتى أعرف كيف غناؤك ! ..

فاقتربت منه فغنيت :

أكليلها ايوان

وجهها فتان

وخالها فريد

ليس له جيران

إذا هشت تشتت

كانها ثعبان

فرايت الوليد يصغي ويضع راحتيه قرب اذنيه ليكون ذلك أجمع للصوت
فيهما .. ورايت وجهه يضئ بالطرب والنشوة ، وكان الوليد بن يزيد طروباً
يحب الغناء ، ويفنى أيضاً ويضرب بالدف ، ويجمع حوله المغنين والمغنيات
فلما فرغت من الغناء أخرج ما كان في كفه ، وإذا كيس فيه ألف دينار ،
فرمى به في حجرى مع عقد الجواهر .. ثم دخل فناء داره فنزل عن حماره
وبعث به الى جميع ما كان عليه ! ..

● اليوم الثاني :

لاقيت رجلاً من طرفاء قریش ، فقال لي : يا حكم اننى قلت في غصائك
شعرا امدحه وأمدحك .. قلت : جزاك الله من سيد كريم ، فماذا قلت ؟ ..
فانشدني :

أبو يحيى أخو القسول الغنى
بصير بالثقال وبالفخفاف
على العبدان يحسن ما يفنى
ويحسن ما يقول على الداف

فاخذت هذا الشعر فصنعت فيه مزجا وغنيته للناس ، فسمعتني شيخ فقال
 لى : أحسنت .. فألقيت الدف من يدي على الأرض وقلت له : اسمعنى فلا
 تقول لى الا أحسنت ؟! والله لو كنت تحسن فهم الغناء لنطحت هذا الحائط
 برأسك طربا ! ..

فضحك الشيخ ، وضحك الناس وضحكت أنا !

● اليوم الثالث :

عشت فى دولة بنى أمية ما عشت فلم اكسب من الغناء الا ما يشتري
 قوتي وقوت عيالى ، ويكسونى ويكسوهم ! .. ولم يعطنى أحد من خلفائهم
 شيئا فيما الا ما اعطانيه الوليد بن يزيد مرة ، ثم لم القه بعدها .. ولو
 عاش لاعطاني جوائز كثيرة ! ..

فلما خرج الامر من ايدى الامويين ، انقطعت الى سيد من أمراء بنى العباس
 أمجبه اهزاجي ، فكان لا يطلب منى ان اغنى غيرها ، ويجزل لى المطاء حتى
 صرت الى حالة جميلة . وسعدت بانقطاعى الى هذا الامير الكريم ، وكان ذلك
 فى عهد أمير المؤمنين ابى جعفر المنصور رحمه الله ..

وذات يوم فوجئت بأكبر ابنائى يقول لى غاضبا :

— يا أبت .. أبعد هذه السن ، وبعد أن صرت كبيرا ، تترك الغناء الجيد
 الخفيف الثقيل ، وتغنى هذه الاهزاج الخفيفة ، وهى غناء المختلن !؟ ..

فصرخت فيه :

— اسكت أيها الغلام فانك جاهل ! .. غنيت الثقيل ستين سنة ، فلم ازل
 الا القوت وغنيت الاهزاج منذ سنوات قليلة ، فاكسبتك واخوتك ما لم تروا
 مثله قط فى سالف أيامكم وأيامى ! ..

وسكت الغلام على مضض ، فانه لا يرى الاهزاج فنا رفيعا ولا صنعة عالية
 فى الغناء ، ويريد روائع الاغاني الثقيلة التى لا أجدها سواها عند الامير
 العباسي الذي غمرنى بكرمه ! ..

● اليوم الرابع :

بلغنى أن أمير المؤمنين المنصور أبدى دهشة كبيرة لما يصلتنى به المعجبون
 بى من الجوائز وانه قال : اصنع هذا شيئا الا تحسين الشعر بصوته وتطريب
 مستمعيه ، فمادى يكون ، ولاى شيء يعطونه أموالهم ؟ ..

كان يرى ذلك اسرافا منهم ، حتى علم ذات يوم ان قائدا من كبار قواده

هو على بن يقطين قد أجزل صلتى وكسانى ثيابا وحملنى على بظلة غارعة ..
فحين علم المنصور هذا الخبر ، حرك رأسه مليا ، ثم قال ، الان علمت ان
هذا يستحق ما يعطاه ، لان ابن يقطين لا يعطى شيئا من ماله باطلا ، ولا
يضعه الا فى حقه ! ..

● اليوم الخامس :

علمت ان الخليفة المهدى قد عزم على المضى الى بيت المقدس فلما خرج
موكبهُ ، عارضته فى الطريق ، وأخرجت دفى ونقرت فيه ، وقلت : أنا والله
يا أمير المؤمنين القاتل :

ومتى تخرج العروس

فقد طال حبسها

فسارع الحراس ينعون وصولى اليه ، فقال لهم : دعوه ! .. واستمع
لى وأمر لى بجائزة ..

على ان أعجب من هذا ، وقع لى فى عهد ابنه الخليفة موسى الهادى .. فقد
حضرت مجلسه مع ابن جامع وابراهيم الموصلى وغيرهما ، فأخرج ثلاث بدر
تحرى ثلاثين ألف درهم وقال لنا : من أطربنى فهى له ! ..

فغناه ابن جامع والموصلى وغيرهما فلم يصنعوا شيئا ، وعرفت ما أراد
وكان يحب من الغناء ما توسط ، فلا يكون خفيفا ولا يكون كثير الترجيع ،
فغنيته لحن ابن سريج :

فراء كاثيلة المباركة القمراء

تهدى أوائل القسّم

اكنى بغير اسمها وقد علم الله

خفيات كل مكتّم

فوثب الهادى من فراشه طربا وقال :

— أحسنت ! .. أحسنت والله ! ..

ثم قال وهو ينتفض طربا :

— اسقونى ! .. اسقونى ! ..

فلما هدأ ، قال له ابن جامع :

— أحسن حكم الوادى والله يا أمير المؤمنين وانه لمحسن مجمل ! ..

فسررت أن يقرظنى ابن جامع فى حضرة الخليفة ، وحسدت منه ذلك ،
وقلت له : لا عجب أيها القرشى أن تكون كريما عادلا ، فالشئ من معدنه
لا يستغرب .. وعرضت عليه أن يأخذ نصف الجائزة فأبى .. فقنت له :
مثلك يفعل ما فعلت فانك قرشى نسيب فان أردت تشرفنى بقبول هذا المال
فعلت ! فقال لا والله .. لافعلت ! .. وبارك الله لك فيه ! ..

أما الموصل ، فحين رأى الفراشين يخرجون بالمال الى بيتي أسرع يقول
لى : هل تعطيتنى يا حكم من هذا ؟ ٠٠ فقلت : لا والله ، ولا درهما واحدا ،
لأنك لم تحسن أن تقول كلمة حق فيما سمعت منى فى مجلس أمير
المؤمنين ٠٠

● اليوم السادس :

غنيت أمير المؤمنين هارون الرشيد الوانا من الفناء ، أمزاجا وغيرها
فطرب ، وسر بى سرورا زائدا ، ولم يسمع فى ذلك المجلس أحدا غيرى من
المغنين ، ثم أمر لى بثلاثمائة ألف درهم ، وكتب لى بها الى صديقى الأمير
إبراهيم بن المهدي ، وكان أميراً على الشام ٠٠

فلما قدمت عليه بكتاب الرشيد أسرع فأعطاني ما أمر لى أمير المؤمنين ،
وزادنى ثلاثمائة ألف درهم أخرى ، ناقصة ألف درهم وقال لى ، لا أصلك
بمثل صلة أمير المؤمنين فأخذت منه مائة ألف درهم الا ألف درهم
وانست عنده ثلاثين يوما ، طارحته فيها ثلاثمائة صوت من أصوات القماماء
ومن أصواتى ٠٠

● اليوم السابع :

صابتنى قرحة فى صدرى ٠٠ عجز الطبيب عن مداواتى وأظن هذا هو
موجهى مع الذاهبين من أهلى وأخوانى ، وانى اليهم لفى شوق ٠٠ وقد حان
يوم الرحيل ٠٠

عادنى صديقى الشاعر الدارمى ، وسألنى عن أمرى ودمعت عيناه ، ودعا
لى بالشفاء ، ثم قال : يا أبا يحيى ٠٠ انى عملت بيتين من الشعر دعاء لله
أن يشفيك ، افتأذن أن أنشدهما ، فلما أومات بالأذن ، قال :

ان أبا يحيى اشتكى علة

أصبح منها بين عواد

فقلت والقلوب به موجه

يارب عاف حكم الوادى

وكيف لى بالعافية وأنا التقط أنفاسى التقاطا ، وقد نهش الداء صدرى ،
وضاقت الدنيا فى عيني كسم الخياط : ولم يبق لى الا نفثة مصدوراستوفى
مدته فى الدنيا ١٩ ٠٠

معاينة ابن المهدي

● اليوم الاول :

يزعم بعض المغنين اني اقسو في نقدي لالحن ابراهيم بن المهدي ، مع اعترافي بجمال صوته ، ويقولون لي : أليس له في جمال صوته شافع لديك يداري تقصيره في التلحين ؟! .. فأقول لهم : ان هذا الرجل يجتريء على رؤساء المغنين القدماء الذين نشأ الغناء على أوتار حناجرهم وعييدهم ، وأحكمته تجاربهم ، وتم أمره على أيديهم .. وعنهم رويتاه وعرفنا كيف هو .

وان هذا الرجل لا يفتأ يدعي انه « يجندر » غناءهم فيصلحه بجندرته هذه ويزيده رونقا وحلاوة .. ولعمري ما صدق ، فانه يقصد ولا يصدح ويهدم ولا يبني ، ويجاوز ما لا يستطيع اداءه من غنائهم الى قليل منه يستطيعه .. وما هو في هذه الصناعة بأعلم من أهلها ، ولا يبلغ منهم قلامة ظفر وليس له حق اللعب في عملهم المتقن البديع ، وقد نصحتهم وأرثته خطأ فخذته العزة بالاثم . وصغر خده لي ، كأنما صار له علينا حق السمع والطاعة في الغناء والتلحين ، بما ولدته أمه من الخليفة المهدي ، وكأنه والله يحدث نفسه بأنه « خليفة » على دنس الغناء والالحن لا يقل شأننا عن أخيه هارون الرشيد خليفة الدنيا والدين !

وان ابراهيم بن المهدي لعربي النسب ، قرشي هاشمي من جهة أبيه ، ولكن احواله ابتاعهم الناس من أسواق الرقيق ، ومعهم أختهم والدته ابراهيم هذا المزهو علينا بحسبه ونسبه .. وليس في بغداد كلها من لا يعرف خاله الذي يعمل بيطارا ، وفي شفته العليا شق أحدثه به قديما نخاسه الذي باعه في سوق الرقيق ، علامة يعرفه بها الناس جميعا ، فان هرب ردوه بها الى سادته ! ..

— على انه والله — على قلة علمه بالصناعة — أكثر المغنين الذين نسمعهم الآن علما ، وأشعرهم وأبلغهم مقالا في كل مقام .. غير أن فصاحته تعينه على السباب والشتيم ، فيكون سليلط اللسان جارح الكلام حين يفضرب ، وحين يشرب ! ..

دسست اليه صاحبيا لي يعاينه ويغضله ، وقلت لصاحبي : انطلق الى ابراهيم بن المهدي ، فأشرب معه أقداحا ، ثم قل له : يا سيدي .. أخبرني عن قولك « ذهب من الدنيا وقد ذهبت مني » .. أي شيء كان معنى لحبك الذي صنعته فيه ؟ .. وأنت تعلم ياسيدي انه لا يجوز في غنائك الذي صنعته

فى هذا الكلام الا أن تقول « ذهبسو » بالواو .. فان قلت : « ذهبت »
يفهم اناء ، ولم تمدّها انقطع اللحن وانكسر ، وان مددت ضمة التاء فجعلتها
كالواو ، فسد الكلام وصار قبيحا ككلام التبط والمجم والروم ! ..

فأتى صاحبى دار ابراهيم فحدثه كما حفظ عنى حرفا .. حرفا .. فتغير
لونه وبان عليه الانكسار ، ثم قال لصاحبى : ليس هذا والله من كلامك ..
انما هو من كلام الجرمانى اللثيم ! .. قل له عنى : انتم تصنعون هذا
للصناعة ، ونحن نصنعه للهو واللعب والعبث ! ..

فلما حدثنى صاحبى بما أسمع ابراهيم عنى ، قلت له : الجرمانى والله
منا ، أنشينا بالجرامة لغة ، وهو الذى يقول : « ذهبسو » ولو انه من
قريش ! .. لقد كان الجرامة قوما من العجم نزلوا بالموصل ، وصحب أبى
بعضهم زمنا ولم يكن منهم ، ومضى على اختلاطهم بالعرب منذ فتح المسلمون
بلاد العجم حتى يومنا هذا دهر طويل ، اعتدلت فيه السفتهم ، فليس
لابراهيم بن المهدي ان يفخر بفصاحته على جرمنى هو أفصح منه لسانا ! ..

● اليوم الثانى :

سمعت فى بيت أحد الكبراء جارية تغنى لحننا لى صنعتها فى شعر لكعب
بن زهير .. فسألتها : من أين لك هذا اللحن ؟ قالت : طرحه الامير
ابراهيم بن المهدي أعزه الله تعالى ! ..

فقلت لصاحب الدار : وما لابراهيم بن المهدي أعزه الله ولهذا الصوت ؟
سألنى الرجل متعجبا :

— أليس الصوت من صنعتها ؟

قلت :

— هذا الصوت أنا صنعتها ، وليس كما طرحه ، فان فيه كما سمعته من
الحارية أخطاء كثيرة ..

وغنيت الصوت للرجل وجاريته ، فكتب لساعته الى ابراهيم بن المهدي :
« ان أبى محمد الموصلى أعزه الله صار إلينا فأحببنا حتى غنى لنا الصوت
الذى ألقىته — أعزك الله — على جاريتنا ، وزعم انه من صنعتها ،
وانه ليس على الوجه الذى غنّته الجارية ، فأحببت أن أعلم ما عندك ، جعلنى
الله قداك ! .. »

وأنفذ الرجل رقعته الى ابراهيم ، فجاء جوابه سريرا يقول : نعم جعلت
فداك ، صدق أبو محمد أعزه الله .. الصوت له ، وهو ما ذكره ، لكنى لعبت
فى وسطه لعبا أعجبني ..

فلما قرأت هذه الرقعة كتبت اليه وقد ملكنى الحنق :

« اذا أردت يا هذا أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غناء الناس ..
وأصنع انت ان كنت تحسن ان تصنع ، والعب فى صنعتك كما تشتهى ، غير

مشارك في جد الناس بلعبك ، ومفسد له بما لا تعلمه .. وهذا الصوت ليس يتهماً لك أن تمخرق فيه وتقول : جندرتك ! .. كما اعتدت أن تقول كلما لعبت بصناعة القدماء ! ..

فلما أنفذت الرقعة إليه أحسست أنني اشتفيت منه ، وانتصفت للحق ، وتذكرت رؤساء صناعة الغناء في عهد بني أمية كأمين سريخ وابن محرز ومعبد ومالك وابن عائشة ، وقلت لنفسي : مافي الدنيا أحق ولا أجهل ممن يزعم أن هؤلاء الفحول لم يكونوا يحسنون تمام الصنعة ، ولا استيفاء الغناء ، وانهم عجزوا عما به يكمل ويتم ويحسن ، وأنه أقدر على الصنعة منهم ، وأنه قد كانت بقيت عليهم أشياء لم يهتدوا لها ولم يحسنوها فتنبه عليها هو فتمسها وحلها بجندرتك ! ..

● اليوم الثالث :

في السهرة .. قال لي أمير المؤمنين الرشيد : يا اسحاق تفن : شربت هدامة وسقيت أخرى

وراح المنتشون وما انتشيت

فغثيته ، فقال لي إبراهيم بن المهدي : ما أصبت يا اسحاق ولا أحسنت .. فقلت له : ليس هذا مما تحسنه ولا تعرفه ، وإن شئت فغثه ، فإن لم أجذك أنك تخطيء فيه منذ ابتدائك إلى انتهائك ، فدمي حلال ! ..

ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى وصناعة أبي فإذا نازعناها أحد بلا علم ، لم نجد بدا من الإيضاح والمدافعة ، فقال الرشيد : لا غرو .. ولا لوم عليك ، ثم نهض فخرج لشيء أرادته ! ..

فأقبل إبراهيم بن المهدي يقول لي : ويلك يا أسحق .. أتجترىء وتقول ما قلت يا ابن اللثيمة ! .. ففضيت وشتمته وذكرت أمه بالسوء ، ثلاث مرات ! .. ثم قلت له بعد أن شفيت نفسي بشتمة : أنا لا أقدر على أجابتك وأنت أخو الخليفة وابن الخليفة ، ولكن قولي في ذمك ينصرف إلى خالك المشقوق الشفة العليا ! ..

وخطر لي أن إبراهيم يشكوني للرشيد وأنه سيسأل من حضر عما جرى ، فاتقيت عاقبة ذلك ، بأن قلت : أنت تظن أن الخلافة تصير اليك فلا تزال تهددني وتعاديني كما تعادى سائر أولياء أخيك ، حسداً له ولولده على الأمر ولكنك تضعف عنه وعنهم ، فتستخف بأوليائهم تشفياً ، وأرجو ألا يخرج الله الخلافة من يد الرشيد وولده ، وإن يقتلك دونها ، فإن صارت إليك - وبالله العياذ - فحرام على العيش يومئذ ..

فلما عاد الرشيد إلى المجلس ، وثب إبراهيم فقال : يا أمير المؤمنين شتمتني وذكر أمي واستخف بي ! .. فغضب الرشيد وصاح : ما تقول يا اسحاق ويلك ؟! .. ثم أقبل على خادميه سرور وحسين فسألهما عن القصة فجعلوا يخبرانه ووجهه يتربد حتى انتهيا إلى ذكر الخلاف فسرى عنه ورجع إليه لونه ، ثم قال لإبراهيم متمهلاً : ماله ذنب .. شتمته فغرقك أنه لا يقدر على

جوابك .. ارجع يا ابراهيم الى موضعك وامسكه عن هذا ..

فلما انقضى المجلس استبقاني الرشيد وقال لي : يا اسحاق ! .. اتراى
لم أفهم قولك ومراك .. قد والله رميت أمه بأفحش ما ترمى به المحصنات
ثلاث مرات ! .. ترويلك ! .. لا تعد الى مثل هذا أبدا ! .. حدثني عنك ،
لو ضريك ابراهيم أو قتلك أكنت أقتص لك منه وهو أخى .. يا جاهل !؟
.. فاحتلات من كلام الخليفة رعبا وقلت : يا أمير المؤمنين ، قد والله قتلتنى
بهذا الكلام ، ولئن بلغه ليقتلنى ! .. فتنبه الرشيد وصاح بمسرور الخادم
أن يرد ابراهيم اليه ، وصرفنى فأوصيت جماعة من الخدم أن يخبرونى
بما يجرى ..

● اليوم الرابع :

قال لى مسرور خادم الرشيد : لما أنصرفت أمس واعد ابراهيم بن المهدي،
تجهم له أمير المؤمنين ووبخه ووصفه بالجهل ، وقال له : أتمنخف بإسحاق
الموصلى وهو خادمى وصنيعتى ونديمى وابن نديمى ، وتفعل ذلك بمجلسى
وحضرتى !؟ هاه .. هاه ! .. وانت مالك وللغناء ، وما يدريك ما هو
.. ومن أخذك به وطأرك إياه حتى تتوهم أنك تبليغ فيه مبلغ اسحاق الذى
غذى به رضيعا ، وهو صناعته وصناعة أبيه ، ثم تظن أنك تخطئه فيما
لا تدريه ، ويدعوك الى إقامة الحجة فلا تثبت لذلك وتعتصم بستمه .. أليس
هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل وسوء الادب ، من دخولك فيما
لا يشبهك وغلبة ذلك على مرءوتك وشرفك ، واظهارك الغناء ولم تحكمه ،
وادعائك مالا تعلمه حتى ينسبك الناس الى الجهل المفرط ! .. ثم قال له :
والله العظيم وحق رسوله ، لئن أصابه أحد بسوء ، أو سقط عليه حجر من
السماء ، أو سقط من دابته ، أو سقط عليه سقفه ، أو مات فجأة ..
لاقتلنك به ! .. فلا تعرض له وانت أعلم ! ..

فلما سمعت هذا الكلام كله من مسرور ، اطأنت نفسى وكنت أخشى أن
يقتالنى غلمان ابراهيم ..

فلما جلست انتظر دورى فى الغناء ، أعرضت عن ابراهيم فضحك الرشيد
وقال له : انى لاعلم محبتك فى اسحاق وميلك اليه والى الاخذ عنه ، وان هذا
لا يجيئك من جهته الا بعد ان يرضى ، فأحسن اليه واكرمه واعرف حقه وبره
وصله ..

وأصلح الرشيد بيننا .. الى حين ! ..

لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ



وَالْوَحْدَانِ

دماء الزنادقة

● اليوم الاول :

قال لي امير المؤمنين هارون الرشيد قد سئمت المقام ببغداد والضيف مطوق عليها بحارته وركود هوائه ، فانا على نية السفر بعد غد الى بلدة « الرافقة » على الفرات ، فتاهب للخروج معنا ان شاء الله .

كنت اتوقع ان يتحرك الرشيد من بغداد للاصطياف في الرافقة والرقعة في الشام ، فهكذا يفعل كلما هجم الحر على بغداد . بل انه ليحصل ذلك في الشتاء وفي غيره من فصول السنة . وهو يحب الرافقة وقد بني فيها قصرا ، وبني رجال دولته قصورا كثيرة حتى اتصل عمرانها بمدينة الرقة ، فهما الان في الحقيقة مدينة واحدة ويراها الرشيد قد جمعتا اطيب مافي الشام كله من هواء وماء ! .

دخلنا قصر الرشيد هناك بعد سفر سريع انهكني ، واذن لنا الرشيد بالراحة حتى اليوم التالي ، فانعشتنا الراحة وهبت علينا الانسام من الفرات ومن كل الجهات حتى امتلانا نشاطا ولم يبق الا أن يدعونا امير المؤمنين الى مجلسه . وكان معي مخارق وعلويه وابراهيم بن المهدي أخو الرشيد وجماعة آخرون .

في السهرة غنى مخارق لحنا كنت صنعته قديما ، ثم غنى علويه من صنعتة وأعقبه ابراهيم بن المهدي ، ثم غنيت لحنا لي في هذه الابيات من شعري :

بدير القلائم الاقصي

غزال شفتي احوي

برى جبي له جسمي

وما يدوي بما القى

واخفى حبه جهدي

ولا والله ما يخفى

فامر الرشيد لكل منا بجائزة ، وانصرف المغنن وبقيت أنا وابراهيم بن المهدي في مجلس الرشيد .

ثم دخل بعض رجال الدولة والقضاة وبنو هاشم . . . وجاء برجل مفلول اليدين الى عنقه بقيد ثقيل ، وعرفت فيه علي بن الخليل من اصدقاء صالح بن عبد القدوس المشهور بالزندقة . .

تأملت على بن الخليل فرايته نظيف الثياب ، جميل الوجه ، رابط الجاش
كانه لا يدري أن الزندقة عقوبتها القتل ، فقلت فى نفسى ، ما لهذا الرجل
ذنب الا مصاحبته لصالح بن عبد القدوس الذى تطارده شرطة الزنادقة التى
وكل اليها الرشيد استنصالحهم من أصولهم ! -

قال الرشيد بعد أن نظر قليلا الى على بن الخليل :

- من أنت ؟!

قال الرجل ببساطة وخفة ظل :

- أنا على بن الخليل من أهل الكوفة ، ويقول صاحب شرطة الزنادقة عنى
انى زنديق ! -

فلم يتمالك الرشيد نفسه أن ضحك حتى استغرب ، فطمع الرجل فيه
وقال :

- أياذن لى أمير المؤمنين فى انشاد أبيات فيه ١٩

فلما اذن له الرشيد ، اندفع يتشد :

يا خير من وخذت بارحله

نجب الركاب بمهمه جلس

تطوى السباب فى أزمته

طى التجار عمائم البرس

خير البسرية أنت كلهم

فى يومك الفادى وفى أمس

لله ما هارون من ملك

بر السريرة طاهر النفس

انى لجات اليك من هرب

قد كان شردنى ومن لبس

واخترت كلمك لا اجاوزه

حتى أوسد فى ثرى رمى

والله يعلم فى بقيته

ما ان أفسعت القامة الخمس

فامتحسن الرشيد الشعر ، ورق للشاعر ، واستتابه ، وأمر له بخمسة
الاف درهم .. وأطلقه ! ..

ثم أدخلوا صالح بن عبد القدوس يرسف فى قيوده ، فقال له الرشيد :

- قد كتب الينا صاحب شرطة الزنادقة انك مقيم على زندقتك ، وأنت
تفتن الناس ! ..

قال الرجل :

— ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ، واني قد تبت وصححت توبتي ! •

قال الرشيد :

— وكيف تتوب ، أو ترجع عما عشت فيه من شبابك الى اليوم وانت القاتل :

والشيخ لا يترك اخلاقه

حتى يوارى في ثرى دمه.

فانك انما زعمت ألا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبدا ••

وأمر الرشيد بقتله لساعته ! ••

ولو استنظفني الرشيد لقلت له : ان هذا الرجل شهد على نفسه بالتوبة ، فلا يستطيع أحد تكذيبه الا أن يشق عن قلبه ، فيميز فيه الصدق من الكذب ولكن الرشيد منذ مدة يضمر قتل صالح بن عبد القدوس ، كما قتل أبوه المهدي من قبل بشار بن برد في تهمة الزندقة أيضا ••

● اليوم الثاني :

ظلمت غائم النفس منذ مقتل صالح بن عبد القدوس أمس ، فلما أمرني الرشيد بالغناء الليلة ، اندفعت أغني :

الا قاتل الله الحمامة غدوة

على الفصن ماذا هيجت حين غنت

تغنت بصسوت أعجمي فهيجت

من الشوق ما كانت ضلوعي اجنت

فلو قطرت عين امرئ من صباية

دما قطسرت عيني دما فالت

لما سكنت حتى اويت لصوتها

وقلت : ترى هذي الحمامة جنت

وما وجد اعرابية قذفت بها

صروف النوى من حيث لم تك ظنت

باكثر منى لوعة ، غير انني

اجمجم احشائي على ما اجنت

فطرب الرشيد غاية الطرب ، وقال لي : كأنك والله تلك الحمامة على حصتها ، تنوح وتهيج سامعها ! ••

وأمر لي بجائزة عظيمة •• ثم قال :

— لمن هذا الشعر يا إسحاق ، فاني أراه يدخل القلب ، ويهيج المدامع ، ولا يقدر أحد أن يصف جودته وحلاوته ورنينه ، حتى ليوشك أن يستغنى بنفسه عن الغناء والتلحين ••

قلت :

— كأنك رأيت يا أمير المؤمنين أن جهدي في تلحينه قد ذهب بإطلاء ، إذ التلحين في أصل كلماته ؟!

ضحك الرشيد وقال :

— ما هذا أردت ، فوالله لقد غنيته فزدته حسنا ولا يقدر أحد غيرك على مثل هذه الصنعة فيه فلنن هذا الشعر ؟

قلت :

— هو لبعض الاعراب يا أمير المؤمنين ! .. ولا أعرف اسمه ..

قال بعد لحظة فكر :

— انه الى شعر الحضريين لا قرب منه الى شعر الاعراب ، وكأنك أنت صاحبه ! .. ألا ترى أن صاحب هذا الشعر يقول « وما وجد اعرابية قدفت بها .. » .. فالاعرابي لا يتحدث هكذا عن الاعرابيات ، وإنما هذا رجل من الحضرة يضرب المثل بالاعرابيات في الوجد والحنين .. ولا تجيء أشعار الاعراب في هذا الباب كذلك ! ..

قلت :

— والله يا أمير المؤمنين ، ما يقدر الاصمعي ولا غيره أن يفحص عن حقيقة هذا الشعر ، كقدرتك عليه ، وما زلنا نأخذ من عطائك الجزيل ، ومن أدبك الجليل ، فأطال الله بقاءك ، وجعلنا قدآئك وأطلنا بوارف ظلك آخر الدهر أن شاء الله ..

● اليوم الثالث :

اذن لي أمير المؤمنين في العودة الى بغداد أيا ما تم أرجع الى الرفقة ، لأمور لا بد لي من العناية بها في بغداد ..

التقيت والحسن بن هانيء الشاعر الذي يسميه الناس أبا فواس ، ولا أدعوه أنا الا بالحسن أو بابن هانيء ..

قال لي :

— أما في شعري يا اسحاق بيت ولا بيتان ولا أبيات تلحنها وتغنيها في حضرة أمير المؤمنين ، فترفع قدرى عنده فان أبا العتاهيه وابن أبي حفصة وغيرهما قد حازوا مئات الألوف من الدراهم لارتضاع قدرهم عنده ، وأراني لم أفز منه بشيء وقد عجزت حتى عن انشاده قصيدة واحدة في مدحه ، لأنني لست — مذكورا عنده ، وقد قيل لي : لو غنى اسحاق الموصلي من شعرك لقربك الرشيد الى مجلسه ! ..

قلت له :

— انك يا ابن هانيء لا تدري اني أذكرك بظهر الغيب لكل من القاه ، والله

لاغبين الرشيد من شعرك حتى يذكرك ويعرف قدرك ، فاني أرى من دونك
من الشعراء قد نفقت سوقهم عنده ، وأنت ما لك عنده إلا التجافى والتناسى
.. وكأنك تذكر هذا المعنى فى قولك تمدحه :

وبصاعة الشعراء ان أنفقتها

نلفت وان اكسدتها لم تلتق

ثم اقترقنا ، وابن هانىء يقول لى :

— لا تنسنا من دعائك فى صلاتك يا أبا محمد !

كانما يريد « أبو نواس » أن يستخر من نسكى وصومى ، وهو الشاعر
المتهتك الذى لا يعرف الناس له صلاة ولا صياما ، ولا يروونه الا خارجا من
الاديرة أو داخلا فيها ، ثملا ، أو طالبا أن يشمل بما حوت من الصهباء ..

وما أظن أحدا بقادر على أن يدنيه من قلب الخليفة ، ولكن الجهلاء من
عامة الناس فى بغداد وغيرها يظنونهم من شعراء الخليفة وانه يحضر مجلسه
.. وذلك مما تصوره لهم أو هامهم ، فما رأيت أبا نواس فى حضرة الرشيد
قط ، وما أظنه كسب دينارا واحدا من شعر له فى مدح الرشيد ، وانما كل
كسبه من آل الربيع وبعض الهاشميين والكبراء ، ولم تتصل أسماياه بعد الا
بحسين خادم الرشيد ، وقد مدحه أبو نواس ، فكيف يطمع أن يمدح الرشيد
بعد أن مدح خادما فى قصره ١٩ ..

● اليوم الرابع :

جاءنى اليوم فى بيتى محمد الزف المطرب الملحن ، وكان صديقا لابی
— رحمه الله — وطالما نصره على منافسيه من أهل صناعتنا ، وعلى رأسهم
اسماعيل بن جامع صاحب الصوت الذهبى الذى كان الرشيد يؤثره ويرفع
قدره ويقول : صوته كالعسل ..

قلت للزف :

— ان لك لحنا أحب أن تسمعيه .. وهو الذى أوله : « يا ذاثرينا من
الخيام » ..

يا ذاثرينا من الخيام

حياكما الله بالسلام

يجزئنى ان اعطمانى

ولم تنالا سوى الكلام

بووك هارون من امام

بطاعة الله ذى اعتصام

له الى ذى الجلال قربي

ليسبت لعدل ولا امام

فما سمعت والله أحسن من غنائه ، وقلت له : لو كنت خليفة لأعطيتك
على هذا الصوت مائة ألف درهم ٠٠ وأما وأنا اسحاق الموصلي المغني ، فما لك
عندي ولا نصف درهم وقد كافأتك أعظم مكافأة بسماعي أياك ، وطربي لك !
قال ضاحكا :

- فاني والله قد جمعت من هذا الصوت مائة ألف درهم ، فقد أعطاني
الرشيد عشرة آلاف ، ثم درت بالصوت على بيوت الهاشميين والبرامكة
والكبراء ، فكل من سمع منهم اسم « هارون » في هذا الصوت فزع الى خزنة
أمواله فأعطاني منها ما تسمح به نفسه ، ظنا منه اني أذكره عند أمير المؤمنين
لسجانه بالمال عند ذكر اسمه في الصوت حتى جمعت مائة ألف درهم أو أكثر
وما ابتزرت أحدا ولا طلبت منه شيئا ٠٠ وما كان الا اسم « هارون » هو
الذي يفتح لي بيوت أموالهم ! ٠٠



أيام الرشيد الأخيرة

● اليوم الاول :

حججت مع أمير المؤمنين الرشيد .. بلغنا في موكبهِ العظيم مدينة رسول الله ، هذا اليوم ، ففرق الرشيد وولده : محمد « الامين » وعبد الله « المأمون » أموالا طائلة على أولاد المهاجرين والانصار في المدينة ، ثم مضى موكبهُ الى مكة ، فأعطى لاهلها كما أعطى في المدينة ، وبلغ عطاؤه فيهما أكثر من ألف ألف دينار ، وهو أعظم شيء أعطاه خليفة من الخلفاء لاهل الحرمين الشريفين ! ..

وانما أغدق الرشيد على الناس ، احتفالا بتولي ولديه الامين والمأمون ولاية عهدِهِ ، وقد كتب بذلك كتابين علقهما في الكعبة ، وأشهد عليهما القضاء والفقهاء ورجال بني العباس ! ..

ولكن الناس لم يتفاءلوا بما صنع الرشيد ، وقالوا : لا يكون بينهما الا الحرب حين يخلو مكانه في الخلافة ، فانهما يتنازعاها يومئذ ويتقاتلان ! ..

وفي مكة والمدينة لم أجد أحدا من عظماء رواة الفناء القديم ، ووجدت من يحفظ شيئا ولا يؤديه على وجهه ، وقد تسالته عن صاحب اللحن فلا يعرفه !

لقد انتقل الفناء من مكة والمدينة الى بغداد ، وأظن ان المكي وابن جامع وحكم الوادى هم آخر فحول الحجاز في الفناء المتقن ونى الاهراج ..

حضرت في مجلس للرشيد بمكة موعظة جعلته يبكى حتى تتخلل دموعه لحبته ، اذ دخل عليه الواعظ الناسك المعروف بابن السماك ، فقال له : « يا أمير المؤمنين .. ان لك بين يدي الله تعالى مقاماً ، وان لك من مقامك منصرفاً ، فانظر الى أين منصرفك .. الى الجنة أو الى النار ! .. »

فلما كثر بكاء الرشيد ، قيل لابن السماك ، « ارفق بأمر المؤمنين » ! فقال ابن السماك الذي يشوب عقله أحيانا شيء من الاختلاط والتشوش : « دعوه فليمت حتى يقال : خليفة الله مات من مخافة الله تعالى » !

ثم انشد ابن السماك ، وقد تهيا للخروج :

إذا خلا في القبور ذو خطر

فزره يوما وانظر الى خطره

ابرزه الدهر من مساكنه

ومن مقاصيره ومن حصره

ثم خرج ابن السماك ، فلاحق به بعض خدم الرشيد ومعه مال أمر له به ،
فرد المال ، وقال : « ما كنت لاسود وجه الوعظ » ! • ومضى وانه ليفتقر
إلى درهم واحد يقتات به ! •

● اليوم الثاني :

كانت أيام الحج رائعة الروحانية ، غسلتنا من الذنوب ، واعدتنا إلى
بغداد كما ولدتنا أمهاتنا ، ولا أجدني الآن نشيطا لغناء ولا تلحين ، فاني
ما زلت في روحانية الحج ، واصدقائي يسخرون مني قائلين :

— أصبح اسحاق الموصلي ناسكا ••

واليوم أفرغني ما علمته من نكبة الرشيد لوزرائه البرامكة ! •

وقال لي أبي والاسى يعترضه :

— أرايت يا بني كيف أوقع الرشيد بصديقه جعفر البرمكي ، فقتله ثم
صلبه ، ثم أمر فقطعت أعضائه ، وعلق كل عضو في مكان من بغداد ، ثم
انزلت أشلائه فأحرقت بالنار ! •

ثم قال أبي مدهوشا باكيا :

— أي حقد هذا الذي كان يجنه الرشيد لصديقه جعفر بن يحيى الوزير •
وقد كان أقرب إليه ، وأحب من الناس جميعا !؟ ••

جلسنا واجمين ، ورايت في أبي انكسارا شديدا ، فقد كان جعفر البرمكي
صديقا له ولما اقتسم الرشيد وجعفر ذات يوم من أيام لهوهما ، جماعة المغنين
في قصر الخلافة ، كان أبي في قسمة جعفر ، وكان ابن جامع في قسمة
الرشيد ! •• ثم عاد أبي إلى الرشيد بعد موت ابن جامع ! •

قلت لأبي :

— ما كان معنى هذه القسمة !؟ ••

قال :

— لم يكن لها معنى الا اللهو والتفكه وكنت أيامها أغني للرشيد كما يغنيه
ابن جامع ، وأفوز منه بجوائز لا يفوز بمثلها ابن جامع ! ••

بكى أبي من الذكريات ، ثم دخل إلى جناح في بيته يمكث ، وكانني رأيت
به أثرًا من مرض أخذ يدب إلى بدنه مفسريا إليه من روحه المصذبه ، فقد
تضعف لموت جعفر البرمكي • وامتلا كمدًا وآسا من الدنيا وأهلها ! ••

● اليوم الثالث :

منذ شهر لم أكتب شيئا في اليوميات ••

لم أكن أظن أن أول ما أكتب حين أعود إليها ، يكون عن موت أبي ! ••

لقد مات ابراهيم الموصل سيد من لحن وغنى وقال الشعر ، وروى الاغاني
والاشعار وأداعا فى عصرنا كله ! ..

مات أبى بعد سنة واحدة من قتل جعفر البرمكى ، وما أظنه الا مات حزنا
وكمدا ، حريصا على مفارقة الدنيا اذ فارقتها جعفر صديقه .. الذى به أدرك
من قبل فى الدنيا أملة ، ولم يجد بعده فيها أملا ! .. ولقد استتم كتاب
الصديقين عمله فى هذه الدنيا وبلغ أجله ، فذهب والله بذهابهما الادب
والعقل والفضل والمروءة والجمال كله ! ..

دخلت الى الرشيد بعقب وفاة أبى بنحو شهر ، فلما جلست مع المغنين ،
رأيت موضع أبى الذى كان يجلس فيه ، خاليا فدمعت عيني ، فتصبرت
وكفكت الدمع ، ولمحنى الرشيد ، فدعاني اليه وأدنانى مشفقا مواسيا ،
فقبلت يده ، فاستعبر وجرى الدمع على خديه ، وإن الرشيد فى موطن الرقة
والبكاء ، لرقيق كثير الدمع فقلت أمدحه وقد استويت واقفا بين يديه :

فى بقعاء الخليفة الميمون
خلف من مصيبة المحزون
لا يضير المصاب رزء اذا ما
كان ذا مفزع الى هارون

فقال لى بصوت فيه أثر البكاء :
— كذاك والله هو يا اسحاق ، ولن تفقد من أريك ما دمت حيا الا شخصه !
وأمر بمضاعفة عطائي ، وأن يستمر عطاء أبى فى أولاده الصغار وبناته !

● اليوم الرابع :

غنيت الرشيد فى سهرة الليلة :

سلى هل قلانى من عشير صحبته
وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيسق

فطرب الرشيد ، ولكنه لم يأمر لى بجائزة فوجدنى أشرتب اليه ، فضحك
وقال :

— قد كان أبوك غنانا هذا الصوت فأعطيناه ألف دينار ! .. فقد أخذ أبوك
ثمنه مرة فلا تطمع ! ..

فعمجت من قوله ، وأدهشنى أن يبلغ به البخل هذا المبلغ وهو من هو
كرما ونبلا فقلت :

— سيدى ، قد أخذ أبى منك أكثر من مائتى ألف دينار ، ما رأيتك ذكرت
منها غير هذا الالف ، على بختى أنا ! ..

فقال الرشيد واجما :

— ويحك ! .. أكثر من مائتى ألف دينار ١٩ استغفر الله من ذلك ! ..
ثم قال لى

- ويحك ! .. فما الذى خلف منها ١٩

قلت :

- خلف على وعلى أولاده ديونا مبلغها خمسة الاف دينار قضيتها عنه ! ..
فقال الرشيد متعجبا :

- ما أدرى أينما أشد تضيقا ! .. والله المستعان ! ..

خرجت فى هذه الليلة من مجلس الرشيد بلا درهم واحد ، وذكرت وأنا
أتعجب كيف أن أخاه الخليفة السابق الهادى - رحمه الله - قد أعطى أبى
فى صوت آخر خمسين ألف دينار ، فاجتمع له فى ليلتين فقط مائتا ألف
دينار ، ولم يجتمع له من الرشيد فى بضعة عشر عاما غناه فيها مئات الاصوات
الا هذا المبلغ الذى جمعه فى سهرتين من سهرات الهادى ! ..

الآن ، عرفت معنى قول أبى لى فى بعض الايام :

- يا بنى .. لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان بيوتنا بالذهب والفضة !

ليس الرشيد ببخيل فى نفسه ، ولكنه قليل العطاء جدا بالقياس الى اخيه
وتعثره احوال من الحرص أحيانا - على استحجار أمواله - يحار فيها العقل !

● اليوم الخامس :

تسير الامور فى سهرات الرشيد على ما يرام ، الا بعض ليال أراه
فاترا لا يشتهى سماع الغناء ، ولا الشعر ، ولا النوادر ، ولا يأكل شيئا ،
ولا يشرب ..

فى السنوات الثلاث الماضية ، كنت أرى الرشيد يضعف شيئا بعد شيء ،
كأنه طعن فى السن ، وهو فوق الاربعين بقليل ، ولعل ذلك من هموم الملك
أو كثرة اللذات ، أو غير ذلك ! ..

وقد كثر الخارجون عليه فى أطراف دولته ، يريدون إزالته عن الخلافة
وإزالة بنى العباس جميعا ، وآخر من سمعت انهم خرجوا عليه ، رجل فى
خراسان ورأيت الرشيد مريضا ، ولكنه أصر على الخروج بنفسه لمحاربة
الخارجي ، وكنت مع الفضل بن سهل ، فسمعتة يقول لعبد الله المأمون ولى
عهد الرشيد :

- أفك لست تدري ما يحدث بأمر المؤمنين وخراسان ولايتك ، والامير
مقدم عليك فى ولاية العهد ، وأخواله بنو هاشم ، وأمه زبيدة تملك من الاموال
ما تستطيع به شراء الناس جميعا .. قسر مع أبيك الى خراسان ولا تتخلف
مع الامير فى بغداد ! ..

ومضيت أودع الرشيد ، فأوغلت معه كأننى ضمن ركبته وجنده والمسافرين
معه .. فسمعتة يقول لبعض خاصته :

- لا أظنك ترانى أبدا بعد سفرى الى خراسان ! ..

فدعا له الرجل بطول البقاء ! .. فنظر الرشيد فوجسده في علي مقربة ،
فاستدنانني ، وقال لي :

— ما أظنك ولا أظن أحدا من هؤلاء يدري ما أجد في بدني من السموم
والآلم ! ..

ثم عدل الى شجرة وأنا معه في قليل من خواصه ، فكشف أسفل بطنه
فاذا هو مربوطه بعصابة حرير غليظة ربطا شديدا ، وقال : « هذه علة أكتمها
عن الناس ، ولكل واحد من ولدي رقيب يتبعني .. فمسرور الخادم رقيب
للمامون ، والطبيب ابن بختيشوع رقيب للأمين ، وما منهم أحد الا وهو
يحصي أنفاسي ويستطيل أيامي ، وقد تعمدوا أن يركبوني دابة عجفاء لتزيدني
علة ! .. »

فرحمت والله الرشيد ، وهو الملك الجبار الذي حاز من الدنيا ما لم يحزوه
أحد !

وهو الحاكم الطاغى ، والسياسى الداهى ! ..



غناء على الذكريات

● اليوم الاول :

قلت ليحيى المكي ، وهو أكبر المطربين والملحنين سنا ، واجمعهم لاغاني كبار الممثلين القدماء :

— هل حدثتك نفسك قط بأن الغناء حرام ، وإن من يصنع غناء أو يسمعه ، يزحزح يوم القيامة عن الجنة فيدخل النار ، وبئس القرار ؟! ..

قال يحيى :

— لقيت الامام مالكا وجماعة من فقهاء المدينة ومكة ورايتهم يسمعون بعض الغناء أحيانا ، وأدركت جماعة من أهل العلم يتشهدون في انكار السماع ، على رأسهم محمد بن سيرين .. وأدركت آخرين يتساهلون في المناني ، لا يظعن أحد عليهم ، حسبك منهم الحسن البصري والشعبي والنخعي ! ..

ثم قال يحيى المكي :

— سألت مرة رجلا لغويا نحويا ظريفا كثير الدعابة ، وإن كان صواما قواما ، كثير الجلوس في حلقة الحسن البصري :

— ما تقول في السماع ، فاني رأيت قوما ينكرونه ، ونحن نروح به ونغفو على الخلفاء ؟! ..

فقال الرجل النحوي :

— انما اختلفوا في هذا كاختلاف العرب في كلمة « الهدى » .. بعضهم يؤنثها ، وبعضهم يذكرها ، فيقول هؤلاء : « هذا هدى حسن » .. ويقول أولئك : « هذه هدى حسنة » .. وانما الهدى هدى الله ! ..

ثم مضيت ويحيى المكي الى قصر الرشيد ، وكنت صغفت لحنا جديدا في شعر بشار ، فقال لي يحيى :

— يا اسحاق ! .. يقول عنك الناس : ما في الدنيا مثل اسحاق الموصلي مقدره على التلحين ، فهل كان أبوك — رحمه الله — أقدر منك عليه ؟! ..

قلت :

— كان أبي — رحمه الله — مطبوعا ، خلقه الله مفتيا ملحنا ، ولم يكن في أهله أحد يأخذ عنه هذه الصناعة ، أما أنا فنشأت لا أسمع ولا أرى الا

الفناء والمغنين .. وأخذت الصنعة عن أبي ، لم أتعب في السعى لها ،
فليس احسانى فيها الا فرعا من احسانه ! .. فأين أنا منه 19 ..
قال يحيى المكي :

- ما يفليك أحد في الكلام يا اسحاق ! .. ولكن أخبرني : كيف اخترت
أن تغنى لامير المؤمنين الرشيد من شعر بشار الذى قتله أبوه المهدي
لزندقته ، وقد علمت ان الرشيد يتعقب الزنادقة ويستأصلهم ، وهو متشدد
فى الدين على حبه للدنيا واقباله الشديد على طيبتها ، وأولها السماع ؟
قلت :

- الرشيد يحب شعر بشار ، ولا يبالي بفتاكة هذا الشاعر ، فقد مضى
لسبيله ولم يبق الا شعره .. وقد لحننت منه هذه الايات :

وقت لكم كبدي حتى لو انكم
تهوون الا اريد العيش لم ارد
كان قلبى اذا ذكراكم عرضت
من سحر هاروت او ماروت فى عقد
ما هبت الريح من تلقاء ارضكم
الا وجدت لها بردا على كبدي

● اليوم الثانى :

كان طرب أمير المؤمنين الرشيد شديدا فى سهرة البارحة ..
أعجبه شعر بشار ، وأعجبه لحنى فى هذا الشعر ..

وكان أبى - رحمه الله - قد التمس من الرشيد أن يأمر بالآذنيه أحد
سواه فى شعر ذى الرمة ، لان والدى عرف من الوزير جعفر البرمكى ، حب
الرشيد لشعر ذى الرمة .. وقد سألت الرشيد أن يورثنى ما كان قد أقطعه
لابى من شعر ذى الرمة ، فلا يفتيسه فيه غبرى ، فأجابنى الى ذلك .. ثم
سألته ان يجعل شعر بشار وقفا على غنائى ، فقال لى ضاحكا :

- ولا كل هذا يا اسحاق ! .. قد ورثناك عن أبيك شعر ذى الرمة ،
فاجعل شعر بشار لك وللآخرين ! ..

واليوم أنشدنى أبو نواس قوله فى الخمر :
ما زلت اوشف روح الدن فى لطف
واسئتى دمه من جوف مجسروح
حتى انشيت لى روحان فى جسدى
والدن مطروح جسما بلا روح

قلت لابی نواس :

- ما أحسن شعرك هذا ، فوالله ما يقتدر على مثله أحد ، ولقد اتسعت

فى معناه وجودت وملحت ولطفت ، حتى تركت بشار بن برد يحجل خلفك
وهو المجلى فى الشعراء ! ..

قال أبو نواس

— كأنك ترانى أخذته من كلام بشار ؟

قلت :

— لا أرى ذلك ، ولكنى تذكرت قول بشار فى معناه :

شربنا من فؤاد اللئ حتى

تركنا اللئ ليس له فؤاد

فهذا هو أصل المعنى الذى فى بيتيك هذين ، سبقك اليه بشار فى بيته
هذا ، ولكنك أربيت عليه بهذا الاتساع فى التصوير والتعبير حتى أبدعت ،
بل أعجزت ..

تهلل وجه أبى نواس .. وقال :

— ألم تستح لك بعد فرصة تغنى فيها من شعرى لأمير المؤمنين الرشيد ؟

قلت :

— وما تشاعون الا أن يشاء الله ! .. ألم يغنه الآخرون فى شعرك ؟ ..

قال أبو نواس :

— بلى والله ! ..

ثم تركنى وانصرف بلا كلام ، كأنه يش من بلوغه يوماً مجلس أمير
المؤمنين الرشيد ، وما هو ببالغ ! ..

● اليوم الثالث :

غنيت اليوم لحنى الذى صنعتته فى شعر بشار .. طلبه الرشيد
وقال لى :

— ان فيه صنعة عجيبة دقيقة ، وان فى غنائه لشجنا يقرح الكبد ، على
ما فيه من حلاوة وطلاوة ! ..

فلما أتممت غنائه ، ظننت ان الرشيد لا يعطينى فيه شيئاً وقد أعطانى
منذ أيام .. لكن الطرب من أريجية الرشيد هذا شديد ، فأمر لى بضعف
ما أمر لى به فى المرة السابقة ! ..

ثم أخذ الرشيد يسأل الحضور من المغنين عن رأيهم فى اللحن ، فكلهم
أنثنى عليه ، حتى إبراهيم بن المهدي الذى يناوئنى لم ييخل بالثناء ، ولكنه
أراد غمزى فقال :

— قد كان أمير المؤمنين المهدي — رحمه الله — غاضباً على بشار ، لرميه

بعض نساء المسلمين بالفجور ، وذلك في قوله :

لا يؤنسك من مغياة

قول تغلظه وان جرحا

عسر النساء الى مياسرة

والصعب يمكن بعلمنا جمعا

قال الرشيد :

— ولكن بشارا لم يقتل الا بدسياسة الوزير يعقوب بن داود ، ولولا ما وجد عليه المهدي ولا قتله ، فقد زعم ابن داود هذا ان بشارا كان زنديقا فاسقا فأمر المهدي بضربه ، وظن أن ضربه اياه لا يبلغ الموت ، ولكنه كان شيخا ضعيفا فمات .. وندم المهدي على قتله ، ثم غضب على ابن داود فنكبه ، وكان يقول : « لمن الله يعقوب بن داود ، قتل بشارا وهو مسلم خير منه » ! ..

فلما سمعت ذلك من الرشيد ، قلت :

— وكيف ثبت لامير المؤمنين المهدي رحمه الله ، ان بشارا كان حسن الاسلام ، لا كافرا ولا زنديقا ؟ ..

قال الرشيد :

— في خزانتنا كتب وأوراق لبشار جاء بها عامل البصرة الى أمير المؤمنين المهدي بعد قتل بشار ، وقد أخبرني يحيى بن خالد البرمكي ان المهدي رحمه لما قرأ هذه الكتب وجد في بعضها مكتوبا من املاء بشار : « قد كنت عزمت على هجاء بعض آل سليمان بن علي ، لانهم ظلموني ، وقعدوا علي ، فذكرت قرايتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبتهم له فما قلت فيم الا بيتين وهما :

دينار آل سليمان ودرهمهم

كالبابليين حفا بالعفاريت

لا يوجدان ولا يلتاهما احد

كما سمعت بهاروت وماروت

فزاد أسف المهدي على قتل بشار ، وهو أشعر الشعراء ، وكان قوله كلما ذكره : « لمن الله يعقوب بن داود ! .. قتل بشارا وهو مسلم خير منه » !

● اليوم الرابع :

مات الرشيد : .. ودفن في أرض فارس .. ولقد رأيته — رحمه الله — مريضا يكاد يقع من فوق دابته في خروجه منذ شهر لاصحاح فتنه في تلك البلاد ..

ولاول مرة أرى أبا نواس في قصر الخلافة ، ولم أره قط هناك أيام

الرشيد ٠٠ وسمعت يئشء أمير المؤمنين محمدا الامين الذى تولى الخلافة بعد
أبيه ، فكان قوله فى تمزيته :

نرى أمير المؤمنين محمدا
على خير ميت غيبته المقابر
وان أمير المؤمنين محمدا
لرابط جاش للخطوب وصابر
زهت بامير المؤمنين محمد
أسرة ملك واستقرت منابر
فلا زلت مرعيا بعين حفيظة
من الله لا تسطو عليك المقادر
تسوس أمور الناس تسعين حجة
وهديك محمود وعرضك وافر

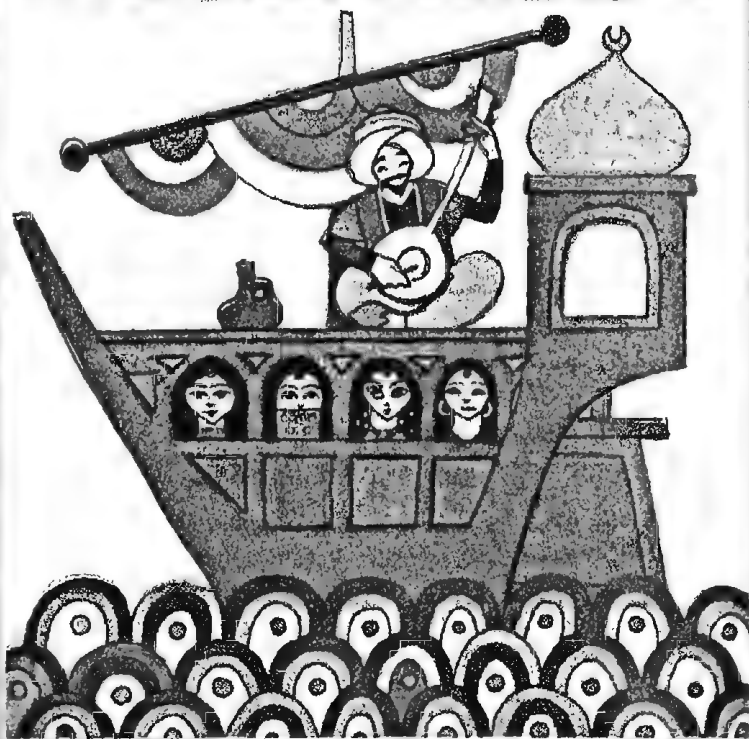
لم تعجبني أبيات أبي نواس هذه ، فانها نظم لا حياة فيه ، كأنما العزاء
فى الموت لا يكون الا بمثل هذا النظم الميت ، وأين هذا من روائع أبي
نواس ١٩

وأبو نواس - منذ اليوم - شاعر الخليفة الجديد لا يحجبه أحد عن مجلسه
كما كانوا يحجبونه فى عهد الرشيد ٠٠ وان محمدا الامين لشديد الولع
بشعر أبي نواس وصحبته ، ولن يجد مثله نديما له فى الخمر واللهو بين
الجوارى اللباسات ثياب الفلمان ، والفلمان اللابسين ثياب الجوارى ٠٠

وكيف تستقيم أمور الخلافة مع هذا الخليفة الحدث الطياش الذى لا يرى
الدنيا الا لذة كأس أو لذة ثغر ١٩ ؟

ان أبا نواس لن يسألنى بعد اليوم أن أغنى من شعره للخليفة حتى
يتذكره ، لانه استغنى بنفسه عنى وعن غنائى ، فبيل ترانى أضطر غدا الى
أن أقول له اذكرنى عند ربك ١٩ ٠٠

انما ابلت عظامي وحيثي
حيها واللب تندي عجب



مليون درهم عباسي

● اليوم الاول :

تذكرت اليوم أنني منذ سنوات دخلت وصديقي « الاصمعي » الى أمير المؤمنين هارون الرشيد فوجدناه متكدرًا لا ينشط لشيء من الفناء أو المنادمة، فظل الاصمعي يروي له نوادر الاعراب وأضاحيهم ، فلا ينشط ولا يذهب الكدر عن نفسه .. حتى خطرت لي أبيات من شعري ، فقامت بين يديه فأنشدت منها :

وأمرة بالبخل قلت لها اقصرى
فذلك شيء ما اليه سبيل
وانى رايت البخل يزرى بأهله
فاكرمت نفسى ان يقال بغيل
فعالى فعال الكثيرين تجملا
ومالى كها قد تعلمين قليل
وكيف اخاف الفقر او أحرم الفنى
ورأى أمير المؤمنين جميل ؟؟

فرايت الرشيد يتنبه الى الابيات ، ويتحرك فى مجلسه ، ويضئ وجهه ، قلما أتممتها قال مبتسما :

— لا تخف ان شاء الله ! ..

ثم تفكر لحظة وقال وقد زايله كدره :

— لله در أبيات تأتينا بها يا اسحاق ! .. ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ! ..

وأمر مسرورا الخادم بأن يحمل الى دارى خمسين ألف درهم ! ..

فلم أستطع أن أتكلم لما ورد على من الدهشة والسرور ، ولكنى رايت الاصمعي منزويا منكشبا ، قد بان الحسد فى وجهه ، لما ظفرت به من جائزة أمير المؤمنين ! ..

ثم نهض الرشيد ، وقد نشط ، وانقشع كدره ولم يلتفت الى الاصمعي . ولا أمر له بشيء ! ..

فلما صرنا خارج قصر الخليفة قال لى الاصمعى :
- الآن علمت يا اسحاق انك أحذق منى بصيد الدراهم ! .. وقد كان
أبوك كذلك ! ..
قلت له :

- دع ذا عنك ، فما من شاعر ولا أديب ولا عالم ظفر من جوائز أمير
المؤمنين بمثل ما ظفرت أنت به ! ..
فلم يرتج لقولى ، وطفق يتوجع لخروجه من عند الخليفة صفر اليدين ،
وخروجى أنا بخمسين ألف درهم ، وإن فى الاصمعى لحسدا عرفته فيه من
قديم :

أردت تسليته فقلت له :
- ألك فى سماع بيتين من الشعر استحسنتهما فأحببت أن أقف على
رأيك فيهما ؟
قال متفترًا متكسرًا :
هات ! ..
فانشدته :

هل الى نظرة اليك سجيل
يرو منها الصدى ويشفى الفيل
ان ما قل منك يكثر عندى
وكثير هن تحب القليل ! ..

فرايته قد اتسعت عيناه دهشة واعجابًا ثم قال :
- لله در هذا الشعر .. هذا والله هو الديباج الخشموانى الذى كان
يلبسه أكاسرة الفرس .. هذا والله هو الوشى الاسكندراني الذى كان
يلبسه ملوك الروم ! .. هذا هو الشعر المطبوع الذى من صفته كيت
وكيت ! ..
ثم سألنى بلهفة :

- لمن هذا الشعر ؟
قلت :
- انه لى ! ..

فتبينت الحسد فى وجهه ! .. وقال لى والكراعية فى كلامه :
- أما ان صناعة الشعراء المحدثين فيه لمبينة جدا .. ولقد أفسدته
يا اسحاق اذ جزمتم الفعل « يروى » فى البيت الاول لضرورة الشعر ،
ولا يفعل هذا الشاعر الفعل ولا الشاعر المطلق المطبوع ! ..

قلت معايشا له

— فاني نظمت في هذا المعنى نفسه بيتين آخرين ليس فيهما ضرورة شعرية ، وان كان فحول الشعراء في الجاهلية والاسلام يحفل شعرهم بالضرورات الشعرية ، وانت به اعلم !

قال وقد نفذ صبره :

— هات ، واسرع ، فاني على موعد ! ..

فأتشدته :

أيها الظبي الفسيري
هل لنا منك جبر
ان ما نولتني منك
وان قل .. كثير !

فقال لي وهو يهم بركوب دابته :

— لولا ان ذلك الموعد قد أزف ، لسمعت من شعرك ومن غنائك أيضا .. فاعذرني ! ..

ثم وثب على برذونه ، وركضه ، وأنا أضحك وأشيعه بالتحية والسلام والدعاء ، فانه شيخنا في الادب على كل حال ! ..

● اليوم الثاني :

بعد وفاة هارون الرشيد ، بقيت أياها حزينا عليه ، لا أنظم شعرا ولا أصنع لحنا .. حتى علمت أن حسادي سعوا بي عند الخليفة الجديد الشاب محمد الأمين الذي انهك في الفناء والشراب يعقب وفاة أبيه الرشيد — رحمه الله — وصار قصره كأنه سوق الرقيق لكثرة من فيه من الجوارى والغلمان ، وشجعته على ذلك والدته السيدة زبيدة فصارت من الحاكمة في الدولة ، وتفرغ ولدها الأمين للذاته !

ثم اني استأذنت في الدخول عليه هذه الليلة فأبطأ في الاذن لي ، حتى ظننت أنني أحجب عن لقاءه ، واذا به يطلبني ويلقاني غير متجهم ولا متغير ، كأنه مازال على عهده حين كنت أراه وهو ولي عهد صغير السن ! ..

قال لي

— ما أعددت من جديد يا اسحاق ؟

قلت :

— جعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين .. أتأذن لي في انشاد ما قلته قبك من شعر ، ثم في غنائك ..

قال

- أشدنى ثم غن ..

فأنشدته هذين البيتين ثم غنيتها

يا ايها القائم الامين قدت

نفسك نفسى بالمال والولد

يسطت للناس اذ وليتهم

يدنا من الجود فوق كل يد

فرايت الامين يهتز طربا ، ويستعيدنى ، ويستدنينى الى سريره حتى بان
الحسد فى وجوه من حضر من المغنين . فلما آتممت اللحن ، وقف الامين
فصاح :

- يا غلام .. أحمل الى دار اسحاق الف ألف درهم ..

نظرت فاذا الدهشة فى عيون الحاضرين جميعا من مغنين ورجال دولة ،
واذا بى لست اقل منهم دهشة ، فما حدث قط أن امر لى خليفة بهذا المال
.. وذكرت فى دهشتى ما كان أبى رحمه الله يحكيه لى عن كرم الخليفة
الهادى عم خليفتنا هذا محمد الامين ، فقد أمر الهادى لابى ذات ليلة بمائة
وخمسين ألف دينار ، تساوى أكثر من ألفى ألف درهم ..

انصرفت آخر الليل الى دارى ، وفى الصباح رأيت مائة من فراشى
قصر الخليفة يحمل كل منهم بدرة تحوى عشرة الاف درهم ، ورأيت جيرانى
يعدون الفراشين ويحسبون ما يحملون الى دارى من مال ! ..

● اليوم الثالث :

غضب على الخليفة محمد الامين ، لسبب لا أدريه فتشفعت اليه بالوزير
الفضل بن الربيع ، وهو صديق محب لى ، فشدنعه الامين ودعانى الى مجلسه
صبيحة هذا اليوم ..

جلس الامين يصطبج ، وهو يحب شرب النبيذ والغناء اصطباحا ، ولكنى
لا أحب ذلك ، الا انه لا بد لى منه ، ولو كان الامر بيدي ما شربت النبيذ
فى الصباح أبدا ..

قلت لنفسى : هذا خليفة صغير السن ، محب للهو ، ضعيف الفكر ، قد
استولى عليه هؤلاء الجالسون حوله يشربون أو يفنون الاهزاج التافهة ،
فان خالفتهم اتهمونى بالتكبر والتصنع فلا مناص من الدخول فيما دخلوا فيه
من اللهو والهزل ، فلبست قباء وخفا أحمر ، واعتصمت بعصابة صفراء
وشددت وسطى بشقة حرير حمراء ، ووقفت وفى يدي صفاقتان وأنا
اتفتى :

اسمع لصوت طرب

من صنعة الانبارى

صوت ملج خليف

يطير في الاوتار

فأعجب هذا الهذيان محمدا الامين ، وأمر أن يقتصر الغناء في ذلك الصباح على هذا الصوت ، وطلب الى سائر المغنين أن يسيكتوا .. فلما انفض المجلس أمر لي بثلاثمائة ألف درهم ! ..

وانما قلت في شعري هذا « صنعة الانبارى » لان الامين كان يسميني متفكها « بالانبارى » منذ دخلت عليه يوما وقد لثت عمامة على رأسي لوثا غير مستحسن ، فقال لي : يا اسحاق .. كان عمامتك من عمام أهل الانبار ..



منادمة المأمون

● اليوم الاول :

في أول النهار أقبل خادم من قصر الخليفة المأمون يقول لي : أجب أمير المؤمنين ! ..

فكرت ! .. ما هذه الدعوة في هذا الوقت المبكر !؟ ..

سألت الخادم ، فقال :

— ان أمير المؤمنين لم يزد على قوله لجماعة من خدمه كنت وإياهم في الخدمة منذ الفجر : أبلغوا اسحاق الموصلي يجرى الساعة ! ..

وما التفت أمير المؤمنين الى أحد منا ، ولا أمر شخصا بعينه ، فأسرع رئيسنا صاحب الخدمة في هذا اليوم فقال لي : انطلق ركضاً الى أبي محمد اسحاق الموصلي ، فأبلغه ما رسم به أمير المؤمنين أعزه الله ! ..

دخلت غرفة واسعة مزخرفة ، ملوكية المنظر ، كان أمير المؤمنين المأمون راقدًا على فراش في ركن منها ! ..

خفت أن يكون مريضاً ، فأنا أحب هذا الخليفة الذي أكرمني وعظم شأنه ، وجعلني أدخل مجلسه مع العلماء والفقهاء والقضاة والشعراء والادباء ، لا مع المغنين فقط ، وقد لبث أبي رحمه الله ، ولبثت بعمره طوال عهد الرشيد والأمين لا ندخل الا مع المغنين ، فجاء المأمون فرفع منزلي فوق أن أكون مغنياً لا بضاعة له الا الغناء كهذه الطبقة من المسترزين يخلوهم وأوتار عييدهم ! ..

استدناني المأمون وهو مستلق على فراشه . حتى صارت ركبتي على الفراش ، ونظرت في وجهه فداخلني سرور اذ وجدته في حال جميلة من العافية .. ونضرة النعيم .. وسلمت عليه ثم انتظرت ..

لكنه كان صامتاً يفكر ، ثم تكلم وفاجأني اذ قال :

— يا اسحاق .. اشكو اليك أصحابي ! .. صنعت لفلان كذا ، فلم يحفظ الصنيع ، وثبت عندي عقوقه ، وصنعت لفلان كذا وكذا ، فلم يكن أحسن من الاول ، وفعلت بفلان كذا ، ففعل كذا من التكرار لجحيل فعلي ! ..

وعدد الخليفة جماعة من خواصه وأقاربه ورجال دولته ، ورايت العبوس في وجهه ! ..

لم أعجل بالكلام بعد وقوفى على هذه الامور التى تحدث عنها الخليفة ،
لما لى شأن فيها ، ولا قبل لى بمن ذكر من العلية والاشراف فيما استودعنى
من خبرهم عنده ورأيه فيهم ، فقلت لنفسى : ان خليلنا هذا - وان كان
لى محبا - يحلو له أن يختبر أخلاقى ومروعتى وكياستى وحفظى لحسن
الصنيع .. فان رآنى أقع فى أعراض هؤلاء العظماء والكبراء ، وأذمهم
وأنهشهم وأحرضه عليهم ، سقطت من عينه ، وأنصرفت نفسه عنى ، وثبت
عنده سقوط مروعتى ، فكرهنى وأبعدنى عن مجلسه والزمنى بيتى ، فتبطل
صناعتى ، ويجفونى الناس ، ويكون فى ذلك موتى ..

قال لى :

- أراك لا تتكلم يا اسحاق ! ..

فافتتح لى باب من الكلام أتخلص به ، فقلت :

- يا أمير المؤمنين .. انك بتفضلك على ، وحسن رأيك فى ، ظننت انى
ممن يشاور فى مثل هذا ، فجاوزت بى حدى ، وهذا رأى يجبل عنى ولا
يبلفه قدرى ! ..

قال المأمون :

- ولم ذلك يا اسحاق وأنت عندى عالم عاقل ناصح !؟ ..

قلت :

- هذه المنزلة لى عندك يا سيدى ، علمتنى الا أقول الا ما أعرف ، ولا
أطلب الا ما أنال ! ..

فضحك المأمون وأضاء وجهه ، وصرف الكلام الى وجه آخر فقال :

- قد بلغنى يا اسحاق انك فى هذه الايام صنعت لحنا فى شعر لجريز
أو لفريمه الراعى ولم أسمعه منك ! ..

قلت :

- هو يا سيدى فى شعر للراعى ، وما سمعه أحد بعد الا جارية أو
جاريثان عندى ، ولا حضرت عندك للمنادمة منذ صنعته ! ..

قال المأمون :

- فالان غنه فانك حضرت عندنا ! ..

قلت

- يا سيدى .. الهيبة والصحو يمتعانى أن أؤديه كما تريد ، فلو آنس
أمير المؤمنين عبده بشئ يتطرب به ويتقوى طبعه ، كان أجود ! ..

فأمز المأمون بالقداء فتقدينا ، ومدت الستارة وغنت الجوارى من ورائها
.. ثم قال لى : يا اسحاق أما جاء أوان ذلك الصوت !؟ .. فقلت : بلى
يا سيدى ! .. ثم غنيته لحنى فى قول الشاعر الراعى :

الم تسال بعاصمة الديار عن الحى المارق اين صار

بل ساءلتها فابت جوابا وكيف تسائل اللحن التلار

فاستحسن المامون الصوت ، وتسلى به عما كان فيه من الهم والغم بمن
عقه ولم يحفظ صنيعه من أشراف دولته . ثم قال لى :
- يا اسحاق ! لا طلب بعد وجود البغية « بضم الباء وتسكين الفين »
.. وما أبتغى اليوم من سماع ، الا صوتك هذا ! ..
ثم أجزل صلتى وكسانى خلعة من ثيابه ، وملأ قلبى سرورا ! ..

● اليوم الثانى :

حضر الليلة عند أمير المؤمنين المأمون ، جماعة من المغنين ، جلست
فيهم ، بعد انقضاء مجالس الفقهاء والعلماء والادباء عنده ، فانتقلت من
مجلس العلم والادب الى مجلس هذه الطبقة من المغنين الذين تكثر اغلاطهم
فى الفناء . وان كان فيهم بعض ذوى الاصوات الجميلة !
لم اغن فى بداية هذا المجلس ، وكان آخر من غنى « علويه » ، فَمَا
غناه لحن لابى كان قد صنعه فى قول بشار بن برد :

لعبلة دار ما تكلمنا الدار
تلوح مفانيها كما لاح أسطار

اسائل احجارا ونؤيا مهديا
وكيف يرد القول نؤى واحجار

فطرب المأمون ، وقال لعلويه : أهذا اللحن من صنعتك ؟ ! .. قال : بل
هو لابراهيم الموصلى ! ..
فسألنى المأمون :

- ماذا رأيت يا اسحاق فى غناء علويه لصنعة أبيك ؟ ! ..
قلت :

- رأيت قد اجتهد فى الاداء ، ولكنه أخطأ فى بعض أقسامه وأدواره ..
قال المأمون :

- فغنه أنت يا اسحاق لترى كيف يصح أدائه ! ..

فغنيته اللحن كما صنعه أبى - رحمه الله - فاستناده المأمون مرارا ،
وشرب عليه أقداحا ، ثم نظر الى معجبا وتمثل قول جرير :

وابن اللبسون اذا ما لق فى قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

يريد المأمون أن يشبه « علويه » بولد الناقة الصغير السن ، الضعيف الاحتمال ، ويشبهني وأبى بالقناعيس وهى الجبال الضخمة العظيمة القوة الكبيرة الاحمال ! ..

وهذا فى الحقيقة هو الرأى الثابت للمأمون فينا - أبى وأنا - وانه لياخذ برأى فى كل ما يشتهيه عليه من لحن قديم أو جديد ، وان له فى الغناء للوقا مرهقا وعلما ..

وقد أمر لى بخمسين ألف درهم ، ولم يترك مغنيا ممن حضر الا أمر له بجائزة ، وفيهم علويه ، على غلظه فيما غنى ! ..

● اليوم الثالث :

جاءنى علويه بعد الفجر بقليل ، فعاتبني وقال لى : « أنا تلميذ أبيك وتخريجك وتخريجك وكنت أرجو أن تسترني أمس فيما غلظت فى غنائه من ألحان أبيك رحمه الله فى شعر بشار .. ولكنك أبيت - على مالوف عادتك - الا التشدد بعلمك ، حتى فضحتني عند أمير المؤمنين ، وكان يسمك أن تقضى عني فى حضرته ثم تصحح لى الخطأ بعد أن تنصرف الى بيوتنا » ! ..

قلت لعلويه غير مبال بما يرمينى به من التشدد بالعلم :

- انما أردت أن أدلك على الصواب ، فلا تقع فى الخطأ بعده ، وأردت أن يروى المغنون صنعة أبى على أصلها ، وقد رأيتنى أصلح لمخارق بعض ما يغنى من لحن الاقدمين أو من لحنى أو غيرها ، وان مخارقا ليملك من حسن الصوت ما لا يملكه أحد .. ولكن الصوت الحسن يشينه الخطأ فى الأداء ! ..

علويه كثير اللجاجة ، عرفته كذلك منذ كان يتعلم الصناعة على يد أبى رحمه الله ..

فما اقتنع بما قلت له ، ومضى يذكرني بما صنعه لى عند المأمون بعد قتل أخيه الامين واعتلائه سرير الخلافة ..

قلت لعلويه : بل أذكر حسن صنيعك ولا أنساه .. فتركنى وانصرف وبه بقية غضب ! ..

ولقد أذكرني والله من نسيان .. فان المأمون بعد أن دخل بغداد ، وكان اخوه قد خلع وقتل ، لبث عامين لا يسمع حرفا من الاغانى ، حتى تغنى بحضرته أبو عيسى ، وهو أخ من أخوة المأمون الذين أنجبهم الرشيد من جواريه الكثيرات ، وأبو عيسى هذا من أبناء الخلفاء الذين تكاثروا فى هذه الايام على صناعة الغناء يتعشقونها ويدعون العلم بها ..

ثم واطب المأمون على السماع متمسقا غير مستهتر ، تشبها بأبيه الرشيد فأقام كذلك أربع سنوات ، ثم ظهر الى الندماء والمغنين وجالسهم ونرب وطرب .. وسأل عني وكنت لا أذهب اليه مع المغنين فطعنوا على وجرحوني

بحضرته ، وقال الطاعنون : « ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلافة ؟! » ٠٠ قال المأمون : « ما أبقى هذا من التيه شيئا إلا استعمله » ٠٠ ثم أمسك المأمون عن ذكرى ٠٠ فجفاني من كان يصلني لسوء رأي الخليفة الذي ظهر في أمري ، فاضر ذلك بي جدا ، حتى جاءني « علويه » يوما فقال : « أئاذن لي في ذكرك بمجلس المأمون فانا قد دعينا اليه اليوم ؟! » ٠٠ قلت : « لا ٠٠ ولكن غنه بهذا الشعر ، فانه يسألك عن صاحب اللحن فينتج لك الكلام عني » ٠٠ ثم أقيمت على علويه لحننا في شعر لي :

يا سرحة الماء قد سلت موارد
أما اليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام له
محلا عن طريق الماء مطرود

كنيت بسرحة الماء عن المرأة وكانت العرب تكني عن المرأة بالسرحة النابتة على الماء ٠٠ فأعجب الشعر واللحن الخليفة وقال لعلويه : لمن هذا اللحن الجيد في الكلام الجيد ؟! قال علويه : لعبد من عبيدك يا سيدي جفوته وأطرحته من غير جرم ، فقال المأمون : أسحاق تعنى ؟! ٠٠ قال نعم ! ٠٠ قال المأمون : يحضر الساعة ٠٠ فجأني رسوله ، فصرت اليه فلما رآني قال : أدن قدنوت فرفع يديه مادمها ، فأنكببت عليه واحتضنتني بيديه ، واطهسر من برى واکرامى ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لبره ! ٠٠

فهذه والله قصتي مع علويه حين جفاني المأمون في بداية خلافته ، لم أنسها ، ولا جحنت فضل علويه بل قمت بحقه حين أصلحت خطاه ، وليس في ذلك جرح له فان الخليفة يسألني أن أصلح أخطاء المفتين والمفتيات ، وصارت هذه عادة يعرفها هؤلاء ، فما ذنبي فيما حدث لعلويه في تلك الليلة حين أصلحت بعض ما أخطأ فيه من الحان أبي ؟! ٠

الطفيلي الظريف

● اليوم الاول :

يومى هذا يوم عجيب ، امتد شهرا ، حتى ظن الامل والاصدقاء والخليفة وأصحاب السلطان ، انى ضللت فى الصحراء ، أو دخلت تنقا فى جبل ولم أخرج منه ..

غدوت منذ شهر وأنا ضجر من ملازمتى دار الخلافة والخدمة فيها ، فركبت فجرا ، وعزمت على أن أطوف الصحراء متفرجا ، وقلت لغلمانى : « ان جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه انى بكرت فى بعض مهماتى ، وانكم لاتعرفون أين توجهت » .. ثم مضيت وطففت فى الصحراء ما بدا لى ولم أعد الى بغداد الا وقد حمى النهار ، فرقفت فى شارع فُخين الظل ، ثم نزلت الى فناء رحب على الطريق استريح ، فجاء خادام يقود حمارا فارها لم أر أحسن منه فراهة ونشاطا ، عليه جارية راكبة ، تحتها منديل كبير من حرير ، وعليها من الملابس الفاخرة ما لا غاية بعده ! .. ورأيت لها قواما حسنا ، وطرفا قاترا ، وشماثل حسنة ، ومن ظرف جوارى بغداد انهن يسرفن فى السفور عن وجوههن الجميلة ، فى حين تسرف الزوجات الحرائر فى حجب وجوههن ! ..

خمنت ان الجارية مغنية ، فانى أشم رائحة الفناء ، وأميز الجسارية المغنية من غيرها .. يكفى أن أتأمل شفيتها لكى أقول : هذه مغنية ، أو لا أقول ! .. ان الفناء يترك أثرا جميلا خاصا على الشفتين ! ..

دخلت الجارية الدار الكبيرة المظلة على الفناء ، وجاء شابان جميلان فاستاذنا فى الدخول فأسرعت قوقفت معها ودخلت ، فلظنا ان صاحب الدار دعانى ، وظن صاحب الدار انى معهما ..

جلسنا فى ايوان جميل ، وجيء بالطعام فاكلنا ، وبالشرب فوضع بين أيدينا ، ثم خرجت الجارية وفى يدها عود فغنت وشربنا على غنائها .

ثم قمت لحاجة ، فسأل صاحب الدار ضيفيه عنى فأخبراه انهما لا يعرفانى ! .. فقال لهما : هذا طفيل ، ولكنه ظريف ، فارجو أن تحسنوا عشرته ، فسمعت أحد الشابين يقول : والله ما يستحق هذا الطفيل أن نحسن عشرته ، ولابد من ضربه وطرده ، فلم يزل صاحب الدار وصاحبه يسترضيانه حتى هذا ..

عدت فجلست ، وغنت الجارية من الحانى :

ذكرتك ان مرت بنا ام شادن

امام المطايا تشرئب وتسبح

من المؤلفات الرمل اداء حرة

شعاع الضحى فى متنها يتوضح

فسرني انها أدت لحنى هذا - وهو صعب - أداء صالحا ، وقد سمعت
بعض كبار الفنانين اخذوه عنى وظنوا انهم حفظوه وأحكموه ، ويؤدونه أداء
فاسدا يصك المسامع ! ..

وغنت أصواتا شتى ، حتى غنت لحنى الذى يقول العارفون الحذاق انه
من أوابدى وبدائى .. وسمعت فيه من يقول : لو عاش معبد وهو من
سادة القدماء فى التلحين لما شق غبار اسحاق فى هذا اللحن .. ذلك انه فى
بيتين فقط من عشر كلمات ، وهما :

الظللول الدوارس

فارقتها الاوانس

أوحشت بعد اهلهما

فهى قفر بسابس

فاول بيت اربع كلمات ، بدأت بها نشيدا ، وتلوته بالبسيط ، وجعلت
فيه صياحا الى ذروة الصوت ، ثم اسجحا وترجيحا للنغم واختلاسا فيه ..
هذا كله فى هذه الكلمات الاربعة ، ثم صنعت فى البيت الثانى ما يوافق
ما صنعت فى الاول .. فلما سمع العرفاء والحذاق هذا اللحن قالوا ماسمعنا
ان أحدا من القدماء أو من المعاصرين استطاع ان يصنع مثل هذا أو يقدر على
شئ منه ! ..

تبعيت أداء الجارية مشفقا عليها من خطأ تقع فيه ، أو عجز عن أداء لفظة
صعبة ، ولكنها مرت فى اللحن ، فكان أمرها فيه أصلح من أمرها فى اللحن
الاول ! ..

ثم غنت من شعرى وتلحينى :

قل لمن صد عاتبا

ونأى عنك جانبنا

قد بلغت الذى أردت

وان كنت لا عيبا

فكان أصلح ما غنته من الحانى ، فطربت وشربت عليه ، ثم بدا لى ان
ارشدعا الى شئ فى هذا اللحن ، فرماني أحد النساء الضيفين بالنظر
الشزر . وهو الشاب الذى كان يقترح ضربى وطردى . وقال لى بلهجة
تبينت فيها حقه وسوء أدبه :

- ما رأيت طفيليا أصفق وجهها منك ! .. لم تقنع بالتطفيل حتى اقترحت
وهذا غاية المثل : « طفيلي مقترح » ! ..

فاطرت ولم أجب ، وجعل صاحب الدار يكره عني ، حتى قاموا للصلاة .
وتأخرت قليلا ، فأخذت عود الجارية وشددت طبقة وأصلحته أصلا
محكما ، وقمت فصليت ! ..

فلما عدنا ، أخذ ذلك الشاب في عريدته على وأنا صامت .. ثم أخنت
الجارية العود فجسته وقالت :

- من مس عودي ؟ ! ..

قالوا :

- ما مسه أحد منا ! ..

قالت :

- بلى والله لقد مسه حاذق متقدم وشد طبقة وأصلحه أصلا متمكن
من صناعته ! ..

فقلت لها :

- أنا أصلحته ! ..

دهشت الجارية ثم قالت لي :

- فبالله خذه واضرب به ! ..

فضربت به ضربا طريفا عجيبا صعبا ، فلما بقي أحد منهم الا وثب على
قدميه وجلس بين يدي ، حتى ذلك الشاب الذي اقترح طردى وأكثر من
التهجم على والانتكار لحالي ! ..

وقال لي صاحب الدار :

- يا سيدي أتقنى ؟ ! ..

- نعم .. وأعرفكم بنفسى .. أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلي .. والله
اني لانيه على الخليفة اذا طلبني ، وأنتم تقولون لي ما أكره منذ اليوم لاني
تملحت معكم .. والله لانطقت حرفا ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا
الشاب المعربد المقيت الفث ! ..

فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك ، وانك لتجتريء على من لاتعرف ،
فأخذ الشاب يعتذر لي ، فرأيت أن أزداد تملحا معهم وظرفا ، بأن أقبل
عذره ففعلت ، وبدأت فغنيت الاصوات التي غنتها الجارية من صنعتي ، وهي
تسمعن وتزداد لها حفظا وتحكما حرفا حرفا .. فاطرني منها ذلك كما
اطرني غناؤها وجمال وجهها وحلاوة شمائلها ! ..

ثم قال لي صاحب الدار :

- يا سيدي .. هل لك في خصلة ؟

— ما هي ؟ ! ٠٠

— تقيم عندي شهرا ، والجارية لك ! ٠٠

فاقمت عنده ثلاثين يوما ، لا يدري أحد من أهلي وأصدقائي ، ولا يدري الخليفة المأمون أين أنا ٠٠ وسمعت من الرجل — وكان يخرج أحيانا من بيته ثم يعود — ان المأمون أطلق مناديا يطلبني في كل موضع فلا يعرف لي خبرا وقد ظن اني هلكت وحيره أمرى ، وحيّر الناس في بغداد ! ٠٠

فلما كان اليوم الاخير أخذت الجارية فجئت منزلى ، وتلقاني أهلي كأنى قادم من العالم الآخر .

وركبت الى أمير المؤمنين من وقتى ، فلما رآنى قال بصوت فيه لهفة :

— اسحاق ؟ ! ٠٠ ويحك ! ٠٠ أين تكون ؟ ! ٠٠ كدنا والله نياس من عودتك ، وقلنا ابتلعت الصحراء .

فاخبرت أمير المؤمنين بالقصة ، فأمر باحضار الرجل الذى حللت عليه خيفا طيلة الايام الثلاثين وأخذت منه الجارية ، وقال له المأمون .

— أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ! ٠٠

وأمر له بمائة ألف درهم ! ٠٠

ثم قال لى المأمون متبسطا ضاحكا :

— احضرني هذه الجارية يا اسحاق ، فقد وجب أن نسمع منها ما سمعت ، لنعرف فضلها في الغناء الذى اعترفت لها به ، وقلما رأيتك تعترف لمغن ولا مغنية بفضل في الغناء ! ٠٠

فلما سمع المأمون الجارية طرب وشرب ، وأمر لى بجائزة ، ولها بخمسين ألف درهم ٠٠ ثم قال لى :

— قد جعلت لها نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنيني وراء السـمتارة مع الجوارى ! ٠٠

فربحت والله بتلك الرحلة فى الصحراء ، وأربحت ! ٠٠ وفزت بجارية مغنية ، ما فى العراق كله مثلهما ، ولا سمعت من حلق مغن ولا مغنية لحفا لى يؤدى على وجهه ، الا منها ٠٠

● اليوم الثانى :

قال لى المأمون اليوم : حدثنى عن ليلة دخلت فيها على الرشيد رحمه الله وبين يديه جواريه : سحر وضياء وخنث ! ٠٠

فقلت للمأمون :

يا أمير المؤمنين اننى لم أرهن بين يديه مجتمعات ، ولكنى أحدثك بخبرهن ! ٠٠ فان الرشيد رحمه الله أرسل الى ذات ليلة قددخلت عليه فاذا

به جالس وبين يديه جارية عليها قميص وردى وسراويل وردية كأنهما
ياقوتة على وردة ، فلما رآني قال لي : اجلس وغن ! ..

فغنيت لحنا في قول الشاعر :

تشكى الكميت الجرى لما جهده

وبين لو يستطيع أن يتكلما

فطرب وقال لي : لمن هذا اللحن ؟ ..

قلت : لي يا أمير المؤمنين ، فقال : ان لابن سريج في هذا الشعر لحنا فهاته
.. فغنيت اياه فطرب وشرب رطلا وسقى الجارية وسقاني .. ثم قال :
غن ! .. فغنيت :

هاج شوقي بعلم شيب

((م)) اصداغى بروق

موهنسا والبروق هما

ذا الهوى قدما يشوق

فقال : لمن هذا اللحن ؟ .. قلت : لي .. قال : قد كنت سمعت فيه
منك لحنا آخر .. قلت : نعم .. لحن ابن منسر .. قال : هاته ! ..
فغنيت فطرب وشرب رطلا وسقى الجارية وسقاني ، ثم قال غن ! ..
فغنيت :

افاطم مهلا بعض هذا التدل

وان كنت قد ازمعت هجرى لاجمل

فقال لي : ليس هذا اللحن أريد في هذا الشعر ، ولكن أريد لحن ابن سريج
فيه ، فغنيت اياه وشرب وشربت وشربت الجارية ..
ثم قال وقد تملكته نشوة :

- حدثني ! ..

فجعلت أحدثه بأخبار العرب وأيامهم ، ثم بأحاديث المغنيات والمغنين ،
وأنشده أشعار القدماء والمحدثين .. حتى أقبل وزيره الفضل بن الربيع
فكانما اعتقني فقد كنت تعبت من الغناء والكلام ، فحدثه الفضل عن ثلاث
جوار حسان طريفات أدبيات ، وكأنه يحرضه على طلبهن منه ، ففعل الرشيد
وقال له :

- هل تسخو نفسك بهن ؟ ! ..

فانتزها الفضل بن الربيع فرصة وقال :

- والله يا أمير المؤمنين اني لاسخو بهن وبنفسي ، فيها فداك الله
تعالى ! ..

فعبجت لمعرفة الفضل بن الربيع من أين يأكل كتف أمير المؤمنين ، ولا

عجب ، فهو الذى أغراه ودبر له نكبة البرامكة .. وكان لا يفتأ يحىء اليه
بما يسره من الجوارى ومتاع الدنيا منذ تلك النكبة ! ..
ثم قلت للمأمون :

— فؤلاء الجوارى — يا أمير المؤمنين — هن : سحر وضياء وخنث وأجملهن
سحر ، فانها ساحرة كاسمها .. وفيهن يقول الرشيد :

ان سحرنا وضياء وخنث
هن سحر وضياء وخنث

أخلت سحر ولا ذنب لها
ثلثى قلبى ، وترباها الثلث

فكان لسحر ثلثا قلب الرشيد .. ولزمتيها الثلث الباقي ! ..
فضحك المأمون ، وقال لى : هل غنيت شيئا فى هذين البيتين ؟
قلت :

— رأيت أمير المؤمنين الرشيد يفار عليهن فجاوزتهن الى غيرهن من ذوات
السحر والضياء والخنث .. وصنعت فيهن ما شئت من الألحان ! ..
فاشبهت ضحك المأمون وأمر لى بجائزة سنوية ! .. وكان فى تلك الليلة
يتفكه بكلامى ولا ينكر ما يسمع عن أبيه ! ..

وَنَنِي عَمَلِكُ جَانِبَا
وَأَنَا كُنْتُ لَأَعْبَا

قَالَ لِمَنْ صَدَعَاتِيَا
قَدْ بَلَغْتَ الزِّيَارَتِيَا



مكائد المغنين

● اليوم الاول :

أشعر أن بصرى يضعف يوما بعد يوم ، وأعالجه فلا يقسوى ، ولا يرد عنه العرج ما يعنويه من ضعف مستمر .. وقد سألت الطبيب : أياكون هذا من أثر صربة عنيفه على راسي بقضيب من الحديد نالني بها في صباى بعض الناس ؟! .. فأجاب : نعم صدقت ، وقد لطف الله بك ، فعشت ما سلف من عورك مبصرا ، وستعيش مبصرا ان شاء الله ولو عمرت مائة عام ! ..

أنا الان فى الخامسة والسبعين من عمرى ، ولا ينقص عيشى الا ما أحدثه الدهر فى بصرى ، وأخشى يوما يقول فيه الناس : قد صار اسحق الموصلي ضريرا ! ..

دعانى الامير الواصل الى عهد الخليفة المعتصم الى لقائه فى مدينة دسر من رأى « مقر الخلافة الجديد ، ومعسكر جيش الخليفة فانحدرت اليها من بغداد فى سفينة من سفن دجلة .. فلما قاربنا شاطئ دسر من رأى تناهت الى اسماعنا ضجة هائلة لم نتبين حقيقتها الا حين ألقت السفينة مراسيها على الشاطئ ! ..

رأيت المعتصم يخرج من المدينة بجيش عظيم ، وقيل لى انه خارج لحرب الروم ، لانهم أسروا امرأة عربية يقال انها هاشمية فصاحت وهى تتخبط بين أيديهم « وامعتصماه ! .. » .. فبلغته القصة فخرج على حمية وغضب ليقاتل الروم ويحمى أعراض العرب والمسلمين .

دخلت قصر الخلافة ، والوائق ينوب فيه عن أبيه ، ولكنه لا يبالى بالحرب التى خرج اليها أبوه الخليفة المناقل الذى اعتاد الخروج الى الحرب والعودة منها ظافرا ..

ووافق دخولى القصر ، جلوس الواصل للصبوح ، فرأيت يجلس وسط المغنين ، لا فوق سريره مختلطا بهم كأنه واحد منهم فى حلقة واحدة .. وقال لى :

— يا اسحق .. خذ عودا وغن ! ..

فتعللت بوجع عينى ولم أغن ، فقال لى وللمغنين ..

— أنا أغنى اذن .. ثم يغنى كل منكم بعدى فى دوره ! ..

غنى الوراق فأجاد ، ثم أخذ أصحابنا يغنون كل فى دوره ، حتى جاء دورى ، فأعذرت بوجع عيني ، فقال الوراق :

— اعود اذن فأغنى ، ثم يغنى كل منكم ! ..

فغنى الوراق ، وغنى المخنون ، حتى جاءت نوبتى فى الغناء فأعذرت ، فصاح الوراق :

— ياخوزى يا كلب ! .. أتواضع لك وأغنى ، وترتفع عني !؟ .. أترى لو انى قتلتك كان المعتصم يقتلنى بك !؟ ..

ثم أمر بضربى ثلاثين مفرقة ، وحلف الا يغنى أحد غيرى سائر ذلك اليوم .. فما زلت أغنى — عقابا لى — حتى انقضى اليوم وانصرفت بلا جائزة ! ..

● اليوم الثانى :

مات المعتصم ، وتولى الوراق الخلافة ، وكنت مع الواقفين بين يديه من المغنين والشعراء فى أول مجالسه التى جلسها بعد ولايته الخلافة ، فأنشده الشعراء ، وغنى المغنون ، وقال الحضور فى تهنئته كلاما كثيرا .

ثم خرج الناس ، وبقيت عنده مع بعض خواصه ، فقال لى :

— ويحك يا اسحاق .. أما اشتقت الينا ، فقد انقضت سنوات منذ ضربتك ثلاثين مفرقة ، لم نرك ولم نسمع غناك ، كأنك خاصمتنا منذ يومئذ ! ..

فقلت :

— بلى والله يا أمير المؤمنين ، قد برانى الشوق اليكم ، وقد قلت فى ذلك أبيتا ! ..

فتهلل وجهه وقال

— هاتبا يا أبا محمد ..

فأنشدته :

اشكو الى الله بعدى عن خليفته

وما أقاسيه من هم ومن كبر

لا استطيع رجلا ان هممت به

يوما اليه ولا أقوى على السفر

انوى الرحيل اليه ثم يمننى

ماحدث اندهر فى جسمى وفى بصرى

ثم غنيته لحنا جديدا من الحانى فأستعاده ليلة كاملة لا يشرب على غيره .. ووصلنى بثلاثمائة ألف درهم ، فأسعدتنى صلته هذه التى لم يكن جده هارون الرشيد يصلنى بمثلها مع أن الدولة فى عهده كانت تسبح فى بحر

من الذهب والفضة ، وليست الحال الآن كذلك ، وليس فى بيت مال الدولة
ولا فى بيت مال الخليفة الخاص الا الشيء اليسير !

● اليوم الثالث :

دخلت دار الوراق ، فسمعت صوت عود وترنا ، فلما بلغت مجلس
الوراق قال لى : « اى شىء سمعت الآن يا اسحاق ؟! » .. قلت : « سمعت
يا أمير المؤمنين ما لم أسمع مثله قط حسنا واطرابا » ! .. فضحك فقال :
« انما هذا فضلة أدب وعلم مدحه الاوائل ، وكثر فى مكة والمدينة ! ..
أتحب أن تسمعه منى ؟! » .. قلت : « اى الذى شرفنى بخطابك وجميل
رايك » .. « يا غلام هات العود ، وضرب الوراق وغنى فى شعر لابی العتاهية
يلحن صنعه فيه :

اضححت قبورهم من بعد عزهم

تسقى عليها الصبا والعرجف الشمل

لا يدفعون هواما عن وجوههم

كانهم خشب بالقاع منجسد

فلما أتته فمت فدعوت له دعاء طويلا ، حتى اجلسنى وقال : « أتشتهى
ان تسمعه ثانية ؟! » .. فقلت : « اى والله .. فهذا هو الغناء الذى
يلامس القلوب » .. فغنائيه .. فقممت فدعوت له .. فغنائيه ثالثة ! ..

ثم صاح ببعض خدمه « احملوا الى اسحاق ثلاثمائة ألف درهم » !
وقال لى : « يا اسحاق .. قد سمعت ثلاثة أصوات ، وأخذت ثلاثمائة ألف
درهم ، فانصرف الى أهلك مسرورا » ! ..

● اليوم الرابع :

صار الوراق جيد التلحين والغناء وضرب العود ، وليس فى المغنين
ولا الضاربين أحسن منه ولا أعلم بهذه الصناعة ، وهو شديد الثقة بعلمي ،
فلا يصنع لحنا الا سألنى عن رأى فيه .. وله فى ذلك طريقة لا تتغير ، فانه
يقول لى : « قد وقع الينا صوت قديم من بعض العجائز ما سمعه أحد » ..
ثم يأمر من غلمان القصر المغنين من يغنينى اياه فى حضرته .. فان كان
لحنا جيدا قرظته ووصفته واستحسنته ، والا ذكرت ما فيه من خطأ ، فان كان
للوراق هوى فى هذا اللحن سألنى تقويمه واصلاح فساداه ! ..

وهو لا يغير طريقته الساذجة هذه فى عرض ألحانه ، كانه لا يعلم ان أقل
الناس فطنة لا تفوته هذه اللعبة ! ..

وقد صنع لحنا فى هذا الشعر :

هل تعلمين وراء الحب منزلة

تدنى اليك فان الحب اقصانى

هذا كتاب فتى طالت بليته
يقول يا مشتكى بشى واحزانى

كما صنع فى شعر ذى الرمة :

خليل عوجا من صدور الرواحل
بجرعاء جزوى وأبكيا فى المنازل

لعل انحدار اللمع يعقب راحة
من الوجد أو يشفى نجي البلاليل

ولى فى شعر ذى الرمة هذا لحن مشهور يحفظه الوراق ، فلما صنع لحنه
هذا فيه أسعنيه وسألنى رأيى فقلت :

- يا أمير المؤمنين ان لحنك هذا الرائع قد أرانى قبح لحنى وسماجته ..
والله لقد اقتصصت منى وزدت يا أمير المؤمنين بما جئت به فى لحنك من
بديع الصنعة ! ..

فأمر لى بمائة ألف درهم ، ثم قال لى :

- يا إسحاق .. يعجبنا لحنك :

لقد بخلت حتى لو انى سألته
قلدى العين من سافى التراب لفنت

فهبلا أقمت عندنا فطارحت به هؤلاء الغلمان المغنين فى القصر ، حتى
يأخذوه عنك ويتقنوه ، فاذا اشتهيناه أمرنا منهم من يغبينا به ! ..

فمكثت فى القصر أياما أطارحهم اللحن ، ولا أحد من هؤلاء المغنين يقدر
أن يأخذه ، فضلا عن أن يحكمه ويتقنه ، فقلت للوراق : يا أمير المؤمنين ..
أخرج لى الجارية « شجا » فستاخذ اللحن وتحكمه .. فأمر فأخرجوها
وطارحتها اللحن حتى أحكمته وغنته الوراق فطرب ، وأمر لى بمائة ألف
درهم ..

ان « شجا » هى إحدى ربيباتى وتلميذاتى .. اشتريتها صغيرة ، وثقتها
ودربتها على الغناء وضرب العود حتى تخرجت وبرعت ، فأهديتها للوراق
وصارت من مغنيات قصره ، ولكن جاريته « فريدة » حظيت عنده وتفوقت
بجمالها وصوتها النادر ، وكان عمرو بن بانة قد أهداها اليه بعد أن أهديت
اليه « شجا » ..

● اليوم الخامس :

لم أكد أعود الى بغداد حتى قال لى حاكم بغداد : « أن أمير المؤمنين
أمرنى بأشخاصك اليه فى سامرا » ! ..

وفى « سامرا » عرفت سبب استدعائى ، فقد صنع الوراق لحنًا فى :
« لقد بخلت حتى لو انى سألته » .. وأراد أن يعرف رأيى فيه ! ..

لقيت عنده المطرب مخارقا ، فأمره بغناء اللحن ، ثم سألني رأيي فقلت :
هنا غناء فاسد لا أرضاه ، فغضب الوراق وأخرجني من مجلسه ! ..

فلما كان من الغد أرسل من يحضرني إليه ، فראيت في مجلسه « فريدة »
.. لا أحد معه غيرها ، فغنت لحنه هذا فقلت : « هذا لحن صحيح
الصنعة والقسم والتجزة وما هكذا سمعته أمس من مخارق » .. ثم أخبرت
الوراق عن مواضع فساد اللحن كما غناه مخارق ، ففهم ولم يكن قد تبينه في
غناء مخارق ، ثم غنت فريدة عدة الحان أخرى من التديم والحديث ، وقلت
رأيي في جميعها مدحا أو طعنا ، فأجازني الوراق ورضى عني ! ..

خرجت من التصرف فتبعني خادم للوراق ممن أثق بهم ، فقال لي : « الحمد
لله الذي نصرك على مخارق عند أمير المؤمنين ، فانه هو الذي كادك عنده
وقال له ان اسحاق الموصلي شيطان خبيث داعية يقول بحضرتك في الحانك
ما يرضيك فاذا خرج عن حضرتك قال لنا ضد ذلك » ..

ثم قال لي الخادم : « ان مخارقا قال لامير المؤمنين : انا اقيم لك الدليل
على خبث اسحاق ، فأغنيه لحنك الجديد ، ولا يقال له لمن هذا اللحن وسترى
كيف يقول فيه ! » .

« فلما حضرت يا أبا محمد غنى مخارق اللحن فزاد فيه زوائد كثيرة
أفسدته فقلت أنت رأيك الحق فيه ، وأغضبت أمير المؤمنين ، فلما انصرف
مخارق قالت فريدة لامير المؤمنين : « ان اسحاق الموصلي يأخذ نفسه بقول
الحق في صناعته على كل حال ساءته أو سرتة لا يخاف في ذلك ضررا ولا
يرجو نفعاً ، وقد كاده مخارق عندك فزاد في صدر الصوت فأفسده متعمدا
ليطعن اسحاق فيه فتغضب عليه .. وأنا أعرضه على اسحاق كما صنعت
أنت يا أمير المؤمنين ، وسترى رأيه فيه » ! ..

هكذا كادني مخارق الذي كان خادما مغمورا فأخذه أبي رحمه الله فعلمه
وهذبه وقدمه للرشييد .

ولولا « فريدة » التي لا فضل لي عليها ، لبلغ مخارق بمكيده ما كان
يرجو من اقصائي عن مجلس الخليفة ! .. فقد ساءه حب الوراق لي ،
وما يغمرني به من الجوائز حتى زاد بره بي على كل بر أو اكرام شملني
في عهد الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ! .

راحة الأرواح

● اليوم الاول :

دخلت على أمير المؤمنين الوراق ، فقال لي : يا اسحاق .. أراني الليلة ثقيل المزاج ، غير مرتاح ولا نشيط لسماع شعر ولا غناء .. وقد كانت عندي منذ قليل جاريتك « شجا » التي كنت أهديتها اليها منذ مدة ، وكانت عندي أيضا « فريدة » الجارية التي أهداها اليها عمرو بن بانة .. كلناهما مطربة بارعة راوية للغناء قديمه وجديده ، ففقتنا أحسن غناء ، فلم أطرب ، فقلت لهما : قوما عنى فليست الساعة نشيطا لسماعكما ، وسيجيء اسحاق الموصلي فلعله يجد لي مخرجا مما أنا فيه من ثقل المزاج ، حتى حضرت يا اسحاق ، فلعلي أجد عندك شيئا ! ..

أخذت أتحدث الى أمير المؤمنين وأروى له الذرادر والاضاحيك ، وأقص عليه من أخبار جده الرشيد وعمه المأمون وأبيه المعتصم ، حتى رأيته يتحرك في فراشه وكان مضطجعا ، فعرفت انه تسلى بما سمع وقارب النشاط .. فأمسكت العود ، فغنيت هذا اللحن في هذين البيتين من شعري :

يا سرحة الماء قد سدت موارده
أما اليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيسام له
محلا عن طريق الماء مطرود

فانتفض طربا ، واستعاد اللحن مرارا ، ثم قال لي :

— هذا والله يا أبا محمد هو الغناء الذي يخالط النفس ، ويمزج اللحم والدم ، ويضئ وجه الدنيا ! .. هذا والله راحة الأرواح ! ..

من عادة الوراق اذا أعجبه منى غناء ، ان يناديني بكنيتي : « يا أبا محمد » فأخبرته ان عمه المأمون أيضا كان من عادته أن يخاطبني بكنيتي هذه اذا أعجبه منى شيء ولم يكن يخاطب من المغنين أحدا سواي الا باسمه ، ولم اسمعه قط يخاطبهم الا بأسمائهم ! ..

والوراق يشبه أحيانا بالمأمون ، حتى انه يميل الى مذعب المعتزلة ، وقد رأيت عنده مرة القاضى أحمد بن أبى دؤاد يناظر امام أهل السنة أحمد بن حنبل ، فاشتد ابن حنبل فى المناظرة فاقحم ابن أبى دؤاد ، وحكم له الوراق بالظفر ، ولكن الوراق بقى يميل الى المعتزلة وان لم يقال فى مطاردة علماء

أهل السنة كما فعل عمه المأمون وأبوه المعتصم ..
قال لي الوراق :

– اليس لك اهتمام ولا نظر في مذاهب المعتزلة والسنة وغيرهم
يا أبا محمد !؟ ..

فكتمت أمري عنه ، لاني لا أقول بالاعتزال ولا آراء مذهبا لي ، وإنما أنا
رجل من أهل السنة ، وقلت له :

– يا أمير المؤمنين شغلني الغناء عن طلب العلم ! ..
قال كأنه ينكر قولي :

– فأنهم يروون أن عمي المأمون كان يقول عنك : لولا أن اسحاق قد اشتهر
بالغناء لو كيته القضاء لعلمه وفضله وعفافه .. فأين علمك الآن ؟
قلت :

– كان ذلك يا أمير المؤمنين إذ أنا شاب ، أما الآن فقد شغلتنى هذه
الصناعة :

ضحك الوراق ، ونشط للحديث وسألني :

– قد كان من لا أذكر من الناس ، روى لي قصة عن لحنك هذا الذي غنيت
الآن ، وقعت لك مع عمي أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، فكيف كانت ؟
قلت :

– يا أمير المؤمنين .. جفاني أمير المؤمنين المأمون رحمه الله بعد قدومه
من خراسان الى بغداد وذلك بعقب حربه للامين ، فصنعت هذين البيتين
واللحن الذي سمعته فيهما ، وطارحت به علويه الاعسر فغناهما في مجلس
المأمون ، فلما علم ان الشعر واللحن لي ، استدعاني ورضى عني واتصلت
بخدمتي له ، وأكرمني ورفع قدرى ! ..

قال الوراق ، وهو بي كمادته شديده الاعجاب :

– والله .. لو لم يكن لك من الشعر الا هذان البيتان لكنت بهما شاعرا
.. ولو لم يكن لك الا هذا اللحن فيهما ، لكنت به من أئمة الملحنين ! ..

❶ اليوم الثاني :

في سهرة الليلة عند الوراق غنت جاريته « قريدة » لحننا لي في قولي :

لاسماء رسم عفا باللوى

اقام وهينا لطول البلى

فبلغت هذه الجارية بالخليفة وبي غاية الطرب .. ولقد سبغت أروع
المغنيات في قصور الخلفاء والامراء والوزراء من أيام الرشيد الى أيام الامين

فالمأمون فالمعتصم حتى أيام الواثق ، فما أظن انى سمعت مغنية أحسن منها
غناء ٠٠ وان الواثق لعدى حق فى هيامه بها ! ٠٠

قال لى الواثق معجبا :

— يا أبا محمد ٠٠ لك در هذا اللحن ، ما أجمله وما أكمله : وما أوثق
أقسامه وأوزانه ٠٠ وما أعرف لك لحنا الا وقد اكتسى من حسن الصنعة أبهى
الحلل فبحياتى ٠٠ غننى لحنك :

الطلول الدوارس

فارقتها الاوانس

أوحشت بعد أهلها

فهى قفر بسابس

فغنيته اللحن ، وكان قد حضر مخارق وعلويه ، كما حضرت « شجبا »
الجارية التى أهديتها لأمير المؤمنين ٠٠

فقال الواثق لمخارق وعلويه :

— عمل تحسنان غناء هذا اللحن !؟ ٠٠

قالا

— اسحاق لا يرضى بأن يطارحنا اياه حتى نحفظه ، لانه شديد الضن به ٠٠

قال :

— فان « شجبا » تحفظه ، ولم يضمن به عليها ٠٠

ثم أمرها فغنته ، فكاد الخليفة يخرج من ثيابه طربا ، وقال لى :

— يا أبا محمد ٠٠ والله لو عاش ابن سريج ومعبد وابن محرز وابن
عائشة ما شقوا غبارك فى هذا اللحن الفائق العجيب ! ٠٠

ثم التفت الى مخارق وعلويه وسألها :

— ماذا رأيتما فى هذا اللحن !؟ ٠٠

قالا :

— انه جيد يا أمير المؤمنين .

فغضب حتى تهدج صوته وهو يقول لهما :

— ليس عندكما فيه الا هذه الكلمة التى لا تفى بأدنى حقه !؟ ٠٠ انكما
أحمقان لا تعرفان شيئا ! ٠٠

ثم قال لى وقد هدأ وسرت فى صوته رنة اعجاب واعزاز :

— أول بيت فى لحنك هذا أربع كلمات فقط : « الطلول » كلمة ٠٠

و « الدوارس » كلمة ٠٠ و « فارقتها » كلمة ٠٠ و « الاوانس » كلمة ٠٠ فما

تركت والله يا اسحاق شيئا من الصنعة يتصرف فيه المفتي الا ادخلته في هذه الكلمات الاربعة ! .. بدأت تشيدا ، ثم تلوته باليسيط وجعلت فيه صياح جواب ، واسجاج قرار ، وترجيحا للنغم ظاهرا ثم اختلاسا فيها .. وكل هذا في اربع كلمات ! .. فمن يقدر على هذا الامر العظيم ؟ ! .. وهل صنع أحد تقدم أو تأخر مثل هذا قط ! ..

فخجل مخارق وقال :

- صدق أمير المؤمنين .. قد لحق اسحاق الاقدمين ، وسبق الاحداث !
أما علويه فلزم الصمت ، وان فيه لحسدا ، وفيه لجابة ومكابرة !

● اليوم الثالث :

ضجرت من ملازمة دار الخلافة والغناء فيها كل ليلة ، وقد كبرت وملئت هذا العيش ، فخرجت في بكرة النهار أطوف بالصحرى وانفرج ، ثم عدت وقد حمى النهار حتى بلغت فناء قصر ظليل على الطريق ، فوقفت استريح ، فرأيت شابين يدخلان الدار فدخلت معهما ، فظنا ان صاحب الدار دعاني ، وظن صاحب الدار اني معهما .. وخرجت الينا جارية ففنت هذا اللحن من الحاني :

ذكرتك ان مرت بنا ام شادن

امام المطايا تشرب وتسبح

من المؤلفات الرمل ادماء حرة

شعاع الضحى في منها يتوضح

فأدته اداء صالحا ، ثم غنت أصواتا شتى مما لحنته أنا أو غيري ، حتى طلب منها الحاضرون أن تغنى لحنى :

قل لمن صد عاتبا

ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذى أردت

وان كنت لاعبا

فاستعدته منها لاصححه لها ، فهمس صاحب المنزل الى الرجلين اللذين دخلت معهما يسألهما من أكون فأخبراه انهما لا يعرفانى ، ثم قال أحد الرجلين : لا بد انه طفيل ، ولو عرفنا انه كذلك ما أدخلناه معنا ، ثم أقبل هذا الرجل على فقال لى :

- يا هذا .. ما رأيت طفيليا أصفق وجهها منك ! .. لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل : « طفيلي مقترح » ، فأطرقت حياء ولم أجب الرجل بشيء ، وجعل صاحبه يكفه عنى فلا يكف ! ..

فلما نودي لصلاة العصر قاموا للصلاة ، وتأخرت عنهم قليلا فأخذت عود الجازية - وكانت قد انصرفت حتى يفرغوا من الصلاة - فشددت طبقة

وأصلحته اصلاحا محكما .. ثم قمت فصليت ..

فلما عدنا ، عادت الجارية فأخذت العود فجسسته فأنكرت حاله ، فقالت :
من مس عودي ؟ قالوا ما مسه أحد .

قالت : بلى والله .. لقد مسه حاذق خبير ، وشده طبيقته ، وأصلحه اصلاح
متمكن من صناعته ! ..

فقلت للجارية : أنا أصلحته ! ..

فدهشت وقالت : فبالله خذه واضرب به ! ..

فأخذته وضربت به ضربا صحيحا ظريفا عجيبا صعبا ، فما بقي أحد منهم
الا وثب فجلس بين يدي .. وقالت الجارية : بالله يا سيدي اتغنى ؟ ..

قلت : نعم .. وأعرفكم نفسى . أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلى ! ..
والله اننى لآتيه على الخليفة اذا طلبنى وانتم تخاطبوننى بما أكره منذ اليوم
لاننى تبسطلت وتملحت معكم ! ..

فاعتذروا لى أشد الاعتذار ، حتى أوشكوا أن يبكوا ، وقامت الجارية ،
فقبلت رأسى وقالت :

— يا سيدي .. والله لو عرفناك لرأيت منا أحسن ما تحب ممن يعرفونك
عظيم قدرك حق المعرفة ! ..

فغنيتهم الاصوات التى غنتها الجارية من صنعتى ، لتعرفها على وجهها
الصحيح ، وأردت بذلك منفعتها ، فكانت تسمعنى وتبكي طربا وفرحا بما
تهبأ لها من سماعى ، ولم تكن تحلم بذلك ولا خطر فى بالها قط ، والمنا
كانت تحفظ الحانى ممن يروونها صوابا أو خطأ ..

أقمت عندهم أياما على أحسن حال ، وصاحب الدار يقوم بخدمتى أعظم قيام
ولو استطاعت الجارية أن تطعمنى من لحم جسدها لفعلت اعظاما لى وسعادة
بما بلغته من سماع الحانى من فمى لا من أفواه الرواة ! ..

فلما انقضت أيامى عندهم ، ركبى الى الخليفة ، فلما رآنى قال : ويحك !
.. أين كنت ؟ .. فأخبرته ! .. فأستدعى الرجل الذى حللت عليه ضيفا
وأجازه بمائة ألف درهم ! ..

أما الجارية فأمر لها بخمسين ألف درهم ، وجعل لها نوبة كل أسبوع تغنى
فيها من وراء الستارة مع الجوارى

فلما انقضت أيام ، قلت لأمير المؤمنين الراحل ، وقد فرغت من غناء لحنى :
« قل لمن صد عاتبا » :

— يا أمير المؤمنين .. والله لولا ان ذلك الامر قد وقع لى ، ورأيت به معنى ،
ما صدقت منه شيئا ! ..

— وما هو ؟ ..

- رحلتى فى الصحراء ، والجارية وصاحبها وما أجزتهما به من المال ..
- وما لى ذاك ؟!

- فيه والله أعجب شيء رأيته قط ، فان هذه القصة بحذائرها وقع لى مثلها فى عهد أمير المؤمنين المأمون ، وخرج المنادون فى بغداد يصيحون باسمى ، حتى عدت وقصصت عليه قصتى فاستدعى الجارية وصاحبها وأجازهما ، وليس بين تلك الجارية وصاحبها أدنى شيء يصلهما بالجارية وصاحبها اللذين وقفأ بين يديك يا أمير المؤمنين ، وان بين القصتين لأكثر من خمسة وعشرين عاما ! ..

فلبت الرائق يتعجب ويقول : سبحان الله ! ..



الحياة ١٢٠ سنة

● اليوم الاول :

عشت ستين عاما في دولة بني أمية ، رأيتها في ارتفاع راياتها وفي سقوطها تحت أقدام أبي مسلم الخراساني داعية الدولة العباسية وقائد جيوشها الزاحفة من خراسان الى العراق والشام ومصر وغيرها من بلاد المسلمين ..

كنت في دولة بني أمية أجلس الى المغنين وأحفظ الحانهم ، حتى استقامت لي طريقة حسنة في التلحين والغناء ، ورويت كل ما حفظته عن الفحول من مطربي مكة والمدينة ، كآبن سريج ومعبد والفريض وابن شائسة ولم ينتهي سماع أحد الا الرعيل الاول الذي نشأ الغناء على يديه في المدينة ومكة أهمل طويس وسائب خاثر وبعض قيان المدينة ، فهؤلاء لم أدرهم ، ولكني رويت غناءهم عن أخذوه منهم وصار الناس يرددون اسمي : « يحيى المكي » .. ويطلبون سماعي ! ..

فلما سقطت دولة بني أمية لبثت لا أجد منتجعا لي عند الخليفة العباسي الاول ، ثم جاء الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور فكان ينكر على أهل بيته وعلى قواده وعظماء دولته ، سماعهم الغناء ، ويمنع أن يرتفع صوت بالغناء أو عزف الطنبور في قصره ! ..

حتى ذهب أبو جعفر وجاء ابنه الخليفة المهدي ، فافتتح لي وللمغنين باب الارتزاق عنده .. وقدمت من الحجاز الى بغداد على المهدي في أول خلافته مع كثير من مطربي مكة والمدينة الذين أوشكت صناعتهم أن تبور ..

ولم يبق في بغداد بعد طول التردد على الخليفة المهدي أحد من هؤلاء ، وبقيت وحدي ، يسمعي ويجيزني ، ورأيت عنده المطربين الناشئين ابراهيم الموصل واسماعيل بن جامع .. كلاهما فايغة في باب من هذه الصناعة ، ولكنهما لم يكونا على علم تام بالغناء القديم ، ولا يرويان منه ما يرتفع به شأنهما عند الخليفة ، فكانا - ومعهما آخرون من طبقتيها - يرفعسون الى دارى ويفرد كل منهم بي قيفاسمني جائزته ويأخذ عني بعض ما أرويه من غناء القدماء .. فلما اشتد ساعدهم ورووا مما حفظته شيئا غير قليل ، أخذوا يناقسونني ويكابدونني ويطعنون في روايتي للغناء القديم ويزعمون انني أنتحل غناء القدماء فأنسبه لنفسى ، ثم انحل هؤلاء القدماء من غفائي ما ليس لهم ، فأنسبه اليهم ! ..

وقال بعضهم : قد كثر الانتحال والوضع فى الغناء كما كثر فى الشعر وفى الحديث وفى أخبار أيام العرب ، ولا بد من ضبط رواية الألحان القديمة ضبطا محكما حتى لا يقع فيها تخليط للرواة والوضاعين ! ..

لكن المغنين لم يشبهوا لى ، لانهم ليسوا على شىء فى رواية الغناء ولم يفلحوا عند الخلفاء الا بما صنعوه من الألحان الجديدة .. حتى نشأ اسحاق بن ابراهيم الموصلى فضبط رواية الغناء القديم ، وأخذ من مظانه ، واجتهد فى تدوينه ، وصيره علما بذاته ، وأخذ يبين للناس منحولاتى .. وطاردنى فى مجالس الخلفاء وكشف أمرى ! ..

كنت أغنى فى سهرة عند بعض الكبراء ، واسحاق الموصلى فيمن حضر ، فغيت من الحان مالك ، فسألنى بعض من حضر عن صانع هذا اللحن ، ولم أنتبه الى وجود اسحاق الموصلى ، فقلت : هذا من صنعتى ، فصاح اسحاق : ماذا تقول يا شيخ !؟ .. فتنبهت وقلت : انما كنت أمزح ، فهذا من الحان مالك ! ..

ثم غيت لحنا لى فسئلت عن صاحبه فنسبته الى الفريض فقال لى اسحاق : يا يحيى .. هذا ليس من نمط الفريض ولا طريفته فى الغناء ، فاستحييت من كذبه ، فلما انصرف اسحاق ، بعثت اليه بهدية استرضيه بها وأكف شره عنى وكتبت اليه : « لست ممن يتصدى لمباغضتك ومباراتك فتكايدينى .. وأنت محتاج الى أن أفيدك وأعطيك مما أرويه وحدى ولا تجده عند غبرى ، فاذا أخذت ذلك عنى سموت به على أكفاك ، وحملت سلاحا اذا حملة عليك غيرك لم تقم له ! .. »

فعرف اسحاق أننى صدقته النصيحة فاعتذر الى وحلف لا يعارضنى بعدها ، ولكنه شرط على الوفاء له بما وعدته من الزوائد ، فوفيت له بها ، وأخذ منى كل ما أراد من غناء المتقدمين الذين رأيتهم وسمعتهم ولم يرهم هو ولم يسمع منهم شيئا .. ولم يعاود اسحاق معارضتى بعد ذلك ، لكنى كنت اذا سئلت فى حضوره عن شىء صدقت فيه ، واذا غاب اسحاق قلت ما شئت وأكثر من التخليط ، لانى لا أحب أن أبذل علمى لمن يطلبه بغير مقابل من المال أو النقائس ، فقد تعبت أشد التعب طوال ثمانين عاما فى جمع ما أرويه من الغناء ، ثم يجيء الناس فيسألوننى أن أبذله لهم ، ولم يبذلوا لى شيئا .. فكيف يلوموننى اذا ضمنت عليهم ولم أعطهم ما يطلبون !؟

● اليوم الثانى :

نقض اسحاق الموصلى عهده الذى قطعه لى وكادنى عند أمير المؤمنين الرشيد مكيدة موجعة ، لم أعرف كل تفاصيلها الا بعد وقوعها وافتضاحي بها ! ..

فقد قال اسحاق للرشيد : اتحب يا أمير المؤمنين أن أظهر لك كذب يحيى الملكى فيما ينسبه الى القدماء من غناء ، وما ينسبه الى نفسه وخطه بين صناعته وصناعتهم !؟ ..

قال له الرشيد :

- نعم ! .. وهذا شعر جديد فأصنع فيه لحنا جديدا وغننى فيه .. ثم سألك اذا حضر وسمع اللحن عمن صنعه فتذكر لى اسما لا اصل له ، ثم نرى ما يقع من يحيى ! ..

فلما حضرت مجلس الرشيد غنى اسحاق اللحن ، فسأله الرشيد : لمن هذا اللحن يا اسحاق ؟ .. قال اسحاق : هو يا أمير المؤمنين لغناديس المدينى .. كان من حذاق المغنين فى المدينة ومكة ، وكان ممن أخذ عن معبد والفريضى ! ..

فأقبل الرشيد فقال لى ، وأنا غافل عن المكيدة :

- يا يحيى .. أكنت لقيت غناديس فى مكة أو فى المدينة ، وأخفت من صناعته شيئا ؟ ..

قلت بثقة وغرور :

- نعم لقيته وأخذت عنه صوتين ! ..

قال الرشيد :

- فغننا صوتا مما أخذت عن غناديس !

فاندفعت فغنيت لحنا من ألحانى لم يكن الرشيد ولا أحد غيره قد سمعه . ثم قلت : هذا يا أمير المؤمنين أحد الصوتين اللذين أرويهما عن غناديس ! .. فضحك الرشيد حتى استلقى على فراشه ، وقال لى :

- يا لك ! .. الآن عرفنا كذبك وتخليطك فى رواية الغناء .. فما خلق الله مغنيا فى مكة ولا فى المدينة اسمه غناديس .. وإنما وضع اسحاق هذا الاسم هنا فى وقته .. وقد انكشف الآن أمرك ! ..

فكدت أموت غما وكمدا ، ولم أحر جوابا من فرط الخجل والسقوط حتى أشفق على الخليفة فقال لى :

- لا بأس عليك يا يحيى ! لئن كنت وضاعا مختلعا فيما تنسبه الى القدماء .. انك فيما تنسبه الى نفسك من غناء لمطبوع كثير الصنعة ، ولقد رويت ما لم يروه أحد من المغنين ، وعلست ما جهلوا ..

ثم التفت الى اسحاق وسأله :

- ما تقول يا اسحاق ؟ ..

قال وكأنه يسترضينى بعد الذى تكبته به :

- والله ما أعرف أحدا أروى منه ، ولا أصح أداء للغناء ، ان كان ما يغنيه له أو لغيره !

فايتسم الرشيد وأمر له ولى بجائزة !

● اليوم الثالث :

صنعت حتى يومى هذا ثلاثة آلاف لحن ، منها زهاء ألف لحن لم يقاربنى أحد فى جودتها ، والباقي متوسط ، وأنا والله أستاذ هذه الطبقة من المغنين التى تنصدر مجالس الرشيد ورجال دولته .. وإن إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وهما المقدمان فى الغناء والتلحين ، ليعترف كلاهما بأستاذيتى .. وأرى أن إسحاق الموصلى أفضل من أبه رواية وصنعة وإن لم يكن أطيب حلقا ، وهما فى الحقيقة يجيئان فى حسن الحنجرة بعد ابن جامع ومخارق وعلويه وأكثر المغنين ، ولكنهما يتقدمان كل التقدم بالصناعة والعلم والحدق فى الاداء ، وهذا ما برعا به جميع هؤلاء المغنين ذوى الحناجر المطربة ! ..

وقد غنيت مرة عند الرشيد ، فسألنى كم لحننا صنعت ، فذكرت له عددها ، فسألنى كم سنة عشت حتى يوم الناس هذا ، فقلت : قرابة مائة وعشرين عاما ! .. فصاح إبراهيم الموصلى :

— انى والله ما عشت بعد نصف عمرك هذا ، وقد شاب رأسى وسقطت أسناني ، ويكاد القولنج أن يقتلنى ، وأراك على شيخوختك التى حطمت الستين ، صحيح السمع والبصر والعقل ، قادرا على الغناء والتلحين ! .. فزادك الله يا يحيى من عافيته وأحسن اليك ، ورزقنا بعض ما رزقك من العمر والعافية ! ..

فاختلط حسد الموصلى بدعائه ، وعرف ذلك فى كلامه كل من سمعه ، ورأيت الخليفة يشيح بوجهه عن الموصلى ، فإن هارون الرشيد — على جبروته — رقيق القلب ، محب للناس ، كثير العطف على الشيوخ والضعفاء ! .. وقد كانت حالى ساءت عند الرشيد لما قر فى نفسه من كذبي فى الرواية ، ثم صلحت حالى عنده وعرف أن قدرى فى الصناعة فوق أقدار من يغشون مجلسه من المغنين ، مع كل ما يعتقده الرشيد من تخليطى فى الرواية ونسبة الألحان ! ..

وقد غنيتة أمس :

متى تلتقى الأجباب والعيس كلما

تصعدن من واد هبطن الى واد

فلم أزل أغنيه اياه ، ويتناول قدحا ، حتى عدت عشر مرات ، استعاد فيها اللحن ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم .. وقال : والله ما يحسن غناء هذا الا يحيى المكى ! ..

● اليوم الرابع :

غنى ابن جامع فى السهرة عند الرشيد هذا الصوت القديم :

انى امرؤ مالى يقى عرضى

ويبيت جارى آمنا جهلى

وأرى الدمامة للرفيق اذا

ألقى رحالته الى رحلي

فلم يزد ابن جامع على غناء البيت الاول شيئا ، فأترب الرشيد وأعطاء
عشرة آلاف درهم وعشرة خواتيم وعشر خلع .. فلما انصرفنا جاءني ابراهيم
الموصلى واستفتات بى أن أطرح عليه هذا اللحن كله فى بيتى الشعر جميعا ،
لا فى البيت الاول وحده الذى غناه ابن جامع ووقف عنده ولم يعرف كيف
يفتى البيت الثانى ..

قلت للموصلى :

— أفرأيت ان زدتك البيت الثانى الذى لم يعرفه ابن جامع أو كان يعرفه
ثم نسيه ، وطرحته عليك حتى تأخذه وتحكمه وتغنيه للخليفة .. ما تجمل
لى ؟ ..

قال :

— النصف مما يصل الى يدي بهذا الصوت !

فألقيت عليه الصوت فى البيتين معا حتى أتقنه ، فلما حضر مجلس الرشيد
غنى الصوت وجاء بالبيت الثانى الذى لم يجرء به ابن جامع ، فطرب الرشيد
واستعاده مرارا ، وحمل الموصلى الجائزة الى بيتى فقاسمنى ! ..

❁ اليوم الخامس :

امتد بى طريق الحياة .. حطمت العنبرين بعد المائة من عمري ، ومات
زملائى فى الصناعة ممن يصغرونى منا .. مات ابن جامع والموصلى وما
أظن الموصلى بلغ الخامسة والستين حين قضى .. وبقيت طبقة الشباب
كمخارق وعلويه .. وأميرهم فى العلم والرواية والصناعة والاداء هو اسحاق
ابن ابراهيم الموصلى ، الا أنه أقدمهم حلاوة صوت ، وهو فى هذا كآبيه ، ومثله
أيضا فى التفوق على منافسيه بالحلق فى الصناعة والاداء والتبحر فى العلم
بالغناء القديم ..

ويزاحنا فى الغناء ابراهيم بن المهدي ، وقد مات أخوه هارون الرشيد ،
وتولى الخلافة محمد الامين وما زال شابا حدنا طياشا ولكنه شديد الحب
للغناء .. وقد غنيته أمس :

خليل لى اھيم به

فما كافا ولا شكرا

بلى .. يلغى له باسمى

اذا ما ريع أو عشرا

فأمر لى بعشرين ألف درهم ، وأراد ابراهيم بن المهدي أن يأخذ عني
الصوت فأبيت أن أعطيه حتى حكم عليه الامين بأن يعطينى عشرة آلاف
درهم ! ..

دِينُ غَنَاءِ كَانَتْ سِرَاتُهَا الْوَحِيدُ



يَجْعَلِي الْقُلُوبَ وَالْأَذْنَ

تأويل الرؤيا

● اليوم الاول :

قلت لاستاذي ابراهيم الموصل : الناس يعلمون أن أصلك من فارس ، وإن بيتنا شريفاً كان لك في العجم ، ثم نزل جده بالكوفة ، ونشأت أنت بها ، فمن أين جاءك لقب الموصل ؟ ١٩ ٠٠

قال :

— ما أخبرت احداً بسر هذا اللقب ، لكنني أخبرك ، وذلك اني لما صرت صبياً اشتبهت الغناء فطلبته عند بعض المغنين ، فنهاني عنه أخوالي وضيّقوا علي الخناق ، فهربت الى الموصل وليس لي دينار ولا درهم ، فصحبت جماعة من الصعاليك يقطعون الطريق ويصيبون من هذا الاثم بعض المال ، فيشربون ويغنون ، وكان فيهم بعض من يحسنون الغناء فأخذت عنهم الحانا وتعلّمت منهم ، ولم أكن أشاركهم قطع الطريق ، ولكن انتظرهم على مقربة حتى يفرغوا من سلب الناس ما يقدرون على سلبه ، فيقولون لي : الا تشاركنا هذا العمل ؟ ٠٠ فأقول : لا أستطيع ! ٠٠ فيقولون : نحن نكفيك ونسمع غناءك ، فأنك إشدنا حذقا ، وإن كنت تزعم انك تأخذ الغناء عنا ! ٠٠

ثم قال لي الموصل :

— فهذه والله يا مخارق قصة لقبي ، فاكم هذه القصة عن كل الناس !

قلت :

— أفعّل ان شاء الله ٠٠ ولكن كيف قلت الشعر ، فأنك فيه حسن الطبع مجيد ، على أنك لم تتعلم القراءة والكتابة الا كبرا حين حبسك أمير المؤمنين المهدي ١٩ ٠٠

قال :

— لا يجيء الشعر من القراءة والكتابة وإن عظم شأنهما ، ولكنني نشأت في بني تميم الفصحاء ، وأكثرهم شعراء فكنت مثلهم !
ثم احتضن الموصل عوده ، وضرب عليه ، وغنى :

إذا سرها امر وفيه مسساتي

قضيت لها فيما تريد على نفسي

وما مر يوم ارتجى فيه راحة

فأذكره ألا بكيت على أمسى

فسمعت والله لحننا لم أسمع مثله من قبل جمالا واكتمالا فى أقسامه
وأدواره وسائر صنعته ، فقلت له وقد هزنى الطرب :

— والله ما يقدر على مثل هذا ابن سريج ولا معبد ولا ابن محرز ولا
امثالهم من شيوخ الغناء العظماء الذين سبقونا ..

فضحك الموصلى ، وكان متواضعا لطيفا ، وقال :

— على رسلك يا أبا المهنا .. فوالله ما أنا إلا صبي صغير يلعب بين
أيديهم ! ..

● اليوم الثانى :

التفتى والمطرب الملحن الكبير اسماعيل بن جامع الذى يقول له
الرشيد كلما سمعه : « صوتك يا اسماعيل كالعسل » ! .. فصحبني
الى بعض قصور آل الربيع .. فجلسنا نستمع هناك الى جارية قندهارية
الاصل كانوا قد اشتروها صبية وعلموها انغناء على أيدي الموصلى وابن
جامع وغيرهما ..

غنت الجارية أصواتا من صنعة القدماء ، ثم غنت اللحن الذى سمعته
من ابراهيم الموصلى : « اذا سرها أمر وفيه مساءتى » .. فرأيت ابن جامع
يشرب الى الجارية ويصغى اليها بكل جوارحه ، فما فرغت منه حتى كان
ابن جامع قد أنخن طربا ، فقال لها : أعيديه .. لله أنت ! .. فأعادت
مرارا ، وهو يزداد طربا حتى أوشك أن يمشق ثيابه ، وأما فى ذلك
مثله ، ولكنى أغالب نفسى ، احتشاما لأصحاب القصر ، فأنى ما زلت صغيرا ،
وما كنت منذ سنوات الا خادما عند الخليفة ، أما ابن جامع فاشير واكبر من
أن يحتشم احدا فى مجالس الغناء ، اذا طرب أو شرب ، وهو قرشى من بنى
سهم ، فله دالة وحرمة من جهة شهرته العريضة ، ومن أصله الكريم !

فلما خرجنا وركبنا الى قصر أمير المؤمنين — وكنا مدعوين للغناء فى
سهرته — قال لى ابن جامع :

— ويحك يا مخارق .. نسيت أسأل الجارية عن صاحب ذلك اللحن !
قلت له :

— صاحبه ابراهيم الموصلى ! ..

قال ابن جامع ، وكان فيه ميل الى الانصاف :

— لظننت والله انه هو صاحبه ، فما يحسن أحد فى أيامنا هذه أن
يصنع ذلك الا الموصلى !

ثم قال لى :

— قد ذكرت الساعة رؤيا رايتها فى منامى البارحة :

قلت :

— خيرا ان شاء الله ! ..

قال :

— رايت فى منامى كائنى وابراهيم الموصلى راكبان فى محمل ، فهبط الموصلى بالجانب الذى يجلس فيه من المحمل حتى كاد يلتصق بالارض ، وعلوت بالشق الذى انا فيه ، حتى كائنى ارتفعت الى السماء ، فما تاويل ذلك عندك ، فانى أعلم انك من ذوى الفطنة فى هذا الباب ؟

فوجدتني أشعر بالعزن على ابن جامع ، كأنه يموت امام عينى ، فانى أظن أن تاويل هذه الرؤيا ان الموصلى يبقى على الارض حيا ، وان ابن جامع يموت وتصعد روحه الى السماء ! ..

لم ارد على سؤاله ، فاستحثني فادعيت انه لم يفتح لي باب للتاويل ، فقال لي :

— أنا أقول لك تعبير هذه الرؤيا .. فانا والموصلى الان متنافسان ، فاعلونه فى الغناء حتى ارتفع فوقه ، ويسفل هو حتى يلتصق بالارض ! قلت :

— أبقاك الله أيها الاستاذ ، وبلغك أملك ، ولا حرمتك منك أبدا ! ..

وكنت أجهش باكيا ، فقال لي ابن جامع :

— ما دهاك يا مخارق ؟ .. كأنما طرقتك من الحزن شيء ! ..

قلت :

— لا .. ولكنى ذكرت غناء تلك الجارية القندهارية ، فابتعثت هذه النفثة من صدرى ! ..

قال وقد عاوده طربه لفنائها :

— لله تلك الجارية .. ما أحسن غنائها ! .. والله لو غنت لمدنف أوشك أن يموت ، لظننت انه ينهض صحيحا معافى ! ..

قلت فى نفسى :

— أنا لله ! .. يابى أستاذنا هذا ألا أن يذكر الموت ! ..

● اليوم الثالث :

جلست فى سهرة أمير المؤمنين الرشيد بجانب أستاذى ابراهيم الموصل ، فقصصت عليه ما وقع لي مع ابن جامع ، منذ غنتنا الجارية القندهارية الى أن حدثنى عن رؤياه وتاويله للرؤيا ..

فرايت الموصلى يصمت واجما ، فانه من أقدر الناس على تعبير الرؤى
ثم قال لى :

- والله ما يسرنى أن أعيش ويموت ابن جامع .. والله ما أطرب لغناء فى
الدنيا طربى لغنائه ، ولوددت أن أشاطره عمرى ! ...

ثم انفرجت أساريه قليلا ، وهمس :

- ليت هذه الرؤيا تكون أضغاث أحلام ! ..

بدأت السهرة ، فغنيت أمير المؤمنين لحنا من صنعة إبراهيم الموصلى
فطرب ، وقال لى :

- أحسنت يا مخارق وأحسن أستاذك صاحب هذا اللحن ! ..

ثم قال لابن جامع :

- يا اسماعيل .. هل من جديد عندك ؟!

قال :

- يا أمير المؤمنين .. والله لقد سمعت صوتا جديدا لإبراهيم الموصلى ،
وددت لو أننى غنيته فى حضرتك ، ولكنى لم أحكمه بعد ولم أتقن حفظه !

ثم قص ابن جامع على الرشيد قصة الجارية القندهارية وما غنت من
صنعة الموصلى ، فتفكه الرشيد بالقصة ، وأمر الموصلى فغنى الصوت
فطرب له حتى صار يقوم ويقعد من شدة الطرب !

ثم غناه الموصلى لحنا من صنعة شيخ الملحنين والمغنين ابن سريج رحمه
الله :

فياحيهما زدنى جوى كل ليلة

ويا سلوة الايام موعذك الحشر

ويا هجر ليل قد بلغت بى المدى

وزدت على ما ليس يبلغه الهجر

وانى لتعرونى للكرامك هزة

كما انتفض العصفور بلله التظر

فرايت الرشيد - من فرط طربه - قد سكن فوق سريره كأنه جمده فلا
حرك به ، واتسمت عيناه ، وهو يحاول أن يستمسك بوقاره الملوكى !
انتهت الليلة على خير حال ، وخرجنا نثنى على كرم الرشيد ، ونذكر دقة
ذوقه ومعرفته بالغناء ، وقال الموصلى لابن جامع :

- كيف لا يكون أمير المؤمنين أحسن الناس معرفة بالغناء وهو يسمعتنا
منذ خمسة وعشرين عاما ! ..

قال ابن جامع ضاحكا :

— كأنك تشنى على غنائنا لا على معرفة أمير المؤمنين بالثناء ! ..
خشيت أن يذكر ابن جامع رؤياه للموصلى ، أو يذكر له الموصلى ماحدثته
عن تلك الرؤيا لكنهما افترقا فى سلام ، فحمدت الله وقلت : عسى أن
تكون هذه الرؤيا أضغاث أحلام كما قال الموصلى ! ..

● اليوم الرابع :

صحوت فى بكرة الفهار ، وليس ذلك من عادتي حين أقضى الليل ساهرا
فى مجلس أمير المؤمنين ..

تحررت أين أتجه ، والى من أذهب فى تلك الساعة ، ثم صرت الى منزل
ابراهيم الموصلى ، فوجدته قد صحا مبكرا مثلى ، وبين يديه ابنه اسحاق
يطارحه لحننا ، فلما فرغا من شغلها ، قال لى ابراهيم :

— يا مخارق .. خذ هذا اللحن الذى سمعته فاتقنه وغنّه ، فانك تستفح
به ..

ثم طارحنى حتى حفظته وأتقنته ، وأسمعته اياه متحفظا مجتهدا فى
ادائه ، لا خوفا منه بل خوفا من ولده اسحاق الذى لا يتهاون فى خطأ
يسمعه حتى من ابيه ، فلما أتممت اللحن ، جعل ابراهيم الموصلى ييكى
طربا ، ويقول لى مداعبا :

— يا مخارق .. نعم وسيلة ابليس أنت فى الارض ! .. أنت والله بعدى
صاحب اللواء فى هذا الشأن ! ..

ثم ازداد بكاء وهو يقول :

— والله ما فى الدنيا صوت يعدل صوتك الا صوت ابن جامع ؟ ..

واذا خادم للموصلى يدخل عليه ويقول :

— يا سيدى ! .. أجرك الله فى صديقك وصفيك ابن جامع فانه مات
متذ ساعه ! ..

انصرف الخادم مسرعا ، ووجم ثلاثنا — أنا والموصلى وابنه — ثم انفجرنا
بأكين ! ..

الأمير في ثياب المغنين

● اليوم الاول :

اخيرا وقعت في قبضة شرطة الخليفة !

وكننت قد استترت مدة عند بعض أقاربى من الهاشميين ، منزويا فى غرفة ضيقة من بيتهم ، لا تفتح نوافذها نهارا ولا ليلا ، أما بابها فلا يفتح الا بيد جارية كلفها أقاربى هؤلاء بخدمتى ، فهى تأتى لى بالطعام والشراب ، ثم تخرج وترد الباب وأقوم أنا فأحكم اغلاقه من الداخل ، لسدة خوفى ، فقد ذهبت من دنياى وذهبت منها ولم يبق لى أمل الا فى عفو ابن أخى الشاب القادم من خراسان عبد الله المأمون ، الذى طالما لاعبته ولاطفته صغيرا فى خلافة أبيه هارون الرشيد أخى ، وسمعتة أيامها يهتف باسمى ويقول لى : يا عم .. أحب أن أسمع غناك ، فأضحك وأقول له : انك مازلت صغيرا يا عبد الله ، ولا يأذن لك أمير المؤمنين بسماع الغناء ! ..

لكنى اليوم مطلوب لسيفه ، ولا ذنب لى ، فان الذى شن الحرب عليه هو أخوه المفتون المأمون ، محمد الأمين الذى تولى الخلافة بعد أبيهما الرشيد ، فزينت له أمه « زبيدة » ان ينقل ولاية العهد الى أحد أطفاله ، ويحرم منها أخاه « المأمون » .. ابن « مراجل » الجارية الفارسية التى تزويرها زبيدة الهاشمية التى لم يمسهما الرق ! ..

فلما انهزم الأمين وخلع وقتل ، خشي بنو العباس أن تضيق الخلافة من بيتهم ، ويشب عليهما بنو علي بن أبي طالب ، فأجمع العباسيون فى بغداد أن يبايعوني بالخلافة ، فامتنعت مخافة تبعاتها ، ثم قبلت اذ وجدت ان المأمون لا يبرح خراسان كانه لا يريد الجلوس على سرير الخلافة الذى ينتظره فى بغداد ! ..

توليت الخلافة وصار لقبى « المبارك » وسمعت من الناس قولهم لى : « يا أمير المؤمنين » .. فأنساني الجهل ان المأمون مهما يتلبث فى خراسان فلا بد من عودته الى بغداد بعد انتصار جيوشه وذهاب خلافة أخيه المقتول

وها انذا أدفع ثمن الجهل ، فان المأمون دخل بغداد وبويع بالخلافة واستقر له الامر ، وأطلقى المنادين يصيحون باسمى لى كل مكان ، منذرين كل من يعرف مكمنى ولا يرشدهم عنى ! ..

وقمت فى أيديهم ، ولا أشك أن المأمون قاتل اليوم أو غدا لاجترائى على

متنصب الخلافة بعد سقوط الامين ، وأنا أعلم ان الخلافة بعد الامين هي
للمؤمن وحده ، وقد علق الرشيد - رحمه الله - كتابا بذلك في الكعبة
وأشهد عليه الناس منذ ستين ! ..

وما تهون نفسي على نفسي ، ولا أجد الدنيا يغيضة الى قلبي ، ولو علمت
ان الامور تقضى الى هذه العاقبة ، ما أجبت بنى العباس الى بيعتهم لي بالخلافة
ولو أجلسوني على عرش في السحاب ! ..

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني

هو الدهر بي عنها وولي بها عني

فان أبك نفسا أبك نفسا عزبة

وان احتسبها احتسبها على فسن

وما أعجب تصارييف الزمان ! .. بالامس كنت أميرا للمؤمنين في بغداد ،
واليوم أعود الى الشعر أرثي به نفسي ، وأعود الى الفناء والتلحين ، فأعمل
في هذين البيتين لحنا ، كاني ذاعب الى مجلس غناء وشراب ، لا الى مجلس
أقف فيه على « النطع » - بكسر النون - والسيوف مصلت على عنقي ، ينتظر
إشارة من أصبح ابن أخى الخليفة الجديد الذى امتلأ قلبه منى موحدة
وغضباً ! ..

● اليوم الثانى :

ساقونى مكبلا بالاعلال الى ابن أخى الخليفة المأمون ، ورأيت على وجهه
فرح الظافر بعدوه .. وأنا عمه .. أخو أبيه - فلم أجد بيانا يسعفتنى ، وخاننى
لسانى ، وكان الناس قديما يصفون فصاحتى وخطابتى وقوة عارضتى وبلاغة
شعرى ونثرى ، ويقولون : ما فى الدنيا أفصح من ابراهيم بن المهدي ! ..

لم أجد فى ذاكرتى كلمة كان سعيد بن العاص كلم بها معاوية بن أبى
سفيان يستعطفه بها ، فاذا بالمأمون يروى هذه الكلمة ويحفظها منذ صباه ،
فلم تؤثر فيه ولا عطفته الى العفو عني ، وقال لى :

- هيهات يا ابراهيم ! .. هذا كلام سبتك به فحل بنى العاص بن
أمية وقارحهم سعيد بن العاص وخطب به معاوية فى سالف الزمان ! ..
قلت والدمع فى عيني :

- مه .. يا أمير المؤمنين ! .. وأنت أيضا ان عفوت فقد سبتك فحل
بني حرب وقارحهم الى العفو .. فلا تكن حالى عندك أبعد من حال سعيد
عند معاوية ، فانك أشرف منه ، وأنا أشرف من سعيد ، وأنا أقرب اليك
من سعيد الى معاوية ، وان أعظم الهجنة أن تسبق أمية هاشما الى مكرمة !

أطرق المأمون - بعد هذا الحوار التصير - يفكر فقلت فى نفسي : ما
أظنه يميل الى العفو عني وهو الذى حين دخلت عليه فسلمت ، رمانى
بحجر من كلامه صك به وجهي كله وشج جيپتى ، اذ قال : « لا سلم الله
عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلاك يا ابراهيم » ! ..

فكيف أطمع منه وهو فى هذه الحال من الحق أنه يعفو أو يخفف العقوبة
فلا يجعلها قتلا ؟!

حرك المأمون رأسه فى اطرافته فظننت ان حركته التالية هى أن يأمر
بضرب عنقي .

فبادرت أقول مرتعدا :

— على رسلك يا أمير المؤمنين ! .. فلقد أصبحت وليا لشأرى ، وإن
القدرة تذهب الحفيظة ، ومن مد له الاغترار فى الامل هجمت به الاناة على
التلف . وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ..
فان تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ! ..

رفع المأمون رأسه فقال لى :

— يا ابراهيم .. ان هذين أشارا على يقتلك ! ..

فالتفت الى « هذين » فاذا المتصم بن الرشيد ، والعباس بن المأمون ،
فأردت الا أغضبهما وهما فى تلك المكانة عند الخليفة فقلت :

— يا أمير المؤمنين .. أما حقيقة الراى فى معظم تدبير الخلافة والسياسة
فقد أشارا عليك به ، وما غشاك ، اذ كان منى ما كان .. ولكن الله عودك
من العفو عادة جريت عليها ، دافعا ما تخاف بها ترجو ، فكفأك الله ! ..
فرايت المأمون كأنه يتسم ، ثم أقبل على جلسائه ، فقال :

— ان من الكلام ما يفوق الدر ، ويغلب السحر ، وإن كلام عى منه !
ثم أمر الحراس :

— أطلقوا عن عى هذا الحديد وردوه مكرما ! ..

● اليوم الثالث :

كان المأمون قد صادر أموالى وأملاكى ، فلم يسبق لى بيت أسكن فيه .
واليوم أعاد لى ما صادره ، وأمر لى بخمسة آلاف دينار فتعلمت قصيدة فى
مدحه أرسلتها اليه ، فبلغنى ان المأمون لما قرأها بكى ، وأمر بأن أرجع الى
النادمة والانس به فى مجلسه ، وقال : « لن يرى منى ابراهيم الا ما يحب »
.. ودعا ببعض الفراشين فقال له : « اذا رأيت عى مقبلا فاطرح له تكاة
فى المجلس » .

فلما دخلت على المأمون ، قبلت البساط بين يديه ، وأنشدت هذه الابيات :

البرى وطا العذر عندك لى

دون اعتذارى فلم تعدل ولم تلم

وقام علمك بى فاحتج عندك لى

مقام شاهد عدل غير متهم

رددت مالى ولم تمنسن على به
وقبل ردك مالى قد حققت دمي
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به
فلا علمناك من عاف ومنتقم

فقال لى :

— اجلس يا عم آمننا مطمئنا ، فلن ترى منى ما تكره الا أن تحدث حدثا
أو تتغير عن طاعة وأرجو الا يكون ذلك منك ان شاء الله ! ..

● اليوم الرابع :

دخلت الليلة الى مجلس المأمون متبذلا فى ثياب المغنين وزيههم ، فلما رأى
ذلك ضحك وقال : « نزع عى ثياب الكبير عن منكبيه » ! ..

وانما أردت أن يعلم المأمون من تبذلى فى ثياب المغنين ، ان الناس
يرونتى فيها فيعلمون انى تركت الطمع فى الخلافة ، وفرغت للغناء واللهو
وقد هجاني أحد الشعراء عندما بويست بالخلافة قديما فوصفتى بأننى
« خليفة مصحفه البربط » .. فأنا أريد منذ اليوم الا يعرفنى الخاصة
والعامة الا مغنيا أضرب بالعيدان والبرابط والطبول ، فانى متى اشتهرت
بذلك بين الناس ، اطمأن المأمون الى سقوطى من أعينهم ، فلا أطمع فى
الخلافة بعد ..

ولست هذه حيلة لى على المأمون ، وانما هى مذهب وغريقة فى الحياة ،
فانى آليت أن أقطع بقية حياتى فى هذه الصناعة التى أحببتها منذ الصبا
حتى قال اسحاق الموصلى يوما : « ان ابراهيم بن المهدي أشده خلق الله
تعظيما لصناعة الغناء ، وأحرصهم عليها » ..

ثم انى أعلم أن المأمون لم يستبقنى — وكان يعتزم قتلى — الا حبسا منه
للغناء ، ومعرفة بمكانى فى هذا الفن ، وتفوق صوتى على كل صوت سمعه
أو يسمعه ، حتى شهد لى بذلك أصحاب أجمل الاصوات كاسماعيل بن
جامع ومخارق ، فضلا عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق هذا الذى لا يشبه
لغنى بشيء .. وقد قال مخارق وهو أجمل المغنين صوتا : « ابراهيم بن
المهدي أحسن منى غناء بمشعر طبقات ، وهو أحسن الجن والانس والوحش
والطير ، صوتا » ..

وحسبى هذه من شهادة ! ..

وفى مجلس المأمون الليلة قال لى :

— يا ابراهيم .. تغن :

هل تظمسون من السماء نجومها

باكفكم أو تسسترون هلالها

فاخذت فى غنائه ، حتى بلغت قول الشاعر يمدح العباسيين ويسفه حجة
الطالبين :

او تجحدون مقالة عن ديكيم جبريل بلنفسا النبي فقالها

فاذا المامون ومن فى مجلسه يمجون طربا ، وقال لى بعض من حضر :
- لقد هزرت حلقك ، ورجعته ترجيعا ، ظننت معه ان الارض قد
زلزلت ! ..

وقال لى القاضى احمد بن أبى دؤاد :

- كنت أتجنب الفناء وأطعن على أهله حتى سمعتك ، فعدلت الى رأى من
يقبل الفناء ويحب المحسنين فيه ! ..

اذكرنى هذا مجلسا غنيت فيه للامين المخلوع ، منذ سنوات .. فانى
ذهبت الى قصره ، فاذا هو جالس فى شرفة تطل على حديقة جعلها للوحوش
التي يؤتى اليه بها من الغابات البعيدة ، فغنيته :

وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها
لكى يعلم الناس انى امرؤ
أتيت اللتسوة من بابها
وشاهدنا الجبل والياسمين
والمسمعات بقصاها
وبربطنا دائم معمّل
فاى الثلاثة ازرى بها

فكاد الامين يقع من الشرفة على الوحوش ، طربا .. وقال لى أخى منصور
ابن المهدي وكان حاضرا معنا : لقد غنيت يا ابراهيم على أشد طبقة يتناهى
اليها العود ، وما سمعت مثل غنائك اليوم قط ، ولقد رأيت هذه الوحوش
تمد أعناقها الى الناحية التي يجيء منها صوتك اليها ، ودنت ثم دنت حتى
أوشكت أن تضع رءوسها فى مجلسنا .. فلما فرغت من غنائك نفررت
وبعدت منا كما كانت .. ولولا انى رأيت ذلك بعينى ما صدقت أبدا أنه
يكون ! ..

وجعل الامين يومئذ يبدى العجب ويقول : حتى الوحش الاعجم الفسّاك
أحسن لذة غنائك يا عم ! ؟ ..

مُطَرِبَةُ الْقَصُور

● اليوم الاول :

جلست أفكر فيما مضى من طفولتى وصباى ! .. زعمت احدى المعجائز
فى دار سيدى الامير ابراهيم بن المهدي أننى قرشية الاصل ، وان لصوصا
سرقونى طفلة وباعونى فدخلت فى الرق ! ..

لا أدرى اصدقت فى قولها ، أم توهمت !

اتذكر الآن ان امرأة هاشمية من البصرة ، حملتنى فى صباى الباكر الى
بغداد لتبيعنى ، فعرضتنى على اسحاق الموصلى ، فلم يزد فى ثمنى على
ثلاثمائة دينار ، ثم كانه استغلانى ، فلم يدفع شىئا ، وانصرفت بى
سيدتى الهاشمية الى الامير ابراهيم بن المهدي ، فقالت له : قد أرادها اسحاق
الموصلى بثلاثمائة دينار ، وأنت أيها الامير - أعزك الله - أحق بها ! ..
فأعطاهما الدنانير وأخذنى ، ثم دعا بقيمة قصره ، فقال لها : خذى هذه
الصبية ، ولا تربيها الا بعد سنة كاملة ، وقول للجوارى يطارحنها
ما يحفظن من الغناء ، فأنى أرى لها صوتا وان كانت صغيرة ! ..

فلما انقضت السنة ، أخرجتنى قيمة القصر اليه ، فنظر الى وجهى فأعجبته
وأمرنى بالغناء فغنيت ساعة ، وهو يسمع ولا يقول شىئا ، ثم أمرنى
فانصرفت ..

وفى اليوم التالى دعا اسحاق الموصلى واسمعه غنائى ، ثم قال له :

- يا اسحاق .. هذه جارية تباع ، فيكم تأخذها لنفسك ؟

قال اسحاق :

- آخذها بثلاثة آلاف دينار .. وهى رخيصة بهذا الثمن ! ..

تبسم الامير وسأله :

- أتعرفها ؟ ! ..

قال :

- ما رأيته الا الساعة !

فضحك الامير وقال للموصلى :

- يا ابا محمد .. هذه هي الجارية التي عرضت عليك الهاشمية
بثلاثمائة دينار فلم تقبل ! ..
فتمعجب اسحاق وتحير من حاله ، وكيف صرت من صبية تجهل الغناء ،
الى مفتية بارعة ! ..

● اليوم الثاني :

كانت نزهتنا في دجلة الباردة والقمر يتوسط السماء ، وقال لي
سيدى الامير : غننا شيئا ، فغنيت ، فكأنى رأيت ماء دجلة يتوقف ليستمع !
.. ووضع الامير يده على فمى وقال لي : اسكتى يا شارية ، فوالله لو
سمعتك امير المؤمنين المعتصم لاختك منى ! .. أنت والله أحسن من الغريض
غناء ، وأحسن من الجدر وجها ! ..

ثم عدنا الى قصره ، واستأنفنا ما كنا فيه من الغناء ، حتى طرقتنا ضيف
يأنس اليه الامير ، فامسكت عن الغناء ، وأخذنا يتحدثان في أمور شتى ، حتى
قال له الامير :

- أتحب أن اسمعك شيئا لم تسمعه قط ؟ ..

- نعم أيها الامير أعزك الله ! .. وانى لي بذاك !؟ ..

فأمرنى مولاي أن أغنى ! ..

فلما فرغت من الغناء قال لضيفه :

- هل سمعت مثل هذا الغناء قط !؟ ..

- لا والله يا سيدى ما سمعت هكذا ! ..

- أتحب أن تسمعه أحسن من هذا !؟ ..

ثم غنى الامير الصوت الذى غنيت ، واجتهد فيه وبلغ منتهاه ، حتى صاح
الرجل :

- والله ما ظننت قط أن مثل هذا يكون أبدا ! ..

فقال الامير :

- أفتحب أن تسمع هذا الصوت أحسن من هذا وذاك ؟ ..

قال الرجل متعجبا :

- فهذا الذى لا يكون أيها الامير أعزك الله !

قال الامير :

- بلى والله ! .. بحياتى يا شارية ، قوليه وأحيلى حلقك فيه من حال
الى حال ، ارتفاعا وانخفاضا وكما تشائين !

ففعلت ما أمرنى به الامير ، حتى كاد الرجل يخرج من جلده طربا وهو

يصرخ ويستغيث ، والامير ينمر ويصفق ، ويقول للرجل : أرايت !؟
أسمعت !؟ ..

● اليوم الثالث :

نمي الى أمير المؤمنين المعتصم خبري ! .. قيل له : ان عمك يا أمير المؤمنين - ابراهيم بن المهدي - يضمن على الناس جميعا بجارية مغنية لديه اسمها شارية ، لم يخلق الله مثيلا لجمال صوتها ، وجودة غنائها .. وإن عنده غيرها من الجوارى المغنيات الحاذقات ، على رأسهن « ريق » المغنية الضاربة المحسنة ..

ولكن المعتصم يجفو الان عمه ابراهيم بن المهدي ، وينتق عليه في العطاء لسبب لا أدريه ، حتى ان البساتين والضياع وسائر ما يملكه ابراهيم بن المهدي لا تدر عليه الا ما يستره بين الناس ، ويقوم بنفقة قصره الكبير .
مع ذلك أرسل المعتصم الى عمه يستزير منه جواريه المغنيات ، وبخاصة أنا ..

وسمعت الامير يقول لرئيستنا « ريق » : انتي اتحل ذهابكن الى أمير المؤمنين على ضعف مني ، فان جواريه يلبسن الثياب الفاخرة ، وعليهن الجواهر الثمين ، وانتن في سراويلات كادت تبلى .. الا انني أرجو أن تظهرن على جواريه بحسن غنائكن بين يديه ، فليس عنده جارية مثلك ولا مثل شارية ! ..

مضينا الى قصر الخليفة ، فرأينا فخامة ما ترتديه جواريه ، فتساءلنا في سراويلاتنا ، وتقاصرت أنفسنا ، وشمخن علينا بأنوفهن ، ثم أخذن يغنين ، فلم يجثن بشيء ، ولم يطرب لهن المعتصم ! ..

فلما غنينا اهتز المعتصم ، ولما انفردت بالغناء أوشك أن يطير عن سريره طربا ! .. وأمر لنا بمائة ألف درهم ، حملناها الى مولانا الامير ، فأخرجته من تلك الضيقة التي نالته من جفوة المعتصم ! ..

● اليوم الرابع :

هذا اليوم يجيء بعد زمن طويل من آخر يوم سجلته في مذكراتي . فقد مات مولاي ابراهيم بن المهدي فاشتراني المعتصم من ورثته بثلاثمائة ألف درهم ، وكان المعتصم قد أراد اخذني منه قبيل وفاته بأكثر من ألف ألف درهم فلم يقبل ، فأرسل اليه أحد ثقاته يعاتبه ، فجلس مولاي واياه الى مائدة ياكلان ، فأحضر الغلام سفودا فيه فرايج ، فأكلا منها ، ثم شربا ارطالا ، ثم أمر مولاي ف ضرب الستر ، وجلست وراءه ، وقال لي : ياشارية تقننى :

فلما غنيت صاح الرجل كأنما لسعته النار ، فقال له سيدي :

- ويحك .. تجلد ! ..

فقال :

- كيف التجلد وقد سمعت شيئا ذهب بعقلي ؟ لا والله .. لو كانت هذه في ملكي ما أعطيتها للمعتصم ولو أعطاني فيها خراسان والاهواز وأرمينية والجزيرة ..

كان ذلك منذ سنين ! ..

وقد مات المعتصم أيضا ! .. وصرت حرة بعد موته ، وكبرت منزلتي في قصور بني هاشم وأعلى الخليفة الجديد مكانتي ، ولا عجب فان أمير المؤمنين الوائق مغن ملحن مطبوع ، يقضى وقته في السماع ، ولا يكاد يفارق اسحاق الموصلى ومخارقا وعلويه وابن بانة والجوارى المغنيات ، وهو يعظمنى كثيرا ، ويقول لى أحيانا من فرط تعظيمه اياى واعجابه بى : يا ستى ! ..

وعهد الى بتعليم جاريته المغنية الجميلة الموهوبة « فريدة » وهى متطوعة ولكنه يريد لها أن تزاد علما ، والحق ان صوتها رائع وأداءها متقن ، ويقول من سمعوها انها مثل المغنيات العظيمات فى عصر المأمون والمعتصم والوائق وهن : بذل ومتميم وشارية وريق وعريب وفريدة ! ..

ولكن الوائق مات فى عمر الزهور ، ورأيت « فريدة » فى مجلس أمير المؤمنين المتوكل ، يضرها غلمانة بالسياط لرفضها الغناء للمتوكل وفاء لآخيه الوائق رحمه الله ! ..

ونحن الان فى عصر المتوكل ، وهو شاب يحب القصف والغناء ولكن علمه به أقل من علم أخيه الوائق .. وقد غذيت ببنى يديه والجوارى من حول هذا اللحن :

بالله قولوا لمن ذا الرشاشا

المثقل الردف الهضيم الحشا

أظرف ما كان اذا ما صحا

وأملح الناس اذا ما انتشى

وقد بنى برج حمام له

أرسل فيه طائرا مرعشا

يا ليتنى كنت حماما له

أو باشقا يفعل بى ما يشا

فطرب المتوكل وقال لى : لمن هذا الغناء يا شارية ، فقلت : لا أدري يا أمير المؤمنين ! .. فوثبت المغنية « ملح » - بضم الميم وفتح اللام - وقالت له : هذا اللحن لخديجة بنت أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، قالت فى خادم لا يبيها كانت تهواه ، فنظمت فيه هذا الشعر ولحنته وغنته ! .. فوجم المتوكل وقال لها :

- يا عطارة ! .. لا يسمع هذا منك أحد ! ..

ي « ملج » تسمى « العطارة » لكثرة استعمالها المطبور .. وهي من
أحسن الجوارى غناء ! ..

⑤ اليوم الخامس :

الزمان يمر كالسحاب .. انقضى عهد المتوكل وخلفاء آخرين بعده ..
ونحن الآن في عصر أمير المؤمنين « المعتمد » ..

تغيرت الدنيا ، وانتشرت الفاقة في البلاد ، وأذل الفقر الناس وأنازهم ،
وأقعدهم وأفاهم ووثب القرامطة بالسيوف والأرماع على دولة الخلافة ،
وغاض زهر الأموال الذي كان من قبل يجري بين أيدي الخلفاء .. ولولا
ما أذخرته في أيام المعتمد والوائق والمتوكل من الجهر والذهب والفضة ،
لساءت حالى كما ساءت حال كثير من أهل صنعتى ! ..

لم يدعشنى أمس اننى رأيت أمير المؤمنين « المعتمد » يجلس فى إيوان
قصره وحيدا حزينا يشهد لنفسه حزين البيتين :

ليس من العجائب أن مثلى
يرى ما قل ممتنعسا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا

وما من ذاك شيء فى يديه

ان أمير المؤمنين يشكو أخاه « الموفق » - ولى العهد - الذى يجبى الأموال
ولا يعطيه الا القليل ، ولكن الموفق انما ينفق الأموال على حرب القرامطة التى
لا تنتهى ، وأمير المؤمنين لا يقتدر الآن على مكافأة مهن ولا شاعر ، ولو بدراهم
معدودة ! ..

أردت الترفيه عن أمير المؤمنين ، فجئت اليه من بيتى بثلاث من جسوارى
المغنيات البارعات اللاتي احتفظ بهن ولا أبيعهن لكساد السوق .. وهن
مهرجان ، ومطرب ، وقمرية .. فغنين له حتى طرب وتسلى .. ثم أكل
طعاما طيبا حملته اليه فى سلة صغيرة ، وكان معتادا أن يأكل من يدى من
أيام أبيه المتوكل ! ..

ان المعتمد أمير المؤمنين يخشى أن يقتله الجند الاتراك كما قتلوا أباه
وأخاه وبعض أقاربه .. وما أكثر تقلبات الأيام وأعجبها ! ..

قصة حب

● اليوم الاول :

يسمع الناس صوتي فلا يعجبهم ، ويعجبهم تلحيني وضربي على العود ،
فاذا عرفوا ان اسمي « معبد » .. عجبوا في وجهي وقالوا لي : اما وجهك
اسما آخر يعرفك الناس به ، فان اسم « معبد » اسم عظيم في النساء ،
وانت ضعيف خامل غير طيب المسموع ؟ !

ولا ادري من سماني معبدا ، فقد نشأت في المدينة المنورة ، طفلا خلاسيا ،
من أب أبيض وأم سوداء ، كلاهما من الموالي ، فاشتراني أحد وجهاء المدينة
وهو من أولاد علي بن يقطين ، فصرت يقال لي : « معبد اليقطيني » .. ولما
جئ بى الى بغداد أخذت الغناء عن جماعة من علية المغنين مثل ابن جامع
والموصلي ولكنى لم ابلغ منزلة كبيرة في الغناء عند هارون الرشيد ، وقلما
كان يسمعنى ، فقد شغله أولئك الفحول الذين يفنونه كل ليلة ..

نشئت من بلوغ شيء عند الرشيد ، فانقطعت الى البرامكة ، وصرت في
جملة من يخدمهم بالغناء والمناذمة ، وغمرني كرمهم كما غمر جميع اللاتذنين
بأبوابهم ! ..

وكنت أجلس في بيتي فيجئ بعض صفار المغنين معن لم يرتفع قدرهم
ولم يبلغوا أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والكبراء ، فاقصروا على
الغناء لبعض أصحاب الوظائف ، والغناء في أفراح المياسير من التجار
والصناع والعامة المستورين ! ..

كان هؤلاء المغنون يجيئون بأبيات من الشعر جيدة أو رديئة ، يطلبون
منى تلحينها لهم ، فاذا دفعوا الاجر ، طارحتهم اللحن حتى يحفظوه
وينصرفوا الى شأنهم ! .. قد يصيب أحدهم رزقا ونجحا ، وربما لا يصيب
شيئا ..

فبينما انا ذات يوم في منزلي ، استأذن بعضهم في الدخول فظننته أحد
هؤلاء المغنين الصغار ، فدخل شاب حسن الوجه نظيف الثياب ، تبدو عليه
آثار السقم ، فعجبت منه ، وقلت له :

— ما رأيت مثلك مغنيا قط ! ..

فلم يتكلم ، وأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي ، وقال لي : أسألك
أن تقبلها وتصنع في بيتي قلمتها لحنا ، وهذان هما البيتان :

والله يا طرفي الجاني على بدني
لنطأئن بدمعي لوعة الحزن
أو لأبوحن حتى يحجبوا سكتي
فلا أراه ولو أدرجت في كفني

قلت :

- ما رايت كالיום .. تضع بين يدي ثلاثمائة دينار وأنا أبيع اللحن
بما تتي درهم ، وتساألني أن أقبل هذا المال ، كأنك تظن اني لا أقبله ..
فماذا تبغني مني ، وهل أنت مغن جديد .. والا تكن مغنيا جديدا ، فما
تكون !؟ ..

قال الشاب :

- لست مغنيا ، وما سألتك تلحين هذا الشعر لاغتيه ، بل لتغنيه أنت
لي ، وهذه الدنانير جائزتك ، ولو ملكت أكثر منها لاضعتها لك ! ..
فصنعت اللحن وغنيته للشباب ، فأغنى عليه حتى ظففته قد مات ،
فصرخت :

- يا هذا .. والله ما سمع أحد غنائي فأغنى عليه طربا الا أنت ؟ ..
وما أظن أن لي من جمال الصوت ما يدفعك الى الانغماء ! ..

أفاق الشاب ، وقال متوسلا باكيا :

- بالله يا سيدي .. أعد الصوت ! ..

قلت :

- أخشى أن أعدته ان تموت ، وما أراك الا مريضا ، يذهب بلبك الغناء
وان كان ضعيفا لا يذهب بلب انسان صحيح النفس والبدن ! ..

فأخذ يتضرع حتى أعدت عليه الصوت ، فصعق عند سماعه ، وقلت :

قد مات الشاب ، ما أشك هذه المرة في موته ! ..

وظلمت متحيرا لا أدري ما أصنع ، حتى رأيته يتحرك ، ثم أفاق ، فأسرعت
فرددت اليه الدنانير ، وقلت له :

- يا هذا خذ دنانيرك وانصرف عني فلست أحب أن أكون مستولا في
دمك ! ..

فقال :

- لا حاجة بي الى الدنانير ! ..

قلت :

- كأنك تريد أن أعيد عليك الصوت ، وتعيد أنت الانغماء ، لا والله ،
لا والله ، ولا بعشرة أضعاف دنانيرك هذه ! ..

فانصرف الشاب ، وتبعته احاول ان اعيد اليه دنائيره ، فلم يقبل ! .

● اليوم الثانى :

عاد فتى الامس يسألنى ان اغنى له الصوت ، ومعه دنائير اخرى ، فقلت له : اغنيك على شرط ان تقيم عندى وتحرم بطعامى ! .. ثم تمه يدك وتشرب اقداح نبيذ تشد قلبك وتسكر ما بك من برحاء ! .. وان تحدثنى بآهتكت فاعرف منها اعاقل انت ام مخالط فى عقلك ..

ودفعت اليه دنائيره فاخذها .. ثم طعمنا وشربنا ، وغنيته فى غير الشمر الذى كنت غنيته فيه ، فلم يثنه ذلك عن التوجد والتلهف وظل يشرب ويبيكى أحر بكاء ، ولكنه تماسك فلم يقع مغشيا عليه كحال امس !

فلما رأيت منه ذلك قلت له : حدثنى بقصتك فلعل لك عندى ما تستطب به لدائك هذا الذى برح بك وأضناك ! ..

فقال مستعظفا :

— الا تغنينى شيئا قبل ان أحدثك !؟

قلت :

— أخشى أن ينمى عليك ، فلا تصحو بعدها أبدا ، ولعل الكلام أن يخفف عنك ! ..

قال :

— فمعدنا غدا ان شاء الله ! ..

ثم انصرف ، وأنا أضرب كفا بكف ، وأقول فى نفسى :

— أن لم يكن هذا مجنونا ، فكيف يكون أهل الجنون !؟ ..

● اليوم الثالث :

جاء الشاب « المجنون » .. وجلس بين يدي صامتا ، فقلت له : الا تحدثنى بما خفى من أمرك ، كما وعدتني امس !؟ ..

قال :

— الشرط أعزك الله ! ..

قلت :

— وأى شرط لك عندى !؟

قال :

— أن تغنينى قبل أن أحدثك ! ..

فغنيته مكرها ، فبكى قليلا ، ورأيت القدح الذى شربه قد شذ من قلبه ،
فطعنت فيه ، وسألته أن يحدثنى حديثه ..

تفكر الفتى بعض الوقت ، كأنه يستجمع اشتات عقله ، ثم قال :

- أنا رجل من أهل المدينة ، خرجت يوما فى فتية من أقرانى متنزها
فى ظاهر المدينة وقد سال وادى العقيق بما انهمر من المطر فى ذلك اليوم ،
فبصرت بفتيات فيهن واحدة باهرة الجمال .. تنظر بعينين ما ارتد طرفهما
الا بنفس من يلاحظهما .. فأحدثت بقلبي جرحا بطيئا اندماله ، فعدت الى
منزلى وأنا صريع ! ..
فقطعته قائلا :

- ويحك ! .. فما اظنك الا ذهبت تخطبها من أهلها ، فاذا بها زوجة لاحد
الرجال ، فقتلك الحب والياس من الحب ! ..
قال :

- كأنك قاربت الحقيقة ، فانى خطبتها بعد ان شاع حديثى فى الناس ،
فحجبها أهلها عني ، وتشدد عليها أبوها ، وهذا هو معنى قرولى فى البيت
الثانى من شعري الذى تغنيه لى منذ أيام ! ..
قلت :

- ويحك ! .. أما فكرت أن تمضى بمشيخة من قومك يشفعون لك عنده
أبيها ؟!
قال :

- قد فعلت .. فقال أبوها لمشيخة قومي : لو كان بدا بخطبتها قبل أن
يفضحها ويشهرها لاسعفته بما التمس ! .. فلما قال أبوها ذلك انصرفت
على ياس منها ومن نفسى ، وعلمت انى قتيل حبها لا محالة !
قلت للفتى :

- بل تعيش ان شاء الله ، وتسعد بحياتك ، فوافتنى بعد غد ، فلعل
الليل والنهار يحدثان لك سلوة عنها ! ..
قال الفتى :

- هيهات ! ..

ثم انصرف ! ..

❁ اليوم الرابع :

مضيت الى قصر الوزير جعفر البرمكى ، فكان أول صوت غنيته صوتى فى
شعر الفتى العاشق ، فتأمل الوزير فى الشعر والغناء وقال لى : ويحك ..
كأنى أسمع وراء هذا الشعر حديث قلب جريح ! ..

قلت :

- كذاك والله هو ! ..

ثم حدثته حديث الفتى العاشق ، فأمر بإحضاره من وقته ، واستعاده
الحديث فأعاده عليه ، فقال الوزير :

- هي في ذمتي حتى أزوجهك إياها ! ..

وغدا جعفر البرمكي الى أمير المؤمنين الرشيد فحدثه الحديث ، فعجب
منه ، وأمر بإحضاره وأنا معه ، فلما صرنا بين يديه أمرني بأن أغنيه
الصوت ، فقنيت ، فرأيت الفتى يتحرك وقد دمت عيناه وهو يتماسك
حتى لا يفتضح في مجلس أمير المؤمنين ! ..

ورأيت أمير المؤمنين يلحظ الفتى ، مشفقا عليه ، ثم يتشاغل عنه بسماع
غنائي ، وأنه ليضيق بسماع صوتي ولكنه سمعني هذه المرة كأنه يجد ارتياحا
لسماعي ! ..

فلما فرغت من الغناء ، أشار أمير المؤمنين الى الفتى يستدنيه الى مجلسه
فدنا منه على وجل واعظام ، فتلطف الخليفة في الكلام معه ، حتى حدثه
الفتى ، حديثه ، على استحياء واحتشام ! ..
قال له الخليفة :

- كأنك يا فتى قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح ، وأراك شاعرا مثلهما
ولك في الحب شأن كشأنهما ، الا أنهما ذهبا بالشهرة دونك ! ..

● اليوم الخامس :

جاءني الفتى العاشق كمادته منذ كنا في حضرة أمير المؤمنين ، فتجاريشا
في الحديث عن أمور كثيرة ، حتى خطر لي أن أغنيه صوته الذي يبكي عنه
سماعه ، فلما غنيت رأيت متماسكا رابط الجاش ، فأعجبني ذلك ، وقلت
في نفسي ان الفتى ينق بأن أمير المؤمنين لا يخذله ! ..

ونحن كذلك ، طرق الباب ، ودخل بعض خدم جعفر البرمكي يستحثني
والفتى على الركوب الى قصره ، فلما بلغنا ساحته ، ألفينا جعفرنا يتأهب
للكوب الى قصر الخليفة ، وقد تربت انتظارا لنا ، فصرنا ضمن حاشيته
الى هناك ، وأنا أقول في نفسي : أرى أن هذا الفتى يبلغ مراده اليوم ان
شاء الله ! ..

وفي حضرة الخليفة وجدنا رجلا توسمت فيه أنه من أهل الحجاز ، وإذا
بافتى العاشق يقول لي : هذا هو أبوها .

وعرفنا عندئذ أن أمير المؤمنين كتب الى عامله بالحجاز أن يشخص اليه
الرجل وابنته وأقاربه فأشخصهم اليه .. ووصل الرجل الى مجلس الخليفة
حيث رأيناه ..

قال الخليفة للرجل :

- قد خطبت اليك ابنتك لهذا الفتى من اهل المدينة واقسمت عليك أن
تقبل ! ..

فاجابه الرجل وقبل تزويج ابنته للفتى ! ..

وحمل الرشيد الى الرجل الف دينار لجهاز العروس ، والف دينار لنفقة
الطريق ، وأمر للفتى بألف دينار ! ..

فلما خرجنا من قصر الخلافة ، أمر لي جعفر البرمكي بألف دينار ، وللفتى
بمثلها ! ..

وانتصر الحب بقوة السلطان ، وقوة الدينار !



مطرب قليل البخت

❁ اليوم الاول :

فى شبابى كنت مقربا من ابراهيم الموصلى كبير المطربين والملحنين واحبهم الى قلب أمير المؤمنين الرشيد ..

ولكنى رأيته اليوم يتجهج لى ، بل انه ليتجهجنى منذ مدة ، ولا يحاول أن يعلمنى شيئا جديدا من الفن ، ولا يناصحنى فى صناعة الغناء ، ولا يستمع الى ما أصنعه من ألحان .. واذا سألته فى ذلك قال لى : يا سليم انك كبرت وبرعت وكثرت روايتك للالحان فماذا تبتغى منى بعد هذا كله ؟

ولو ساندنى الموصلى فى قصر الرشيد ، لكان لى شأن ، أما هو يباعدنى ، فان الرشيد يكاد يسقطنى من عينه حين أغنى له بعد الموصلى وابن جامع وفليح ابن العوراء وحكم الرادى ، وهم سادة المطربين والملحنين .. وأنا بالاضافة اليهم كالمساقط !

وقد جدت على مجلس الرشيد أصوات أخرى كمخارق وعلويه ولا أستطيع منافسة هذين أيضا .

ويقال لى أحيانا : انما أخرك عن أصحابك هؤلاء عند الرشيد ، انك شديد الولع بالاهزاج ، فليس لك غناء عظيم الصنعة الا فى النادر ، على جمال صوتك وجهارته !

والله لانا أحتق بخبرات هذه الدولة من هؤلاء المغنين جميعا ، فانا مسلم « بضم السين وفتح اللام » وأبى سلام الكوفى ، كان من أصحاب أبى مسلم الخراسانى ، الذى أقام بسيفه هذه الدولة .. وكان أبى من دعاة أبى مسلم وثقاته ، يكتأب عنه شيعة آل البيت فى العراق ، ويصحبه فى خراسان قبل هزيمة آخر خلفاء بنى أمية « مروان الحمار » وقيام دولة بنى العباس !

كنت جديرا بمنصب فى دولة العباسيين هذه ؟! .. ولكن كيف أبلغ ذلك ، وقد ضربت هذه الدولة عنق أبى مسلم الخراسانى نفسه ، ورمت برأسه الى أصحابه من فوق سور بغداد ؟!

فانا أحمد الله على انى مازلت حيا ، وان الخليفة يأذن لى فى أن أكون من المغنين فى سمراته .. ولى من صناعاتى هذه مورد للرزق جمعت منه بالاقصاد والتدبير جملة عظيمة وافرة من المال ، لعل بعض كبار المغنين لم يجمعوا مثلها ، وحذا ما يحملهم على وصفى بالبخل وركوبهم إياى بالسخرية والدعابة فى هذا الشأن !

حتى برصوما الزامر « النافع في الناي » الاعجمي اللسان الذي يعجز عن
نطق الكلام ، يبرزأ بي ويسخر مني ! ..
كنت في مجلس أمير المؤمنين الرشيد ، فأحب الخليفة أن يتصاحك معه
فأدناه وسأله :

— يا برصوما .. أخبرني عنك .. ما تقول في ابن جامع ١٩

قال برصوما :

— زق من أسل « يريد : من غسل » ! ..

قال الرشيد :

— فابراهيم الموصل ١٩

— بستان من فاكهة .. وريهان « يريد : وريحان » .

— فيزيه حوراء ١٩ ! ..

— ما أبيد أسنانه « يريد : ما أبيض » ! .

— فحسين بن محرز ١٩

قال برصوما :

— ما أحسن خطامه « يريد : ما أحسن خضابه » .

فنظر الرشيد ناحيتي ضاحكا وقال لبرصوما .

— فسلیم بن سلام ١٩ ! ..

قال برصوما ساخرا بي :

— ما أنظف ثيابه ! ..

وكانت كلمته عنى هي الكلمة الوحيدة التي نطقها بلسان صحيح ! ..
ويعنى بها ان كل بضاعتى نظافة الثياب ، أما الفناء فليست من أهله .

فضحك الرشيد ! .. ثم قال لى :

— غن يا سليم ، وبرصوما يزمر عليك .

فلما أخذت أغنى وبرصوما يزمر ، فاجأني في موضع صريحة عالية من
الدن ، فأخرج الناي من فمه وقال لى غاضبا :

— يا سليم .. صيحة أشد من هذه ! ..

يريد برصوما أن يقول : « صح صيحة أشد من هذه حتى يستقيم
الدن ، ويستقر الصوت على الموضع الصحيح من جواب الصيحة » ! ..

فكانت تخطئته لغنائى أشد على نفسى من كل شيء ، وسقطت من عين الرشيد
وصرت له أضحوكة ، فطأق يضحك من كلمة برصوما حتى استلقى على
قراشه ! ..

وخرجت من عنده بلا جائزة ، أما برصوما فأجزل له المكافاة ! ..

● اليوم الثاني :

ما زال أصحابنا يتكرون أهزاجي ، ويقولون : انما اخرك عند الرشيد
كثرة أهزاجك ، وقلة غنائك الثقيل ! ..

ولكن الاهزاج كانت خيرا وبركة لي اليوم ! .

فان الرشيد كان نشيطا مرحا ، فأمرني ان أغني له بعض الاهزاج ، فبدأت
بهزج صنعته في شعر للعباس بن الاحنف :

مت على من غبت عنه أسفا
لست منه بمصيب خلفا
لن ترى قوة عين أبدا
او ترى نجوهم منصرفا
قلت لما شفني وجدي بهم
حسبي الله لما بي وكفى
بين الدمع لمن أبصرني
ما تضحمت اذا ما ذرفا

فرايت الرشيد لما سمع هذا الهزج ، يتحرك كأنما مسه بعض الطرب ،
فاستبشرت وغنيته هزجا ثانيا :

أسرفت في الاعراض والهجر
وجزت حد التيه والكبر
هالي وللهجران حسبي الذي
مر على رأسي من الهجر
ودون ما جربت فيها مضى
ما عرف الخبر من الشر

فرايت الرشيد يزداد طربا ، فأسرعت أغني هزجا ثالثا في شعر أبي نواس :

أصبح قلبي به ندوب
أندبه الشادن الريب
تهاديا منه في التصابي
وقد علا رأسي المشيب
أظنني ذائقا حلامي
وان المامه قريب
اذا فؤاد شجاء حب
فقلما يتفع الطيب

فاشتمه طرب الرشيد ، وقال لي : أحسنت والله يا سليم ، ولو كنت حكم
الوادي ما زدتك على هذا الاحسان في أهزاجك ، يعني ان حكم الوادي كان

متفردا بالاجادة فى الاهزاج .

ثم أمر لى بثلاثين ألف درهم .. فخرجت من عنده أحمل المال وأنا أصعد
الناس ! ..

● اليوم الثالث :

قال أمير المؤمنين للمفنين وأنا فيهم : ليصنع كل منكم لحنا جديدا لمجلسنا
بعد غد ..

فغدوت الى صديق لى شاعر فقلت له : أريد أن أغنى الخليفة فى شعر
لم يعرفه من قبل ولم يعرفه أحد من المفنين ، فقل أبياتا ملاحا أغنى فيها ..
ورددت دابتي الى بيتى مع خادمى ، وأقمت عند صديقى الشاعر ، فنظم
هذه الابيات :

انيتك عاندا بك منك
لا ضاقت الحيل
وصيرنى هواك وبى
لحينى يضرب المثل
فان سلمت لكم نفسى
فها لاقيته جلل
وان قتل الهوى رجلا
فانى ذلك الرجل

رأيت الابيات لا بأس بها ، لولا ان البيت الاخير منها مأخوذ من قول
مشهور لمسلم بن الوليد :

منى ما تسمى بقتيل ارض
فانى ذلك الرجل القتل

ونشطت لتلحين الابيات ، ولم أر نفسى انشط للغناء والتلحين منى ساعتئذ
حتى أتممت اللحن ، واستأذنت فى الانصراف ، فقال لى صديقى : الا تأخذ
ببتين اخريين من الشعر تلحنهما اذا احتجت اليهما .. قلت له : هات ..
فقال :

يا بعيد الدار موصولا
يلقبى ولسانى
وبها باعدك الدهر
فادنتك الامانى

فضحكت وقلت لصديقى :

— وهذان أيضا من قول مسلم بن الوليد :

ذاك ظبى تحير الحسن فى الاوكان

**منه وجمال كل مكان
عرضت دونه الجبال فيما يلقاك
الا في النوم أو في الاماني**

قال صديقي :

— صدقت ، ولكني والله ما سرقت من شعر مسلم بن الوليد ولا غيره الا
المعنيين اللذين رأيتهما في هذين القولين ! ..
فضحكك وضحك ، وانصرفت استعد لمهرجان الغناء في قصر الخليفة ! ..

● اليوم الرابع :

فزت أمس بجائزة في مهرجان الغناء بقصر الخليفة على كثرة من غنى من
فحول المغنين ! ولكن جائزتي كانت أقل من ثلث جائزة الموصلي وابن جامع
ولا أحسدهما ، ولكني والله لم أقصر تنهما في التلحين ولا في الغناء لولا
البخت والقبول ! .. رزقهما الله بختا وقبولا عند الخليفة ، فهو يطرب لكل
ما يسمعه منهما ، وقد غناه ابن جامع مرة فأخطأ في بعض أقسام اللحن ،
فغمز ابراهيم الموصلي جلسه القريب منه وهو ابراهيم بن المهدي - أخو
الرشيد - وهمس له بحيث سمعته يقول له :

— الا ترى كيف أخطأ هذا الرجل أقبح خطأ يقع فيه ناشئة المغنين ، وهو
شيخهم كما يزعم !

فقال له ابراهيم بن المهدي :

— هو والله لا يدرك خطاه لانه شرب نبيذا كثيرا فلا يعي ما يغني ! ..
ولكن الرشيد أجاز ابن جامع في تلك الليلة وغفر له خطاه ، ولو كان هذا
الخطأ مني لما سلمت من تقيمه ، ولنادى خدمه وقال لهم : « اسحبوا هذا
من رجليه الى خارج القصر » ! .. وانما هذا كله من سوء بختي .
جاءني في بكرة الصباح المغني المشهور مخارق الذي يزعم بعضهم انه أجمل
صوتا من ابن جامع .. أو انه خليفته ..

غنيت مخارقا صوتا لي لم يسمعه من قبل فلبث عندي يشرب ويسمع الى
الليل ، ثم استأذن متصرفا ، فسألته : اين تذهب الآن ؟ .. قال : اذهب
الى قصر ابراهيم بن المهدي فقد دعاني الى الصبوح ، فانساني غناؤك
موعده ، فانا اذهب اليه الآن ، واعتذر اليه وان كنا في الليل ! ..

فحدثني مخارق بعد ذلك ، قال ان ابراهيم بن المهدي حين رآه ، ولا
فضل فيه لشراب ولا طعام بعد الذي شربه وأكله عندي ، اغتم لذلك وعاتبه
على ما صنع وقال له : أما يكفيك أننا ندعوك للصبوح فتجيء الينا وتدع
من الليل نصفه أو أكثر ؟ .. فقال له مخارق : أيها الأمير .. لا والله ما كان
أفتي الا سليم بن سلام الكوفي ، فانه غناني صوتا جديدا فاحتجزني ، فقال

له ابن المهدى غننا هذا الصوت فنغفر لك ما صنعت ولا تزد في الصوت ولا
تنقص بل غننا اياه كما اخذته ..
فغننا اياه وهو :

اذا كنت نلعانى فيساكر مدامة
معتقة زفت الى غير خاطب

اذا عتقت في دنها العام اقبلت
تجر رداء الحسن في عين شارب

فلم يكده مخارق ينصرف بعد ان حدثني هذا الحديث ، حتى جاءني خدم
ابراهيم بن المهدى بجائزة هذا الصوت الذي سمعه من مخارق ، وقال لي
الخدام :

— الامير يدعوك ان تلوح هذا اللحن على جواريه ، فانه اعجبه ! ..



الأيام الجميلة

اليوم الاول :

طارحت اليوم بعض الحائني ، تلميذى ابراهيم الموصلى حتى حفظها واحكمها ، ولئن عاش هذا الفتى ليكون له شأن ، فانه مطبوع على النساء والتلحين عظيم الموهبة فيهما ، وان كان تلميذى اسماعيل بن جامع أندى منه صوتا .. أتوقع أن يكون هذان أحسن من يغنى ويلحن بعدى ، وسيدخلان قصور الخلفاء ويبلغان الثراء والجاه والشهرة العريضة !

قلت لابراهيم الموصلى مازحا :

- انصرف راشدا فقد أحكمت ما حفظت من الاصوات ، ولكنى لو عشت لك ولزميلك ابن جامع ، ما وجدتما شيئا تأكلانه ! ..

قال لى الموصلى :

- كأنك تمزح ، ولكنك والله صدقت ، فانه لا يسمعك أحد ثم يمبا بى أو بابن جامع بعدك !

قمت الى بعض شأنى فى بغداد .. الجو اليوم بارد .. الناس فى ثياب ثقيلة ، الا أبا ريعانه المدنى - صديقى القديم - رأيت جالسا فى الشمس ، عليه ثوب رث ممزق ، فوثب حين رآنى وقال : غنى بلحنك فى شعر ابن جندب :

لكل حمام أنت باك اذا بكى

ودمعك منهل وقلبك يغفلق

مخالفة نأى بعد قرب وهجرة

تكون ولما تات والقلب مشفق

ولى مهجة ترفض من خوف عتبها

وقلب بنار الحب يصل ويحرق

اظل خليعا بين اهل عتيما

وقلبي لما يرجوه منك معلق

فملت به الى ناحية خالية الا من رجلين اثنين ، فغنيته اللحن ، فضرب بيده على قميصه الرث الخلق فشقته حتى خرج منه وغشى عليه ، ثم أفاق

فرجع الى موضعه من الشمس وقد ازداد بردا وجهها .. فقال له أحد الرجلين
يا هذا ان صاحبك لذو صوت حسن ، ولكن ما أغنى عنك ما غناك بصوته
الجميل ، من شئ قميصك ، ووقوفك عريان في هذا اليوم البارد ؟ ..
فقال أبو ريحانه وانقا بما يقول :

— يا ابن أخى .. ان الشغل الحسن من المغنى الحسن ذى الصوت المطرب،
أدفا للضرور من حمام الخليفة المهدي اذا أوقد سبعة أيام كاملة ! ..
فقال له الرجل الآخر :

— أنت عندي من الذين قال الله عز وجل : « فما ربحت تجارتهم ما كانوا
متهدين » ! ..

قال أبو ريحانه :

— بل أنا من الذين قال تبارك وتعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه » ..

فلما انتهى الجدل والنقار بين أبي ريحانه والرجلين ، قلت له : انه
لا يصلحك في هذا البرد الا ثوب صوف ثقيل ، فتعال الى هذا البزاز القريب
منا في الشارع نشتريه لك ! ..

قال أبو ريحانه :

— لا والله .. قد كسوتنى من حرير غنائك ، فلا البس معه شيئا ! ..

وحلف صديقى الذى يظنه الناس مجنونا ، ليجلسن فى الشمس ، ليس
على جسده الا بقايا تلك الاسمال البالية ! .. فلم أكد أبلغ بيتى حتى وجهت
اليه بقميص وجبة وسراويل وعمامة ! .. فاغبط بها واكتساعا ..

أذكرنى هذا ، ما صنعه أبو ريحانه يوما وقد مرت به جارية على ظهرها
قربه ، وهى تغنى بصوت أثار قديم أشجانه :

وابكى فلا ليل بكت من صبا

الى ولا ليل لدى الود تبذل

واختع بالغبى ، اذا كنت هذبا

وان أذبت كنت الذى أتفصل

فقام أبو ريحانه الى الجارية فقال : يا سيدتى .. أعيدى ! .. فقالت :
مولاتى تنتظرنى والتربة على ظرى ، فقال : أنا أحملها عنك ، فدفعتها اليه
فحملها وغنته اللحن ، فطرب ورمى بالتربة فتسبها ! .. فقالت له الجارية :
امن حقى عليك ان أغنيك وتشقى قربتى ! .. فقال لها : لا عليك تعالى
معى الى السوق ! ..

فمضت الجارية معه الى السوق ، فباع ملحفته واشترى بشمينا قربة
جديدة ، ملاها بالماء وحملها على ظهره الى الموضع الذى قصدته الجارية ! ..
ثم عاد الى مجلسه يبكى ويردد البيتين اللذين أطرباه !

❁ اليوم الثاني :

لا أدري ما أصنع لصديقنا المجنون أبي ربحانة ، فاني مرتت اليوم في التسارع الذي يجلس فيه لا يريم مكانه ، ولا يتعته حر ولا برد ولا مطر ولا ريح ولا هوكب من مواكب الخليفة أو ذوى السلطان .. وقد مر به موكب أحد هؤلاء منذ أيام ، فلم يقف أجلا له ، ووقفه الناس جميعا ، فبصر به أعوان السلطان فاخذوه وضرروه ، وأوهكوا أن يلقوا به في السجن لولا اني علمت بالقصة ، فأسرعت اليهم أشرح لهم حقيقة حاله ، وحدثتهم عن جنونه ، حتى أطلقوه ..

وقد مرتت به اليوم فاخذ بلجام دابتي ، وقال لي ضارعا :

- ياسيدي ، بحق القبر ومن فيه .. غننى صوت ابن جندب :

فؤادى وهين فى سوائك ومهيجتى

تدوب وأجفانى عليك همول

فقدتته دندنة حتى لا يجتمع علينا الفاس ، وقد استويت على ظهر دابتي كاني أتحدث اليه فلم أكد أتم الناجن ، حتى فضحتني ، فانه لطم وجهه حتى خرج الدم من أنفه ، ووقع على الأرض صريحا فاجتمع الناس ليحملوه ويدرجوه ونزلت اشتغل في أمره معهم ، حتى أفاق ، فلما فتح عينيه ورأى انتفض واقفا ، وخرق جيبته وقمصه وكل ما اشتريته له من الملابس الجديدة ..

انصرفت أسفا عليه وقد أيتنت انه لا شفاء له من دائه ، وإن الغناء ينج في قلبه أمرا أشد حرارة من الطرب الذي تعرفه قلوب الناس .. وهذا داء ليس له دواء ، وشفاء صاحبه أن يعيش عمره يتداوى منه بلا شفاء ..

❁ اليوم الثالث :

اعتلتل أخيرا .. ذهبت أيامي الجميلة ! ..

عشت عمرى كله قويا لا يصيبني مرض ، فما الذى أرقدنى هذه الرقدة ، ومن أين تسملت الى جسدى هذه الآلام ؟!

زارنى اخوانى أهل صناعتي ، فأنست بهم وقتنا .. ولكن الالم عاودنى بعد انصرافهم ، ثم جاء تلاميذى يسألون عنى .. قال لي كبيرهم ابراهيم الموصلى : أعزز علينا بأن نراك فى هذه العلة يا أبا وهب .. ولو كانت مما يفتسدى لفديناك منها ! .. وقال اسماعيل بن جامع كقول صاحبه وزاد عليه بعض الدعاء ..

قلت لهم :

- أيها الإبناء ، كيف كنت لكم أيام صحتى وعنفوانى وأخذى اياكم بالتعليم والتخريج ؟!

قالوا :

— نعم الأستاذ والسيد ! ..

قلت :

— قد غنيت ستين لحنا من صنعتي ، فأحب الا يفسرها أحد منكم أو يتحلها ! ..

فصمتوا الا الموصلى قال :

— نفعل أبا وجب ان شاء الله ، ونحفظك فيما تترك من صنعتك ، على اننا نرجو أن تكون فداءك ، وتكون أنت بعدنا .

قلت :

— دع ذا عنك ، فوالله انى لاحس دبيب الفناء فى أعضائى وأرانى أموت عضوا فعضو ! ..

فسمعت بكاء تلاميذى ، فلما انقضت ساعة قال لى الموصلى :

— قد حلفنا أن نحفظك فى تراثك من الالحن ، ولكن ماذا كرهت منا ؟ .. أن يكون فى غنائك فضل عظيم فنقص منه ، فيعرفه الناس لك علينا ، أو أن يكون فى غنائك بعض ناص فنحاول تحسينه فينسب الناس احساننا فيه اليك ، ويأخذه من يأخذه عنا على الوجه الذى استحسناه ؟ ..

انصرف تلاميذى .. فساورتنى ذكريات كثيرة قديمة .. ذكرت ، مثلا ، أن الخليفة المهدي كان يشرب يوما ، فصاح فجأة فى أحد حراسه : « جننى بسياط وعقاب وحبال » .. فارتاع كل من كان حاضرا مجلس الخليفة وظنوا انه يريد الايناع بهم ، أو ببعضهم ، ولم يكونوا يعرفون ذنبهم ، ولكنهم كانوا يعرفون بطش المهدي وسطوته أحيانا بغير حق ! ..

أما الحرس الذى تلقى أمر الخليفة ، فانه فهمه على وجهه الصحيح ، فخرج ثم عاد بعد قليل وأنا معه وورائى صديقى « عقاب » الذى يتولى الضرب والايناع لى حين أغنى وصديقى « حبال » الزامر الذى يزمز لى عند الفناء ، وكلاهما بارع فى صناعته ! ..

فلما وقفنا بين يدى الخليفة فهم جلساؤه انه كان يعبت بهم ، فجعلوا يضحكون فى اكمامهم ونسمع شتائمهم لنا ! .. ويهمس بعضهم لبعض : هؤلاء سياط وعقاب وحبال ! ..

وأمرنى المهدي فى ذلك اليوم فغنيت ، وضرب عقاب فأحسن الضرب ، وزمر حبال فأجاد الزمر ! ..

ما أكثر الذكريات ، وما أوجعها اذ تعتادنى فى هذه الساعة ، وقد بلغت الروح الحلقوم ! ..

● اليوم الرابع :

هذا اليوم لم يكتبه سياط ، بل كتبه تلميذه المطرب الكبير ابن جامع ،

بعد أن شيع هو وأصحابه استأذهم إلى مقره الأخير ..

قال ابن جامع :

دخلت على سباط في مرضته الأخيرة أعوده .. رأيت يدخل في النزاع .
فاستعبرت وانتحيت فالنفت نعوى وقال بصوت متقطع خافت : « لا تزيدوا
في غنائي شيئا ولا تنقصوا منه شيئا .. دعوه رأسا برأس .. فانما هو
ثمانية عشر صوتا » ! ..

قلت له :

- كنت قد سمعتك تخبر الموصلي ان غناءك ستون صوتا ! ..

فلم أسمع منه ردا .. لقد قضى الامر ! ..

بحشت عن والدته في منزله فلم أجدها في تلك الساعة ، وكان يعيش
معه ، وجاء بعض أصدقائه ، فشاهدوا معي موته .. ثم جاءت أمه ، فقالت :
أمات سباط ؟ .. قلنا : رحمه الله ! .. فلم تزد على أن قالت : هكذا
مات أبوه فجأة ! .. قلنا : ولكنه مريض منذ حين ! .. قالت : انه كان
يمرض ثم ينهض ، حتى جاءت هذه المفجأة كما جاءت أباه من قبل ! ..

فلم نجد خيرا في الكلام معها ، فقد خرفت هذه المعجوز ..

وقمنا فأصلحنا أمره ودفناه رحمه الله ! ..

قال ابن جامع : « وقد سمعت المفتين وأخذت عنهم وتفقدت أغانيهم فما
رأيت مثل سباط قط » ! ..

فید جیفر

نقعدیر

پیشتر



دموع مستيم

● اليوم الاول :

اسمى « بَذل » أبذل للناس فن الغناء كما يبذل الكرام أموالهم للمحتاجين! يصفنى شيوخ فن الغناء بأننى أحسن الناس غناء فى هذا الزمن ، ويزعمون انى أستاذة كل محسن ومحسنة من المغنين والمغنيات الآن ، وانى أعظم رواة الغناء العربى القديم من أيام طويس فى عهد عثمان بن عفان فى المدينة المنورة الى أيام الموصل فى بغداد ..

اشترانى الامير جعفر بن موسى وأنا صبية صغيرة .. وفى قصره تفرغت للغناء وسمعت أكابر المغنين ، ورويت عنهم الحانهم والحان الاقدمين ونبغت وصرت أشهر مغنيات بغداد .

ولما تولى الخلافة محمد الامين بعد أبيه هارون الرشيد ، أراد شرائى من ابن عمه الامير جعفر . - وهو ابن الخليفة الاسبق موسى الهادى رحمه الله - فأبى جعفر أن يبيعنى للامين ، فاحتال عليه حتى اختطفنى من منزله وانصرف بى الى قصر الخلافة ..

وفى اليوم التالى بعث اليه الامين فجاء وأنا جالسة بين يديه ، فلم يتكلم جعفر بشئ ، وكظم غيظه ، ثم قام متصرفا فصاح الخليفة فى الخدم - أوقروا سفينة ابن عمى دراهم ! -

فانطلق الخدم الى سفينة جعفر التى كانت راسية على شاطئ دجلة تحت شرفات قصر الخليفة وملاوها بقناطير من الدراهم ، ونظر جعفر الى سفينته مشحونة بالاموال . فنسيتنى وانطلقت به فى مياه دجلة حتى ألقى مراسيها قرب قصره .. وأسرع خدمه ينقلون منها الى خزائنه الاحمال الهائلة من المال .. فلما فرغوا من نقلها وجدوها قد بلغت عشرين ألف ألف درهم ! .

فأنا أغلى الجوارى المغنيات ثمنا فى تاريخ الغناء كله ، ولا يقع فى وهم مغنية مهما كانت جميلة بارعة أن يشتريها خليفة أو أمير بعشر معشار هذا المال الجليل الذى اشترانى به محمد الامين .

● اليوم الثانى :

بلغت عند الخليفة الامين غاية الحظوة .. أعجبه غنائى حتى كاد يطير

بليه .. أعجبه جمالي .. راقته شمائل في جميع الاحوال ولكن الايام ركضت بنا كالخيول الجامحة ، فسرعان ما تولى السرور ، وأقبلت الحوادث المزعجة ، فالحرب دائرة منذ مدة بين الامين وأخيه المأمون .. أراد الامين أن يعزل أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لطفل صغير ولدته إحدى جواريه ، وقد نصحته الا يعزل أخاه فلم ينتصح ، وبصرته بالعواقب فابى أن يتبصر .. وما نحن أولاء نجنى معه الثمرة المرة لعناده ! .. فجيوش المأمون افتحمت أبواب بغداد ، وشرعت تزحف على قصر الامين تطلب رأسه ! ..

فرزق الامين فرعا شديدا حين اقترب جنود المأمون من قصره ، وخلق ثيابه حتى صار عاريا الا من سروال قصير ، ورأيت جنديا اسود الوجه يجري وراءه ، والخليفة يصيح :

— الله .. الله في دمي ! لا تقتلني فانا ابن عم رسول الله .. جلدى العباس بن عبد المطلب ، وأبى هارون الرشيد ، وأخى المأمون ! ..

ولكن العبد الاسود هجم عليه مصلتا سيفه فوق عنقه ، والامين يصيح في العبد مذكرا اياه بنسبه وحسبه ، حتى سقط رأسه على الارض وسيف العبد الاسود يقطر من دمه ! ..

● اليوم الثالث :

تغيرت الدنيا بعد زوال دولة الامين وقياسام دولة المأمون .. ليس لي مورد رزق الآن ، ونفقتي من مدخراتي ، فقد وهب لي جعفر بن الهادي ومن بعده محمد الامين مقدارا عظيما من الجواهر الثمينة ، وأنا أبيع من هذه الجواهر شيئا بعد شيء وأعيش من ثمنه ! ..

وقد لبث المأمون مدة في بلاد فارس ، ولم يعد الى بغداد الا أخيرا ، ويقال انه على علمه وفضله وديانته ، دموى المزاج ، وكذلك كان أبوه الرشيد وجده المهدي ، يتذكرون الله فتنهمر دموعهم على خدودهم ، ثم يقتلون أقرب الناس اليهم بلا رحمة ! ..

والا فكيف يعقل انسان ان خليفة استودعه الله دماء الناس ، وحرّم عليه سفكها الا بالحق ، يقتل شاعرا من أجل بيتين مدح بهما رجلا يستحق المدح ! لقد مدح الشاعر علي بن جبلة ، قائدا من قواد المأمون ، هو القاسم بن عيسى أبو دلف ، المشهور بالثباجعة والكرم والرفقة ومعرفة الغناء وقول الشعر ، فكان مما قاله ابن جبلة :

انما الدنيا ابو دلف

بين مفضّاه ومختصره

فإذا ولي ابو دلف

ولت الدنيا على اثره

كل من في الارض من عرب

بين باديه الى حضره

مستعير منه مكرمة

يكتسبها يوم مفتخره

بلغت هذه الايات المأمون ، فأحفظته على الشاعر ، وملاته عليه حقدا ،
فأمر بأن يسجل لسانه من قفاه ! ..

الى هذا الحد بلغت وحشية المأمون الذي تذرف عيناه أحيانا من خشية
الله ! ..

ان ابن جبلة لم يكن يقصد بطبيعة الحال ان يضع الخليفة المأمون في جملة
العرب الذين ذكر الشاعر انهم يستعيرون من مكارم أبي دلف كسوة لهم ،
بل كان يقصد عامة العرب ، من غير بيت الخلافة ، ومن غير بني هاشم ،
وانما ذكر ابن جبلة العرب ، لان ممدوحه أبا دلف العظيم عرّبي خالص
النسب ، والشاعر يتوه بذلك لان كثيرا من قواد جيش المأمون هم من الفرس
والترك والاجناس الاخرى ..

والمأمون من أبصر الناس بالشعر فلا يفوته ان الشاعر لم يقصده بما قال
لان للخليفة محلا رفيعا فوق العرب والعجم ، ولكن المأمون حسد قائده أبا دلف
على الشعر البليغ الذي قيل في مدحه وتناقله الناس وطبق الافاق ، فأسرّها
في نفسه للشاعر البريء المسكين حتى قتله شر قتله .. ولم يشف غليله الا
ان ينزع لسانه من قفاه لا من فمه ! ..

وما سمعنا ان قطاع الطرق بين بغداد والبصرة ، أو بين البصرة والاهواز ،
يفعلون مثل ذلك بمن يسقط في قبضتهم ! ..

● اليوم الرابع :

استدعاني المأمون ، وأمرني أن أتردد على قصره من حين الى حين ، أغنى
له وأطربه كما كنت أطرب أخاه الامين .

وكثرت زياراتي لقصر الخليفة حتى صارت لي فيه مقصورة أبيت فيها
وتقوم الجوارى على خدمتي .

وتبسط معي المأمون حتى صرت أمارحه وأقلب في غنائي بعض كلمات
الشعر الى كلمات تخدش الحياء ، تفكها وتظرفا ، فيضحك المأمون ويسره
ما أفعل ويجيبني بكلمات مثلها ، أو أشد منها تعبيرا عن واقع الحال الذي
نحن فيه ! ..

لم يمشقني المأمون ، بل أعجبه غنائي وطرقي لا أكثر ، أما الذي عشقني
حقا فهو القائد علي بن هشام ، وهو من أعظم قواد جيش المأمون ..

وقد تصنعت الغضب عليه منذ أيام فشكاني الى المأمون ، فأمره بأن يزورني
في بيتي ويسترضيني ! ..

فلما دخل بيتي وقف على مقربة مني فلم أكلمه ، فقال لي ضارعا

- اني جئتك يا بذل بأمر أمير المؤمنين ، فقد سألتني عنك فقلت له : هي

غضبي لا تكلمني ! .. فقال لي : فبحياتي عليك يا ابن هشام لا تدخل منزلك حتى تذهب اليها في منزلها فتسترضيها ! ..

فقلت لعل بن هشام :

- ان كنت جئت بأمر الخليفة فأنا أرضى عنك ! ..

فقال لي :

- يا ستي ! .. لقد كذب الوشاة على عندك ! .. ولن أنسى ما حييت اني جئت أسلم عليك أمس فلم تأذني لي بالدخول ، ولمحت الوشاة جالسين من حولك .. وما وجدت الا الشعر أخفف به من وجدي ! ..

فسألته أن ينشدني هذا الشعر ، فقال :

ومما شجاني اننى يوم ذرتكم

حجبت واعدائي لديك جلوس

فان ذهبت نفسى اليكم تشوقا

فقد ذهبت للعاشقين نفوس

● اليوم الخامس :

أنا لا اغار من تلميذتي « مقيم » الجارية الجميلة المغنية الحاذقة ، التى تعلمت على يدى شيئا كثيرا ، وعلى يد اسحاق الموصلى شيئا أكثر ..

ان كل من يراها ويسمعها يقول انها أحسن الجوارى وجها وغناء وأدبا ، ويعترف لها اسحاق الموصلى الذى لا يعترف لاحد بشيء ، أنها أحذق المننيات والمغنين جميعا فى التلحين .. وقد سمعها الباردة فى سهرة بقصر على بن هشام ، فطرب وشرب وصفق ونعر ، ثم نهض يصيح وقد تملكته النشوة التى قلما تتملكه :

- يا مقيم .. انت أنا .. فمن أنا ؟ ! ..

كانه يريد أن يقول لها ان محلها فى صناعة التلحين والغناء قد صار مثل محله ، وانها تساويه فى التقدم والعبقرية ! ..

وهذه شهادة لها من اسحاق ، لو عرضوه على السيف لما أعطاهما لاحد غيرها ! .. فانه كثير التيه على أهل صناعته ، كثير التحامل على المغنين والملحنين ، مسرف فى حظ درجاتهم ! ..

وقد أخذت « مقيم » مكانى فى قلب على بن هشام ، ولست أكره ذلك ، فانا أغنى لكل الكبراء فى هذه الدولة ، وبخاصة الخليفة ، ولا أريد أن أعرف بالميل الى على بن هشام خاصة ، فهذا يضره ولا ينفعنى .

وعلى بن هشام شديد التعلق بمقيم ، يرى أنها دنياه كلها ، ويضن بها على سهراته التى تغنيه فيها الجوارى وحوله جلساؤه ، فاذا أراد سماع « مقيم » اقتصر مجلسه على خواصه من المغنين كاسحاق الموصلى ! ..

ولكن ندماء المأمون سمعوا عذبا ، فوصفوا للمأمون روعة غنائها ، وحلاوة
وجهها ، فتلطف ذات ليلة الى ابن هشام وطلب اليه أن يحضرها الى قصره
ليسمعها ! ..

فلما سمعها المأمون ، طرب لها طربا شديدا ، وحلت من قلبه محلا رفيعا ،
فسأل ابن هشام أن يهبها له ، فتجاعل الرجل سؤال الخليفة كأنه لم يتنبه
اليه ، وأخذ جاريته وعاد بها مسرعا الى منزله ! ..

وساءت العلاقات بين المأمون وقائده الكبير منذ تلك الليلة ، فان هسلدا
الخليفة الذى سمعت بعضهم يصفونه بأنه من رجال الفكر والفلسفة ، يختزن
فى أعماقه ميراث الملك العضوض ، أو الملك العقيم ، فيجفو أقرب الناس اليه
لذنب طفيفة قد لا تكون ذنوبا ولا حتى هنات هينة جدا ، ولكنها تملؤه حقدا
على أصحابها حتى يشتهي أن يرى دماءهم البريئة تجرى بين يديه ! .. ولكن
أنسى ما حييت ما صنعه مع على بن جبلة الشاعر المظلوم !

❶ اليوم السادس :

زارنى اليوم على بن هشام ، والهيم يبدو فى وجهه وقال لى :
- يا بذل .. قد احتجت الى نصحك ورأيك فى أمر أعمى وأطار النوم من
جفونى ! ..

سألته مشفقة :

- وما ذاك يا على ١٩ ..

- متيم ! ..

قلت جازعة :

- ماذا جرى لها ١٩

قال وقد أغمض عينيه متفكرا واجبا :

- المأمون يلج فى طلبها .. يريدنى أن أميها له ! ..

قلت له بعد لحظة تفكير :

- يا على احرص على أن تعلق متيم منك حتى تحبل ، فيياس المأمون منها .
فانه لا يحب الجوارى ذوات الاولاد ! ..

وليتنى ما نصحته ، فما كاد المأمون يعلم بعد حين ان « متيم » قد حبلت ،
حتى غضب وفهم ان ابن هشام قصد أن يصرفه عن الجارية ، وأضمر له
الشر ..

وقد وقع الذى كان على بن هشام يجذره ، وكنت أحذره أنا أيضا وجميع
من يعرف كرم هذا الرجل وشهامته وطيب أخلاقه ! ..

ان المأمون الذى أخرج لسان الشاعر من قفاه ، قد عاودته دموية الملك

المضوض ، فأمر بقتل على بن هشام متذرعاً بأمر لفتحها له تلفيقاً •

ثم زاد على قتله فأمر بمصادرة أملاكه وأمواله ! ••

وركبه الحق على القصر الذى كان ابن هشام يعيش فيه مع مقيم ، فأمر
بأخراجه فأخربوه وأحرقوه حتى صار اطلالا تثير الحزان ! ••

ثم بلغ حقه عليه ، بعد قتله ومصادرته وتخریب قصره ، أن أصدر أمراً
قاطعاً بالآ يقف أحد على أطلال القصر المخرب ، ولو لمجرد العبرة والعظة
بأحوال الدنيا وتقلبات الأيام ! ••

فمرت مقيم مع بعض الجوارى بالقصر ، فرأته قد علت اطلاله الاتربة ،
ونسج العنكبوت خيوطه ، وطرحت فى أفنية القصر المزابل ، فتوقفت تبكى
عنده بهذه الايات :

يا منزلاً لم تبلى اطلاله

حاشا لاطلاك ان تبلى

لم ابك اطلالك لكننى

بكيت عيشى فيك اذ ولى

قد كان لى فيك هوى مرة

غيبه التراب وما ملا

ثم بكى مقيم حتى سقطت على الارض ، وجعلت الجوارى يتأشدها ويقلن
لهة : الله •• الله فى نفسك يا مقيم ، فانك ان توقفت هنا جاءت الشرطة
فاخذتك وعوقبت أشد عقاب لمخالفتك أمر الخليفة ! ••

ثم انتزعتها من ذلك المكان قبل أن يراعا جنده الخليفة متلبسة بالوقوف
على اطلال قصر الرجل الذى أحبها وأحبته ! ••

مطرب عظيم .. ولكن..

اليوم الاول :

لا أدري أين أهرب من لقبى هذا الكريه ! .. فانا ذو اسم جميل يحبه الناس ويحترمونه .. وكنتى أيضا طيبة ، ولكن لقبى يجعل بعض الناس يضحكون أحيانا ، حتى أصدقائى ومعارفى الذين اعتادوا لقبى هذا يتسمون أحيانا ضاحكين منه ! ..

اسمى محمد بن حمزة بن نصير ..

كنيتى « أبو جعفر » ..

لكن لقبى « وجه القرعة » !

وكثير ممن يخاطبونى ، لا يستعملون الا لقبى هذا !

وأنا - والله - أحد المغنين الحذاق الضراب الرواة ، يعترف لى جميع أهل صناعتنا بذلك ، الا من حسدنى أو جهلنى أو جحدنى حقى ! ..

أخذت صناعة الغناء وأسرارها عن شيخ المغنين والملحنين ابراهيم الموصلى، وأخذت أيضا من آخرين فى طبقتة ، واعترف لى الموصلى وطبقته بجمال الصوت ، لا عيب فى صوتى ولا غنائى ، الا اننى كنت وما زلت اذا غنيت الهزج لم أتحكم فى غنائه فيخرج صوتى عن الصواب فى أدائه ، لسبب لم أكن أدريه ولا أدريه حتى اليوم ! .. سألت عنه أستاذ أهل الصناعة - الآن - اسحاق الموصلى ، فقال لى هى آفة تعرض للحس أو الطبع ، فى جنس من أجناس الغناء ، فلا يصح له اللحن مهما اجتهد !

قلت له

- وما أصنع فى هذه الآفة يا سيدى ؟!

قال

- تترك غناء الاهزاج ، وتقتصر على الغناء الثقيل ، فانه هو الغناء حقاً !

ما زلت أذكر أول مرة سمعنى الموصلى الكبير وابنه الموصلى الصغير ، أعنى ابراهيم واسحاق الموصليين ، فقد سال ابراهيم ابنه بعد أن سمعانى يومئذ وكنت شابا صغيرا

- ما رأيك فى غناء هذا الغلام ؟!

قال اسحاق

— لن يبلى فن الغناء ما دام مثل هذا الغلام الموهوب ينشأ فيه !

● اليوم الثانى :

كنت اليوم فى مجلس بعض الهاشميين فى بغداد ، فجاء اسحاق الموصلى
٠٠ ولم يطلب منى أحد أن أغنى لأنهم يعلمون اننى اذا سئلت أن أغنى ،
أبيت ذلك كل الآباء ، فاذا أمسكوا عن سؤالى ، وطال أمساكم عنه ، كنت
أنا المبتدئ بالغناء

وكذلك كان فان القوم أمسكوا عن سؤالى الغناء ، حتى طلبت العود
فأتونى به فغنيت لحنا من صنعة اسحاق الموصلى كأننى أحياه وأعلى
مكانته لحضوره فى المجلس :

مر بى سرب طباء
وانعاج من قباء
زمرنا نحو المصل
يتمشين حداثى
فتجاسرت والتيت
سراييل الجياء
وقديما كان لهوى
وفتونى بالنساء

فأحسننت والله أداء هذا اللحن وجعل اسحاق يشرب ويستعيدة حتى
شرب ثلاثة أرتال ٠٠ ثم قال

— أحسننت يا غلام ٠٠ هذا الغناء من صدوتى ، ولكنك تتقدمنى فى أدائه !
كانت هذه شهادة كبرى من اسحاق الموصلى لا يظفر بمثلا منه كبار
المغنين المشهورين الذين يفتنون للخلقاء .

● اليوم الثالث :

جلست مع بعض الهاشميين فى بستان بضواحي بغداد ، فغنيتهم

يا دار القفر وسومها
بين المحصب والحجون
يا بشر انى ، فاعلمى
والله مجتهدا يمينى

فاذا برجل راكب على حمار ، يقصد إلينا وهو يصيح
— أحسننت يا وجه القرعة ٠٠ أعنى أحسننت يا أبا جعفر ! ٠٠ أحسننت
والله !

فقال القوم للرجل :

— ادخل الينا كأننا من كنت ! ..

فدخل يقول :

— لو منعتموني الدخول لما امتنعت ! ..

كان الرجل ملثما ، فسفر اللثام عن وجهه فاذا هو أمير المغنين أبو المهنا
مخارق ! ..

فاحتفى القوم به ، وأكرموه ، وسروا به سرورا عظيما ، وقمت فمناقته
وقبلت رأسه ، فقال لي :

— يا أبا جعفر .. أعد علينا صوتك ! ..

فأعدت اللحن مجتهدا متحفظا ، حتى أحسست اني أتيت فيه بأجمل شيء ،
قطرب مخارق وطرب الهاشميون . وقال لي مخارق :

— لولا اني مدعو الخليفة ، وقد حان موعد الدعوة ، لأقمت استمع الى هذا
الغناء الذي هو أحسن من الزهر في هذا البستان ! ..

ثم أنصرف مخارق ليفني في مجلس الخليفة ، وبقيت أغني في البستان ،
وقد ارتفع قدرى عند الهاشميين الذين سمعوا ثناء مخارق على غنائي ، وهو
من هو في شهرته ومكانته في الغناء ، ومجده في مجلس الخليفة لا يحمله
أحد ! ..

● اليوم الرابع :

قصصت دار اسحاق الموصلى أعوده في مرض أنهكه ، فصادفت عنده
مخارقا وعلويه واحمد بن المكي وغيرهم من أهل صناعتنا ، يتحدثون ، فاتصل
بيدهم الحديث وتفرغ شجوننا ، حتى عرض عليهم اسحاق أن يقيموا عنده
ذلك اليوم ليخرج بهم من ضائقة المرض ! ..

وجيء بالنبيذة فوضع بين أيديهم .. وأخذوا في الغناء واحدا بعد الآخر ،
فغنى علويه لحنا من الغناء القديم ، فلما رأيته يخرج في آلاؤه عن وجهه
الصحيح خالفته فيه ، وطال جدالنا — وأنا وعلويه — في ذلك ، وإن علويه
لذو مكابرة ولو كان الحق واضحا ! ..

لم يتكلم اسحاق الموصلى .. ظل يتابع المناقشة في صمت كأنها لا تعنيه ،
وإن كان لم يفته حرف منها ، ولم ينتصر لي ولا لعلويه ، فتحاكننا اليه ..
فامتنع من الحكم ، وقال :

— انتما في بيتي ، ولا أحب لكما التنازع في هذا الصوت ولا في غيره .
فقال له علويه :

— يا أبا جعفر .. قد احتكمتنا اليك ، فاحكم ! ..

فصمت اسحاق ولم يتكلم ، واستحثه علويه فى لجاجة يعرفها عنه
عارفوه جميعا فقال اسحاق :

— يا علويه .. قد حكمت لمحمد ! ..

فازداد علويه لجاجة ، وراجع اسحاق فى حكمه ، فردده اسحاق قائلا فى
صوت المريض الواهن :

— حسبك ، فوالله ما فيكم أدري منه بما يخرج من رأسه ، من هذه
الصناعة ! ..

ثم غنى أحمد بن يحيى المكي : « قل للجمانة لا تعجل بأسراج » .. فلما
فرغ من غنائه ، قلت :

— هذا اللحن لمبعد ، ولا يعرف أحد لمبعد هزجا غير هذا ..

فقال أحمد المكي كأنه يسخر :

— أما على ما شرط أبو محمد اسحاق الموصلى من انه ليس فى جماعتنا هذه
من هو أدري منك بما يخرج من رأسه فلا أعارضك يا وجه القرعة ! ..

فقال اسحاق لأحمد بن المكي :

— يا أبا جعفر ، ما عنيتك والله فيما قلت آنفا .. ولكن قد قال لك
أبو جعفر محمد بن حمزة ، انه لا يعرف لمبعد هزجا غير هذا ، وكلنا نعلم أن
هذا الهزج لمبعد ، فجيء أنت بهزج آخر له ، مما لا يشك فيه العرفاء
بالصناعة ! ..

فوجم أحمد بن المكي .. ثم قال :

— صدقت والله يا أبا محمد .. فما أعرف لمبعد هزجا آخر لا يداخلى
شك فى نسبته اليه ! ..

فانتصرت على أحمد بن المكي وعلى « علوية » فى تلك الساعة .. ورأيت
مخارقا — وهو لى صديق — يبتسم كأنه شامت فى علويه وابن المكي ، وما
أكثر شماتة المفتين بعضهم فى بعض ! ..

● اليوم الخامس :

دخلت على اسحاق الموصلى مهتئا بالسلامة من علته التى كان فيها ، فلما
يعود فغنيت أصواتا للقدماء وأصواتا لآبيه ابراهيم الموصلى — رحمه الله —
وأصواتا له هو ، أغنى اسحاق ، فى ايقاعات مختلفة ، فوجه خادما الى
جوارى أبيه المفتيات ، فجنن وجلسن وراء الستار يسمعننى ! ..

فبلغنى أننى لما انصرفت قال اسحاق لجوارى أبيه ولجواريه :

— ما عندكن فى هذا الفتى ! ؟ ..

فقلن :

— قد ذكرنا به والله أباك فيما غناه ! ..

فقال لهم :

— صدقتن ! .. انه والله لمغن محسن ، ولكنه لا يصلح للمطارحة ، لانه يزيد في أصول الالخان من ارتجاله ، فلا يعرف من يأخذ عنه اين أصل اللحن وأين زوائده .. فهو لهذا لا ينتفع به في الرواية .. ولكنه مغن مطرب لا نظير له ، وان كان قليل الحظ عند الخلفاء ، وليس الاستحقاق للحظوة عندهم ، الا ضربا من الحظ أحيانا ! ..

واسحاق كثير النقد لمن يتزيدون في أصول الالخان ويضيفون اليها من ارتجالهم ، لانه ملحن أكثر منه مطربا .. فدفعه ذلك الى الحرص على أصول اللحن ، ولكن المطرب ذا الصوت الجميل المتمكن .. يفتنى أصل اللحن ، ثم يضيف اليه ما يقدر عليه من ارتجال زيادة في اطراب السامعين ، والا فكيف يظهر فضل مغن على مغن آخر ، كلاهما يروى اللحن على أصله !؟ ..

على ان اسحاق يحق له الحرص على الدقة في رواية الالخان غير محرفة عن أصولها ، لان الغناء العربي انما قام على هذه الاصول ، ولو اختلفت الرواية لاختل هذا الفن وتهدم .. ولا سبيل الى تثبيت هذه الاصول الا بالرواية الصحيحة .. غير أن المطرب الراوية المتمكن يؤدي الغناء بأصوله حتى تثبت عند من يحب أن يرويها ، ثم يضيف اليها من ارتجاله ما شاء بحيث يعرف سامعوه ذلك ، ويميزون الاصل من الارتجال ! ..

ولكن هذا قلما يتاح ! .. واسحاق على حق في تشدده ! ..

● اليوم السادس :

زرت مخارقا في منزله ، فصادفت عنده كثيرا من المغنين ، فلما رأوني تفاقموا ، وتهامسوا : قد جاءكم وجه القرعة ! ..

فلم أبال بهم ، وسلمت على مخارق ، فأقبل مرحبا بي ، وبسط لي وجهه .. ثم قال :

— يا أبا جعفر .. ان جواريك « اللواتي في ملكي » قد تركن الدرس من مدة ، فأحب ان تدخل اليهن ، وتصلح من غنائهن ، وتذكرهن ما نسين من دروس الغناء ! ..

ثم صاح مخارق بخدمة ، فسموا بي يدي الى الجواري ، فأتمت عندهن ما سألتني مخارق .. ثم خرجت اليه وأولئك المغنون عنده ، فأعلمته بما صنعت ، فشكرني وأجلسني الى جانبه .. فأقبلت على المغنين فقلت لهم :

— قد رأيت غمزكم ولمزكم ! .. فهل فيكم أحد رضى أبو المهنأ مخارق — أعزه الله — حذقه وأديه وأمانته ، ورضيه لجواريه غري ؟ .. وهل رأيتم رقتيه وظرفه حين قال لي : « جواريك اللواتي في ملكي » .. وانصأ هن جواريه هو ، وهن ملك يمينته ، ولكنه يتطلف في الكلام شأن كرماء الناس وأشرافهم .. وقد رأيتمكم تغمزون وتلمزون كالسوقة ! ..

فصمت المغنون جميعا من فرط خزيهم ، ولم يحبروا جوابا ، كأننا القمتمهم حجرا ! ..

سوق الغناء الطنبورى

اليوم الاول :

حظى طيب والحمد لله ، ففى عصرنا هذا لا يحصل المغنى اذا كانت آلتة التى يضرب عليها هى الطنبور ، الا القليل من الرزق ، فى حين اتسعت الدنيا للمغنيين الذين يلحنون على مقتضى نغمات العود ، ثم لا يتركون العود من أيديهم ابدا حين يلحنون او يغنون ! ..

العود سيد آلات الضرب .. من أجاد الضرب عليه ، أجاد التلحين اذا كان موهوبا فيه ، وهذا اسحاق الموصلى ، يتيه على الخلفاء والامراء والكبراء بالحنانه ، ومكانته فى الدولة اعلى من مكانة حاجب الخليفة أو وزيره .. وكل ما اكتسبه اسحاق انما اكتسبه بعلمه الغزير فى « العود » ومذاهب الغناء عليه قديما وحديثا .. أما صوته اسحاق فكل صوت غيره احسن منه أو مثله .. ولولا صناعته الفائقة فى التلحين ، وأداؤه الفذ فى الغناء ، لما بلغ شيئا مما بلغه ، أبناؤه الله ورعاه ، فانه والله رجل تقى ورع صالح الاخلاق ، لولا اشتهاره بالغناء لتولى القضاء أو الوزارة ، وهو رأس صناعة الغناء الآن ، وأستاذ كل من يتعاطى هذه الصناعة من مغنين ومغنيات ! ..

لكننى أعتب عليه لانه يقول : غناء الطنبور باطل كله ، ولا يتعاطاه الا من عجز عن الغناء المتقن على العود ..

ولا انكر ان أكثر من سمعته من الطنبوريين ليسوا على شىء من العلم بالصناعة ، لكن هؤلاء يغنون فى الاسواق والافراح والولائم ومسهرات السوق فقط ! ..

أما أمثالى ، فلا يقل قدرهم شيئا عن أقدار المغنين على العود .. وقد سمع الخلفاء بعض الطنبوريين ، وأنا أكبرهم حظوة عند الخلفاء ، ولا اعلم أحدا يتافسنى فى الغناء على الطنبور فى بغداد أو فى غيرها من مدائن الاسلام ..

ولكن صناعتي مع حذقي فيها ، لا تقوى على مزاحمة فحول الغناء فى بغداد .. وكيف أراحم هذا الحشد من المغنين والقيان ، مشهورين ومغمورين ومن جميع الاجناس والالوان .. امتلأت بهم بغداد حتى لم يعد فيها لامثالى موضع قدم ! ..

ما من كبير ولا امير ولا صاحب مال فى هذه المدينة الا لديه الجسوراء المغنيات أو الغلمان المغنون ، حتى لتنبعث الاغاني والاهاريج ليلا ونهارا من

النوافذ والشرفات في هذه المدينة التي التقت فيها أربعة أركان الدنيا ! ..
ولما وجدت الامر كذلك ، وأن استخلاص الرزق هنا صعب جدا ، يريق
ماء الوجه .. قلت في نفسي : ما مقامك يا أحمد بن صدقة في بغداد ،
ودميتق أطيب لك ، والرزق فيها ميسور موفور ؟! ..

حملت متاعى القليل ، وأخذت طريقى الى الشام ، حيث لا يوجد المئنى
البارع الا فى النادر ، ، وحيث أستطيع أن أغنى بالطنبور وأرتزق وأغتنى،
ويقول عنى الناس : ما فى الدنيا من يغنى على الطنبور مثل أحمد بن صدقة

● اليوم الثانى :

ها هم أولاء يتذكروننا بعد نسيان ! ..
أقمت بالشام ما أقمت ، وطننت ان العراق لا يحتاج الى طنبورى ، حتى
جاءنى رسول من الخليفة المأمون يقول لى :

— أمير المؤمنين يدعوك ..

قلت

— السمع والطاعة ! .. وأنا على الاهبة ! .. ثم سألت رسول الخليفة
متلطفا

— كيف خطر اسمى على بال أمير المؤمنين أعز الله نصره !؟ ..
قال يكبرياء :

— جاء اسمك فى معرض حديث عن الطنبوريين الحذاق ، فوصفوك لأمير
المؤمنين ، فأمرنى بإحضارك ! ..
هكذا عدت الى بغداد !

سمعنى أمير المؤمنين المأمون ، فاستحسن غنائى ، وأجزل صلتى ، وعرف
الامراء والكبراء انى أعجبت الخليفة ، فأكثروا من دعوتى للبقاء فى قصورهم
فكسبت منهم أضعاف ما كسبته من الخليفة ! .. ولو لم يرفع الخليفة من
قدرى ما عرف قدرى أحد من هؤلاء ..

الا أن بعض حسادى يزعمون أن فى بغداد من يسساوينى او يفوقنى فى
الغناء على الطنبور ، ويذكرون مفتيا طنبوريا اسمه « المسدود » .. سمعته
فعرفت تقصيره فى الصناعة ، ويذكرون أيضا عبيدة الطنبورية ويزعمون أن
اسحاق الموصلى قال لما سمعها : « غناء الطنبور اذا تجاوز عبيدة هذيان » !
.. ويزعمون كذلك ان الامير ابراهيم بن المهدي قال : « غناء الطنبور كله
باطل الا من أبى حشيشة » ! ..

وان أبا حشيشة لمغن طنبورى قدير جميل الصوت ، لكنى لست أقل منه
صوتا ولا صناعة ، وقد غنى للخلفاء والامراء فراجت بضاعته ، وأما أنا
فاقمت بالشام بعيدا عن شاصمة الدولة فأخملنى هذا البعد عنها ، وتقدمنى
من كنت جديرا بأن أتقدمه ! ..

أما عبيدة الطنبورية ، فلا أنكر أن لها صوتا وفنا فى الغناء بالطنبور ، بل هى أفضل عندى فى هذا الفن من أبى حشيشة ، وقد شهد لها اسحاق الموصلى بالحدق ، ولم يشهد لابى حشيشة ، وحسبها بشهادة اسحاق ! ..

الا أن عبيدة الطنبورية على اعتراف الطنبوريين لها بالرياسة والاستاذية، امرأة متبذلة بلوك العامة سيرتها ، ويرون تهالكها على الرجال .. وقد أرخصت نفسها كما أرخصت صناعتها .. ولو كانت هذه المرأة جارية مشتراة من سوق الرقيق لصانها سيدها ، وكان لها شأن فى الغناء عند الحلفاء .. ولكنها خرجت تقنى وتعمل بين الناس وهى حرة لم يمسها الرق ، فهان أمرها على الاحرار والارقاء ، وصار أجرا دينسارين فقط ، لا يزيد دنانير .. وقد تخرج الحلفاء من دعوتها للغناء عندهم فسقط أمرها وسيتبقى كذلك الى نهاية أمرها ..

قلت ذلك للمغنى الطنبورى المسمى بالمسدود فقال لى :

— لا تقل ذلك يا أحمد بن صدقة ، فانها المتقدمة على جميع الطنبورين والطنبوريات .. وقد أذلها الزمن واضطرها الى كسب عيشها بهذه الطريقة التى جعلتها من بنات الهوى ، وهى أستاذة فن الطنبور ! ..

ثم ضحك المسدود وقال :

— أتعرف غلامها الذى يلقبونه « ظئر عبيدة » ؟!

— ولماذا يلقبونه « ظئر عبيدة » .. أتضع عبيدة من ثديه كما يوضع الطفل من ثدى ظئره ؟!

— لا .. ولكنها تقول هازلة غير مبالية : هو بمنزلة بقل الطحان ، يصلح للظن والحمل والركوب .. واصفعه اذا شئت ! ..

قلت :

— أشتبى والله سماعها ! ..

قال المسدود :

— هذا يحتاج لنا بعد يوم أو يومين ان شاء الله ..

⑤ اليوم الثالث :

جلست عند بعض الكبراء اسمع غناء عبيدة الطنبورية .. وحضر جماعة من بينهم اسحاق الموصلى ، فلما غنت طرب اسحاق وشرب نصف قدح، فغعلنا مثله ، وجعلنا نشرب على غنائها نصفاً بعد نصف ، حتى والى اسحاق بين عشرة أنصاف وقد تملكه الطرب لغناء عبيدة ! ..

ثم انصرف اسحاق وبقينا نسمع ، فقال لها بعضهم :

— لا تبالي يا عبيدة بعد اليوم أن تموتى ! ..

— لان اسحاق الموصلى استحسن غناءك وشرب عليه ما شرب ، ولولا انك كنت متبينة لمحضره لكان غناؤك أحسن ، وطربه اكبر ! ٠٠ ووالله لقد رأيته مرات يستمع الى مخارق والى ابراهيم بن المهدي وهما اجمل الناس صوتا ، فما اهتز لاحد منهما ولا طرب ولا شرب ! ٠٠

قالت :

— انه يهتم بالصناعة لا بالصوت ، وصناعتى فى الطنبور دقيقة جدا لا يعرفها أحد ، حتى ان اسحاق نفسه ليعجز عنها ! ٠٠

خرجت من سهرة عبيدة الطنبورية ، فمررت بخالد بن يزيد الكاتب ، فقلت له : أنشدنى بيتين من شعرك حتى أغنى فيهما ، قال : وأى حظ لى فى ذلك ؟ ٠٠ فحللت له انى ان كسبت بهذا الشعر شيئا ، جعلت له نصفه ، فأنشدنى :

تقول : سلا ! ٠٠ فمن المدنف

ومن عينه ابدا تدوف ؟

ومن قلبه قلق خافق

عليك واحشاؤه ترجف ؟

فلما دعانى المأمون للغناء ، غنيته هذين البيتين ، فانقلبت عيناه غضبا وقال لى : يا ابن كذا وكذا ٠٠ ألك جاسوس فى قصرى ؟ ٠٠

فوثبت مرعوبا أقول :

— يا سيدى ما السبب ! ٠٠

قال والشرر يتطاير من عينيه :

— من أين عرفت قصتى مع جاريتى فغنيت فى معنى ما بينى وبينها من هجران وسلوان ؟

فحللت له انى لا أعرف شيئا من ذلك ، وحدثته كيف أنشدنى خالد الكاتب هذين البيتين ! ٠٠

فهذا وقال :

— ان هذا الاتفاق لعجيب ظريف ! ٠٠

ثم أمر لى بخمسة الاف درهم ولخالد بمثلها !

فلما انصرفت تبغنى بعض خدام القصر ممن أئق بهم فقال لى :

— أوشكت يا احمد أن تموت بسبب تفاحة عنبر ! ٠٠

فاستخبرته الخبر ، فقال :

— ان أمير المؤمنين غضب على جارية له حظية عنده ، فوجهت اليه الجارية بتفاحة من عنبر ، عليها مكتوب بالذهب : « يا سيدى ٠٠ سلوت ؟ » ٠٠

فلما غنيته أنت هذا الشعر الذى أوله : « تقول : سلا ! » - فمن المدنف ! »
ظن أنك تعرض به ، وانك عرفت قصته مع الجارية فغضب حتى أوشك أن
يأمر بضرب عنقك ! ..

● اليوم الرابع :

دخلت على المأمون فى يوم عيد السمعانيين الذى يحتفل به أهل الذمة ،
فغنيته وغناه المفتون ، ثم جاءت اليه عشرون وصيفة روميات بأهراء الجمال ،
يلبسن الزنار فى خصورهن ، وعليهن الحرير والذهب ، وفى أيديهن الخوص
وأغصان الزيتون رمزاً لعيد السمعانيين .. فأعجب بهن المأمون وحركن قريحتيه
للشعر فقال هذه الابيات :

طلباء كالدنانير
ملاح فى المقاصير
جلاهن السمانيين
علينا فى الزناير
وقد زرفن أصداغا
كأذناب الزواير
واقبلن بأوساط
كأوساط الزناير

ثم قال :

- يا أحمد .. غن على طنبورك فى هذه الابيات ! ..

فعملت على البدوية لحنا فى هذه الابيات ، وأخذت أغنيه للمأمون ، وهو
يظهر ارتياحه وطوبه لغنائى ، ويشرب ، والجوارى يرقصن بين يديه أنواع
الرقص العجيبة التى لم أر مثلها .. وفى إحدى الرقصات واسمها
« المستند » يتماسكن بالأيدي ثم يفتقرن ثم يتماسكن .. وفى رقصة أخرى
يقلدن الراكب على البعير فى حركته ، ثم يقلدن الجمل فى أنواع مشيه الذى
يشبه الرقص ! ..

ولم يزل المأمون يشرب ويتلهى بالرقص والغناء حتى انتشى واكتفى ،
فأمر لى بالف دينار ! ..

ثم أمر بعض غلمانه أن ينثروا على الجوارى الرقصات ثلاثة آلاف دينار ،
فنثروها عليهن فوقن عليها يلتقطنها ويضعنها فى مناديلهن ، فوقعت
مثلهن التتط ما أستطيع التقاطه من هذه الفضة الماطرة ذهباً ! ..

وعرفت عندئذ ان للغناء الطنبورى قيمة وثمنا .. وأننى أستطيع به أن
أعيش ! ..

فريدة تَطَّع أوتارها

● اليوم الاول :

أصل فارسي عريق .. كان أبى الحارث بن بسخنر رفيع القدر عند الخليفة هارون الرشيد ، فولاه الأهواز كلها ، وهى عظمى الغلة والخراج ، فكان أبى ينال على عمله فيها أموالا جلية ، ويضى للدولة بالخراج ، فضلا عن هدايا للامراء من الجوهر والذهب والرقيق والخيل والبراذين وأشياء ثمينة كثيرة سماني أبى محمدا ، محبة فى محمد المهدي والد هارون الرشيد ، فلما كبرت صار من لا يعرفني يظنني عربي النسب حين يسمع الناس يسموني « محمد بن الحارث » فاذا ذكروا اسم جدى « بسخنر » عرف حقيقة نسبى ، وانى لذو نسب فى العجم عظيم .. كان أجدادى من المرازية ذوى الابهة والسلطان قديما ! ..

لم ارث عمالا كثيرا عن أبى الذى أنفق ما كسب طول حياته فى قضساء حاجات الناس والاحسان اليهم بالجوائز والصلوات ، كانه عربى بل هاشمى .. كان يتصدقه الشعراء وذوو الحاجات فيعطيههم أكثر مما يعطيهم بنو هاشم حتى ليأمر بأربعين ألف دينار لرجل يلقاه فى الطريق ، أو بمائة ألف درهم لشاعر أو لذى حاجة يطرق بابه ! ..

هكذا ضاعت ثروته ، وتركنى وأهلى فقراء يحسبنا الجاهل أغنياء من التعفف ! ..

كان أبى صاحب ذوق مرهف فى السماع لا يصطفى لتعليم جواريه الا شيخ الملحن اسحاق الموصلى ، فصرن أبرع الجوارى غناء .. وكان اسحاق يستحسن غناء من ويعتمد عليهن فى تعليم بعض جواريه اللاتي يعدهن للبيع أو لاهدائهن الى الخليفة وكبار رجال دولته ، استدامة لمودتهم وحسن رأيهم وعظائمهم .

وعن جوارى أبى استطعت أن آخذ ما حفظن قديما من ألحان اسحاق الموصلى فحفظتها حتى صار اسحاق يقول من أراد أن يأخذ من الحانى شبيها على أصله ، فليأخذه من محمد بن الحارث ، فانه أسرع خلق الله أخذًا لالحانى ! احترفت الغناء لما نفذ مبرائى المتواضع ، وصرت فى حاجة الى الكسب ، ولكنى وجدتنى ضعيفا فى التلحين المتقن على العود ، فصرت أغنى ارتجالا ، وبرعت فى الارتجال وأعجبت الناس ودخلت مجالس للخلفاء ! ..

لم انتفع في غنائي المرتجل بآلة موسيقية ، الا معزفة صغيرة اضرب عليها حين أغنى ، فكان بعض المفتين يضحكهم شكل هذه المعزفة حتى سمحوا « مصيدة الفار » .. فحلقت الا أغنى بها أبدا !

● اليوم الثاني :

في سهرة أمير المؤمنين الوراق ، والمفتون حاضرون وفيهم اسحاق الموصلي ، قال لي الوراق :

— يا محمد بلغنا ان اسحاق يزعم انك أقدر من يأخذ عنه الالحان بلا خطأ البتة ، ففن شيئا مما أخذت عنه !

فالتفت الى اسحاق كاني أسأله ماذا أغنى ؟ فلم يرني لضحك بصره ، فغنيت لحنه الذي صنعه في بيتين من شعره

إذا المرء قاسى الدهر وابيض رأسه

وثلم تثليسم الأناء جوانبسه

فليس له في العيش خير وان بكى

على العيش او رضى الذى هو كاذبه

فرايت اسحاق يشرب رطل النبيذ ويمسك طربا ، وما أطيب هيئته في شيخوخته وقد أخذ الطرب ، لولا انه صار يعانى من ضعف بصره ، كان الله في عونته وهو يحمل عبء الثمانين !

أما الوراق فانه قال لي

— أحسنت يا محمد ما شئت ! .. فبحياتي أعد اللحن

ثم أمر فجاءت جواريه ، وعلى رأسهن « فريدة » البارعة الجميلة ، فجلسن وراء ستارة ، ليأخذن اللحن عنى ..

فلما كثر ترديدى اللحن — وهو صعب — اجتمع كل من حضر أن يأخذه عنى ، حتى أخذوه جميعا ، وعلى رأسهم الخليفة الوراق ! .. وقال عمرو بن بانة الذى يغنى ارتجالا مثلى وهو الذى أهدى للوراق جاريته « فريدة » التى صارت أحظى جواريه :

— يا أمير المؤمنين .. علمت منذ سنوات ان هبة الله بن ابراهيم بن المهدى يغنى هذا اللحن أجمل غناء ، فسمعته منه فكان كذلك ، فلما سمعته الآن من محمد بن الحارث علمت انه أحذق الناس جميعا بالحن اسحاق الموصلي مع انه مغن مرتجل لا يعرف ضرب العود .. وانما كان يغنى الى عهد قريب على مصيدة الفار ! ..

فضحك الوراق ، وتبسم اسحاق ، وتغامز المفتون ، وسمعنا من وراء ستارة الجوارى همسا وضحكا خافتا !

خجلت فلم أرد على ابن بانة ، وخفت من سلاطة لسانه وقربه من الخليفة

بعد أن أهدى إليه جاريته « فريدة » أحب جواريه إليه ..

ثم قال الخليفة لاسحاق الموصلي كأنه يتوسل إليه :

.. وأنت أبا محمد .. الا تغفينا الليلة شيئا !؟ ..

فأخذ اسحاق العود فجسه فكأنما لمب عفريت من الجن بأوتار العود ،
ثم غنى ، وقد ضعف صوته لشيخوخته لكن بقيت فيه صناعته الفائقة :

ذكرتك اذ هرت بنا ام شادن

امام المطايا تشرئب وتسنج

من المؤلفات الرمل آدماء حرة

شعاع الضحى فى متنها يوضح

فطرب الوراق وصاح :

.. احلفتك بحياتى ان تميده وتطرحه على الجوارى حتى ياخذنه ! ..

فقال اسحاق :

.. لا يستطيع الجوارى ان ياخذنه منى ، ولكن ياخذنه من محمد بن الحارث
فانه يحفظه ! ..

ثم انصرف اسحاق الى منزله بجائزة كبيرة .. وقمت أنا الى بهو فى القصر
أطارح الجوارى هذا اللحن ، وبقي الخليفة والمغنون فى مجلسه يناهعون الغناء
والمفادمة ! ..

فلما عدت ، وجلت جارية تغنى :

أصبح الشيب فى المفارق شاعا

واكتسى الرأس من مشيب قناعا

وتولى الشباب الا قليلا

عم يابى القليل الا وداعا

فلما أتمته الجارية ، تجادل فيه المغنون فى حضرة الوراق .. قال مخارق :
أظن هذا اللحن لمحمد بن الحارث .. فقال علويه : هيهات ! .. ليس هذا
مما يدخل فى صنعة ابن الحارث .. لكنه يشبه صنعة ذلك الشيطان اسحاق
الموصلي ! .. فقال الوراق : أظنه كذلك ! .. ثم أوما ناحيتى كأنه يسألنى :
لن هذا اللحن !؟ ..

قلت : صدق علويه يا أمير المؤمنين .. هذا لاسحاق ومنه أخذته ، وعن
أخذته هذه الجارية اذ أمرنى أمير المؤمنين منذ مدة أن أطارحها به ..

فتذكر الوراق وقال :

.. نعم .. كذلك كان ! ..

● اليوم الثالث :

صارت نوبتى قى خدمة أمير المؤمنين فى كل جمعة ، اذا جاء للوعده ركبت الى قصره ، فأجده أحيانا مع اسحاق الموصلى وأحيانا مع جاريته فريدة .. ولكل من نوبة لا يحضر الى القصر الا فيها ، أما السهرات الجامعة فتكون بأمر من الخليفة ، وليس لاسحاق نوبة ولا يحضر الى الخليفة الا بعد تتابع الرسل اليه والحافهم فى استدعائه ! ..

كانت نوبتى أمس ، ولم يكن عند الوثائق الا فريدة ، فسألنى الوثائق :
- من أحسن من سمعت من المغنيات منذ عهد المأمون الى اليوم ١٩ ..
قلت :

- فريدة وشارية أطيب المغنيات صوتا واتقاناً للاداء .. ومتميم أحسنهن تلحيناً ، وعريب أغزهن .. وعلى الجملة فانى لم أسمع أحسن من فريدة وشارية ومتميم وعريب وريق .. وقال لى اسحاق الموصلى ان (بذل) كانت فى طبقتهم ولم اسمعها ! ..

قال الوثائق :

- صدقت .. كذا سمعت منه ! ..

ثم انصرفنا الى دارى ، فلم أكد أجلس حتى هجم على مجلسى رسل الخليفة وقالوا لى : أحب أمير المؤمنين ! .. قلت خائفا : خيرا ١٩ .. قالوا : خيرا ان شاء الله .. قلت : لعلكم غلطتم ! .. قالوا : الله المستعان .. لا تطل ! فقد أمرنا الا ندعك تستقر على الارض ! ..

فداخلى فزع شديد ، وخفت أن تكون وشاية قد غيرت رأى الخليفة فى امرى ، فأوصيت ثم ركبت حتى وافيت القصر ، وهممت أن أهمل من الباب الذى رسم الخليفة أن يكون دخول المغنين منه ، فمنعنى الحراس ، وأخذنى الخدم فأدخلونى فى معمرات لا أعرفها فزدت جزعا ، ولم يزل الخدم مسلمونى من حارس الى حارس حتى أفضيت الى صحن مفروش بأبهى الرياش ، حيطانه ملبسة بالوشى المنسوج بالذهب ، واذا الرائق على سرير مرصع بالجواهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب .. والى جانبه فريدة جاريته الاثيرة الحظية لديه جدا ، عليها مثل ثيابه ، وفى حجرها عود ، فلما رآنى قال : أسرع يا محمد الينا ! ..

فقبلت الارض وقلت : يا أمير المؤمنين .. خيرا ..

قال : خيرا .. أما ترانا ١٩ .. طلبت والله ثالثا يؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك ! .. فبجياتى بادر فكل شيئا وبادر الينا .. فقلت وقد اطمأن قلبى : قد والله يا سيدى أكلت وشربت أيضا ! ..

فأمر لى برطل نبيل ، واندفعت فريدة تغنى :

اهابك اجالا وما بك قسرة

على ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس يا ليل انها

قلتك ولا ان قل منك نصيبها

فجاءت والله في غنائها بالسحر ، وأوشكت أن اقتضض من شدة طربى في مجلس الخليفة ، وجعل الوراق يجاذبها ، وفي خلال ذلك تغنى اللحن بعد اللحن .. ثم يأمرني فأغني أنا في خلال غنائها وغناؤه .. فمرت بنا أطيب ساعة تمر بأنسان في الدنيا ! ..

وفجأة رفع الوراق رجله فضرب بها صدر فريد ضربة عنيفة تدهرجت منها من أعلى السرير الى الارض وتكسر عودها ، وقفزت تعدو وتصيح ! .. وألا مشدوه مرعوب كالمنزوع الروح ! .. ولم أشك انه غضب لشدة طربى لها وما اجتمعنا عليه نحن الثلاثة من التبدل ورفع الكلفة .. وأطرقت أنوقع أن يأمر بضرب عنقي ، وأعددت نفسى للموت ! .. على اننى فى الحقيقة برى لا ذنب لى ! ..

فانى لكذلك ، اذ قال لى : يا محمد ! .. ويحك ! .. أرايت أغرب مما تهيا علينا ؟ ! ..

قلت :

— يا سيدى .. الساعة والله تخرج روحى ! .. فعلى من أصمابنا بعين الحسد لعنة الله ! .. فما كان السبب فيما حدث يا سيدى ؟ ! ..

قال وقد كسا وجهه اليأس والالم ! ..

— لا والله ! .. ولكن فكرت فى أن أخى جعفر « المتوكل » يلى الخلافة بعدى ويقعد هذا المقعد مع فريدة كما كانت معى ، فلم أطق صبرا وخامرنى ما أخرجنى الى الغضب ! ..

فسرى عنى ، وهان الامر عندى وقلت للخليفة :

— بل يقتل الله جعفر ولا يجلس هذا المجلس ، ويحيى أمير المؤمنين أبدا

ثم قبلت الارض وقلت :

— يا سيدى الله .. الله ! .. ارحمها ومر بردها ! ..

فجاءت وفي يدها عود جديد وعليها غير الثياب التى كانت عليها ، فجذبها وعانقها .. فبكى فريدة وبكى الوراق بكاء مرا الينا .. واندفعت أنا فبكيت لبيكاهما ! ..

ثم قالت فريدة :

— ما ذنبى ياسيدى ، وبأى شىء استوجبت عندك هذه العقوبة ؟ ! ..

فاعاد عليها الوراق ما قاله لى وهو يبكى وهى تبكى .. فقالت :

— سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقى الساعة وأرحتنى من الفكر فى هذا ، وأرجحت قلبك من الهم بى ! ..

● اليوم الرابع :

مات الوراق .. قال الاطباء وهم يعالجونه من مرض الموت انه شاب قوى وسيعيش خمسين أخرى ، فمات بعد خمسة أيام ..

تولى الخلافة المتوكل .. ومضت مدة ..

دخلت نفس الصحن الذهبي الذى رأيت فيه الوراق يضرب فريدة برجله حين تملكه الوسواس الذى كان ينغث في روعه انه يموت صغيرا ويورث الدولة من بعده أخوه جعفر المتوكل ، وقد صدق وسواس الوراق ، وصارت فريدة فى جملة جوارى المتوكل ! ..

رأيتها مع المتوكل فى الموضع الذى كانت فيه مع الوراق ، ولكنها لم تكن مع الخليفة الجديد كما كانت مع الخليفة الراحل ! ..

كانت ترفض أن تغنى للمتوكل .. فقال لى :

.. أما ترى ما أنا فيه من النكد من هذه الجارية ؟ .. اننى منذ الصباح أطلبها بأن تغنى فتأبى ! ..

فتلطف اليها وطلبت منها أن تغنى له .. وقلت لها :

.. سبحان الله .. أتخالفين ميدك وميدنا وسيد البشر ؟ ..

فضربت بالعود الأرض فتقطعت أوتاره ، ورمت بنفسها عن السرير الذهبي ، ومرت تعدو وتصيح حزنا على الوراق :

.. واسيده ! .. واسيده ! ..

ثم ماتت فريدة من التعذيب ضربا بالسياط على وجهها وهى تأبى أن تغنى للسيد الجديد ! ..

ملك الطنبور

● اليوم الاول :

خدمت حتى يومنا هذا أربعة خلفاء ، أولهم أمير المؤمنين المأمون وآخرهم المتوكل على الله .. حياتي كلها في قصور بني العباس ومن يلوذ بهم من الكبراء وأرباب السيوف والأقلام ، وأول نشأتى فى صناعة الغناء عند الأمير إبراهيم بن المهدي الذى شهد كل من استمع الى غنائه بأنه صاحب أجمل صوت فى الدنيا .. قال عنه بعض كبار المغنين انه أجمل الانس والجن والوحش والطير صوتا ! ..

ومنه تعلمت المثابرة فى طلب فن الغناء ، ولكنى لم أجد عنده رزقا يكفينى فانه أقرب الى البخل ، فانقطعت الى الأمير أحمد بن الرشيد ، فأعجبه غنائى وعزفى على الطنبور ، غير انه كان يقول لى

— يا أبا حشيشة .. انك لن تتقدم فى صناعة الغناء الا اذا تعلمت ضرب العود وغنيت عليه ، وأراك تغنى بالطنبور وحده ولك فيه صنعة تفوقت فيها على كل طنبورى فى بغداد أو فى غيرها من البلاد ، ولكن الغناء الثقيل المتمعن انما يكون على العود لا على الطنبور ! ..

ولكنى اخلصت للطنبور ، ولم أجد العود موافقا لمذمبى الخاص فى الغناء وصارت لى فى الغناء على الطنبور براعة لا يتعلق بها أحد ممن يتغنسون على العود ، حتى ان المطرب الكبير مخارقا لما سمعنى قال لى

— والله ما فى الدنيا من يتغننى على الطنبور مثل غنائك .. وانى لاستهين بالطنبورىين وأراهم لا يحسنون الغناء المتقن ، الا أنت فقد صنعت على الطنبور ما لا نستطيع نحن أن نصنعه على العود ! ..

شكرت لمخارق هذا الشراء الذى لم أكن أتوقعه منه ، وكنا حينئذ بدمشق وفيها معسكر للخليفة المأمون فى بعض غزواته للروم ، فأخذنى مخارق اليه ، وقدمنى ووصفنى وقرظنى فأمرنى الخليفة بالغناء على طنبورى ، فغنيت أحسن غناء أقدر عليه ، وظهرت منه بجائزة عظيمة ..

سألنى المأمون عن اسمى ، فقلت :

— اسمى محمد بن أمية بن أبى أمية ، ولقبى أبو حشيشة ، والفساس لا يعرفوننى الا به ! ..

ضحك المأمون وقال :

— أظنك من أولاد بعض الكتاب ممن خدموا جدنا أمير المؤمنين المهدي رحمه الله ! ..

قلت

— نعم يا أمير المؤمنين .. كان جدي على كتابة السر وبيت المال والخاتم على عهد أمير المؤمنين المهدي رضي الله عنه ، وحج معه أربع حجج ! ..

● اليوم الثاني :

تذكرت اليوم وأنا في قصر المأمون ببغداد ، بداية شهرتي بالفساد معد سنين ، فإن بعض سراة بغداد سمعني ، فصرت منذئذ مغنيهم الوحيد ، لا يسمعون غناء من غيري ويسمونني « الظاريف » .. وأغدقوا على المال حتى اجتمع لي منه ما اشتريت به منزلاً ، وكنت من قبل أسكن بالكراء .. وسمعت عندهم من كثرة الأكل ، فقد كانوا أكثر الناس أكلاً ..

رأيت رجلاً منهم قد أكل هو وابن عم له اثنين وعشرين رأساً كباراً من رهوس الغنم لم يتركوا من لحمها شيئاً ، وشريا من النبيذ حتى غابا عن الوعي ، وناما ساعة أو ساعتين ، فلما انتبهوا دعوا بطعام آخر ، وعادا يأكلان ، كأنهما لم يأكلا منذ ساعتين فقط اثنين وعشرين رأساً ! ..

ولكني الآن خفيف رشيق ، فما يصلح لمجالسة الخلفاء ومنادتهم والغناء لهم ، رجل ممتلئ شحماً ولحماً ! ..

جاءني مخارق قال

— يا أبا حشيشة .. ان المأمون أمرني أن أصبحك في سهرتنا عنده الليلة ، ولعله يأمرك أن تغنيه لحنك في شعر دعبل :

كان ينهى فنهى حين انتهى
وانجلت عنه غيابات الصبا
خلع اللهو واضحى مسجلاً
للنهي فضل قميص ودحا
كيف يرجو البيض من أوله
في عيون البيض شيب وجلا
كان محلاً لآلهيسا فقد
صار بالشيب لعينها قلبي

فاذا أمرك الخليفة ان تغنيه هذا اللحن ، فاقصر على البيتين الأولين ، لانه يكره أن يذكره أحد بالشيب ! ..

قلت

— عجبت لامير المؤمنين كيف وخطه الشيب وهو في سنن الاربعين او دونها ١٩ ! ..

ضحك مخارق :

- هذا من هبوم الملك ! .. ولو كنت يا أبا حنيفة أمير المؤمنين لاسرع الشيب الى رأسك ! ..

فلما جلسنا في حضرة المأمون ، وجاء دورى فى الغناء ، كنت قد نسيت نصيحة مخارق لى ، فغنيت الابيات الاربعة ومررت فيها كلها وأنا ذاهل فسمعت المأمون يقول وفى صوته أثر من غضب :

- يا مخارق .. الا تحسن تأديب هذا الفتى ؟

فتنبهت مذعورا ، وقلت وقد انتفضت قائما متوسلا :

- لا أعود الى مثل هذا يا أمير المؤمنين ! ..

ضحك المأمون وأشاح بوجهه عنى ، ثم أمر لى بجائزة أقل مما كنت أرجو ! ..

❁ اليوم الثالث :

دعانى ابراهيم بن المهدي .. قال لى :

- أحب أن تسمع ثلاث جوار عندي يغنين بعض الحانك على الطنبور ، فان كان فيما يغنيته خطأ فاصلحه لهن ..

جاء الخدم بالطعام والتبذ ، وجالسنى ابراهيم بن المهدي وشرب.وسقائى وبسطنى كل البسط .. ثم غنت الجارية الاولى لحنا لى فى شعر خاله الكاتب :

كيف احتيالى وانت لا تصل

عيل اصطبارى وقلت الحيل

ان كان جسمى هوأك ينجله

فان قلبى عليك يتكسل

فسألتى ابن المهدي وقد طرب وطربت مثله :

- أهذا اللحن لك ؟ ..

- نعم .. أصلح الله الامير ! ..

ثم جاءت الجارية الثانية فغنت لحنا آخر لى فى شعر خالد الكاتب :

وب هالى وللهوى

ما لهذا الهوى دوا

حاز طرفى الذى هوى

الحسن قلبى وما حوى

فكاد عطفى يذهب طربا لما سمعت من غناء الجارية ، كأننى أسمع اللحن

لاول مرة ولا أعرفه وهو لى وقد غنيتيه فى مجالس الخلفاء والكبراء ٠٠
ثم الجارية الثالثة ، فلم يكن طربى لها أقل من طربى لاختيها ، وحميت
نفسى وتشجعت وقلت فى نفسى : والله لاغنين لإبراهيم بن المهدي بعض
الحنانى ٠٠ وغنيتيه :

لئن لى قلبك فى ذكره
ولج حبيبك فى هجره
لقد أورث العين طول البكا
وعز الفؤاد على صبره

فطرب ابن المهدي واستعادنى اللحن ، ثم قال لى :
- يا خليلي ٠٠ غناء الطنبور كله باطل ، الا هذا الغناء الذى نسمعه منك
٠٠ فلا تترك هذا اللون من الغناء ، فلئن كان الطنبوريون جميعا على باطل ،
انك لعلى حق لجودة طبعك فى الغناء ، وتفننك فى الطنبور .

● اليوم الرابع :

لم يكرمنى أحد من الخلفاء كما أكرمنى أمير المؤمنين المتوكل ٠٠ لقد
غنيت للمامون والمعتمد والواثق وأخذت جوائزهم ، ولكن أحدا منهم لم
ينبسط وجهه لى كما انبسط لى وجه المتوكل ٠٠ قال لى :

- يا أبا حشيشة تغن لنا فى شعرك :
اطعت الهوى وخلعت العذارا
وباكرت بعد التراح العقارا
ونازعت الكاس من هاشم
كريم يحب عليها الوقارا
فتى فرق الحمد أمواله
يجر التميمى ويرخى الأزارا
راى الله جعفر خير الأنام
فملكه ووقاه الحنارا

فطرب المتوكل وشرب أقداحا ، واستعادنى اللحن مرارا ، ثم قال لى :
- يا أبا حشيشة ٠٠ ما أدري أشعرك خير من غنائك أم غنائك خير من
شعرك ، فقد أحسنت فيهما جميعا ٠٠ ولو كنت أبا عبادة البحرى لما جئت
باحسن من هذا الشعر فى مدينتنا ، ولو كنت مخارقا أو علويه لما أطربتنا
كما أطربتنا وأنت أبو حشيشة ! ٠٠

ثم جاءت « محبوبه » جارية المتوكل الشاعر المغنية ، فدفع اليها تفاحة
فقبلتها قبلتين أو ثلاثا ثم كتبت على رقعة :

يا طيب تفاحة ظفوت بها
تشعل نار الهوى على كبلى
لو ان تفاحة بكت كبكت
من رحمتى هدم التى بيلى

فاستظرفها المتوكل واستملحها جدا ، وأمرها فغنت فى هذا الشعر ، ثم
أمرنى فغنيت فيه ..

ومحبوبة جديرة باسمها ، فانها بارعة الحسن والظرف والادب ، تحسن
قول الشعر والفناء ، وقد حظيت عند المتوكل حتى انه يجلسها الى جانبه
فى السهرة اذا لم يكن عنده الا خواصه من المغنين والندماء ..

وهى تخصصنى بعطفها ، وتقول للمتوكل :

ـ ما فى الدنيا طنبورى يغنى كغناء أبى حشيشة ! ..

ولما قدم أحمد بن صدقة المغنى الطنبورى من الشام الى سامرا ، غنى فى
مجلس المتوكل ، ولم أكن حاضرا ، فاستحسن غناؤه وأجزل صلته ، وحاول
بعض حسادى أن يوهم المتوكل ان ابن صدقة هذا أبرع منى فى الغناء على
الطنبور ، وكانت محبوبة حاضرة فقالت تدافع عنى بظهر الخيب :

ـ يا أمير المؤمنين .. لا تسمع فى أبى حشيشة قولا من هذا الحاسد ،
فانى ابن صدقة وان كان محسنا فى صناعته ، لا يبلغ أن يكون غلاما من
غلمان أبى حشيشة فى الغناء بالطنبور ..

● اليوم الخامس :

توفيت « شجاع » والددة المتوكل ، ويسمونها « السيدة » فلبث أياما
لا يسهر ولا يشرب ! ..

فلما مضى شهر جلس للمنادمة ، وقال فيها هذا البيت :

تذكرت لما فرق الدهر بيننا

فغزيت نفسى بالنبى محمد

فأجازته بعض من حضر من الشعراء :

فقلت لها ان المنايا سسبيلنا

فمن لم يميت فى يومه مات فى غد

فتطيرت من هذا البيت الثانى ، وقلت فى نفسى : ما بال هذا النماير
الجاهل يذكر الموت ، كأنه يقول للخليفة : ماتت أمك أمس ، وأنت ميت
اليوم أو غدا ..

تملكنى الشجن ، فلما أمرنى الخليفة بالفناء ، انحنيت على طنبورى
أضرب وأغنى :

وليست عشيما الحمى بروجع
اليك ولكن خل عيشك تدمعا
واذكر أيام الحمى ثم أنشئ
على كبدي من خشية أن تصدعا

فرايت المتوكل ينتفض طربا ، حتى اهتز قدح النبيذ في يده ، وشرب على
غنائى مرات ، واستعادنى ، وخامره من الوجد ما لا يمكن وصفه ، ودمعت
عيناه حتى تحدر الدمع على خديه ! ٠٠ ثم قال لى :

— ان اطرب الغناء وأشده تأثيرا ، ما يرجع القلب بكلامه والحنان ، وهذا
الذى أسعنتيه جمع هاتين الصفتين ، فكان منى ما رأيت ! ٠٠

فقيمت على رجل قائلا :

— يا امير المؤمنين ٠٠ أسعدك الله ، وأطال بقاءك ، ومتعك بحياتك ، وأصلح
بك للعنينا ، وأعز الدين ! ٠٠

ثم ارتج على فسكت وجلست ! ٠٠

فتبسم المتوكل ، واستدنانى اليه فدوت حتى قبلت طرف ردايه ،
وبكيت ! ٠٠

لا ادرى لماذا بكيت ، ولكن السهرة من أولها الى آخرها كان يخيم عايبها
الحزن ، فهذا أول مجلس للخليفة بعد وفاة والدته ، وكانت والله امرأة
صالحة كثيرة الصدقات ، عظيمة المعروف ٠٠

● اليوم السادس :

اكتب هذا بعد شهور انقضت على مفكرتى السابقة ٠٠

غنيت فى مجلس امير المؤمنين المتوكل ، فبينما أنا منصرف رأيت جندها من
الترك يدخلون القصر بأسلحتهم ، ففزعت منهم فرأيت القائدين التركيين
وصيفا وموسى بن بنا ومعهما « باغر » التركى الجلف ، يدخلون على الخليفة
وقد أخذ منه الشراب ، وعنده وزيره الفتى بن خاقان شبه نائم ، فهجم باغر
على الخليفة فضربه بالسيف ، ثم أخذته السيوف من كل جانب حتى خصله
وتمزق لحمه وصبغ دمه البساط ، فصعنا وزيره وصاح فيهم :

— ويلكم ٠٠ امير المؤمنين ! ٠٠

ثم نظر فاذا امير المؤمنين ممزق الاشلاء ، فهجم عليهم بيديه فأغمدوا فيه
سيوفهم ، ورأيت الشاعر أبا هبادة البحترى يجرى هاربا فجريت معه وجرى
الندماء وهربت الجوارى ٠٠

وفى الصباح علمت أن القتلة لفوا الخليفة ووزيره فى البساط ودفترهما
معا بدمائهما من غير تفسير ! ٠٠

صادفت الشاعر البحترى فى بعض الطريق بسامرا فقال لى ان سبب

ما جرى ، ان المتوكل كان قد أراد خلع ولده محمدا المنتصر من ولاية العهد
وتقديم ابنه المعتز عليه ، لان المعتز أمه أحظى بجوارى المتوكل وأجملهن على
الاطلاق ، فصار المتوكل يوبخ ابنه المنتصر في الملأ ، ويسلط عليه القلمان
يشتمونه ويؤذون به ، فحنن المنتصر على أبيه واتفق مع القادة الاتراك على
قتله ليتولى مكانه .. وقد كان ! ..

اقتسم القواد جوارى المتوكل ، وهن ثلاثة الاف جارية ، فكانت « محبوبة »
الشاعرة المشفية في قسمة القائد « وصيف » مع مئات من الجوارى الاخريات !
استدعاني وصيف لاغنى ، فلما جئته رأيت عنده جوارى المتوكل متزينات
متعطرات ، عليهن الثياب الملونة ، الا « محبوبة » فانها كانت في ثياب
الحداد حزنا على المتوكل ! ..

فاشدد ذلك منها على « وصيف » وأراد أن يقتلها ، وكان صديقه « بغا »
حاضرا فاستوهبها منه ، فوهبها له ، فأمر بإخراجها من سامرا الى بغداد ..
وبعد مدة رأيتها عند بعض معارفها من بنى هاشم ، وقد جلست تغنى
بأكية :

أى عيش يطيب لى
لا أرى فيه جعفرى
ملكاً قد راته عيني
فتيلاً مغفراً
كل من كان ذا هيام
وحزون فقد برا
غير محبوبة التى
لا ترى الموت يشتري

ولم أزل منذ ذلك اليوم ، أزورها فأجدها تغنى هذه الابيات وتبكي ! ..
فلا هى تبرا من الهيام والحزن ، ولا هى قادرة أن تشتري الموت ، كما تقول
في شعرها وغنائها ! ..

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
حكاية أول مطرب فى المدينة	٧
أستاذ المطربين	١٢
وجه الباب	١٧
ابن الرومية	٢٣
بطة الافراح	٢٩
غلام من اليمن	٣٥
الزرقاء تلتقط اللؤلؤتين	٤١
مجلس الطرب والفكاهة	٤٦
تلميذة الموصلى وجارية الرشيد	٥٢
السجن طريق الشهرة	٥٨
لعبة الجارية	٦٢
إقطاعية ذى الرمة	٦٧
غضب الرشيد وكرمه	٧٢
تاجر الجوارى	٧٧
الليالى الأربع	٨٣
بائع الأهزاج	٨٨
معاينة ابن المهدي	٩٣
دماء الزنادقة	٩٧
أيام الرشيد الأخيرة	١٠٣

١٠٨	غناء على الذكريات
١١٣	مليون درهم عباسى
١١٨	منادمة المأمون
١٢٣	الطفيلى الظريف
١٢٩	مكائد المغنين
١٣٤	راحة الأرواح
١٤٠	الحياة ١٢٠ سنة
١٤٥	تأويل الرؤيا
١٥٠	الأمير فى ثياب المغنين
١٥٥	مطربة القصور
١٦٠	قصة حب
١٦٦	مطرب قليل البخت
١٧٢	الأيام الجميلة
١٧٧	دموع متيم
١٨٣	مطرب عظيم .. ولكن
١٨٨	سوق الغناء الطنبورى
١٩٣	فريدة تقطع أوتارها
١٩٩	ملك الطنبور



رقم الابداع بدار الكتب ٤٧١٢ - ٨٦ -
الترقيم الدولي ٥ - ٢٥٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

قناص

كما لا ننسى



الجزء الثاني

يَوْمِيَا الْمَغْتَبِرِينَ وَالْجَوَارِي

حكايات من غساني الأصفهاني



مركز توثيق

دار الهلال

القاضي

يوسفيا المغنين والحروري

حكايات من الأغاني لله صفراني

الجزء الثاني

بقلم
كمال النجوى

دار الهلال

الغلاف

الغلاف بريشة : الفنان محمد أبو طالب
الرسوم الداخلية بريشة : الفنان صلاح بيصار

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من «يوميات المغنين والجوارى» .. يصدر بعد فترة قصيرة من صدور الجزء الأول الذى استقبله القراء استقبالا حميما ، فأفاضوا عليه التشجيع والاحتفاء ، كما أضفى عليه كبار الكتاب وفضلاء النقاد عطايا سابغا ، وحيوه بكلمات بليغة مضيئة ، شجعتنا على المسارعة بإصدار هذا الجزء الثانى وهو امتداد للجزء الأول ، واستكمال لقصص المغنين والمغنيات فى العصرين الأموى والعباسى الأول كما ذكرها أبو الفرج الأصبهاني فى «كتاب الأغاني» الذى طالعه القراء العرب القدماء فى الأرض الممتدة بين الأندلس والهند أو الصين ، ولبثوا يطالعونه على اختلاف الأحوال وتقلبات الزمان أكثر من ألف عام ..

وقد نسجنا هذا الجزء الثانى على المنوال الذى نسجنا عليه الجزء الأول ، ومنهجنا فيهما تسيج وحده فيما نظن ، لأننا لم نقصد به «تلطيف» حجم كتاب الأغاني الضخم ، ولاتجريده من الاسناد والاستطراد ، ولا اختصاره وانتقاء شذرات مما فيه ، ولاتحويل قصصه العبة إلى مادة درامية للشاشة الكبيرة أو الصغيرة أو ميكروفون الاذاعة ، وإنما ذهبنا فى النظر إلى كتاب الأغاني الجليل الشأن مذهبا آخر يعدل بنا عن ابتذاله فى الاختصار والتجريد ، أو تمزيقه تمزيقا مرثيا أو مسموعا فى الصور المرئية أو الكلمات الأثرية .. وقدمناه فى شكل يوميات تكتبها الشخصيات التى عاشت على صفحاته الممتعة أجيالا بعد أجيال ..

وفى الجزء الأول من «يوميات المغنين والجوارى» كما فى هذا الجزء الثانى ، لاتعاقب القصص والحكايات والأحداث كما يتعاقب الليل والنهار ، يوما فى إثر يوم ، وساعة موصولة بساعة ..

فإذا كتب المغنى مذكرات «اليوم الأول» ثم مذكرات «اليوم الثانى» فليس معنى ذلك أن هذين اليومين متعاقبان يأخذ أحدهما بتلابيب الآخر ، ولكن المقصود بالأيام هنا قد يكون سنة أو سنين أو شهورا أو أسابيع أو أياما .. وربما ساعات

والمهم فى جميع الأحوال أن تترابط الأحداث متجهة إلى هدفها مهما اتسعت الفوارق الزمانية والمكانية بينها ، أو تقاربت ، أو اتصلت بلا فارق فى الزمان والمكان

وقد تمتد يوميات مطرب أو مطربة فوق عشرات السنين ، وقد تنكمش فوق لحظات فى اليقظة أو المنام .

وفى هذا الجزء الثانى نواصل الأسلوب الذى كتبنا به الجزء الأول ، فنحاول الاقتراب قدر المستطاع من أسلوب مؤلف كتاب الأغانى احتفاظا بشيء من رائحة الماضى العطرة .

ولغة مؤلف كتاب الأغانى هى لغة بلغاء القرن الرابع الهجرى الذى كان العصر الذهبى للآدب والفن والفكر ، ومازال أثره باقيا فنيا حتى اليوم لأنه العصر الذى تكونت فيه نفسية الأمة العربية وعقليتها ومزاجها على مثال غير مسبوق ، ومازال هذا التكوين العقلى والنفسى والمزاجى يعمل فىنا عمله ، ولايصح أن نتجاهله ، ولايمكن الغاؤه بمرسوم ، ولايقدر على تعديله وتحويله وتطويره إلا مرور السنين الطوال ..

ونرجو بهذا الجزء الثانى من كتابنا أن نسهم فى توثيق الصداقة التى حاولنا أن نعقدها بجزئه الأول بين القارئ العربى العصرى وبين كتاب الأغانى العظيم الذى قرأته الأمة العربية جيلا بعد جيل .

كمال النجمى

يوميات جميلة

المغنية الأولى



أنا « جميلة » هذا اسمى ، وهو ايضا صفتى !..
فأنا - بإجماع الناس - احدى الجميلات فى المدينة ، وجهها وقواما ، ومن
أظرفهن وأبرعهن أدبا وكلاما ، أما صوتى فأنا فيه الجميلة المتفردة بالجمال كله
والحمد لله على نعمائه .

ولا أحدثكم كثيرا عن صوتى فاسألوا الناس عنه ، وانظروا اليهم حين
يسمعون غنائى كيف ينغرون من الطرب ، أو يُغشَى عليهم من الوجد !..
نشأت مولاة فقيرة عند بعض ابناء الانصار فى المدينة ، وبدأت حياتى خادمة
عندهم ، حتى هيا الله لى ان اسمع غناء مطرب المدينة العظيم « سائب خاثر » ..
فأخذت عنه الفن وتعلمت الضرب بالعود ، وحفظت ادوارا غنائية لا تحصى حتى
برعت فى الضرب والغناء ، وسمعتنى الناس فقالوا : ان جميلة هى صاحبة الصوت
الاجمل فيما سمعنا من اصوات المغنيات والمغنين جميعا

وصرت بما اخذته من غناء سائب خاثر اول مغنية ، تتحرك شفتاها بالغناء
العربى المتقن الصنعة فى بلاد العرب والمسلمين .. وقال الناس ان جميلة اعلم
خلق الله بالغناء ، وقال بعض كبار المغنين : أصل الغناء جميلة ، ونحن فروعه ،
ولولا جميلة وما تعلمناه منها لم نكن نحن مغنين !..

أما أنا فأقول : لولا سائب خاثر لما اهتمت الى الغناء العربى المتقن ، فهو فى
رأىى اول مخترعى هذا الغناء ، ولست الا تلميذته فيه !.. ولم استمع قبله الا الى
« طويس » .. اول من غنى فى المدينة ، لكن غناء طويس كان على الدَف ، فلم يكن
يعرف الضرب بالعود ، ولا الغناء المتقن الذى بنى اصوله وقواعده سائب خاثر فى
المدينة وابن مسجح فى مكة ، وشاركهما غيرهما فى ذلك

وقد سمعت غناء المطرب الفارسى الاصل « نشيط » الذى كان يلح بضرط
العيدان الفارسية ويغنى بالعربية ، الا ان سائب خاثر هو اول من استبحر فى بناء
اصول الغناء العربى المتقن على أوتار العود الفارسى بعد ان انطق أوتاره نطقا
عربيا .. وعن هذا الرجل فى المدينة ، ومن عاصره من مطربى مكة ، اخذ مطربو
إيامنا هذه صناعة الغناء المتقن وزادوا فيها ونافسونى الا اننى تقدمتهم جميعا !..
وبما غنى هؤلاء وغنيت أنا صار الغناء العربى الجديد المتقن صرحا بانخافى مدة
يسيرة ، وتعشقه الناس ، وطلبه الخلفاء والكبراء .

قال لى سائب خاثر يوما وانا اسأله عن اصل صناعته فى الغناء

- جئت الى المدينة طفلا ضمن بعض السبى الفارسى ، فنشأت على لغة العرب وشعرهم وادبهم وذوقهم .. ولما كبرت سمعت بعض العمال الفرس ممن اجتلبوا لبناء القصور والدور فى المدينة ، يغنون غناءهم بلغتهم الاعجمية ، ويضربون بالعيدان الفارسية ، فتعلمت منهم الضرب ، وادخلت فى بعض ألحانهم شعرا عربيا بدلا من رطانتهم ، ونفيت من ألحانهم مالا يوافق ذوق العرب ، ومالا يدخل فى توزيع الكلمات العربية واوزان الشعر العربى ، فجاءت الحانى مبتكرة عجيبة ، مال اليها النبيل الهاشمى المعطاء عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، فغمرنى بالجوائز ، ولكنى لم ااجر مهنتى وهى بيع الطعام ، فأنا طبّاخ ماهر فى الطبخ مهارتى فى الغناء ، وقد وسع الله رزقى فتزوجت أربع زوجات ، وانجبت بنين وبنات ..!

ضحكت وقلت لاستاذى :

- فمالى اراك لا تغنى الا لتطرب عبد الله بن جعفر وحده ؟!

قال :

- بل غنيت للخليفة معاوية بن ابي سفيان وابنه يزيد ، فأما يزيد فقد غمرنى بالعطاء وقال لى معايبا : يا خاثر .. ارأيت كيف اخثرت لك العطاء ؟! يعنى انه زاد لى فيه ..! واما معاوية فحين صحبنى ابن جعفر الى مجلسه وطلب اليه قضاء حوائجى ، حذجنى بنظرة وقال لابن جعفر : وماذا يصنع سائب خاثر هذا مما يستحق ان نكافئه عليه ؟! .. قال له ابن جعفر : انه يروى الشعر ويعمل فى تحسينه ..! قال معاوية : وهل نكافىء كل من يروى الشعر ويعمل فى تحسينه ؟! .. ثم امرنى معاوية « بتحسين » الشعر فى حضرته ، فغنيت لحنا من ابرع الحانى فى شعر جيد ، وكان معاوية لا يسمع الغناء الا نادرا ، فلما غنيت له قال لابن جعفر : ما رأيت مثل هذا الرجل فى تحسين الشعر ..!

ضحكت وقلت لاستاذى :

- اتظن ان معاوية لم يكن يعرف الغناء ، وانه ظن ماسمعه منك هو من قبيل « تحسين » الشعر فقط ؟!

قال

- رأيت معاوية ذات ليلة - وكان يزور المدينة قادما من مكة عائدا الى دمشق - فوقف لحظة عند منزل يتبعث منه غناء ، ثم انصرف عنه وهو يقول : استغفر الله ..! استغفر الله ..!

ورأيت فى الليلة التالية يجلس مع سرة المدينة من ابناء المهاجرين والانصار ، فاندفعت بين السماطين فغنيت قول حسان بن ثابت :

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي .

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

● اليوم الثانى :

كبر سائب خاثر سنا الا انه لم يضعف ، وان كان قد اجتنب الغناء الا لعبد الله ابن جعفر ، وصار المغنون والمغنيات يقصدوننى للتعلم ولا يقصدونه ، وقد اخذ عنى هذا الفن اكبر مطرب فى المدينة الان وهو « معبد » .. وكذلك ابن عائشة وسلامة القس وحبابة وغيرهم ..

والناس يرسلون جواريتهم الى بيتى ليتعلمن منى فيتزاحمن حولى ، فربما انصرف اكثرهن ولم يأخذن شيئا ، وربما اعجز لتزاحمهن حولى ، عن مطارحة الغناء ولو واحدة منهن فقط ..

وقبل ان اتحرر من الرق واستقل بنفسى واعيش فى بيت أملكه ، كسبت لمن كنت ملك يمينهم من موالى مالم يكن يخطر لهم ببال حتى ملأت الاموال خزانهم .. واحمد الله اننى الان بلا منافس فى الغناء من مغنية او مغن ، فى مكة والمدينة والشام والعراق .. وقد جاء الى المدينة منذ ايام عظماء مطربى مكة : ابن سريج والغريز وابن مسجع وابن محرز ، فالتقوا بمطربى المدينة : معبد وابن عائشة وغيرهما فتقنوا بالحانهم واختلفوا ايهم اجدود صناعة واجمل صوتا ، فجاءوا يحتكمون الى فيما اختلفوا فيه

سمعتهم واحدا بعد الآخر ، وقلت لهم كلكم محسن وكلكم مجيد فى معناه ومذهبه من الصناعة .. أما ابن سريج فلو سمعته التكللى لطربت لصوته وداخلها السرور .. وأما معبد فنسيج وحده بجودة تأليفه وعذوبة غنائه .. ولابن محرز سبق واولية فى الغناء المتقن ، لا ينكر احد فضله واستاذيته ، فهو فى هذه الصناعة مخترع للاصول كسائب خاثر وابن مسجع ثم وصفت الاخرين وقرظتهم ، فسرهم ذلك سرورا عظيما

دعوت بالطعام ، وجلسوا عندى الى الليل ، فغنيتهم ، حتى صاح الغريز طربا :

– ياسيدتى وسيدة كل من حضر هنا من فحول صناعتنا ، والله مانحن الا عيال عند قدميك !..

ضحكت وضحكوا ، ودعوت لكل منهم بعود ، واخذت عودى ، فضربت ، وقلت لهم : اضربوا معى بضرب واحد ، ففعلوا ، وغنيت وحدى ، وانا وهم على ضرب واحد بالعيدان ، ثم قلت لهم : غنوا اللحن معى .. ففعلوا وصرنا نضرب ونغنى معا ، ونحن اجمل اصوات خلقها الله ، فلما انقضى مجلسنا قال ابن سريج

– لا اعرف يوما واحدا ولا ليلة واحدة مثل هذا اليوم الذى عشناه ، ومثل هذه الليلة !..

● اليوم الثالث :

جنود الخليفة الجديد يزيد بن معاوية حاصروا المدينة ثم دخلوها واستباحوها وقتلوا ونهبوا وفعلوا الافعال ، فاحتميت ببعض منازل الهاشميين ثم انتقلت الى بعض منازل الامويين ، لان جنود يزيد لم يقتحموها ..

فلما انجلت الغمة اخذ الناس فى احصاء من قتلهم عسكر يزيد بن معاوية ، فاذا من بينهم سائب خاثر!..

ادهشنى انهم قتلوه ، فما هو الا مغن مسالم لا شأن له بالسياسة ، وقد غنى ليزيد وابيه ، وهما يعرفانه ، ولا اظن ان يزيد امر بقتله!..
سأله احد رؤساء الجند عن صناعته ، وهو مقبوض عليه مكبل بالاعلال ، فقال سائب

- انا مغن ولا شأن لى بالعصيان فى المدينة!..

قال رئيس الجند

- فلماذا وجدناك مختبئا فى بستان ترتعد من الخوف؟

- كنت انتظر مناداتكم بالكف عن استباحة المدينة والامتناع عن قتل الناس!

- غن لنا اذن!..

فغنى سائب خاثر وهو ينظر الى السيوف المشرعة ويرى الموت فيها ، فلما فرغ من غنائه ، قالوا له :

- احسنت والله!..

ثم ضربه احدهم بالسيف فقتله ، وضجوا ضاحكين!

هكذا انتهت حياة هذا العبقري الذى كان من بناة الغناء العربى الممتقن!.. ويحز فى القلب ان اخر ساعات حياته كانت غناء تحت السيوف المصلطة على عنقه ، وان القتلة احتزوا حنجرته مع اخر نغمة اسمعهم اياها!..

هل عرف قاتلوه الغلاظ الاجلاف من قتلوه؟!..

● اليوم الرابع

قيل لى اليوم ان يزيد بن معاوية حين وضعوا بين يديه الجريدة الطويلة التى تحوى اسماء من قتلهم جنوده فى المدينة ، مرت عيناه على اسم مطربه القديم سائب خاثر ، فقال متجاهلا

- من سائب خاثر هذا!؟

قالوا

- هو يامولانا سائب خاثر المغنى !..

قال يزيد كانه كان ناسيا ثم تذكر

- ويله !.. ماله ولنا ؟! .. ألم نحسن اليه ونصله ونخلطه بأنفسنا ، فما الذى
حمله على عداوتنا ؟! لا جرم ان يغيه صرعه !..

ثم صمت قليلا متفكرا واجما وقال :

- إنا لله وإنا اليه راجعون !.. هل بلغ القتل الى سائب خاثر وطبقته من الموالى
وحشوة الناس ؟! .. ماظن انه بقى بالمدينة احد الا من عصمه الله من القتل !..

ثم ثار صاخبا وصاح :

- قبحكم الله من عسكر .. ما ارسلتكم لتقتلوا كل من وجدتموه مستترا فى
حائط !..

هكذا سفكوا دم سائب خاثر دون ان يستطيع صديقه العظيم عبد الله بن جعفر
حمايته .. فإن جعفر نفسه كان محتاجا الى من يحميه فى تلك الايام الدامية
ايام وقعة « الحرة » الرهيبة !..

● اليوم الخامس :

عادت الحياة الى المدينة منذ زمن .. ابتعد الناس عن كل شىء الا عن مطالب
حياتهم اليومية ، وازداد تعلقهم بالغناء .. فلم يبق فى الدنيا غيره من شىء
جميل !..

جلست للناس فى منزلى مجلس الغناء فكثروا حولى ، وجاء عبد الله بن جعفر ،
فقامت الناس فتلفيته وقبلت يديه ورجليه وجلس فى صدر المجلس ، ورأيت
كثرة الناس فأشرت اليهم ، فانصرفوا وبقي الشريف ابن جعفر واصحابه .. فقلت
له :

- ياسيدى وسيد أبائى وموالى ، كيف نشطت الى ان تنقل قدميك الى خادمك
فى منزلها ؟!..

قال متبسطا

- ياجميلة .. علمت انك حلفت الا تغنى الناس الا فى منزلك ، فأحببت الاستماع
، وكان طريقى اليك مادا فسيحا

قلت والفرح يغمرنى

- جعلنى الله فداك .. هلا أمرتنى فصرت اليك وكفرت عن يمينى بالصدقة او
بالصوم ؟!..

قال فى تواضع :

- لا أكلفك ذلك ، وبلغنى انك تغنين بيتين لامرئ القيس كان الله انقذ بهما
جماعة من المسلمين من الموت وهما :

ولما رأت ان الشريعة همها
وان البياض من « فرائصها » دامى
تيممت العين التى عند « ضارج »
يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فلما غنيت ، سبح ابن جعفر تسبيحا طويلا ، ثم سأله بعض من كان معه :
- كيف انقذ الله تلك الجماعة من المسلمين بهذين البيتين ؟!

قال

- أقبل من اليمن قوم يريدون لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ،
فضلوا الطريق ، ومكثوا اياما لا يجدون قطرة ماء حتى اوشك العطش ان يقتلهم ،
فأقبل راكب على بعير وسمع احدهم ينشد هذين البيتين فى صوت خافت ، فقال
الراكب لهم والله ماكذب امرؤ القيس فهذا المكان اسمه « ضارج » وهذه عين
الماء تحت عيونكم ، وهى « الشريعة » التى فيها اعذب الماء ، فلا ترتعد فرائصكم
ولا تدمى ان شاء الله !

ففاءت جماعة المسلمين الى الظل عند عين الماء وشربوا حتى ارتووا وحملوا
من الماء ما احتاجوا اليه فى سفرهم حتى بلغوا مدينة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ..

استحسن الناس هذا الخبر من ابن جعفر ، ثم نهض ونهضوا معه ، فما رأيت
مجلسا كان احسن من هذا المجلس !..

يوميات جميلة :

أحزاب الغناء



● اليوم الاول

فى ايامنا هذه ينقسم عشاق الغناء حزبين اما اكبرهما وأكثرهما عددا ، فحزب الغناء المتقن الذى لا يؤديه المطربون الا على ضرب العود ، بعد ان جعلوا من العود الفارسى عودا عربيا

واما الحزب الاصغر ، فحزب الغناء المتقن الذى لم يأخذ بالضرب على العود ، ويرى ذلك تقليدا للفرس والروم

ولكن الناس يسمعون المطربين والمطربات من الحزبين جميعا فاذا غنى ابن سريج على العود التف حوله الناس وطربوا ... واذا غنى طويس ونقر على الدف ومشى وهو يغنى مشية اهل الحجاز فى مثل هذا الموطن ، اشتد طرب الناس ، ولم يأبهوا لغياب العود ، ولم يتكروا النقر على الدف ، فكل غناء متقن تغنيه حنجرة صداحة ، هو عندهم غذاء القلب والروح !

بالأمس سمع الناس فى بيتى ابن سريج وطبقته من المغنين الضاربين بالعيدان

واليوم اجتمع الناس عندى يسمعون طويسا واصحابه من المغنين الناقرين على الدفوف ..

ابتدا طويس قفنى :

قد طال ليلى وعاد لى طربى

من حب خود كريمة الحسب

غراء مثل الهلال آنسة

أو مثل تمثال صورة الذهب

فأثنت عليه ، وصاح الناس طربا ... ثم غنى المطرب « الدلال » ومعه المطربون « فند » و « رحمة » و « هبة الله » جميعا صوتا واحدا فاشتد طرب الناس ، وأثنت انا على « الدلال » واصحابه ، ثم قلت للمطرب المخضرم « هيت » .. وهو ذو فكاكة ودعابة :

– يا ابايزيد .. اتنا نلك لكبرستك ، فلا نكلفك ان تغنى لنا وتتعب ، وقد عرفنا احسانك فى هذه الصناعة قديما ...

قال هيت معابثا :

– اجل ياماما ...

فضحكت وضحك الناس ، ثم قلت للمطرب « برد الفؤاد » وزميله « نومة الضحى » :

- هاتيا معا لحنا واحدا

فاستحسن الناس اقتراحي ، وغنى المطربان لحنا جميلا طرب له الحاضرون ، واشربوا ينتظرون مايكون بعد ذلك ..

ثم ضربت ستارة واجلس وراءها كل من فى البيت من الجوارى المغنيات ، بأيديهن العيدان فضربن وضربت معهن ، فتزلزل الناس طربا من اجتماع الضرب المتقن على أربعين وترا ، وبكى الكثيرون حرقا. ووجدا ، وتذكر كل عاشق جرحه الذى فى قلبه !..

وكانت عزة الميلاء المطربة البارة المطبوعة الجميلة ، حاضرة مجلسنا ، فطلبت اليها ان تغنى ، فغنت احسن غناء باحسن حنجرة ففتنت السامعين ، فقلت لها :

- يا عز انك لباقية على الدهر !.. فهتيتا لك حسن هذا الصوت ، مع جودة الغناء !..

ثم قلت لسلامة القس وزميلتها حباية :

- هاتيا معا لحنا واحدا ..

فغنتا :

ومن عجب انى اذا الشوق جننى

اقوم من الشوق الشديد واقعد

احن اليكم مثلما حنَّ تائق

الى الوزد عطشان الفؤاد مُصَرَّد

ولى كبد حرى يعذبها الهوى

ولى جسد يبلى ولا يتجدد

فاستحسن الناس غناءهما ، ولكنهم لم يتبينوا فرق ما بين صوت سلامة وصوت حباية ، ولا ما بين صنعة سلامة وصنعة حباية ، لان الصوتين خالط احدهما الآخر ، وخالطت صنعة هذه صنعة زميلتها اما انا فما فاتنى فضل سلامة على حباية .. ولو غنت سلامة وحدها ، ثم اعقبتها حباية لعرف من له ذوق وفهم فرق الصوت والصنعة عندهما .. وشتان بينهما .. سلامة هى الاجود حلقا وصناعة ..

ثم قلت للجوارى الثلاث الجميلات « فرعة » و« بلبله » و« لذة العيش » وكنت منذ الصباح اطارحن الالحان واثقفهن

- هاتين لحنا واحدا باصواتكن جميعا ..

فاندفعن كأنهن صوت واحد فغنين :

لعمرى لئن كان الفؤاد من الهوى
بَغَى سقما إني اذن لسقيم
فأقسم ما صافيت بعدك خلة
ولا لك عندي فى الفؤاد قسيم

هكذا ، قضينا شطر الليل على هذه الحال ، لم أترك مغنيا ولا مغنية ممن حضر
مجلسى الا أمرته بالغناء ، فكلهم اطاع امرى وسره انى استمعت اليه مع الناس ..
فما رأيت ولا رأى الناس مجلسا أحسن منه ...

● اليوم الثانى :

قعدت اليوم على كرسى فى مدخل منزلى وقلت لحاجبتى :
- لا تحببى عنى احدا اليوم . واقعدى بالباب ، فكل من يمر فاعرضى عليه
مجلسى وقولى له جميلة تدعوك !!
غصت دارى بالناس حتى صعدوا الى العلالى والسطوح ، واشتد الحرفأمرت
باسقائهم الجلاب المتلج ، والماء المبرد وقامت جوارى منزلى على رعوس الناس
بالمناديل والمراوح الكبار على رعوس الناس ووجوههم .. فاستروحوا الهواء والعطر
من ايدى الجوارى ...

ثم قمت فقلت للناس

- انى قد رأيت فى منامى شيئا افزعنى وارعبنى وقد خفت ان يكون حان اجلى ،
وليس ينفعنى ان مت الا صالح عملى ، فرأيت ان اترك الغناء كراهة ان يلحقنى منه
شيء عند ربى !!

وقف شيخ ذو لحية بيضاء فقال :

- وفقك الله ، وثبتك على هذه النية الصالحة !!

صاح اخرون

- بل لا حرج عليك يا جميلة فى الغناء !!

كثر اختلاف الناس ، بين مستحسن لانقطاعى عن الغناء وان كانوا يحبونه منى
خشية ان يلحقنى منه فى آخرتى ما اكروه ، وبين مستنكر لما اعلنت من رغبتي فى
هجر الغناء ، حتى وقف من بينهم شيخ ذو سن وعلم وفقه وتجربة فقال :
- قد تكلمت الجماعة ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولم اعترض عليهم فى
قولهم ، ولا شركتهم فى رأيهم ، فاستمعوا الان لقولى وانصتوا ..

فسكت القوم وتناولت اليه اعناقهم ، فقال :

- يامعشر اهل الحجاز .. انكم متى تخاذلتم فشلتكم ووثب عليكم عدوكم .. وقد
انكر عليكم بعض اهل العراق ماتسمعون من هذا الغناء الطيب الذى هو تحسين

للكلام بالصوت الحسن ، ولكنكم انتم لا تتكرونه ، ولا يدفعه عابدم وعالمكم وشريفكم فان رأيتم من لا يغشى مجالس الغناء ، فليس للتحريم ، ولكن زهدا في الدنيا ، لان الغناء من اكبر اللذات وهو أسرُّ للنفوس من جميع المسرات !..

وصمت الشيخ لحظة كأنه يستجمع بقية حججه في اباحة الغناء ثم قال - ألا ترون الغناء يحيي القلب ، ويزيد في العقل ، ويبهج النفس ، ويفسح في الرأي ، ويتيسر به العسير ، وتفتح به الجيوش ، ويدل به الجبارون حتى يمتهنوا انفسهم عند استماعه ، ويبريء المريض !.. ويزيد اهل الثروة غنى واهل الفقر قناعة ورضا باستماعه .. من تمسك به كان عالما ، ومن فارقه كان جاهلا ، فأما من مات قلبه ، وذهب عقله وبصره ، فانه يوجب تركه ، ويزعم تحريمه !..

فلم يخالف الشيخ احد من الحضور فيما وصف به الغناء ، ولا انكروا عليه شيئا من قوله ، وعاد المخطيء منهم على نفسه فأصلح خطاه ، واقر بالحق ! عندئذ قال لى الشيخ :

- يا جميلة اوعيت ماقلت ، ووقع من نفسك ماذكرت عن الغناء ؟! قلت :

- أجل .. اعزك الله ! .. وانا استغفر الله ولا انقطع عن الغناء ابدا .. واتعلق برقبته واقول هذا الشيخ اقنعنى به !.. قال الشيخ باسم :

- فاختمى اذن مجلسنا ، وفرقى جماعتنا بلحن من بدائعك !.. فأمسكت بالعود وضربت وغنيت :

أفى رسم دار دمعك المتفرق
سفاهما وما استنطق مالىس ينطق
فأحسن شيء كان اول ليلنا
وأخره حزن اذا نتفرق

فصاح الشيخ وقد تملكه الطرب .

- حسن والله !.. أمثل هذا يتركه الناس ولا يسمعون ؟! .. لا والله ، ولا كرامة لمن خالف الحق !..

فلما همَّ الشيخ والناس بالانصراف ، قال - الحمد لله الذى لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته ، والسلام عليك ورحمة الله يا جميلة !.. قلت :

- وعليك السلام يا شيخنا ورحمة الله وبركاته !..

جلست اليوم وليست برنسا طويلا ، وألبست جوارى منزلى برانس اقل طولا
وجاء المطربون وعلى رأسهم ابن سريج وهو قبيح الصلعة يتخذ وفرة شعر يضعها
على رأسه تستر صلعته ، فأحببت ان أرى صلعته فان الناس يتحدثون بقبحها ولم
أرها من قبل !.. فأعطيته برنسا ليلبسه ، ففهم ابن سريج انه لايد من خلع وفرة
الشعر عن رأسه ، واني دبرت ذلك لارى صلعته ، فصاح ضاحكا :

- هذا من تدبيرك لتفضحيني يا جميلة !..

ضحكت وقلت

- هو والله كذلك فاصنع مايدا لك يابن سريج !.. فتزع وفرة الشعر عن صلعته
فاذا هي أقبح صلعة رأيتها ، فتضاحكت الجوارى ، فزعت فيهن كأننى غاضبة :
- والله لو طار رأسه كله ولم يبق فيه الا حلقه وحتجرتة يغنى بهما لكان فيهما
مايفضل به جميع الناس !..

ثم قمت وقد مسنى طائف من المرح والطرب فرقصت وضربت بالعود وعلى
رأسى البرنس ، فقام ابن سريج وقد غطى رأسه بالبرنس ، وقام معبد والغريض
وابن عائشة ومالك ، وفى يد كل منهم عوده يضرب به على ضربى ويرقص مثل
رقصى ..

فلما استوفينا من ذلك حظا ، ضربت وضربوا وغنيت وغنوا معى

إنى أقول مقالة بتجارب

حقا ولم يخبرك مثل مجرب

صاف الكريم وكن لعرضك صائنا

وعن اللئيم وفعله فتنكب

فلما فرغنا من الغناء ، دعوت بوفرة شعر رائعة مصنوعة من الشعور الرومية
الحمراء ، فنزعت البرنس ووضعت وفرة الشعر على رأسى فوق شعرى ، ودعوت
لابن سريج بوفرة شعر صفراء انتقاها قصاربها كأنه رومى احول ، فان ابن سريج
، الى صلعه القبيح ، من أقبح الناس منظر عينين ، وقد جعل له الحول عينا تنظر
الى اليمين واخرى الى الشمال !..

انتقى كل مغن ما احب من وفرات الشعر فوضعها على رأسه ، ثم قمنا نضرب
بالعידان ونتمشى مشية المغنين الحجازيين ، وغنيت وغنوا بغنائى صوتا واحدا

يمشين مشى قطا البطاح تاودا

قب البطون رواجح الاكفال

حتى نال منا التعب والطرب ، فنعرت ، ونعر القوم طربا وتعبا ، ثم جلست
وجلسوا ، وخلعوا ثيابهم ووفرات الشعر ، ورجعوا الى زيهم ، ثم انصرفوا فكان ذلك
يوما لم ار مثله حلاوة وطيبا !..

يوميات جميلة

زينة الجوارى



● اليوم الاول :

هذا يوم جعلته لاستقبال زوارى من كبراء الناس واشرافهم .. ولابد لهم ولى من معاقرة الغناء فى هذا اليوم !.. اغنيهم انا ثم تغنيهم الجوارى اللاتى اشتريتهن وربيتهن وعلتهن الغناء ، وخرّجتهن فى هذه الصناعة احسن تخريج !.. وانا الان - بحمد الله - رأس هذه الصناعة الجميلة ، واستاذة كل محسن ومحسنة فيها ! وقد اكثر كبار المغنين من قولهم لى « لولا انت ما كنا نحن » !..

دعوت بالجوارى فوضعت على رعوسهن شعورا مستعارة تنسدل كالعناقيد الى ما تحّت خصورهن ، ووضعت فوق هذه الشعور التيجان المذهبة ، والبستهن الثياب المصبغة الفاخرة ، وزينتهن بالجلى افخر زينة .. ثم قلت لنفسى لاوجهن الى الشريف عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، ادعوه لزيارتى حتى يرى ويسمع ، فانه راعى هذا الفن فى المدينة وهو الذى حمى اصحابه من مطاردة بعض المتعنتين من حكام بنى امية الذين يتصنعون الحفاظ ومطاردة المغنين ومصادرة آلات الغناء !..

ثم دعوت كاتباً لى فقلت له اكتب الى عبد الله بن جعفر - اعزه الله - كتابا تستعطفه ان يزورنا اليوم ..

فلما قرأت ماكتب لم يعجبني ، فأجلسته وقلت له : لا بأس بما كتبت ، غير انى سأملك ما فى نفسى ، ثم امليته هذا الكتاب الى عبد الله بن جعفر :

« بأبى انت وامى !.. قدرك يجل عن رسالتى ، وكرمك يحتمل زلتى ، وذنبى لاتقال عثرته ، فان صفحت فالصفح لكم معشر اهل البيت يؤثروا الخير والفضل كله فيكم مدخر .. ونحن العبيد وانتم الموالى . فطوبى لمن كان لكم مقاربا ، والى وجوهكم ناظرا .. وطوبى لمن كان لكم مجاورا ، وبضيانكم مبصرا .. والويل لمن جهل قدركم ولم يعرف ما اوجبه الله على هذا الخلق لكم .. فصغبركم كبير ، بل لا صغبر فيكم . وكببركم جليل ، بل الجلالة التى وهبها الله عز وجل للخلق هى لكم ومقصورة عليكم .. وبالكتاب نسألك ، وبحق الرسول ندعوك ، ان كنت نشيطا لمجلس هيأته لك ، لايحسن الا بك ، ولا يتم الا معك ، ولا يصلح ان ينقل عن موضعه ، ولايسلك به غير طريقه » !..

فلما فرغت من املاء كتابى هذا قال لى كاتبى :

- هذه ياسيديتى هى البلاغة التى فانتتنى ، ومن لى ولامثالى بها !؟

ثم ختمت الكتاب وطويته وبعثت به رسولا الى الشريف ابن جعفر فلما عاد رسولى سألته عما رأى وسمع فقال : ان سيدنا لما قرأ الكتاب تبسم وقال : قد علمنا

ان جميلة حلفت الا تغنى الا فى منزلها ! وانا الان أقصد موضعا خارج المدينة ،
فاذا عدت جعلت طريق رجوعى الى منزل جميلة ان شاء الله !
قلت :

- اما قال غير ذلك شيئا ؟!

أجابنى الرجل

- بل قال : « إننا - اهل البيت - لنعرف تعظيم جميلة ، لنا ، واکرامها لصغيرنا
وكبيرنا »!..

ففرحت بما سمعت من الرجل ، وانتظرت ان يجرى ابن جعفر ولم ادخل احدا
الى منزلى قبل ان يدخل .. فلما صار الى بابى دخل وبعض من كان معه وصرف
بعضهم ..

واخرجت الجوارى وهنّ فى تلك الزينة ، فنظر الى ذلك الحسن البار ، والهيئة
الفائقة ، فقال لى

- يا جميلة لقد إوتيت خيرا كثيرا ما احسن ما صنعت !..
قلت

- ياسيدى ، إن الجميل للجميل يصلح ولك هيات هذا المجلس ..
وقامت الجوارى صفيين وأنا على رأسهن ، فاقسم ابن جعفر فجلست وظلت
الجوارى وحدهن قياما ثم قلت له :
- ياسيدى ، الا اغنيك ؟!

فلما اوما موافقا امسكت بالعود وضربت وغنيت فى مدح بنى هاشم من شعر
حذافة بن غانم

بنى شيبة الحمد الذى كان وجهه
يضئ ظلام الليل كالقمر البدر
كهولهم خير الكهول ونسلهم
كنسل الملوك لا يبور ولا يحرى
ابو عتبة الملقى اليك جماله
اغر هجان اللون من نفر زهر
لساقى الحجيج ثم للخير هاشم
وعبد مناف ذلك السيد الغمر
ابوكم قصى كان يدعى مجمعا
به جمع الله القبائل من فهر

فطرب عبد الله بن جعفر طربا عظيما وقال لى :

- احسنت يا جميلة فيما غنيت ، واحسن حذافة بن غانم فيما نظم من الشعر ..

بالله اعيديه علينا !..

ثم قال لاصحابه وانا اتهيأ لاعادة الصوت

- الاترون الشاعر قد تحدث عنا من لدن جدنا « قصى » الذى اجتمعت له امرة قريش الى جدنا « شيبه الحمد » عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؟!
فلما اعدت الصوت ازداد طربا ، فاحببت ان ازيده فوق ذلك ، فدعوت لكل جارية يعود وامرتهن بالجلوس على الكراسى ، فضربن وغنيت على ضربهن هذا اللحن ، وهن يغنين معى نبرة نبرة ، حتى زلزلت اركان المنزل طربا !..

فاهتز عبد الله بن جعفر واصحابه من شدة الطرب ، وقال
- ماظننت ان مثل هذا يكون !.. وانه لممايفتن القلب ، ولذلك كرهه اناس لما علموا فيه !..
ثم دعا ببغلة فركبها منصرفا الى منزله وكنت قد اعددت له ولهم طعاما كثيرا ، فقال لاصحابه

- تخلفوا انتم للغداء !..

فتغدوا فى منزلى ثم انصرفوا مسرورين !.. فكان هذا اليوم من اعظم ايامى بركة وشرفا !..

● اليوم الثانى :

يزعم الناس ان الشاعر الاحوص شديد الاعجاب بى !..
وانا اراه لايفارقنى اذا جلست للناس .. ولا يكون الا اخر من ينصرف ، غير انى لا انكر من اخلاقه شيئا ..

وقد حضر اليوم مجلس الغناء فى منزلى ومعه غلام اشتراه منذ اسبوعين او ثلاثة ، ولم اكن رأيت هذا الغلام من قبل ، ولكنى لاحظت انشغال الجوارى بالنظر الى ناحيته ، حتى كن ينشغلن عن الغناء بالنظر اليه ، فتأملته فاذا هو جميل الوجه جدا ، فاشرت الى الاحوص ان يخرج غلامه هذا من منزلى ، فقد عم الخلل مجلسى وافسد امر الجوارى ، ولايستقيم ادامتهن النظر اليه مع السماع فى هذا المجلس العام ..

فتغافل الاحوص ، واطهر انه لم يفهم اشارتى حتى خفت عاقبة وجود الغلام فأمرت بعض من حضر باخراجه من المجلس فاخرجه وغضب الاحوص وقام فخرج فى اثر غلامه ، ولم يقل لى شيئا !..

فشكر لى الحاضرون هذا الذى كان منى فى شأن الغلام ، وحمدوا موقفى ، وقالوا :

- هذا والله كان الظن بك يا جميلة وانت من انت دينا وحفاظا .. اكرمك الله !

- ان الاحوص لم يستأذن فى المجيء بغلامه هذا ولا علمت به حتى رأيته فى دارى ، وانه ليعز على غضب الاحوص ، ولكن الحق اولى وكان يتبغى له الا يعرض نفسه وايأى لما نكره ...!

فلما تفرق اهل المجلس ، ارسلت اليه : « الذنب لك ، ونحن منه براء .. اذ كنت قد عرفت مذهبي ، ثم عرضتني للذى كان ، فسأنتى ذلك ولم اجد بدا من اخراج غلامك » ...!

فرد قائلا « ليس ذنبه ان الجوارى قد اطلن النظر الى وجهه ، وليس ماتقولين بعذر لك ان لم تجعلى لى وله مجلسا خاصا يمحو مالحقنا من اساءة »!..
فرضيت بذلك وجاءا فأكترتهما ، ولكنى حجت الجوارى فلم يظهرن ولا غنين ولا سمع لهن احد حسا ، وجعلت مجلسى كله من عجايز الموالى ، وكلهن فوق السبعين من اعمارهن ثم غنيت لحننا فى شعر الاحوص يعجبه دائما ان اغنيه فيه :

وبالفقر دار من جميلة هيجت

سوالف حب فى فؤادك مُنْصِبٍ

وهذا اللحن من احسن ما اتفق لى من الصنعة فى الغناء وقد قال لى ابن محرز :
انى لاغنى هذا اللحن الذى حفظته منك يا جميلة فتعجبني نفسى ويدخلنى شيء لا اعرفه من الفخر والتب ، فكيف اذا غنيتها انت يا جميلة وهو من صنعتك ؟!

● اليوم الثالث

رأيت عمرو بن احمر الشاعر المخضرم الذى عاش فى الجاهلية ثم عاش فى الاسلام حتى ايامنا قلت له

- ما احسن ما نظمت من الشعر ؟!

قال :

- شعري فى الجهاد ، وقد قلت فى خالد بن الوليد وكنت معه فى فتح الشام نكر يخيلونا على الروم

اذا قال سيف الله كروا عليهم

كررت بقلوب رابط الجأش صارم

وقلت شعرا فى عمر بن الخطاب ابتغى به وجه الله ، فانه لم يكن يملك شيئا يعطيه للشعراء ، واذا فضل من عطائه شيء رده الى بيت المال .. وقلت فى عثمان ابن عفان وعلى بن ابي طالب ..

قلت له

- انشدنى مارثيت به عمر بن الخطاب ..

فانشدنى شعرا اعجبني ، فعزمت ان اصنع فيه لحننا ، فلما صنعت اللحن رأيت

كل من يسمعه يبكي حزنا على عمر بن الخطاب وإيامه التي كانت غررا في أيام الاسلام .. وقال لى بعض اهل صناعتنا
- لا تغنى للناس هذا اللحن فانه يبكيهم ، وماسمعتك منك الا وجدت شيئا يضغط قلبى ويحرقه ، ولا املك عيني !..
فكتمت اللحن عن الناس ، وصرت لا اغنيه الا لنفسى فى ساعات الأسى ! ..
وليس بالقليلة فى حياتى التي يراها الناس حافلة بالفرح والمرح !..

● اليوم الرابع :

طرق الليلة منزلى طارق ولم يكن عندى مجلس للغناء ، وجاءتنى خادمة تقول انها نظرت من خصاص نافذة فاذا الطارق هو عبد الله بن عمرو بن عثمان العرجى حفيد امير المؤمنين عثمان بن عفان رحمه الله .. وهو شاعر اديب ظريف شجاع ، ولكنى حلفت الا اتغنى بشعره والا ادخله منزلى لكثرة عبثه وسفهه وحادثة سنه !
فلما علمت بمكانه فى هذه الساعة من الليل قلت ان له لشأنا !..
واستخبرت خبره فعلمت انه قدم المدينة هاربا من ضيعته فى « العرج » بالقرب من مدينة الطائف ، بعد ان قتل احد الموالى وهتك اهله !.. وقيل لى ان امير مكة يطلبه لمحاكمته وقد يقتله او يسجنه سجنا طويلا ..

فخرجت الى باب منزلى فقلت للعرجى :

- ان السادة لايردهم احد عن الابواب ، ولكن منزلى ملئ بالجوارى ولايمكن امتلاك ان يستخفى فيه ، فعليك بالشاعر الاحوص فانه لا يردك وانت من بيت عظيم الشرف

قال لى العرجى

- كانت بينى وبين الاحوص مشادة ، وهو مجانب لى الان ، فابعثى معى رسولا اليه ينقل اليه رأيك هذا .. فان منزله احب المنازل الى قلبى بعد منزلك ، على ماكان بينى وبينه !..

فوجهت مع العرجى الى الاحوص بعض عجائز منزلى ، فتلقاه الاحوص وانزله واكرمه واحسن جواره وستر امره .. فنظم العرجى شعرا ارسله لى وهو مستخف عن العيون ، فما قرأته ، رق قلبى له ، وقلت فى نفسى : كيف لى بالاذن له فى دخول منزلى وقد حلفت الا يدخله ، والا اغنى بشعره وان كان عندى فى الشعر اشبه الناس بعمر بن ابي ربيعة وهو من هو فى الشعر ؟!

فبينما انا ابدأ فى مثل هذا الفكر واعيد ، جاءنى من يقول : لقد وقع العرجى فى قبضة الشرطة ، وساقوه ومعه الاحوص الى الوالى ..

ثم جاء الاحوص وقد اطلقوا سراحه ، وقال لى

- ما اظن العرجى يخرج من هذه المحنة حيا ، فان بينه وبين ذلك الحاكم ضغنا عميقا !..

يوميات جميلة

عندما يطرب عمر بن أبي ربيعة



● اليوم الأول :

زارنى اليوم المطربان الكبيران « معبد » و « مالك » .. فغنى معبد وغنيت
وغنى مالك .. ثم قال لى معبد على استحياء
- أتأذنين لى فى الغناء بشعر للأحوص قاله فيك ؟!
قلت رافعة الرأس
- إن الأحوص بى معجب ، وأنا له مكربة .. فهات !
فغناني معبد

شأنك المنازل بالأبرق
دوارس كالعين فى المهرق
لال جميلة قد أخلقت
ومهما يطل عهده يخلق
فأن يقل النفس لى عاشق
فأين الذى هو لم يعشق
فأحسن معبد فى غنائه غاية الإحسان ، ولكنى خلجت من غنائه هذا الغزل الذى
يكشف الشاعر فيه عن حبه لى ، فقلت لمعبد وأنا بين الخجل والابتسام والطرب
- حسبك يا أبا عباد .. قد أحسنت ماشئت !..
ثم قلت لمالك :

- هات ما عندك ، ولا يكن غزلاً فينا !..
فاندفع مالك فغنى لحناً من ألحاني كان قد حفظه عنى فى شعر لجميل بثينة
إلا من لقلب لا يمل فيذهل
أفقى فالتعزى عن بثينة أجمل

فأجاد مالك الغناء ، فقلت له
- أحسنت والله فى غنائك ، وفى أخذك هذا اللحن عنى !..
قال معبد :

- إنما أنت أستاذة كل مطرب ومطربة فى المدينة .. وحسبك أنك أتممت ما كان
سائب خاثر - رحمه الله - قد بدأه فى صناعة الغناء المتقن ، ولولاك لم يكن غناء
ولا مغنون فى المدينة !..

فصاح مالك :

- ولا فى مكة !..

ضحكت وقلت لهما :

- ملائمانى غروراً !.. فأين أنا من فحول الغناء المتقن الذين اخترعوه اختراعاً ، ولم يكن قبلهم شئ نسميه غناءً ؟!..

قال لى معبد

- قد سمعت الآن مالكا يغنى فى شعر جميل بثينة ، وإنك ياسيدتى قد عرفت بثينة وعرفتك بثينة ، فما تقولين عنها ؟!..

قلت :

- كانت بثينة صدوقة اللسان ، جميلة الوجه ، حسنة البيان ، عفيفة شريفة .. وقد قالت لى مرة : " والله ما أردنى جميل رحمه الله ، بريئة قط ، ولا حدثت نفسى بذلك منه " !..

ثم قالت لهما

- فانظرا - عافاكما الله - كيف أحب جميل صاحبتة أشد الحب ، وبادلتة الحب ، فما أرادها قط بريئة ، ولا حدثت فى نفسها بأمر مما تحدث به المرأة العاشقة نفسها ولو فى لحظة عابرة تستغفر الله منها .. فهذا والله هو الحب الصحيح تتعفف فيه حتى خواطر المحبين وهواجسهم وخفايا جوانحهم !..

● اليوم الثانى

زارنى المغنى العظيم ابن سريج ، وزعم أنه إنما جاء لسمع منى ويأخذ عنى ، فانزلته وأكرمته وسألته عن أخبار مكة وهو مطربها الأكبر ، فحدثنى وأضحكنى - وإنه لمحدث ظريف - حتى جاء مطرب المدينة معبد .. وكانت عندى جارية لبقة محسنة فى الصناعة ، فابتدأت أطارحها .. فقال لى ابن سريج : فلأ بدأت بمطارحتنا ياسيدة المطربات ؟!.. قلت : كل إنسان فى بيته أمير ، وليس للداخل أن يتأمر عليه ولو كان أصدق أصدقائه ، فتنبه ابن سريج إلى خطئه وقال لى معتذراً : صدقت ! جعلنى الله فداك !.. وما أدرى أيهما أحسن : أدبك أم غناؤك ؟!..

قلت :

- دع ذا عنك يا ابن سريج ولا تسرف فى مدحنا ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " احثوا فى وجوه المداحين التراب " !..

قال يشرح ما أرادته بالثناء علينا :

- أنت على ما اشتهرت به من الغناء ، صوامة قوامة ، قد رضى الناس دينك ، وعرفوا ورعك ، وأنا صادق فى مدحك ، أما المراد بالمداحين فى هذا الحديث

الشريف فقوم من عادتهم الإسراف فى تملق الناس تحصيلًا للمال أو الجاه !! وأما المدح المراد به الحق فإنه خير لا يُحْتَى التراب فى وجوه أصحابه !!

فضحكت وضحك ابن سريج وقال له معبد

وددت والله لو قامت جميلة فرمتك بحتوة من تراب ، مع صدقك فيما مدحتها !!
فما هى بحاجة إلى مدحك يا ابن سريج !!

ضحكنا ، ثم أخذت أغنى لحنًا لى لتحفظه عنى الجارية ، فرأيتهما يفحصان الأرض بأرجلها طربا ، ولا يستطيعان الصياح حتى لا أقطع غنائى !! فلما أتممت اللحن قالوا لى

- كائننا والله حضرنا مزامير داود !!

غنى ابن سريج ، وما أطيّب وأعذب وأقوى صوت هذا المغنى ، فقلت له غير متمالكة نفسى من فرط إعجابى :

- إنك والله لبارع محسن فيما نظمت من الشعر وفيما لحتت وفيما غنيت .. وإن صوتك لما يزيد العقل قوة ، والنفس طيبا ، والطبيعة أريحية وسهولة ، ولو كان الهواء يمسك الغناء فلا يذهب بددا ، ولا تذروه الرياح ، لكان مجلسنا هذا كالعلم الخفاق فى هذه الصناعة إلى آخر الزمان ..

● اليوم الثالث :

أقبل إلى المدينة من مكة عمر بن أبى ربيعة الشاعر القرشى المشهور ، فطرق منزلى ومعه الأحوص بن محمد الأنصارى وآخرون ، فأذنت لهم ورحبت بهم ، وخصصت عمر بن أبى ربيعة بحفاوة أبذلها فى العادة له ، لمكانته عندى .. فقال لى

- إنى قصدتك من مكة للسلام عليك !!

قلت له :

- أهل الفضل أنت .. جُزيتَ خيرا !!

قال متوددا :

- وقد أحببت أن تفرغى لنا نفسك وتخلى لنا مجلسك ، ونترك الخيار لك فيما تغنين !! فغنيتهم :

تمشى الهوينى إذا مشت فضلا

مشى النزيف المغمور فى الصُّعدِ

تظل من زور بيت جارتها

واضعة كفها على الكبد

يامن لقلب متيم سدم

غانٍ رهين مُكَلِّمٍ كَمِدٍ

أزجره وهو غير مزدجر

عنها وطرفى مكحل السهد

فنعز الأحوص ، وقام عمر بن أبى ربيعة يريد أن ينطح الحائط برأسه من شدة
الطرب ، وكأنما اعترت المنزلة زلزلة .. فلما هداؤا .. قال لى ابن أبى ربيعة
- لله درك يا جميلة .. لقد أعطاك الله كل مافى حلق البشر من حلاوة ، فأنت أول
الغناء وآخره !..

ثم سكتنا ساعة عن الغناء ، وأخذنا بأطراف الحديث ، حتى شعرت أنهم
يشتهون أن أغنى ، فأخذت العود وغنيت

شطت سعاد وأمسى البين قد أفدا

وأورثوك سقاما يصدع الكبد

لا أستطيع لها هجرا ولا ترة

ولا تزال أحاديثى بها جددا

فاستخف الغناء القوم ، فصفقوا وحركوا رءوسهم كأنما عقولهم طارت منها ،
قال ابن أبى ربيعة

- نحن فداؤك من السوء ، ووقاؤك من المكروه .. ما أحسن ما غنيت ، وأجمل ما
قلت !..

وحضر الغداء ، فتغدينا بأنواع الأطعمة الحارة والباردة ، والفاكهة الرطبة
واليابسة ، مما ينبت فى المدينة ، ومما يجىء من الشام والعراق ومصر .. ثم
دعوت بأنواع من الأشربة فقال عمر بن أبى ربيعة : " لا أشرب " !.. أما الأحوص
فقال " لكننى أشرب !.. وما جزاء جميلة أن نمتنع من شرابها " .. قال عمر :
" ليس ذلك كما ظننته يا أحوص " .. قلت : " من شاء أن يحملنى بنفسه ، ويخلط
روحى بروحه شكرناه ، ومن أبى ذلك عذرناه ، ولم يمنعه ذلك ما يزيد من الأنس
بمحادثته " !.. قال عمر : " لا أكون والله أخس القوم .. فانا سامع مطيع " !..
فشرب القوم أجمعون !.. فبينما هم فى ذلك غنيت لهم لحنا فى شعراين أبى ربيعة

ولقد قالت لجارات لها

كالمها يلعبن فى حجرتها

خذن عنى الظل لا يتبعنى

ومضت تسعى إلى قبعتها

لم تعانق رجلا فيما مضى

طفلة غيداء فى حلتها

لم يطش قط لها سهم ومن

ترمه لا ينج من رميتها

فصاح عمر بن أبى ربيعة وقد غشى على أصحابه من الطرب
- ويلاه ... ويلاه ... ويلاه .. !

- فلما أتمهن ثلاثا وقد كاد يجن طربا ، عمد إلى ثوبه فشقه من أعلى إلى
أسفل ، وجلس مبهورا لا يعى ما يصنع .. !
ثم تمالك نفسه وقال لى معتذرا

- لم أملك من نفسى شيئا ، وما استطعت إلا تخريق ثيابى ، ولولا أنى صبور
متجلد لأصابنى الاغماء وأخذتنى الغشية كما أخذت أصحابى هؤلاء .. !

فدعوت بثياب فلبسها عمر ، وأفاق أصحابه من إغمائهم واستراحوا ساعة ثم
انصرفوا ، وأنا لا أعجب لحالهم ، فطالما رأيت السامعين يشقون ثيابهم ، ويغشى
عليهم ، ويضربون الجدران برعوسهم طربا .. !

ولم يكد القوم ينصرفون حتى وجه عمر بن أبى ربيعة الى منزلى بعشرة آلاف
درهم ، وعشرة أثواب .. وقال لرسوله الذى حمل هذه الهدية : قل لجميلة إن عمرا
عاد إلى مكة ولم يمر بدارك لأنه لا يستطيع وداك .. !

● اليوم الرابع :

خرجت أحج بيت الله فى مكة .. فإذا جميع المغنين والمغنيات يمشون فى
ركابى ، ومعهم جماعة من السادة والشعراء ، ورأيت تحت هودجى أستاذنا طويسا
ومعه جماعة من مشيخة صناعة الغناء بالمدينة على رأسهم معبد ومالك وابن
عائشة وابن طنبورة ويديح الملبح ونافع الخير .. أما المغنيات فكان على رأسهن
نابغة الغناء عزة الميلاء وسلامة القس وحبابة وخليدة وعقيلة وبلبله ولذة العيش
وغيرهن .. ومن الشعراء الأصوص وكثير عزة ونصيب ، ومعهم جماعة من كبراء
المدينة ، وقيل لى إن من لحق بركبى من المغنيات زدن على خمسين مغنية قصدن
جميعا الحج معى ، وأعطاهن سادتهن النفقات وحملوهن على ابل فى الهودج
والقباة .. ! وما أظرف أهل المدينة وأكرمهم ..

قاربنا مكة فتلقانا شيخ المطربين سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن
محرز ومن لا أحصيهم من المغنين والمغنيات .. أما الشعراء فكان فى مقدمتهم
عمر بن أبى ربيعة وعبد الله العرجى حفيد عثمان بن عفان ، وجماعة من
الأشراف .. فدخلت مكة وحولى هؤلاء جميعا ، وخرج كثير من أهل مكة ينظرون
إلى جمعنا هذا وحسن هيئته .. !

فلما قضيت مناسك الحج .. سألتنى بعض المكيين أن أجعل لهم مجلسا ،
فسألتهم : للغناء أم للحديث ؟ .. قالوا جميعا .. !

فأبيت أن أغنى ، وقلت لهم :

- إن أردتم سماعى ، فلا يكون فى موسم الحج .. !

فصاح عمر بن أبى ربيعة فى الناس
- أقسمت على من كان فى قلبه حب لاستماع جميلة إلا خرج معها إلى المدينة ،
فإنى خارج معها !..
فخرج معى إلى المدينة جمع كبير انضم إلى من كانوا قد صحبوني من المدينة
إلى مكة .. وتلقانا أهل المدينة كبارا وصغارا !..
فلما مضت بعد عودتى أيام جلست للغناء ، فقصت دارى بالناس ، وغنيتهم
بلحن لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، فكلهم طرب للغناء ، وضع القوم من حسن ما
سمعوا ، وقالوا ما سمعنا غناء قط أحسن من غناء جميلة فى هذا اليوم ..
أما عمر بن أبى ربيعة فذرفت عيناه حتى جرى الدمع على لحيته وثيابه !..

يوميات الغريص :

قتيل الجن



سهرت الليلة وحدي !.. لم أجد صديقاً لى يسامرني بعد ما رقد السامر .. تذكرت أستاذي في هذه الصناعة ، صناعة الغناء ، مطرب الحجاز الأول ، عبيد بن سريج .. فقلت في نفسي أطرق بابيه في هذه الساعة من الليل أشكو إليه أرقى لعله يساهرنى ويحدثنى ، وربما هزته أريحته فتغنى لى وأسمعتنى ما أشتهى من حلاوة صوته وبراعة لحنه !

قال لى ابن سريج وقد صرت بين يديه في داره
- هيه ياغريض !.. افتتن بك الناس في مكة لأنك طرى الوجه ، غض الشباب ، حسن المنظر ، أبيض ، لين الصوت ، شجى النبرات حين تنوح أو تغنى .. فماذا أبقيت لى وأنا شيخك ومعلمك !.. منى تعلمت صناعة النياحة وصناعة الغناء فبرعت وكثر في يدك المال ؟!

قلت له مسترضياً مادحا
- والله مازدت على أن أكون تلميذك وخريجك ، ولولاك لكنت حتى اليوم خياطاً فقيراً أخطط ثياب الناس وأشقى بتلك الحرفة الصغيرة .. وأنت صاحب الألحان المرقصات والمشجيات والمبكيات ، لا يبلغ أحد في هذا الفن أن يكون من بعض خدمك !..

تبسم ابن سريج ، راضياً عنى ، وقال :
- دعانى بعض أصحاب فقيه مكة وعالمها الأكبر عطاء بن أبى رباح أن أحضر مساء غد وليمة في داره ، مع جمع من أهل مكة ، وعلمت أنهم دعوك أيضاً ، ولا بد لى ولك من الغناء فى هذا الحفل ، ابتهاجا بختان أصغر أولاد الشيخ !
- نعم !.. بعض أصحاب الشيخ استأذنوه فى دعوتنا ، فأذن بالدعوة كما أذن بالغناء !..

- وتظنه يسمع غناءنا ؟!
- ألم يسمعك مرة تتغنى بشعر جرير واستحسن غناك ، ومضى يترنم بشعر جرير الذى غنيته ؟!
- لقد كان ذلك يوماً مشهوداً !..

انصرفت من دار ابن سريج أفكر فيه وفى غنائه الذى فتن أهل مكة حتى قال له الشيخ عطاء بن أبى رباح .. « يافتان !.. أما أن لك أن تكف عن فتنة الناس ؟! » فلما غناه ابن سريج لحناً فى شعر جرير ، كف الشيخ بعد ذلك عن التعرض له ، وصار يستمع إليه أحياناً ..

وتذكرت كيف أرسلنى سادتى منذ سنين الى ابن سريج ليعلمنى صناعة النياحة ، فان للنوح على الموتى فناً خاصا ليس فى الدنيا من يتقنه كابن سريج وقد أبكى أهل مكة حين ورد اليهم الخبر بما فعله مسلم بن عقبة من فتك وهتك بالمدينة المنورة حين أباحها لجنده بأمر الخليفة يزيد بن معاوية ثلاثة أيام ، فصعد ابن سريج على جبل أبى قبيس وناح

يا عين جودى بالدموع السفاح وابكى على قتلى قريش البطاح

و « قريش البطاح » هم أكرم أهل مكة ، ومنهم بنو هاشم وبنو أمية .. ولم يصب أحد من هؤلاء فى مذبحة المدينة المنورة ، ولكن ابن سريج ذكر « قريش البطاح » لأن منها بطونا أخرى فتك بها جنود يزيد بن معاوية مع من فتكوا بهم من الانصار والمهاجرين وأولادهم ، ذكورا واناثا .. ثم أرسلت سكيئة بنت الحسين من المدينة تطلب الى ابن سريج أن يصنع نوحا فى هذا البيت

يا أرض ويحك أكرمى أمواتى فلقد ظفرت بسادتى وحماى

وصنع ابن سريج فى هذا البيت نوحا عجيبا ، يبكى فيه شهداء أهل بيت على ابن أبى طالب أحر بقاء .. فقدمه ذلك عند أهل الحرمين على جميع ناحة مكة والمدينة وسائر الحجاز وبلاد المسلمين .. ولما ذهب اليه أتعلم « النياحة » وجدنى أتعلم بسرعة واتقان ، وفى صوتى من الشجا مايبكى الناس ، على ما فيه من حلاوة وطلاوة ، فنحانى ابن سريج عنه وطردنى وتجنى على كثير ، حسدا منه لى ، وأنا تلميذ بين يديه ، وليس صوتى أحسن من صوته ، ولا عندى من أسرار هذه الصناعة الا ما تعلمته منه .. راجعته مستعظفا فقال لى محتقرا
- ما اسمك؟! .. وما كنييتك؟! .. وما أصلك؟! ..

قلت متعجبا

- اسمى وكنييتى وأصلى لا تغيب عنك ، فأنا عبد الملك ، وكنييتى ابويزيد ، وأصلى من رقيق البربر ، وأبى وأمى مسكينان من الموالى فى مكة .. وقد ماتا !! قال :

- ولكنك جميل وضى طرى ، فلهذا سموك الغريض .. وأنت تضرب بالعود ، وتنقر بالدف ، وتوقع بالفضيب ، وتعالى فى تصنيع نفسك وتبريقها .. وقد انتهى الناس نبرات الشجا فى صوتك ، وقمت بدلا منى تنوح لهم .. فوالله لا تركن النياحة ، ولا تقتصرن على الغناء وحده ، ولا تركنك تنوح على أمك وأبيك !!

ومنذ ذلك اليوم ترك ابن سريج النياحة وتركها أنا أيضا وصرت مثله مغنيا ،
فكاد ينشق غيظا ، مع أنه لبث فى موضعه سيدا لفن الغناء ، وكنت ومازلت تابعا
له ، وإن لم يكن أحد غيره أحسن منى فى الغناء ..!

● اليوم الثانى

زارنى ابن سريج فى دارى قبل طلوع الشمس ، قال لى
- لعلك تراجعت عن موعدنا الليلة فى ختان ابن الفقيه عطاء بن أبى رباح ، حتى
لاتغنى معى فى حفل واحد ...!
قلت أنفى عنه الشك فى أمرى :
- لا والله .. بل أنتظر الموعد لأتعلم منك ...! فهل لك أن تبقى عندى هنيئة
أسمعك لحنا لى فى شعر لعمر بن أبى ربيعة ؟!..
ثم أخذت العود وغنيت

يا أبا الحارث قلبى طائر
فاستمع قول رشيد مؤتمن
ليس حب فوق ما أحببتكم
غير أن اقتل نفسى أو أجن
حسن الوجهه نقى لونه
طيب النشر لذىذ المحتضن

فطرب ابن سريج وقال لى
- كأنك لم تسمع لحنى فى هذا الشعر ؟!..
ثم اندفع فغنى لحنه ، فتضائل لحنى بإزائه ، حتى وددت أنى لم أصنعه ...!
ثم نهض ابن سريج وهو يذكرنى بموعدنا عند الفقيه الجليل ...!
ولم يكد يخرج من دارى حتى سمعت طارقا على بابى ، وإذا بمعبد المغنى
المشهور فى المدينة المنورة جاء يزورنى فرحبت به فقال :
- دعنا من الترحيب بالكلام المزوق ، فإنى ماجئت من المدينة الى مكة الا طلبا
لسماع لحنك فى شعر جميل بثينة :

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها
وقد قربت نضوى أمصر تريد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد ؟!
لكل حديث عندهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد

فكاد معبد يطير طربا مما أسمعته ، مع أن له لحناً فى هذا الشعر يعجبني ويعجب الناس ، وهو أعظم المطربين منزلة عندى بعد ابن سريج .. وقد تلقى فن الغناء من مطربى المدينة الأوائل .. طويس ونشيط الفارسى وسائب خاثر ، وجميلة سيدة المطربات والمطربين !..

ولقد سمعته يغنى ويضرب بالعود ، على استواء عجيب فى الغناء ، واستقامة فى العزف لايحرق بها ضارب عود ، ولا مغن على عود !.. وهو راوية للغناء متين الرواية ، وصناعتنا هذه محتاجة الى دعم أصولها ، وهذه الأصول محتاجة الى الرواية الصحيحة المتقنة .. والرواية المتقنة الصحيحة لايقوى عليها الا أمثال معبد !..

قال لى معبد وهو يهيم بالانصراف
- لولا ملالة الحديث ، وثقل اطالة الجلوس لاستكثرت منك ، فانك عندى ذو مكانة جلية !.. وقد سررتنى بفنائك وفطنتك وقيافتك !

● اليوم الثالث :

غنيت الليلة الماضية مع ابن سريج فى دار كبير أهل العلم بمكة عطاء بن أبى رباح !..

كانت الوليمة التى أولمها بمناسبة ختان ابنه طيبة وان لم تكن كبيرة ، ولكن الحضور كانوا كثيرين ، ولم يكن همهم الطعام .. بل السماع ، وقد علموا أنى وابن سريج حاضران !..

بدأ ابن سريج يغنى ، وكنت أظن أن ابن أبى عطاء سينتحي من الدار ناحية حتى لا يستمع الى الغناء ، ولكنه ثبت فى مجلسه ، ونقر ابن سريج بالدفء وتغنى بشعر كثير عزة .

أمنقطع ياعز ما كان بيننا
وشاجرتى ياعز فيك الشواجر
إذا قيل هذا بيت عزة قادنى
إليه الهوى واستعجلتنى البوادر
أصد وبى مثل الجنون لكى يرى
رواة الخنا أنى لبيتك هاجر

فأصغى القوم بأذانهم ، وشخصت اليه أعينهم ، وطالت أعناقهم ، وأصابتهم غشية من الطرب
ثم قمت أنا فغنيتهم فى شعر عمر بن أبى ربيعة

فقالته وأرخت جانب الستر انما
معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى

فقلت لها مابى لهم من ترقب
ولكن سرى ليس يحمله مثلى

فوالله ما رأيت القوم تحركوا ولا نطقوا ، فقد شغلهم الاستماع لى عن كل مافى الدنيا ...

ومضينا أغنى .. ثم يغنى .. حتى قيل لنا : غنيا معا ...
فاتفقنا أن نغنى هذا اللحن وهو لابن سريج

خليلى عوجا نسأل اليوم منزلا
أبى بالبراق العفر أن يتحولا
أرادت فلم تَشْطِطْ كلاما فأومات
إلينا ولم تأمن رسولا فترسلا
بأن : بث عسى أن يستر الليل مجلسا
لنا أو تنام العين عنا فتقبلا

غنينا هذا اللحن معا ، فخليل الينا نحن والمستمعين أن الأرض تميد حتى تبين
أثر غنائنا فى الفقيه عطاء بن أبى رباح .. وماسمع السامعون شيئا أحسن من
ذلك

● اليوم الرابع :

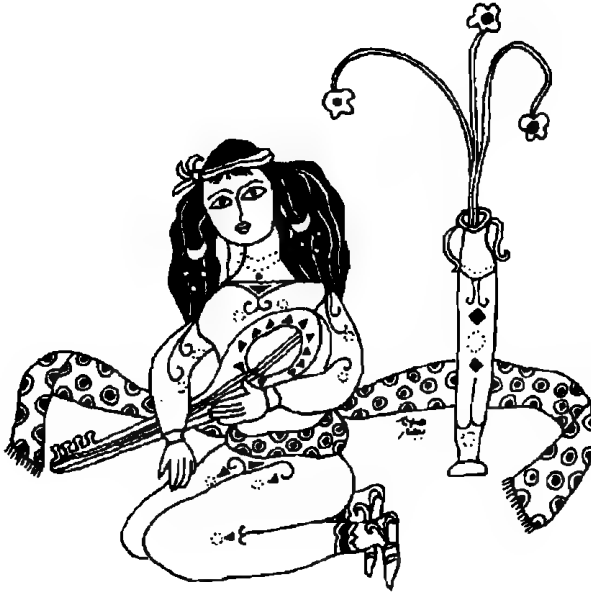
أه .. ثم أه من الأيام حين يراها المرء تنقضى وتمر مر السحاب ...
ذهبت أيام الصبا وأيام الشباب .. وجاءت الشيخوخة بصفرة الوانها ...
غضب حاكم جديد جاء يحكم مكة فأمر باخراجى منها الى اليمن فخرجت !
ورأى أعراب اليمن العود فى يدى فظنوه شيئا يستند اليه راكب البعير حين
يميل على مؤخرة الرجل أو مقدمته ... وطلب بعضهم منى أن أبيعهم هذا العود
ليضعه فى رحل ناقته ... ولكنى لست تاركا هذا المكان بقية حياتى .. فقد مللت كل
شئ وزهدت فى الدنيا ..

مر بى بعض المسافرين من أهل مكة فلما رأيتهم بكيت ، فسألونى ..
- ماييكيك ياغريض وأنت من كنت تضحكننا جميعا بطرائفك وحلاوة لسانك ؟!
قلت لهم :
- بأبى أنتم وأمى ... كيف يطيب لى أن أعيش بين قوم لم يروا العود قط ؟!
أما مكة ، فلن أعود إليها بعد أن مات أكثر من أحبهم فيها ..
ثم اندفعت أغنى ..

جرى دمعى فهيج لى شجوننا
فقلبى يستجن به جنونا

مضى القوم الى بلدهم ورقدت مريضا باكيا ولاأراني الا سأموت ...!..
فله أيام بمكة كنت فيها أمسك بالدف فأمشى وأنا أنقر عليه مشية لايرى الناس
أحسن منها ، ثم أغنى مقبلا ومدبرا حتى أخر صريعا فيظن الناس أن الجن قد لوت
عنقى غيرة من حسن غنائى ولطف مشيتى على نقر الدف ...!
وزعم الناس أن الجن نهتنى أن أغنى والا قتلتنى ، ولكنى وان كنت اليوم مريضا
غريبا بأئسا ، لن أنتهى عن الغناء الى النهاية .. ولتقتلنى الجن !..

أزهد الناس .. وأطرب الناس



● اليوم الأول :

فى المدينة المنورة نبغت فى الغناء بعد أن تعلمت أصوله فى مكة ، وأخذته عن معبد وابن عائشة وجميلة سيدة المغنيات ، وسمانى الناس "سلامة القس" .. لأن رجلا من صلحاء مكة سمع يوما غنائى ، فشغفته حبا ، وشهر يحبى فى القرينتين العظيمتين . مكة والمدينة ، فقال الناس القس أحب سلامة !.. ثم صرت أدعى بينهم "سلامة القس" .. نسبة إلى هذا الرجل التقى الورع الذى كانوا يلقبونه "القس" لعبادته وصلاحه !..

سيدى الذى يملكنى فى المدينة .. اسمه مصعب بن سهيل الزهرى ، ولى أخت يملكها أيضا اسمها "ريا" وكذب الشاعر ابن قيس الرقيات حين قال

لقد فتنت ريا وسلامة القسا فلم تتركا للقس عقلا ولا نفسا
فتاتان أما منهما فشيبة الهلال ، وأخرى تشبه الشمسا

كذب ابن قيس الرقيات فى البيت الأول ، وأراد التشنيع على الرجل الصالح عبد الرحمن القس ، الذى يحببى أنا وحدى !.. وصدق ابن قيس الرقيات فيما شبهنى به وأختى فى البيت الثانى !..

وكانت لنا بمكة زميلة فى صناعة الغناء اسمها "حباة" .. مفرطة الجمال ، لكنها ليست فائقة الصوت ولا الصنعة ، وقد انتقلت مثلى إلى المدينة ، ونجتمع من حين إلى حين فى دار أستاذتنا "جميلة" التى امتلكت فن الغناء من أطرافه ، وتفوقت فيه على ابن سريج وأمثاله من فحول المطربين ، وروت أغانى القيان القدامى اللاتى كن يغنين قبل أن ينضج الغناء المتقن على عود نشيط وزميله سائب خاثر وابن مسجح ، وتلك الطبقة التى كانت أول من غنى على العود الفارسى غناء عربيا .. وعلى أيديهم تم تعريب أوتار العود ، وإقامة الأصوات وأجناسها عليه باللسان العربى والذوق العربى ..

زميلتى حباة مجتهدة حقا ، ولكنها لا تتعلم بسرعة ومهارة كما أتعلم أنا وأختى ، ويريد الرجل الذى يملك حباة أن تتقن الغناء ليبيعها بمال عظيم !.. وأستاذتنا جميلة تقول لها : يا حباة .. خذى إحكام ما أطارك به من الحان ، من

أخذك سلامة ، وإن تزالى بخير يا حباية ما بقيت لك سلامة وكان أمركما مؤتلفا
حباية تسمع كلام استاذتنا وتطيع ، وتريد أن تتعلم ، ولها طموح إلى العيش فى
القصور العالية فى دمشق ، مع أنها تعيش فى المدينة حياة المترفات ..
وتقول لى حباية أحيانا : أرأيت يا سلامة .. إن شاهدنى الخليفة أو شاهداك ،
أكان يفتتن بى وبك ويشترينا ؟!..

وأقول لها دائما : نعم !.. وأى رجل يملك ثمننا ولا يدفعه إلى سادتنا عن طيب
خاطر ليحوز هذا الجمال وهذا الغناء ؟!..

ولكن العهد الآن هو عهد عمر ابن عبد العزيز ، الخليفة الذى يقال إن فيه من
عمر بن الخطاب مشابه كثيرة ، وهو حفيده من جهة الأم ، وعلى نهجه فى إقامة
شرع الله فى الرعية ، وقد غمر الدنيا بعدله وصلاحه ..

● اليوم الثانى :

يزعم بعض من يجهل الحقيقة أن عبد الرحمن القس كان متبذلا فى حبى ، وهو
الذى كانوا يشبهونه فى مكة بالفقيه العظيم عطاء بن أبى رباح !..

ووالله ماتبذل عبد الرحمن يوما فى حبى ، ولا نسى أن الله تعالى مطلع عليه !..
وماسمع غنائى - أول مرة - إلا مصادفة وعلى غير تعمد منه ، فإنه مر بعد صلاة
العشاء بدار سيدى - وكنا بمكة - فسمع غنائى ينبعث من النوافذ المفتوحة ، وكنا
فى الصيف .. فوقف لحظة يسمع على غير رغبة ، فرأه مولاى فدعاه أن يدخل
ليسمعنى ، فأبى عليه ، فقال له : إنى أقعدك فى مكان تسمع منها ولا تراها
فقال : أما هذا فنعم ، فأدخله الدار وأجلسه وسمعنى ، فلما فرغت من غنائى
غمرنى مولاى فخرجت عليهما من وراء الستار كأننى البدر فى تمامه ، فرأنى القس
فعلق قلبه بى ، وطفق يسبح ويذكر الله ، ويحاول أن يهرب مما علق بقلبه منى !..
ثم صار يتردد علينا ، فيقعدنى سيدى بين يديه فأغنى ، حتى شغف بى وشغفت
به ، وعرف ذلك أهل مكة .. وقالوا لسيدى الذى كان يملكنى هناك قبل أن أصير
جارية لسهيل بن عبد الرحمن فى المدينة :

- أيها الرجل قد أفسدت الرجل الصالح بغناء جاريتك !..

قال لهم :

- لا .. والله !.. ولكنى أصلحت جاريتى !..

وحملنى شغفى به ، وقد غنيته يوما وخلا لنا المكان ، أن أقول له :

- أنا والله أحبك !..

قال وقد علت وجهه حمرة الحياء :

- وأنا والله أحبك !..
قلت أغريه
- وأحب أن أضع فمى على فمك !..
قال وقد اضطرب وتحير :
- وأنا والله أحب ذاك !..
قلت أستحثه على الخطوة الأخيرة :
- فما يمنعك .. فوالله إن المكان لخال !..
أطرق القس شيئاً ثم رفع رأسه والدمع فى عينيه وقال لى :
- يمنعنى منه قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .. وأنا أكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة ..
ثم خرج من عندى وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك ، وانهمك فى النسيك ، وقال
قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها
فأعجب لما قاتى به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما
سبل الضلالة والهدى أقسام
وهو الذى كان أيام حبه لى ، يصف صوتى فيقول :
الم ترها لا يبعد الله دارها
إذا رجعت فى صوتها كيف تصنع
تمد نظام القول ثم ترده
إلى صلصل فى صوتها يترجع
ويقول :
سلام هل لى منكم ناصر
ام هل لقلبى عنكم زاجر
قد سمع الناس بوجدى بكم
فمنهم اللائم والعاذر
فهذه والله حكايتى مع عبد الرحمن القس ، وما رأيته منذ فارقت مكة راقمت فى
المدينة !..

● اليوم الثالث :

قدم إلى المدينة حاكم جديد ، فأمر بإخراج المغنين والمغنيات من المدينة بعد
أيام حددها لخروجهم .. وكان الرجل الصالح ابن أبى عتيق الذى يحب سماعى ،

غائبا عن المدينة ، فعاد فى آخر ليلة من لىالى الأجل الذى ضربه الوالى لخروج
المغنين والمغنيات ، فمر بدارنا ، فسلم علينا فقلت له

- ياسيدى ما أغفلك عن أمرنا !..

وأخبرته الخبر .. فخرج فاستأذن على الوالى وقال له :

- جزاك الله خيرا على ما فعلت من إخراج أهل الغناء والفساد ، وأرجو ألا تكون
عملت عملا هو خير لك من ذلك !..

قالى الوالى

- أصحابك الصلحاء أشاروا علىّ أن أفعل وقد فعلت ..

قال ابن أبى عتيق :

- قد أصبت - أصلحك الله - ولكن ماتقول فى جارية هذه صناعتها يكرهها عليها
ذوها إكراها ، فتركت الغناء وأقبلت على الصلاة والصوم والخير !؟ ..

- فإنى لا أخرجها من المدينة !..

- الخير - أصلحك الله - أن تأتيك هذه الجارية فتسمع من كلامها وتنظر إليها
فإنها محدثة لبقة ذات علم ..

ذهبت إلى الوالى فحدثته ، فوجدنى من أعلم الناس بالناس - كما قال لى - لأنى
حدثته عن أبائه وأحوالهم وأمجادهم ، ففكه لذلك وطرب !..

وكان ابن أبى عتيق حاضرا فقال لى :

- أقرئى للأمير قرأنا ..

فقرأت له ، فقال الأمير : هذه أصح قراءة وأجملها ، وقال لى ابن أبى عتيق :

فأسمعى الأمير - أصلحه الله - شيئا من الحدا ..

فحدوت له حدا لا يحسنه الحداة المحترفون وراء الأبل فى صحراء نجد ، حتى
كثرت تعجب الوالى ، فقال له ابن أبى عتيق من فوره :

- فكيف لو سمعتها أيها الأمير - أعزك الله - فى صناعتها .. الغناء ؟!..
فتردد الأمير قليلا ثم أمرنى فغنيت ، فأحسننت ماشئت ، وجئت فى غنائى بما
يشبه السحر ، حتى نهض الوالى من سريره فقعد على البساط بين يديّ ، وصاح
وقد استبد به الطرب

- لا والله يا ابن أبى عتيق .. مامثل هذه تخرج من المدينة أبدا !..

فلما هدأت سورة الطرب فى جوانح الأمير قال له الشيخ :

- أيها الأمير .. لو تركت سلامة وحدها فى المدينة ، لقال الناس : ترك الأمير
سلامة وحدها وأخرج غيرها !.. ثم لا يدعك الناس من أقاويلهم الكاذبة !.. فما أنت
صانع أيها الأمير أصلحك الله ؟!..

قال الأمير فى حسم :
- إذن لا يخرج من المدينة أحد من المغنين والمغنيات مادامت فيها سلامة ! ..

● اليوم الرابع :

مات عمر بن عبد العزيز .. أحزننا موته ! تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فكان أول ما قاله : « ما يقر عينى ما أوتيت من الملك حتى أشتري سلامة وحبابة » !..

وماهى إلا مدة يسيرة حتى قدم رسل يزيد بن عبد الملك إلى المدينة ، فاشترى حبابة ، ثم اشترونى ، وبلغ ثمنى عشرين ألف دينار قبضها ابن سهيل مغتبطا بالثروة التى هبطت عليه ، ولكنه قال لى :

- والله ماتقر عينى بهذا المال كما تقر برؤيتك وسماعك !.. ولكن لابد من إجابة يزيد بن عبد الملك إلى ما أراد !..

خرجت من المدينة فشيئاً فخلق كثير ، فوقفت بينهم أودعهم ومعى العود ، فغنيتهم

فارقونى وقد علمت يقينا

ما لمن ذاق ميتة من إياب

ثم ركبمت متأهبة للرحيل ، فانتحب الناس بالبكاء ، وتحركت الركاب بى وحبابة ، فى اتجاه دمشق !..

فلما دخلنا إلى يزيد بن عبد الملك فى قصره ، أشرق وجهه بالنور ، وقال وهو يفتح ذراعيه لحبابة ولى

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالإياب المسافرين

ثم قال

- ماشاء بعدُ من أمر الدنيا فليفتنى ، فقد ملكت سلامة جارية ابن سهيل الزهرى ، وحبابة جارية آل لاحق !..

وخيل إلى أن الزهريين واللاحقيين قد أصبحوا أعظم الناس .. ألم يذكرهم الخليفة وكأنه أخذنا منهم سبائاً فى حرب طاحنة !..

لم يتركنا يزيد للراحة إلا قليلاً ، ثم أمرنى فغنيت فى شعر عبد الرحمن القس :

الا قل لهذا القلب هل أنت مبصر

وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

ألا ليت أنى حين صار بها النوى
جليس لسلمى حيثما عج مزهر
إذا أخذت فى الصوت كاد جليسا
يطير اليها قلبه حين ينظر
كان حماما مستهما مؤديا
إذا نطقت من صدرها يقشعر

فطرب يزيد طربا شديدا ، ثم تفكر لحظة وسألنى :
- يا حبيبتى .. من قاتل هذا الشعر ؟!
فقصصت عليه القصة ، فرق للقس ولى ، وقال :
- أحسن الرجل الصالح ، وأحسنت ياسلامة !..

● اليوم الخامس :

فى الأيام الأولى لنزولنا أنا وحبابة فى قصر يزيد بن عبد الملك كانت حبابة تنتظر لى بعين الإجلال والتعظيم لما سلف لى من الفضل عليها فى تعليمها ..
ولكن يزيد بن عبد الملك مال اليها وخصها بحب مفرط ، وتدلّه بها حتى عجبت هى نفسها من تدله الخليفة بها وهى جارية ملك يمينه .. ثم تغيرت معاملتها لى حين رأت تفضيل الخليفة إياها لأنها مفرطة الجمال ، وأما أنا فمغنية بارعة ولكنى لست فى مثل جمال وجهها !..

قلت لحبابة

- ويحك يا حبابة .. أين تأديب الغناء وأين حق التعليم ؟!.. أنسيت قول جميلة لك يوما وهى تطارحنا الألعان : خذى إحكام ما أطارك به من سلامة ، ولن تزالى بخير ما بقيت لك وكان أمركما مؤتلفا ..

قالت لى حبابة :

- صدقت يا خليلتى .. والله لا عدت إلى شىء تكرهينه أبدا !..

ماتت حبابة إذ شرقت بحبة عنب رماها يزيد بن عبد الملك فى فمها مداعبا وهو يؤاكلها ..

حزن يزيد عليها ورفض دفنها ثلاثة أيام بعد موتها حتى أنتنت ، وأقنعوه بدفنها .. فلما مضت أيام اشتاق إليها فنبش قبرها وأخرجها وقد تغيرت جنتها وتشوهت ، فقبل له

- ألا ترى ما فعل الموت بها ؟!..

قال فى جنون

- مارأيتها قط أجمل مما أراها الآن! ..

فأخذوها منه قسرا وأعادوا دفنها .. ومضوا به إلى قصره ..

واليوم فارقنا يزيد بن عبد الملك! ... سمع الناس صوتي وأنا أنوح عليه .. ثم
صحت : وا أمير المؤمنين! ... فعرف الناس أنه مات .. وجاء ولى عهده هشام بن
عبد الملك الذى أصبح خليفة فسكّنتى وأمرنى بالاحتشام فامتثلت لأمره ..
وهشام لا يبالى بغنائى ولا يهمه أمر الغناء كله فى شيء .. ولا أدرى ماتأتى به
الأيام! ..

يوميات حباية

للحب وقت وللموت وقت



● اليوم الأول

أول من ملَّكَنِي وأنا جارية صغيرة ناشئة في صناعة الغناء ، يدعى « ابن مينا » على يديه كانت بداية تخرجي في الغناء وتأديتي وتعلمي ، ثم اشتراني رجل يعرف بابن رمانة ، فمكثت عنده قليلا فسمعتني بعض المكيين من هواة الغناء فاشتراني أخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومالك بن ابي السمع ومعبد، وعن جميلة وعزة الميلاء ، وهؤلاء سادة فن الغناء من الرجال والنساء في مكة والمدينة ، لا ينافونهم فيه أحد ..

زاملتني في طلب هذا الفن عند هؤلاء الأساتذة الكبار ، صديقتي وحبيبتى : « سلامة » التى سماها أهل المدينة : « سلامة القس » لما اشتهرت قصة حبها لعبد الرحمن القس ، وحبها لها ..

وعن استاذتنا الجميلة أخذنا أسرار صناعة الغناء ، فلها الفضل الأكبر علينا ، وكانت سلامة أحذق منى وأسرع فى فهم الألحان وغنائها على وجهها الصحيح ، فكانت جميلة تأمرها بمطارحتي الألحان حتى أتقنها ، فصار لسلامة عندى فضل التعليم ، فلولاها ما أتقنت الغناء !..

اشتهرت أنا وسلامة معا بإجادة الغناء ، واشتهرت أنا الى ذلك بحلاوة الوجه والظرف والرشاقة والجمال الفائق .. حتى سمانى الناس « العالية » ! زار المدينة يزيد بن عبد الملك ، نائبا عن أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة فى دمشق ، فحدثوه عنى وعن سلامة ، فجاء يسمعا فأدخلت الى مجلسه وأنا فى إزار له ذنبان ، وببديى دف أنقر عليه وأغنى .

ثم دخلت سلامة ففنته أيضا أجمل غناء .. فبلغنا بعد انصرافه ، أنه قال : « ماتقَرُّ عيني فى هذه الدنيا حتى أشتري حباية وسلامة » ! .. فقيل له : « ولماذا لم تشتريهما وفى يدك المال ؟ » . قال : « لو فعلت ذلك وبلغ أخى سليمان ، لأمر بالحجر على ، لأنه يرى مثل هذا العمل سفها يستحق الحجر » ! ..

● اليوم الثانى :

مرت أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك القصيرة ، ثم مرت من بعده أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز الخاطفة ، ونودى بيزيد بن عبد الملك خليفة فى دمشق ..

حضر رسل السيدة « أم الحجاج » وهى أم الطفل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأعلنوا أنهم يريدون شرائى وشراء سلامة ، وشاع فى المدينة انها تريد إهداءنا الى زوجها الخليفة الجديد يزيد بن عبد الملك ، لعلمها بشغفه بنا فسبقتة الى شرائنا لتكون هديتها اليه حتى توطىء لابنها عنده فى ولاية العهد .. دخلنا قصر الخليفة فى دمشق يوم جمعة وهو متأهب للصلاة ، فسمعناه يقول لأخيه مسلمة بن عبد الملك :

- بماذا كان عمر بن عبد العزيز معدودا عند الناس فى الخلفاء الصالحين ، وبماذا صار أرجى لربه عز وجل منى ؟!

قال مسلمة

- بعدله وتقواه وعفافه وزهده ونظره فى مصلحة الرعية !

قال يزيد

- فأنا أسير على جادته إن شاء الله ..
فلما فرغ من الصلاة ، عاد الى القصر ، وأمر فأحضرولى وسلامة بين يديه ، وتغنيت فى شعر الأحوص ولحن معبد

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فكن حجرا من يابس الصخر جلما
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى
وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

فطرب يزيد طربا شديدا ، وأمر لى بجائزة من جوهر ولؤلؤ ، وأرسل إلى الأحوص أربعين ألف درهم ..
وانشغل بى يزيد ليلا ونهارا ، فأيقنت أنه أحبنى حبا ملك شغاف قلبه ، فلا فكاك له منى ..

وجاء أخوه مسلمة بن عبد الملك يقول له : - يا أمير المؤمنين .. إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وهو من تعلم عدلا وصلاحا ورعيا للناس ، وأنت مقيم على الغناء والشراب ، وقد تشاغلت بهذه الجارية عن النظر فى الأمور ... والوفود واقفة ببابك قادمة من أقصى خراسان وأقصى الأندلس ، وأصحاب الظلمات يصيحون فى طلب العدل وأنت غافل عنهم ! .

فوجم يزيد وتفكر مليا ثم قال لأخيه
- صدقت والله ، فلا جلست هذا المجلس بعد اليوم ، ولا انشغلت الا لما كان عمر بن عبد العزيز ينشغى به من العمل الصالح ! ..

● اليوم الثالث :

مكثت أياما لا أرى يزيد ولا يدعونى ، فلما كانت صلاة الجمعة وأراد الخروج لها ، تصديت له والعود فى يدي ، وتغنيت : « وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى » !
فغطى وجهه وقال لى مه ! .. لاتفعلى هذا ! .. لاتغنى !

ولكنى لم أكف عن الغناء ، فتوقف ثم عدل إلى ناحيتى وجلس متحيرا ، فغنيتة

وعهدى بها صفراء رودا كأنما نضا غرقُ منها على اللون مجسدا
مهفهفة الأعلى واسفل خلقها جرى لحمه مادون أن يتخذدا
من المدمجات اللحم جدلا كأنها عنان صناع مدمج القتل محصدا
كان ذكى المسك بارٍ وقد بدت وريح خزامى طلة تنفج الندى

فطرب يزيد طربا شديدا ، وصاح
- لعن الله من لامنى فيك ! .. يا غلام .. قل لمسلمة أن يصلى بالناس ' ..
وأقام معى يسمع ، وعاود ما كان فيه !
ثم جاءه أخوه مسلمة - وهو رجل صالح حقا - فقال له
- ضيعت حوائج الناس ، واحتجبت عنهم .. أترى هذا مستقيما لك ، وقد
تركت شهود الجمعة الجامعة ، وقعدت فى منزلك مع هذه الاماء المغنيات ؟
فلما انصرف مسلمة قال لى يزيد
- هذا أخى الأكبر ، وهو رجل الحرب والسياسة فى دولة بنى أمية الآن ، ولو
لم تكن أمه جارية رومية من جوارى أبى عبد الملك ، لكان مسلمة هذا أحق أبناء
عبد الملك بالخلافة من بعده ! ..

فغضبت وقلت .
- أترى أبناء الجوارى أقل شأنًا من أبناء الزوجات العربيات ؟ .. فما تصنع
إذن لو جئت أنا منك بغلام ؟ .. أتعهد له بالخلافة أم لابن زوجة من زوجاتك
العربيات ؟ ..

وخرجت من عنده مغضبة ، فلما طال غضبى عليه وهجرى إياه ، دعا خصيا
من غلمان القصر وقال له : انطلق فانظر أى شىء تصنع حباية الآن !
فوجدنى الخادم مؤترزة بيزار أحمر أصفر مطيب بأنواع العطور الفاخرة ،
وللتوب ذيلان طويلان ، وأنا الهو والعجب بالعابى ، فوقف الغلام قبالتى لحظة ثم
عاد إلى يزيد فأخبره ، فشق عليه انشغالى عنه ، وأراد أن يغيظنى ، فدعا
بسلامة وأمرها أن تغنى بحيث أسمع غناءها :

فقلت ألا ياليت أسماء اصقبت وهل قول ليت جامع ماتبددا
وإنى لأهوها وأهوى لقاءها كما يشتهى الصاوى الشراب المبردا

فعلمت أن سلامة تخاطبني بهذا الشعر ، وتناشدنى أن « أصاقب » أو أدنو بعد الابتعاد
وتؤكد ما يحمله يزيد لى من الهوى المبرح والظمأ إلى الصلح بعد الخصام ! ..

فحمدت لسلامة سعيها لوصل ما انقطع بيني وبين يزيد وقلت فى نفسى : « والله لا ترى سلامة منى الا خيرا ماعشت ! .. وإنها لخليفتى حقا ، ولا أمسها بشيء تكرهه أبدا مهما حظيت أنا عند يزيد ، وتخلقت هى عنى فى الخطوة عنده » .. !
فمشيت على مهل حتى بلغت مجلسهما فتوقفت سلامة عن الغناء ووثب يزيد فاعتنقتى فرحا بوصالى ، وجلست فغنيت فى شعر جرير :

ألا حي الديار بسعد ، إنى أحب لحب فاطمة الديارا
أراد الضاعنون ليحزنونى فهاجوا صدع قلبى فاستطارا

فطرب يزيد حتى أوشك أن يفقد صوابه وصاح : هل أطير ؟! .. فرددت عليه متفترية متدللة والى من تدع الناس بعدك ياسيدى ؟! .. قال : إليك ! ..
ثم قال لى مبهورا :
- هل رأيت أحدا أطرب منى فى جميع الناس ؟!
قلت
- نعم معاوية بن عبد الله بن جعفر الهاشمى .

● اليوم الرابع

استدعى يزيد من المدينة ، معاوية بن عبد الله بن جعفر الذى قلت إنه أطرب الناس ، فأرسلت إلى معاوية قبل أن يدخل مجلسنا ألا يظهر امتعاضا مما يراه من أفعال يزيد حين يطرب .. فلما دخل مجلسنا غنيت فى شعر لابن قيس الرقيات ولحن لابن سريج :

حلق من بنى كنانة حولى بفلسطين يسرعون الركوبا
هزئت أن رأت مشيبي عرسى لاتلومى ذوائبى أن تشيبا

فطرب يزيد وطرب معاوية بن عبد الله ولكنى سمعته يقول همسا : « سواة لى على كبر سننى أجالس هذا المائق » ! ..
ثم كأنما خشى معاوية أن تفوته الجائزة من يزيد حين يرى قلة نشاطه لغنائى ، فقام معاوية فأخذ وسادة فوضعها فوق رأسه وقام يدور وينادى هو ويزيد فى إبهاء القصر : « الدخن بالنوى » .. وهذا نداء الباعة فى سوق دمشق على « اللوبيا » ..
فأكبره يزيد لما رأى من مسابره له فى طربه وطريقة تعبيره عن الطرب ، وأمر له بتعانية الألف دينار ، وهى جائزة لم يأخذ منه مثلها أحد قط ! ..

لم يكد معاوية بن عبد الله ينصرف حتى دخل رجل كنت وصفته ليزيد بشدة الطرب ،
فغنيت

تشط غدا دار جيراننا وللدار بعد غد أبعد

فوثب الرجل حتى القى نفسه على نار شمعة كبيرة فأمسكت النار بلحيته ، فجعل يقفز
هنا وهناك في القصر ويصيح : الحريق .. الحريق .. يا أيها الناس ! ..
وضحك يزيد حتى استلقى على قفاه ، وقال :
- لعمرى إن هذا لأطرب الناس ! ..
ووصله بالكف دينار ! ..
ويبدو أن ضجة مجلسنا هذا بلغت شيخا خراساني الأصل يعيش في القصر ، وهو من
شيوخ يزيد ، لكنه أعجمي النطق ، وإن كان عالما بالعربية ..
فجاء الشيخ فأقبل على يزيد يعظه وينهاه عما هو فيه من الغناء واللهو ، فقال له يزيد
إجلس واسمع !
فغنيت .

وقد كنت أتیکم بعله غیرکم فافنیت علای فکیف أقول ؟

فطرب الشيخ وقال بلكنته الأعجمية لا .. فيف ! .. جعلنى الله فداك يا هبابة ! .. يريد أن
يقول : لا كيف ! .. جعلنى الله فداك يا هبابة ! .. وذلك ردا على السؤال الذى فى آخر البيت :
« فكيف أقول ؟ .. » ...
ثم قال الشيخ ليزيد :
- هذه جاريتك ملك يمينك ! .. ولا أقول لك : دعها ! ..
وانصرف الشيخ ، ودخل مسلمة بن عبد الملك ، كعادته يعظ أخاه ويحذره عاقبة أمره ،
ويذكره بسيرة ابن عمه الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ..
وسمع يزيد الموعظة مطرقا ، ونظرت الى دموعه تنحدر ! ..
وانصرف مسلمة ، وكأنه رأى أن موعظته هذه المرة أوجعت أخاه وأقنعتة ! ..

يوميات أحمد بن أسامة :

مخترع النصب



الناس يسموننى أحمد النصبى ، وإنما أنا أحمد بن أسامة الهمدانى ، من صميم قبيلة همدان العظيمة .. عشقت الغناء ، فقليل : هذا العاشق الغاوى ، وماغويت والله ولكنى وجدت فى الغناء لذة للنفس والقلب تكتمل بها لذة الشعر ، ولا تنتقص من المروءة شيئاً ..

ولقبى الذى التزق باسمى ، مأخوذ من "النصب" - بسكون الصاد - وهو ضرب من الغناء الرقيق يشبه الحداء ، وماهو بالحداء ولا هو بالغناء الذى لا يصلح ألا بالضرب على العود ..

وأنا صاحب هذا اللون من الغناء .. اخترعته اختراعاً ، وغنيته على الطنبور ، وأحدثت فيه ألحانا كثيرة بارعة يعجز عن مثلها جميع الطنبوريين ، وكثير من أصحاب الغناء المتقن الضاربين بالعيدان ..

فلما كثرت الأنصاف التى غنيتها على الطنبور ، واشتهرت فى العراق والشام والحجاز ، قلدى الطنبوريون فى غناء "النصب" ولم أجد فيهم من جاء بصنعة حسنة ، لأنهم لا يعرفون سر الصناعة التى أنا وحدى صاحبها فى هذا اللون من الغناء ..

وبلغنى أن ابن مسجح وابن محرز وابن سريج ، سمعوا أنصابى من بعض الرواة ، فأعجبتهم ، وحسبك بإعجاب هؤلاء المغنين الفحول من شهادة لى ، مع أنهم يغنون على العود الغناء المتقن ، ويرون الغناء على الطنبور باطلاً !..

وقد كسب هؤلاء وغيرهم من خدمة الكبراء والخلفاء ، أما أنا فلم أخدم بغنائى خليفة ولا والياً ، ولم أنظم الشعر ، وأكثر غنائى فى شعر أعشى همدان ، فبئى لم أزل مواخياً له منذ الصبا .. وهو همدانى مثلى ، وشاعر مُفْلِقٌ فى طليعة الشعراء ..

وكثيراً مايقول لى الأعشى :

– ما أراك زهدت فى خدمة الكبراء والوزراء بغنائك إلا اكتفاء بما آفاه الله عليك من اليسار .. ولو كنت محتاجاً إلى المال ، لدخلت فى خدمتهم كما دخل غيرك .. وقد تعلم مااجتناه مغنومكة والمدينة من الثمرات بغنائهم فى مجالس أولئك السادة الكرام .. وأنت مقيم بالكوفة لا تقصدهم ..

فأقول للأعشى :

– بلى والله ، فبئى لا أغنى إلا تلذذاً بالغناء !..

مع ذلك يزعم أهل الكوفة أنى شديد البخل ، وأنى أقرض الناس بالربا !.. وهذا كله باطل ، فما أنا بالبخل ولا بالمرابى ، ولكنى رجل لا أنفق المال فى غير موضعه ، ولا أعطى من يسألنى بغير حق .. وكل من يرمىنى بنقيصة فليس يخلو

من أن يكون كاذبا أو حاقدا .. فأنا رجل كريم ، شجاع ، حاربت فى عسكر الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وأبليت أحسن البلاء ، ومازلت ألبى كل دعوة إلى القتال ، وإن الحجاج لكثير الحروب ، لكثرة الخارجين عليه وعلى بنى أمية ، وما أنا بالمحب للحجاج وسياسته ولكنى مقاتل لا أقعد مع القاعدين !!

● اليوم الثانى :

● عدت من غزوة فى بلاد العجم وكان أعشى همدان معى فى المقاتلة ، فلما فرغنا من الغزاة وأخذنا طريقنا عائدين إلى الكوفة ، نزلنا فى "ساباط المدائن" على رجل كريم لم يكن يعرفنا وهو سليم بن صالح بن سعد العنبرى ، فأحسن الرجل استقبالنا ، وأطعمنا وسقانا ، وأمر لدوابنا بالعلوفة .. ثم سامرنا ساعة واستأذن فى الانصراف ، ليبيت فى سطح منزله ، وكان مبيتنا نحن فى أحسن حجرات المنزل ..

فلما انصرف قلت لأعشى همدان :

- أما رأيت جميل صنع هذا الرجل بنا ؟! .. انه والله سخى ذو مروءة يستحق أن تمدحه بشعرك !!

قال الأعشى

- نعم وكرامة ، ولكنى اشترط أن تصنع لحنا فى هذا الشعر ، تغنيه فنتسلى به حتى ننام ، أو نسهر على سماعه إلى مطلع الفجر ..

ثم تحرك الأعشى فأخذ ينشد شبه مرتجل قصيدة طويلة فى مدح الرجل ، أخذت منها الأبيات الأولى وهى فى الغزل :

يا أيها القلب المطيع الهوى أنى اعتراك الطرب النازحُ
تذكر جُملاً وَمِنْ نَأْيِهَا طار شعاعا قلبك الطامح
يا جُمْلُ ما حببى لكم زائل عنى ولا عن كبدى نازح

فلحنت الأبيات ، وغنيتها وأنا أضرب بقضيب على دواة ، والأعشى ينعر طربا ويستعيدنى ، حتى ظننت أن أهل الحى كلهم قد استيقظوا من نومهم ، فقلت له مستنكرا أو معاتباً :

- أيقظت بصياحك الناس ، ولا أستطيع تسكينك ، ولو سمعنا صاحب الدار لاستخف بنا ، واستقل مروعتنا ، واعتقد أنه أخطأ إذ أنزلنا فى بيته !!

قال لى الأعشى غير مبال بعتابى :

- ومن الذى يسمع أنصابك هذه ولا يصيح طربا ؟! .. فاسكت أنت عن

الغناء ، فإنما صياحي من أثر غنائك فى قلبى !.. كأنك أوقدت فى قلبى نارا !..

فبينما نحن كذلك دخل علينا صاحب المنزل ، فقال :
- سمعت شعرا ماسمعت أحسن منه ، وغناء لا يقدر على مثله أحد من حذاق المغنين .. فهلا أخبرتماني من أنتما .. أمتع الله بكما ، وزادكما فضلا ومروءة ؟!..

قلت له
- الشعر لهذا الرجل ، وهو الشاعر المشهور أعشى همدان ، والغناء لى ، وأنا أحمد النصبى الهمدانى !..
فانكب الرجل على رأس الأعشى فأشبعه تقبيلا ، وقال له وهو يكاد يبكى تأثرا وسرورا :

- ياسيدى .. مدحتنى بشعر تتمنى مثله الملوك ، وما صنعت لك شيئا أستحق به مدحك !..

ثم تحول ناحيتى فأشبع رأسى أنا أيضا تقبيلا ، وقال لى
- ياسيدى .. والله ما ظننت أن زمانى يبلغنى هذا الأمل ، فأسمع غناك فى شعر يمدحتنى به أعشى همدان ..

فقممت فأقعدت الرجل وهدأت من روعه ، وقلت له :
- والله ما صدق الأعشى قط فى مدح أحد ، صدقه فى مدحك ، لأنه جاء من طبعه ومحبه ، لا من جائزة ينتظرها ..

قال الرجل :
- كتمتاني أنفسكما ، وأوشكتما أن تفارقاني ولم أعرفكما ولم أعلم خبركما ، فوالله ما تطيب نفسى برحيلكما عنى أبدا !..

فأقمنا عند الرجل شهرا ، ثم حملنا على فرسين ، وقال :
- خلفا عندى دوابكما ، فإنى أظنكما راجعين إلى الغزو .. فإذا عدتما بالسلامة إن شاء الله ، نزلتما عندى !..

فانصرفنا ، وكان الرجل ذكيا إذ عرف أننا راجعان إلى الحرب التى كنا فيها منذ مدة يسيرة !.. والحجاج بن يوسف الثقفى لا تنتهى حروبه ، فالناس يخرجون عليه فى كل يوم لكثرة مظالمه وشدة بطشه وطفيانه ، ويفضلون الموت على الحياة .. ووالله ما نذهب إلى الحرب امتثالا لأمره ، بل رغبة فى جمع كلمة المسلمين ورأب صدعهم !..

● اليوم الثالث

ينسى المرء فى الحرب كل مباهج السلام .. فلا يذكر الشعر ولا الغناء ولا الحب ، فإن ذكر شيئا من ذلك ، مر على خاطره مرور الغيمة السوداء ، كأنه يتذكر ماضيا أصبح رجوعه مستحيلا ..

وقد يهجم المقاتل على الأعداء وهو يرتجز ، ولكن الشعر الحقيقى لا يولد بين صليل السيوف !..

وكذلك الغناء !.. فإنى أنسى فى المعركة وقبل المعركة وبعدها أننى مغن وأن لى مذهبا خاصا فى الغناء ، وطنبورا أغنى عليه .. وأنسى أسماء المغنين والمغنيات الذين سمعته فى مكة والمدينة ، وامتلات من غنائهم طربا حتى ظننت أن الدنيا هى الغناء ، والناس هم المغنون !..

جلست مع الأعشى عقب اشتباك دموى مع العدو ، وقد حجز الليل بين المتحاربين ، فقلت للأعشى :

- أتذكر يا أعشى قصيدتك فى سليم بن صالح العنبرى !؟..

- نعم وكيف أنساها ، وقد غنيتنى فى أبياتها الأولى الغزلية !؟

- إنى تذكرت الآن قولك فى هذه القصيدة :

إنى لمن سالمت سلم ومن عاديت أمسى وله ناطح
فى الرأس منه وعلى أنفه من نغماتى ميسم لائح
والخيل تعلم يوم الوغى أنك من جمرتها ناضح

فأنت فى هذه الأبيات تزعم أنك تسالم من يسالم سليم بن صالح ، وتنطح من يعاديه حتى يلوح على أنفه وفى رأسه ميسم من النطح الشديد !.. فماذا تقول لو دعاك الحجاج إلى هجاء سليم بن صالح ونطحه على رأسه وأنفه !؟..

تفكر الأعشى ساعة مطرقا عابسا كأنه لا يحير جوابا ، ثم لجج قائلا :

- لا أراه يدعونى .. وإنما يحتاج الحجاج إلى سيوفنا لا إلى السننتنا !.. وماذا بينه وبين سليم بن صالح مما يدعو إلى طلب هجائه !؟..

وتضاحك الأعشى قائلا :

- ما أظن أن الحجاج يخطر بباله أن مغنيا عظيما مثلك يحارب في صفوف جيشه !.. ولو علم أنك تغنى لأعفاك من القتال مع أنه لا يعفى منه أحدا !..

● اليوم الرابع

انتهت هذه الموقعة ، ولا ندري ونحن عائدان إلى ديارنا متى تنشب معركة أخرى ..

قلت للأعشى :

- نمر على ديار سليم بن صالح العنبري ، كما وعدناه ، وأسألك إذا بلغنا منزله أن تمدحه بقصيدة جديدة ..

فلما شارفنا منزل سليم بن صالح رأيت على سطحه ثعلبا فدهشت ، لأن عهدي بالمنزل أنه معمور محروس ، فكيف طرقه الثعلب وصعد فوقه ؟!..

قلت للأعشى متوجسا شرا :

- إني أرى عجبا !..

- ماهو ؟!..

- أرى فوق قصر سليم ثعلبا !..

فوجم الأعشى ووقف ، وقال :

- لئن كنت صادقا فما بقى في القرية أحد !..

- وكيف يقع مثل هذا الحادث العجيب الرهيب ؟!..

- لعل الطاعون أصابهم !..

- فكيف ندخل قرية أصابها الطاعون ؟!..

- إن الطاعون لا يبقى فيها بعد أن قتل أهلها !..

وأمسك بيدي فمضينا صوب القرية وأنا خائف ، ولا أدري أكان هو خائفا مثلي أم كان كعادته مغامرا لا يبالى شيئا ..

مشينا في طرقات القرية فلم نجد أحدا من أهلها ، إلا شيخا حطمته الأيام والأحزان ، فسألناه عن خبر القرية وأهلها وسليم بن صالح سيد القرية ..

لم يسمع الرجل كلامنا إلا بصعوبة ، ولم يجب عنه إلا بصعوبة ، ولكننا فهمنا القصة ، فإن الحجاج الطاغية قبض على "سليم بن صالح" وطالبه بمال عظيم لا يقدر على جمع نصفه ولا ربعه ، فبيعت كل أملاكه ، وخربت القرية ، وتفرق أهلها ، بعد أن أهلك الحجاج أكثرهم !..

- وابن ذهب سليم بن صالح ؟!

قال الرجل وقد غلبه اليكاء :

- باعه الحجاج عبداً فى سوق الرقيق !..

أذهلنا هذا النبأ ، وصاح الأعشى مستنكراً :

- وهل يحل له هذا البيع ، وسليم بن صالح رجل حر لم يمسه الرق ، ولم

يأسره فى حرب ، وهو مسلم فى دار الاسلام ؟!

قلت للأعشى وقد انكسرت وخامرني الكمد

- وأنى شئ لم يستحله الحجاج ؟!

ومضينا إلى الكوفة ، نقصد منازلنا ومن فيها من الأهل والولد ، ولكننا كنا

مثقلين بالأحزان

لم نكد ندخل الكوفة حتى فوجئنا بسليم بن صالح وقد خرج من بعض بيوت

أشراقها ، ومعه بعض آله الأقربين ، فطردنا اليه تقبل رأسه ونبكي ونسأله عن

قصته ..

قال سليم بن صالح :

- لا بأس علينا الآن أنا ومن بقى من قومي ، فإن صاحب هذا البيت الكريم

من أشرف الكوفة "اشترانى" وأعتقنى لوجه الله !..

يوميات ابن عائشة :

الوليد والساقى



● اليوم الأول :

اسمى محمد ، وأمى اسمها عائشة .. والناس يسموننى "ابن عائشة" .. وقد سألت أمى مرة عن اسم أبى فقالت : كان - رحمه الله - يسمى جعفرا !.. قلت لها : أَوَقَدْ مات ؟!.. قالت نعم .. مات منذ كنت رضيعا لا تعقل شيئا !..

نشأت أمى مملوكة لبعض القرشيين فى المدينة المنورة فلما ولدتنى نشأت مملوكا مثلها .. ثم صرت صبيا ، وصارت هى ماشطة تدخل بيوت السادة وأهل الثراء لتمشط نساءهم وجواريتهم ، فكنت أدخل معها أمسك بذيلها وأنا أكار أقع على الأرض لصفر سننى وضعف بدنى ، فإذا دخلت معها إلى البيوت قالت النسوة : هذا ابن عائشة !.. خذ هذه الحلوى يا ابن عائشة !.. هل تأكل أو تشرب شيئا يا ابن عائشة ؟!.. فقلب هذا الاسم على نسبى ، ولم يعد يذكر أبى أحد ، حتى كان بعض الناس يتغامزون على أمى ، ويتهايمسون : من أى الرجال جاءت بهذا الغلام ؟!.. فلا سامحهم الله ، وسامح الله أبى الذى لم أره ولا أعرفه !..

عشقت فن الغناء صغيرا أخذته عن سيد مطربى المدينة "معيد" وتلميذه "مالك" .. وصار لى فيه شأن كبير حتى ساويتهما فى المكانة عند الخاصة والعامه !.. مع أنى لست بالضارب الجيد على العود ، وأحسن ما فى صناعتى الغنائية ، استهلال الألحان وبدايتها ، فأنا أحسن المطربين استهلالا فى الغناء ، بل أنا - والله - أحسنهم ابتداء وتوسعا وانتهاء ، بعد أستاذى معيد ، لا تتفوق صناعة أحد سواه على صناعتى .. على أننى - والله - أطيب منه صوتا بعد أن كبر وتغيرت نبرات صوته وتقاصرت أنفاسه !..

وأهل المدينة يحبوننى ويغمروننى برعايتهم وحمايتهم .. حدث منذ أيام أن رأى أحد أعيانهم خدشا فى جلد رقبتى فوق حنجرتى ، فسألنى مفضبا : من فعل هذا بك ؟ قلت : فلان !.. فمضى هذا الرجل الوقور العظيم المكانة فنزع ثيابه وجلس بقميص خفيف على باب بيت ذلك الرجل الذى خدش الجلد فوق حنجرتى !.. فلما خرج - وهو من أقربائه - أخذ بتلابيبه وضربه ضرباً شديدا ، والرجل يقول له : مَالَكْ تضربنى ؟!.. أى شىء صنعت ؟!.. وهو يضربه ولا يجيبه عن سؤاله حتى أدمى جلده ، ثم خلاه وأقبل على الناس الذين اجتمعوا يحجزون بينهما فقال : - هذا الأحمق الجاهل خدش حلق ابن عائشة .. أراد أن يكسر مزامير داود عليه

السلام !..

أما "أشعب" الظريف ملك الطفيليين وأبرع من يفهم الغناء ويقلد المغنين ، فإنه يقول دائما لأهل المدينة

- لا تتركوا ابن عائشة حتى تزوجه من أجمل المغنيات صوتا ، حتى يخرج لهما ولد يحمل فى حلقه مزامير داود !..

ويقول لى أشعب :

- أنت والله أظرف مجلسا وأكثر طيبا من أن تجالس هؤلاء الناس ، وإنك لتصلح أن تكون نديم خليفة أو سمير ملك !..

أما "جميلة" أستاذة جميع المغنيات ، فقالت لى :

- .. وأنت يا أبا جعفر .. فمع الخلفاء تصلح أن تكون !..

ولكننى سيىء المعاشرة للناس ، فإذا قال لى أحدهم : غن لنا شيئا !.. صحت فيه : أألمتى يقال هذا ؟ !.. وإن غنيت فقال لى : أحسنت !.. قلت : أألمتى يقال أحسنت ؟ !..

وإننى لأتبه وأتدل حتى على سيدى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فإنه سألنى مرة أن أغنيه فامتنت ، فتوعدنى لأن لم أغنه مائة لحن ، ليأمرن بطرحى فى ماء البئر حتى أشرف على الغرق !.. واضطرت يومها أن أغنيه بدل الصوت الواحد ، مائة صوت !..

وقد سرنى يومئذ أن أهل المدينة جميعا اجتمعوا يسمعون هذه الأصوات المائة ، فما تشاغل أحد بشيء عن استماع غنائى ، ولا انصرف أحد إلى قضاء حاجة حتى أتممت الأصوات المائة ، ورفع الناس أصواتهم يقولون لى : أحسنت والله !.. أحسنت والله !.. ثم قاموا يزفوننى إلى منزلى بالمدينة كأننى عروس !..

● اليوم الثانى :

قصدت أمير المؤمنين الوليد بن يزيد فى دمشق .. أدخلنى الحاجب فوجدت عنده حمادا الراوية ومعبدا سيد المغنين وتلميذه مالك بن أبى السمح .. فقال لى الوليد :

- أراك فى مقتبل الشباب وكنت أظنك شيخا لاستفاضة شهرتك !..

ثم قال لى غننى

وهى إذ ذاك عليها منزر

ولها بيت جوار من لعب

فغنيته ، فرمى إلى بثوبين فاخرين .. وقال : غننى :

طاف الخيال فمرحبا

ألفا برؤية زينبا

فغنيته ، فوقف يهتز طربا ، ونعر نكرة سمعها كل من فى القصر وأمر لى بألف دينار ، وغمرنى بالخلع السنية !..

فغضب معبد وقال

- يا أمير المؤمنين .. إننا مقبلون عليك ونحن شيوخ هذه الصناعة ، وإنك تركتنا بمزجر الكلب ، وجعلت همك كله فى غناء هذا الغلام !..

قال الخليفة

- والله يا أبا عباد ما جهلت قدرك ولا سنك ، ولكن هذا الغلام طرحنى فى مثل الطناجير من حرارة غناؤه !..

ثم أمر الخليفة لمعبد ومالك بجوائز عظيمة فاقت جائزتى ، وأكثر لهما من الثياب الموشية وحقق الطيب ، حتى رضيا ، وأنصرفا ، وبقيت أنا فى حضرته .. فقال لى

- أعد ذلك الصوت الذى أثقلب فيه على الطناجير المحمية فى النار !..

فلم أدر أى الصوتين يريد .. ففطن لذلك فقال لى :

- أردت صوتك فى شعر أمرىء القيس !..

فاندفعت أغنى الصوت من أوله :

عهدتنى ناشئا ذاغرة رجل الجمة ذا بطن اقب
اتبع الولدان أرخى مئزرى ابن عشر ذا قريط من ذهب
وهى إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوار من لعب

فأوشك أن يخرج من ثيابه طربا ، ونعر أشد من نعرته فى المرة الأولى ، فجاءت سلامة القس فجلست غير بعيد تسمع غنائى وتهز رأسها طربا ، وهى من هى براعة فى الغناء ، وجمالا فى الصوت ، ومعرفة بأصول الصناعة !..

وما أعجب تقلبات مزاج هذا الخليفة ، فإنه أمر فجأة بإسدال ستار يحجبه عنى ، فظننت أنه غضب من شىء ، وإذا به من وراء الستار يقول لى

- اتحفظ لحن ابن سريج « إنى رأيت صبيحة النفر » !؟

قلت :

- نعم يا أمير المؤمنين ، فإننى سمعته منه ..

فأمرنى فغنيت :

إنى رأيت صبيحة النفر حورا نفين عزيمة الصبر
مثل الكواكب فى مطالعها بعد العشاء أطفن بالبدر
وخرجت أبغى الأجر محتسبا فرجعت موفورا من الوزر

فرفع الوليد الستارة وصاح
- يا غلام اسقنا بالسماء الرابعة !..
فلم أفهم معنى قوله " السمااء الرابعة " وقلت لعله اسم إناء كبير من أوانهم
الذهبية التى يطلقون عليها الاسماء العجيبة !..

ثم قال لى متودرا كأنتى أنا السلطان لا هو :
- أحسنت والله يا أميرى !.. أعد بحق عبد شمس !..
فقلت فى نفسى أترى كان الشيخ الوقور عبد شمس بن عبد مناف يرتاح
ويطيب نفسا لو شاهد حفيده هذا وقد طرح أمور الحكم كلها وراء ظهره وتفرغ لما
هو فيه

ثم أعدت عليه اللحن ، فقال لى
- أحسنت أيها الأمير !.. أعد بحق أمية بن عبد شمس !..
فزاد عجبى منه ، وأعدت اللحن فقال
- أحسنت يا أميرى .. أعد بحياتى !..
فأعدت .. فوثب يدور فى القصر من الطرب ، ثم هجم على فأكب يقبل رأسى ثم
وجهى ثم صدرى ثم يدى ، فتراجعت وأنا لا أصدق ما أراه وقد ملأنى الدهول
والخوف !..

ثم نزع ثيابه فألقاها لى كلها ، وبقي حتى أتوه بمثلها ، ووهب لى ألف دينار
أخرى ، وحملنى على بغلة ، وقال لى متهدج الصوت
- أركبها - بأبى أنت - وانصرف ، فقد تركتنى على مثل المقلى من حرارة
غنائك !..

وجاءوا بالبغلة حتى وطئت البساط فركبتها وهى واقفة على بساطه ثم انصرفت
وقد أيقنت أنه لا يوجد فى الدنيا كلها أطرب من هذا الرجل ، ولا أكرم منه عند
الطرب ..

● اليوم الثالث :

فى طريقى من دمشق عائدا إلى المدينة بعد ذلك اليوم الذى لا أنساه عند الوليد
بن يزيد ، مررت بوادى القرى ، ويعجبنى حب أهله للغناء .. ولا عجب فهم بين

المدينة والشام ، وانما تتردد أصداء الألحان بين هذين الموضعين !..
لقبني فى وادى القرى رجل يشتهى الغناء أكثر مما يشتهى الحياة والمال
والبنين !..

دنا منى وقال :

- فديتك !.. أنت ابن عائشة أم المؤمنين ؟!..

فصرخت فيه :

- ويليک !.. أكافر أنت أم جاهل أم مجنون ؟! .. ألا تعلم أننى من موالى قريش ،
وأُمى اسمها عائشة ، وحسبك هذا فلا تكثر من السؤال !..

وأعرضت عن هذا الجاهل الأحق ، فتمسح بى يسأل :

- ماهذا الذى بين يديك من المال والكسوة ؟!..

قلت وقد ضقت به أشد الضيق :

- غنيت رجلا كريما فأطربته فأمر لى بهذا المال وهذه الكسوة !..

- جعلنى الله فداك .. فهل تمن على بأن تسمعنى ما أسمعته ذلك الرجل
الكريم ؟!..

- ويليک !.. أمثلى يقال له هذا فى الطريق ؟!.. ثم تجعل نفسك نداً للعظماء
فتطلب سماع ما أسمعتهم ؟!

وحركت بغلتي لأنصرف ، فعدا الرجل خلفى حتى لحقنى عند بعض البيوت ،
فدخلت البيت - ولى فيه صديق - ومكثت طويلا لا أدعو الرجل حتى يضجر
فينصرف ، فلما أعيانى طول صبره على الانتظار أمرت غلامى بإدخاله ..

قال متوسلا

- ياسيدى أنا رجل من وادى القرى اشتهى هذا الغناء !..

قلت :

- هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟!..

- وماذاك ؟!

- مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك فتطعمهم وتكسوهم
وتسرههم !..

أطرق الرجل قليلا ثم قال :

- جعلت فداك .. والله إن لى لبنية مافى أذنها - علم الله - حلقة من الصفيح

فضلاً عن الذهب !... وان لى زوجة ما عليها - يشهد الله - قميص !... ولو أعطيتنى جميع ما تملك على حالتى هذه من الفقر ، ثم ضاعفت لى العطاء ، لكان غناؤك أحب إالى وأعجب !.

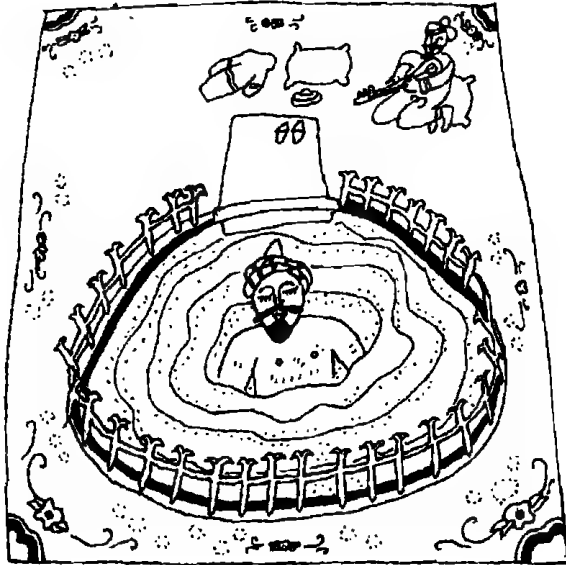
فتعجبت من الرجل أشد العجب ، ودخلتنى الرحمة به ولم يكن معى عود ، فدعوت بداوة انقر عليها بقضيب وغنيته فطرب طرباً شديداً ، وجعل يحرك جسده ورأسه بعنف شديد حتى أوشك رأسه أن يطير !..

ومازلت أغنيه متطوعاً غير باخل عليه - وأنا الذى آتية حتى على السلطان وأبخل على السادة - حتى هدأ وهمد من فرط الطرب وظننت أنه يهدم حتى يموت !.. ولا أدري كيف بلغ خبر هذا الرجل معى إلى الوليد بن يزيد ، فأحضره مجلسه ، ووصله صلة سنية ، وجعله فى ندمائه ، وأقامه ساقياً يدور على الندامى !

علمت ذلك فقلت فى نفسى : « والله لأغنين فى زيارتى القادمة للوليد ، غناء لم يسمع أحد مثله من قبل ، حتى أرى مايكون من شأنه ونديمه الساقى الطروب حين يستبد بهما الطرب ، فكلاهما أطرب من صاحبه ، ولو كان لهذا الساقى سلطان كسلطان الوليد بن يزيد ما فعل أكثر مما يفعل بل لعله كان يفىء إلى شىء من العقل بعد نشوة الطرب !..

يوميات عطرّد

سقوط الفساد



● اليوم الأول

قال لى أحد أصدقائى : يا أبا هارون .. لماذا أختار لك أبوك اسم « عَطْرُد » ؟ ! .. قلت : هو اسم من الأسماء لا يقدم ولا يؤخر ، وما أنا إلا رجل من الموالى نشأت فى المدينة المنورة ، مولى للأنصار .. لاحرفة لى إلا الغناء ، وإنها لاحرفة كاسدة فى هذا الزمان إلا إذا اصطفانى الخليفة أو أحد الأمراء ، ومتى يوجد علينا الدهر بتحقيق هذه الأمنية ؟ !

قال لى

- والله إنك لحسن السميت ، جيد الغناء ، طيب الصوت ، جميل المروءة .. فقيه ، قارئ للقرآن .. فمن يجتمع له مثلك كل هذا ثم لا يجد فى الحياة مجالا ؟ ! .
فبينما نحن نتحدث فى هذا وفى غيره من الأمور ، دق بابى جماعة من أهل النعمة ، فخرجت إليهم ، فقال أحدهم

إنى قصدت إليك من أهلى .

فى حالة يأتى لها مثلى

قلت له :

- وما حاجتك أصلحك الله ؟ ! ..

قال :

لا طالبا شيئا إليك سوى

« حى الحمول بجانب العزل » .

فقلت :

- انزلوا على بركة الله !

فلما جلسوا ، قلت لصديقى الذى كنت أحدثه :

- إن سادتنا هؤلاء جاءوا ليسمعوا منى لحنى فى شعر امرئ القيس .

حى الحمول بجانب العزل .

إذ لا يوافق شكلها شكلى

قال صاحبى :

- قد تخيروا والله لحننا من أحسن الحانك ، وإنهم ما طلبوا إلا أجود الغناء فى أجود الشعر ..

فلم أزل أغنيهم هذا اللحن ويستعيدونه حتى امتلأوا طربا ، وانصرفوا وقد تركوا لى صرة كبيرة من الدراهم ! ..

● اليوم الثانى :

جاءنا فى المدينة خبر وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك واستخلاف الوليد بن يزيد بن عبد الملك ! ..

قال الناس فى المدينة : انتهت خلافة بنى أمية ، فقد كان هشام آخر عقلائهم ، تمرس بالحكم عشرين عاما ، وبسط هيئته على دولة الخلافة من الأندلس إلى الهند ، أما وقد توفاه الله ، وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، فإن شمس بنى أمية قد أذنت بالمغيب ! ..

سألت أحد الثقات من أهل العلم بالمدينة :

- لماذا يرى الناس أن دولة بنى أمية قد أذنت بزوال ؟ ! ...

أجاب

- لأن الوليد بن يزيد سيهدم بجنونه وفساده كل ماتع فى بنائه أسلافه من بنى أمية أو بنى مروان ..

- وكيف ؟ ! ...

سيتلهى بالشراب والنساء والغناء عن أمور الدولة حتى يضع مصالح الناس ويثيرهم عليه ، وإن بنى هاشم ليتحينون هذه الفرصة منذ قتل هشام بن عبد الملك شهيدهم زيد بن زين العابدين وعرضه على الناس مصلوبا على خشبة ! ... وقد كان زيد رجلا صالحا لا يطعن على أبى بكر وعمر كما يفعل كثير من شيعة الطالبين ..

طرق بابى حاكم المدينة بنفسه ! ...

كنت من قبل لا أجرو أن أقف فى الطريق لأرى موكبه من بعيد ! ..

قال لى متوددا

- إن امير المؤمنين اعزه الله كتب يأمرنى باشخاصك إليه فى دمشق !

ثم أخرج الحاكم كتابا مختوما فأقرأنى إياه .. وقال لى والعطف ملء نبراته :

- تجهز للسفر من الغد على بركة الله ! ..

زودنى الرجل بنفقة طيبة ، وأمر أتباعه أن يحملونى على ألين محمل فوق بعير فاره حسن المنظر ، ويسيروا فى خدمتى حتى أبلغ باب الخليفة فى عاصمته ! ..

فى الطريق من المدينة الى وادى القرى الى الشام ... كنت أقول لنفسى : كنا فى أيام هشام نخاف من السجن ، إذ كان عماله يأخذون المغنين فيحبسونهم ويعاقبونهم ، ويسمونهم بالمختئين ، وهانحن هؤلاء نرفع رءوسنا ونقصد دار الخلافة معرزين مكرمين ! ..

● اليوم الثالث :

دخلت على الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وفى ذهنى سيرة أبيه يزيد بن عبد الملك الذى مات حزنا لموت « حبابة » المغنية الجميلة التى كانت فى حوزته

لقد سمع « حبابة » عندما كانت جارية فى المدينة ، أناس كثيرون ، أدركت بعضهم فسألتهم كيف كان غناؤها ؟ ! ... فقالوا جميعا أنها كانت متوسطة ، لاتعلو ولا تسفل ، وانها كانت لاتساوى شيئا بجانب زميلتها سلامة القس ، ولكن حبابة كانت فائقة الجمال ، فذهبت بعقل يزيد بن عبد الملك ، ومات كمدا عليها حين شرقت بحبة رمان اوحية عنب ، وماتت ! ! ... ولم يستطع أن يتسلى عنها بسلامة التى كانت هى أيضا فى حوزته ، ولا بأية جارية أخرى ! ...

نظرت متوجسا الى حيث يجلس الوليد بن يزيد ، فرأيته شابا حسن المنظر ، قد طرح هموم السلطان وراء ظهره وجلس على حافة بركة ماء صغيرة !

قال لى ولم يتركنى أسلم عليه

- أنت عطرذ المغنى ؟ ! ... إن سلامة جارية أبى سمعت عن إحسانك فى الغناء فحدثتنى عنك ! ...

قلت وأنا أدعو فى نفسى بالخير لسلامة التى لم أرها قط والتى قاربت الآن سن الخمسين

- إنى خادمك يا أمير المؤمنين ، وأسأل الله ان أبلغ محبتك فيما دعوتنى إليه ! ...

قال الوليد

- وحدثونى عن ظرفك وجودة صناعتك ! ... ولقد كنت مشتاقا إليك يا أبا هارون ! ...

هممت بالكلام ، فقاطعتنى قائلا :

- غننى « حى الحمول بجانب العزل » ..

فغنيت له إياه ، وملأ خياشيمى وأنا أغنى نفاح عجيب يجىء من ناحية بركة الماء ! ...

لمحنى الوليد وأنا أغنى ، أشرئب إلى « البركة » استطلع حقيقة مافياها .. فلم يتكلم حتى أتممت غنائى ، فشق ثياب وشى فاخرة كانت عليه ، وألقاها نصفين ، ورمى بنفسه فى البركة الصغيرة ، فنهل منها ماشاء ، حتى كأنى تبينت التقصان فى مائها ، فلما أخرجوه منها كان أشبه بالميت .

وجاء الخدم بغطاء فوضعوه عليه ونام ، وأخذت أنا الحلة المشقوقة وقمت فانصرفت إلى المنزل الذى أنزلنى فيه ، متعجبا مما رأيت ، مستعيذا بالله من الشيطان ! ...

● اليوم الرابع :

جاءنى رسول الوليد فى بكرة الصباح فأخذنى إليه ، فدخلت وقد جلس كأمرس على شفير البركة ، فقال لى :

- ياعطرد غننى

أيذهب عمري هكذا لم أنل بها
مجالس تشفى قرح قلبي من الوجد
وقالوا يداوى .. إن فى الطب راحة .
فعللت نفسي بالدواء فهل يجدى ؟ !

فغنيت هذا اللحن ، فصاح طريا ، وشق حلة وشى كانت تلتصع عليه بالذهب التماعا ، أغلى بكثير من الحلة التى شقها أمس ...

ثم ألقى نفسه فى البركة فشرب منها حتى نقصت نقصا واضحا ، وأخرجه الخدم منها ، وألقوا عليه الأغطية فنام تحتها ، فأخذت حلة الوشى الفاخرة وانصرفت ! ...

جلست فى منزلى أفكر فى هذا الذى يحدث أمامى كل يوم ... طال تفكيرى حتى طرق الباب من يستدعيني إلى الوليد فدهشت لأنى تركته منذ ساعة شبه ميت ، فكيف صحا وعاد إلى الدنيا فى ساعة واحدة ؟ ! ...

أدخلونى إليه فى بهو قد أقيت ستوره ، وإذا به يكلمنى من وراء هذه الستور - ياعطرد ! ...

- لبيك يا أمير المؤمنين ! ...

- كأنى بك الآن وقد رجعت إلى المدينة فقامت بى فى مجالسها ومحافلها وقعدت تقول دعانى أمير المؤمنين فدخلت عليه فاقترح أن أغنيه فغنيت وأطربته فشق ثيابه وفعل كذا وكذا ..

وصمت لحظة ثم قال فى صوت كالرعد :

- والله لئن تحركت شفتاك بشيء مما جرى فبلغنى لأضربن عنقك ! ...

وصمت ثانية ثم صاح :

- ياغلام ... أعطه ألف دينار ! ...

ثم قال لى بصوت خفيض :

- ياعطرد .. خذ هذه الدنانير وانصرف إلى المدينة ! ...

قلت متملقا أحاول أن استزيد من عطائه :

- إن رأى أمير المؤمنين أن يأتى لى فى تقبيل يده ، ويزودنى نظرة منه ، وأغنيه لحنا جديدا ! ...

قال وقد نفذ صبره

- لاحاجة بى ولا بك إلى ذلك ، فانصرف ! ...

خرجت من عنده ، وانا اوصى لسانى ألا ينطق بحرف واحد عما جرى ! ...

● اليوم الخامس :

لسرعان ماتنقضى الأيام ! ...

سقطت دولة الوليد بن يزيد ، وقتله بعض أقاربه بعد أن اتهموه بكل الموبقات ! ... ثم سقطت الدولة الأموية ..

وانقضى من دولة العباسيين حتى الآن ، عهد عبدالله السفاح وعهد أبى جعفر المنصور ... وهانحن هؤلاء فى عهد الخليفة محمد المهدي ! ...

دخلت على المهدي فسألنى عن الغناء وعن علمى به ، فجاذبته من ذلك طرفا ، فقال لى : أتغنى النواقيس ؟ !

- نعم يا أمير المؤمنين ! ...

- فلماذا سموها النواقيس ؟ !

- لأن معبدا حين لحنها جعل فيها ضربا بالعود وترجيعا بالحلق كأنهما قرع النواقيس ، فسميت كذلك ! ...

- فغنها إذن وأسمعنا نواقيسك ! ...

فأخذت أغنى :

سلا دار ليلى هل تبين فتنتطق

وانى ترد القول بيداء سملق

فرايت المهدي يتحرك طربا ، وهو يماسك احتفاظا بهيبته ووقاره ، حتى أتممت الأغنية ، فأمر لى بمال وثياب ...

لم يشرب المهدي النبيذ على غنائى ، كما يفعل بعض أهل العراق عندما يسمعون الغناء ، فرايهم أن القليل من نبيذ التمر لا يدخل فى المحرمات ، ويتعاطونه ، متعللين بكلام لأبى حنيفة رحمه الله لا أظنهم فهموه على وجهه ...

أعجبني وقار المهدي كما أعجبني اجتنابه النبيذ ، وتذكرت الوليد بن يزيد فى خلاعته وتضييعه لمصالح الأمة ، فقلت فى نفسى : والله لو خرجت من عند المهدي صفر اليدين بلا جائزة ولا ثياب ، ماسأنى ذلك ... ولقد خرجت من عند الوليد بن يزيد من سنين وفى يدى ألف دينار وأنا أظن أن السماء سترمينى بالحجارة ! ...

وقفت كأنى لا أريد الخروج من عند المهدي فقال لى :

- هل من حاجة ؟ ! ..

- نعم يا أمير المؤمنين ... تأمر عاملك في المدينة أن يرفق بي ، فإنه حبسنى
مرة وزعم أنى من أصحاب الملاهى الفاسدين ! ...
فضحك المهدي وأمر بكتابة أمر إلى والى المدينة ألا يأخذنى مرة أخرى فى
الحبس مع الفاسدين وأصحاب الملاهى وأدعياء الغناء الذين أفسدوا الغناء كما
أفسدوا سمعة المغنين ! ...

يوميات عمر الوادي :

المهندس الفني



● اليوم الأول

اسمى ... عمر ! ...

أما « الوادئ » - بتشديد الياء - فهو لقبى ... وكل من سكن وادى القرى بين المدينة والشام ، فلقبه « الوادئ » ... وقد كثر المغنون من أهل هذا الوادى ، وأشهرهم بعدى حكم الوادى صاحب الأهازج الجميلة ، وهو تلميذى : أخذ عنى الغناء كما أخذ عنى كثير من الواديين ...

أبى فارسى الأصل ، اسمه داود بن زاذان ، وكان جدى من جملة أرقاء اشتراهم أحد أبناء الخليفة عثمان بن عفان ...

فى بداية شبابى اشتغلت مهندسا ... أبنى القصور الفخمة على الطراز الفارسى لأثرياء الحجاز والشام ، ثم صبوت إلى الغناء حين سمعت ابن سريج والغريص وغيرهما فى مكة ، فأخذت الصنعة وأتقنتها ، وقال الناس إن عمر الوادئ طيب الصوت شجيه ... ولم يسبقنى الى الغناء أحد من أهل وادى القرى ...

اتصلت بالوليد بن يزيد بن عبد الملك منذ كان وليا للعهد يتحرق شوقا إلى موت عمه هشام بن عبد الملك ليتولى الخلافة من بعده ، ويفرغ للقصف والغناء والشعر واللذات ...

كان المغنون يتجنبون الغناء فى مجالس الوليد حتى لا يفضبوا الخليفة هشاما ، إلا أنا فىانى كنت أغنيه ولا أبالى غضب هشام ، فأحببني الوليد ، وكان إذا طرب لغنائى صاح :

- يا عمر الوادئ ... أنت جامع لذاتى ومحى طربى ! ...

وزادنى إكبارا فمدحنى بهذه الأبيات

إننى فكرت فى عمر

حين قال القول فاختلفا

انه للمستنير به

قمر قد طمَّس السُّرُجَا

ويغنى الشعر ينظمه

سيد القوم الذى فلجا

أكمل الوادئ صنعتَه

فى لباب الشعر فاندمجا

فقلت له :

- أيها الأمير ... أكرمتني بهذا الشعر ، وانما يمدح الشعراء الأمراء ، ولا يمدح
الأمراء الشعراء ... فوالله ما أملك من شيء أجزي به الأمير - جزاه الله خيرا - إلا
أن أغنى في شعره هذا هزجا يطربه ! ...

وصنعت الهزج وغنيته فطرب طربا شديدا ... وقال لى :

- إن غناك يجمع لى اللذات كلها وإن كنت تغنى مرتجلا لاتضرب بعود ولا تعزف
بمعزفة ، وقد سمعت ابن سريج ومعبدا ومالكا ، فما أنت عندى بأقل منهم فى
الغناء شأننا ... وإن فيك لفطرة المغنى المطبوع وحسن ذوقه فى الغناء ... إلى
جمال صوتك ! ...

● اليوم الثانى :

خرجت أمس قبيل الغروب أتمشى فى الطريق بين المدينة ومكة على الجادة
التي يسلكها الحاج ، حتى غربت الشمس وأنا ماش ، فسمعت إنسانا يغنى غناء
لم أسمع قط أحسن منه ، فى شعر لكثير عزة :

وكننت إذا ماجئت سعدى بأرضها

أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسهـا

إذا ما انقضت أحوثة لو تعيدها

ألا ليت شعرى بعدنا هل تغيرت

عن العهد أم أمست كعهدي عهودها

إذا ذكرتها النفس جنت بذكرها

وريعت وحننت واستخف جليدها

أبيت نجيا للهوم مسهدا

إذا أوقدت نحوى بليل وقودها

فأصبحت ذا نفسين : نفس مريضة

من اليأس مايفتك هم يعودهـا

ونفس إذا ماكنت وحدى تقطعت

كما انسل من ذات النظام فريدها

فوقفت أسمع مشدوها لروعة الصوت واللحن والشعر ، حتى سقطت على الأرض
طربا ، ورضنى حجر فى إحدى ساقى رضا مؤلما ... فقلت فى نفسى : والله
لألتمس الوصول إلى صاحب هذا الصوت ولو بذهاب عضو من أعضائى ، ولو كان
الحجر قد كسر ساقى الاثنتين لزحفت إلى الصوت لأرى صاحبه ! ... حتى هبطت
من المكان المرتفع الذى كنت فيه ، ومضيت أبحث عن الرجل فإذا به راعى غنم
يهش عليها عائدا بها إلى دار صاحبها الذى يعمل فى خدمته ...

قلت له

- والله ماسمعت أحسن من غنائك ، فهلا أكرمتني بإعادته على مسمعى ؟

قال :

- والله لو كان عندي طعام لأطعمتك ، ولكنى أجعل هذا الصوت بديلا للطعام والشراب إن شئت ! ...

وغنائى الصوت حتى حفظته ، فلم أزل كلما خلوت بنفسى تذكرته فغنيتها متطربا متذكرا صاحبه ... وقد أكون ساعتئذ جائعا فأشبع ، أو مستوحشا فيؤنسنى ، ولكنى - مع ذلك - أستصغر شأنى فى غنائى هذا الصوت حين أتذكر ما طربت له من غناء ذلك الرجل ! ...

وحدثت بهذا الخبر أناسا فى المدينة وسألتهم

- أتعرفون هذا الرجل وأين ذهب ؟ ! .

قال بعضهم

- لانهرفه ، وما نظنه إلا عفريتاً من الجن ! ...

● اليوم الثالث

تولى الخلافة الوليد بن يزيد فجاءنى رسله يطلبوننى إلى قصره فى دمشق ...
دخلت وسلمت فقال لى :

- يا جامع لذاتى ... أترى هذا الخاتم من الياقوت الأحمر الثمين فى إصبعى ! ... أتحب أن أهبه لك ؟ ! .

قلت :

- نعم والله ياسيدى ! ...

قال :

- غن فى هذه الأبيات ، فإن أطربتني وهبته لك

ألا يسليك عن سلمى

قتير الشيب والحلم

وان الشك ملتبس

فلا وصل ولاصرم

فلا والله رب الناس

مالك عندنا ظلم

وكيف بظلم جارية ومنها اللين والرُخْمُ

فتفكرت فى هزج لهذه الأبيات حتى استوى لى ، فغنيته فصاح : أحسنت والله ! ...

واستدنانى حتى وضع يده اليسرى على كتفى فاتكأ عليها والقدح فى يده اليمنى ، وقال لى :

- أعد هذا اللحن بأبى أنت وأمى !

فأعدته عليه فشرب القدح ، ثم شرب أقداحا أخرى حتى تعب وجلس ونزع خاتم الياقوت والحلة الموشيه الفاخرة التى كان يلبسها ، فأعطانى الخاتم والحلة ... ثم مال على جنبه منتشيا ونام ! ...

جلست لا أدرى أنصرف أم أبقى ... حتى دخل « أبوكامل » ... خادم الخليفة ومطربه الخاص ، وهو حسن الغناء ، كثير النوادر والأصاحيك ، فجلس معى ، وقال لى لاتبرح ، فإنه سرعان مايفيق !

فلم يكد الوليد يفتح عينيه ويرانى وأبا كامل حتى قال له - غن .

نام من كان خليا من الم .

وبدأنى بت ليلى لم أنم

فغناه أبوكامل ، فطرب الوليد ، وأمر له بحلة وشى وقلنسوة مطرزة بالذهب ! فملت إليه أسأله :

- يا أبا كامل إن هذه القلنسوة الذهبية ليست من لبسك وإنما هى من لبس الملوك وأولادهم ! ...

قال ضاحكا

- سوف لا أضعها على رأسى إلا من عيد إلى عيد ، فإنى سأجد فيها ربح سيدى أمير المؤمنين ! ...

ثم قال له الوليد

- يا أبا كامل غن :

جنبانى أذاة كل لثيم

إنه ما علمت شر نديم

فغناه فطرب وقام ينشد مدحا فى أبى كامل ، وفى معبد المغنى المدينى العظيم ... قال :

سقيت ابا كامل
من الأصفر البابلي
وسقيتها معبدا
وكل فتى فاضل
لى المحض من ودهم
ويغمرهم نائللى
وما لامنى فيهم
سوى حاسد جاهل

ونحن كذلك ، استأذن الحاجب للمغنى اسماعيل بن الهرىذ ، وهو مغن مجيد ،
فأذن له الوليد ... ولم يتركه يجلس حتى قال له :

- يا اسماعيل ... غن
امدح الكأس ومن أعملها
واهج قوما قتلونا بالعطش
انما الكأس ربيع باكر
فاذا ما غاب عنا لم نعش

وأصل هذا اللحن لأبى كامل ... وعنه أخذه ابن الهرىذ ، ولا يجيد غناؤه كأبى
كامل ، ولكنه غناه مجتهدا فى أدائه فطرب الوليد ، وقال له .

- لولا أن أباكامل معنا هنا ، لقلت إنك أحسن من يغنى هذا اللحن ! ...
ثم ضحك الوليد ، فضحكنا - ثلاثتنا - مطايبة له . فى ضحكه وسروره ، وخرج
كل منا بجائزة كبيرة ، عدا ماكسانا من الثياب ، فضلا عن قلنسوة الذهب التى
اقتنصها منه أبو كامل ! ...

● اليوم الرابع

دخلت على الوليد فاذا ستارة حمراء قد مدت واحتجب وراءها ... فسلمت فرد
من خلف الستارة ، ونظرت فإذا إلى جانبى حماد الراوية ... وسمعت الوليد يقول
له :

- يا حماد « ثم ثاروا » ...

فرايت حمادا قد اضطرب وهو لا يدرى ماذا يريد الوليد منه أن يروى من
الشعر ... فسكت حماد ، فصاح الوليد :

- يا حماد ... ويحك « ثم ثاروا » ...

واذا بحماد يندفع فينشد
ثم ثاروا إلى الصبح فقامت
قينة فى يمينها إبريق

قدمته على عقار كعين الديك
صفى سلافها السراووق
ثم فض الختام عن حاجب الدن
وقامت لدى اليهودى سوق
فسباهها منه أشم عزيز
أريحى غداه عيش رقيق

فيذا جارية قد أخرجت كفا لطيفة من وراء الستارة تحمل قدحا ، والله ما أدرى
أيهما أجمل : الكف أم القدح ، فأخذ حماد القدح ، ثم مدت كفاها بقدح أخرى
فتناولتها وأوشكت أن أتناول معها تلك الكف اللطيفة

وحضر أبوكامل فأمر الوليد برفع الستارة ، وغنى أبوكامل :

ادر الكاس يميننا
لاتدريها ليسار
اسق هذا ثم هذا
صاحب العود النضار
من كميت عتقوها
منذ دهر فى جرار
ختموها بالافاوية
وكافور ... وقار

ثم وصل هذا الشعر فى غنائه بثلاثة أبيات ماسمعت أشد منها بعدا عما يجمل
أن يقال أو يغنى فى مثل هذا المجلس ، ثم دخل « أشعب » المضحك المغنى
المهذار وقد لبس سراويل من جلد قرد وله ذيل ، فرقص وأنشد شعرا وأضحك
الوليد فأمر له بجائزة ! ...

وخرجت من هذا المجلس مثقلا بالهم والحزن على الوليد الذى أحبيته لكرمه
وفطنته فى الغناء والشعر .

وكننت والله أرجو له أن يعقل ويعى مافيه خيره وخير الناس ، ولكن مشيئة الله
نافذة ... ولا أراه يبقى فى سلطانه هذا وقد ضيع مصالح الناس ! ...

وأنشدت لنفسى قول الشاعر الأفوى الأودى :
تهدى الأمور بأهل الرشيد ماصلحت
وان تولت فبالأشرار تنقاد

وانى لأعلم أن « أشعب » الذى يضحكه ، يعود إلى أهل المدينة فيضحكهم
عليه ، ويسميه « الوليد بن يزيد الخاسر » ! ...

فمن ينصح الوليد بن يزيد ، ويحذره عاقبة أمره ، ويقول له : « اتق الله ؟ !

يوميات دحمان

المغنى والقاضى



● اليوم الأول :

من مفاخرى - والحمد لله - أن قاضى « المدينة » - أعزه الله - يقبل شهادتى ! ...

إذا دعيت إلى الشهادة فى قضية ينظرها لم يرفض شهادتى ولم يطردنى من ساحة القضاء ، فأنا عنده مقبول الشهادة ، بل أنا من الشهود الصلحاء العدول المعروفين لديه بالورع والتقوى ! ... ويقول أهل المدينة : ما رأينا رجلا صالحا كثير الصلاة والصيام ، مدمنا للحج ، معدل الشهادة مثل دحمان الأشقر ! ... صناعتى - أكرمكم الله - هى الغناء ! ... نصف وقتى أغنى فيه للناس ، ونصفه الآخر أطارح فيه الجوارى الغناء حتى يحذقن ويبيعهن سادتهن بالأموال الجلية ! ... ولى على ذلك أجر ليس بالقليل ولا بالكثير ! ...

قضاة المدينة المنورة لايقبلون شهادة من يحترف الغناء إذا كان غناؤه مصحوبا بسلوك لايعمدونه ! ... وكان معبد - وهو شيخ المغنين فى المدينة - مقبول الشهادة ... ثم عاشر الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالمك فى مبادله بالشام ، حتى بلغت أخباره قضاة المدينة فسقطت عندهم عدالته فى الشهادة ، مع أن معبدا لم يدخل مع ذلك الرجل فى محذور ، لكنه عاشره وغنى له وقبض جوائزه ، فلما عاد إلى المدينة قيل له بصراحة : يامعبد ... لم يبق فى المدينة قاض إلا ويراك الآن شاهد زور ، لمخالطتك الوليد بن يزيد ! ... فكاد معبد يفقد عقله ، وقال : يامعشر الناس ... ترفضون شهادتى لأنى غنيت لذلك الرجل ؟ ! ... فهل تقبلون شهادته هو ؟ ! ...

فالحمد لله الذى جعلنى أفضل حالا من عظيم المغنين « معبد » ... وقد كان والله رجلا صالحا طيبا ... لولا تلك الهنات الهيئات التى أخذوها عليه ، وكان فيها مقلوبا على أمره .

أمس دعيت إلى الشهادة عند قاضى المدينة فى قضية أقامها رجل من أهل الكوفة على رجل من المدينة ، وكان الحق مع المدنى لا مع الكوفى ، ولايشك العراقى فى أنى أشهد بالحق الذى أعرفه فى هذه القضية ...

فلما وقف الخصمان بين يدى القاضى ، وترافعا إليه بالدعوى ، قمت فشهدت بالحق فيما علمت من أمر الرجلين فى دعواهما ، فوثب الكوفى - وهو يعلم أنى أشهد بالحق - فقال للقاضى :

- اصلحك الله أيها القاضى ... أتعرف من هذا ؟ ! ... إنه دحمان المغنى ! ...

قال القاضى :

- أعرفه فما تقول عنه ؟ !

- إنه يغنى ويعلم الجوارى الغناء ! ..

قال القاضى للرجل

- يغفر الله لنا ولك ! ... وأينا لايتغنى ؟ ! ...

وتفكر القاضى لحظة ثم قال للرجل :

- قد علمت أنك لم تطعن فى شهادة دحمان لغنائك ، بل لكونك ظالما خصمك ،
موقنا بأن دحمان لايمالك ولايقف لك عندى شاهد زور ، فأخرج أيها الرجل عن حق
خصمك وقم بتأديته الساعة إليه كاملا غير منقوص ! ...

فكنت - والحمد لله - سببا فى سقوط دعوى ذلك الظالم ، وعودة الحق إلى
صاحبه ! ...

● اليوم الثانى

الغناء لايفتنى ومن أعول من أهلى الكثيرين ، وليس لى رحلات إلى دمشق
كرحلات معبد وغيره من كبار المغنين إلا فى الندرة ، ومافزت من أحد هناك بشيء
أغنانى ..

لهذا اهتممت بحرفتى التى نشأت فيها ... فأنا رجل أملك خمسة عشر جملا
أكرىها إلى المواضع والبلاد التى يقصدها الناس ، وأدخل فى التجارة على قدر
طاقتى ، بائعا مشتريا متكسبا ، أتسبب وأطلب الرزق ، فيرزقنى الله من حيث لا
أحتسب ، وأحمد الله على تمكنه أىامى من فعل الخير والتحلى بالمروءة فى ثرائى
وافتنقارى ! ...

أمس كنت أمر بقافلتى الصغيرة على بلد ، فإذا جارية خرجت من بيت ، فقلت
لها : أبيعك سادتك لى ؟ ! ...

قالت

- أنا مملوكة لسيدة من قريش ! ...

ثم دخلت البيت فقالت لسيدتها : هذا انسان يشترينى ياسيدتى ! ..

قالت السيدة :

- أئذننى له ...

فلما دخلت عندها قالت لى بكبرياء :

- يا هذا ... أنت رجل تكرى الجمال فمن أين لك ثمن جارية كهذه وهى مغنية
بارعة وقد سامنى فيها منذ أيام رجل من قريش ، حتى ابستقر ثمنها على مائة
وخمسين دينارا فلم أقبل ورددته ، وهو وأنا من قريش ، لا من الموالى أمثالك !

قلت لها

- ياسيدتى أنا أبلغ بثمانها مائتى دينار ! ...

فقبلت وأخذت منى المال وانصرفت أنا والجارية ، فى طريقى إلى الشام ،
فبينما كنا نستريح يوما فى الظل ، أخذت ألقى عليها لحنا لى حتى حفظته ، وطلع
علينا راكب فقال : أتأذنون لى أن أنزل ساعة تحت ظلكم هذا ؟ !
فأنزلناه وأطعمناه وأسقياه وغنياه أنا والجارية حتى تملكه أشد الطرب ، فقال
لى :

- أتبيعنى هذه الجارية ؟ !

قلت له كالعابث :

- ثمنها عشرة آلاف دينار ! ...

فأعطانى المال وأنا مشدوه يكاد الجنون يستلب عقلى ، فإنى ربحت تسعة آلاف
وثمانمائة دينار فى هذه الجارية ولم أتعب فى تعليمها ولا نالنى منها غرم فى
شيء ! ...

فلما انقضى زمن أقبل رسل من عند الخليفة الوليد بن يزيد فقالوا

- أجب أمير المؤمنين ! ...

فقلت فى نفسى

- إنا لله وإنا إليه راجعون ! لن يقبل قاضى المدينة شهادتى فى محكمته
بعد اليوم ! ...

وعجبت أن يذكر الخليفة اسمى ويطلبنى وأنا لم أغنه من قبل !

فلما مثلت بين يديه ، رأيت عنده جاريتى التى بعثها بعشرة آلاف دينار ، فعلمت
أنه صاحبها وأنها قد حدثته عنى ! ...

قال لى

- كنت أظن أنى لم أسمع غناك حتى أخبرتنى الجارية أنك أنت الذى بعتنى
إياها وغنيتنى فى ظل تلك الشجرة فى ذلك اليوم ! ...

أقمت عنده أياما قصارا ، غنيته فيها ، ثم شغلته الحوادث الجسام التى أودت
بحياته ومملكته فعدت مسرعا إلى المدينة ، أحلف للناس أنى ماشاركته فاحشة
قط ... فصدقونى والحمد لله ! ...

● اليوم الثالث

عشت حتى رأيت نهاية دولة الوليد بن يزيد ودولة الأمويين كلها من بعده كانت
رذائله وحماقاته إرهابا بزوالها ! ...

عشت بداية خلافة بنى العباس ، لم أغن للخليفة الأول منهم « عبدالله السفاح »
ولا للخليفة الثانى « أبى جعفر المنصور » ... وكلاهما كان مشغولا بتدعيم الدولة
فى نشأتها .

ثم مضت على ذلك خمس وعشرون سنة حتى شاب مغارقى وإحيتى فصبتها
بالحناء ، وانطويت على مهنتى القديمة ارتزق من الإبل ، ذاهبة جائية من المدينة
وإلى المدينة ... وقال الناس : قد نسى دحمان الغناء ! ... وغرهم سكوتى ، ووالله
لو نسيته اسمى مانسيت الغناء ، فإنه ليجرى مع دمي فى عروقي ! ...

مات الخليفة أبوجعفر المنصور ، وكان مشهورا بالبخل الشديد ، فاستدعانى
ابنه الخليفة الجديد محمد المهدي ، فقلت فى نفسى : ان من أعظم البلاء أن أجد
هذا الخليفة الجديد على أخلاق أبيه الذى كان لايعطى أحدا درهما إلا بعد تدقيق
شديد ... وقد غناه أو حدا به مرة أحد المغنين فأعطاه درهما واحدا ثم استرده
منه ! ...

حاولت أن أتخلف عن دعوة الخليفة ، فقلت لرجال الذين جاءوا يستدعوننى
إنى تركت الغناء من زمن وشغلتنى التجارة وهذه البعران التى أكرهها وأرتزق
منها ...

قالوا

- لابد من الإجابة ! ...

فلما دخلت على المهدي ... قال لى :

- أنت تلميذ معبد صاحب الألحان الرنانة التى يسمونها النواقيس ؟ ... !

- نعم يا أمير المؤمنين ...

- فقد قيل لنا إنك من أحذق تلاميذه الباقين الآن فغنا من أحسن غنائك !

فتفكرت لحظة لطول انقطاعى عن الغناء ثم ضربت بالعود واستجمعت نبرات
حنجرتى وغنيته فى شعر الأحوص :

سرى ذا الهم يل طرقا

فبت مسهدا قلقا

كذاك الحبيب مما

يحدث التسهيد والأرقا

قطوف المشى إذ تمشى

ترى فى مشيها خرقا

وتثقلها عجيزتها

إذا ولت لتنطلقا

فاستخفه الطرب حتى قال لى :

- سلنى ماشئت ! ...

قلت وأنا بين الطمع والخوف :

- ضيعتان بالمدينة يقال لهما « ريان » و« غالب » ! .

فأمر المهدي بإقطاعى إياهما وكتب توقيعا بذلك ، فلما خرجت الرقعة بالتوقيع إلى الوزير ، هاله الأمر ، فدخل فقال للخليفة :

- يا أمير المؤمنين ... إن هاتين الضيعتين لم يملكهما قط إلا خليفة ... وقد حاول بعض أبناء خلفاء بنى أمية أن يملكوهما فلم يستطيعوا ، فكيف تعطيهما جائزة لمغن ؟ ! ...

قال المهدي متفكرا

- قد أمرت له بهما ولا أرجع فيهما إلا بعد أن يرضى ، فصالحوه عنهما بما يرضيه من المال ! ...

فصالحنى الوزير عن الضيعتين بخمسين ألف دينار ، وخرجت من الصفة مغبونا ، فإن الضيعة الواحدة منهما تساوى مائة ألف ! ...

● اليوم الرابع

عشت طويلا ! ... عاصرت سبعة خلفاء من بنى أمية وها أنذا فى آخر عهد المهدي الخليفة الثالث من بنى العباس ...

ضعف صوتى ، فمن يسمعى الآن لايعرف كم كان جميلا صوتى وقويا فى شبابى ، وإلى سنوات قلائل مضت ! ...

سمعى أمس ابراهيم الموصلى المغنى الشاب المشهور ، فسئل عن رأيه فيما سمع من غنائى فأجاب

- لو كان دحمان عيدا ما اشتريته على غنائه بأربعمائة درهم ! ...

فحزنت لهذا الراى حزنا شديدا ، لأنه رأى صحيح ، لم يتحامل فيه الموصلى على غنائى ولا على نبرات صوتى التى ذهبت الأيام بأجمل وأقوى مافيهما ... ولكن ابنى « الزبير » ورث جمال صوتى القديم وأظنه سيكون صاحب شأن فى هذه الصناعة ، وكذلك ابنى الآخر « عبدالله » . وقد علمت أن الموصلى يفضل « الزبير » على أخيه « عبدالله » تفضيلا شديدا ، ويقول :

- الزبير بن دحمان ، أفضل فى الغناء وحلاوة النبرات من أبيه وأخيه ! ...

ذكرت شبابى وحياتى فى الحجاز ، فتشوقت إلى تهامة وإلى البادية ، مع ثرائى وطيب ثوائى فى بغداد ، فرفعت صوتى أغنى فى شعر لحسان بن ثابت يذكر فيه إحدى حبائبه فى شبابه :

أسكن البدو ما أقمت ببدا

فإذا ما حضرت طاب الحضور

أى عيش الـذه لست فىه
أو ترى نعمة به وســـــرور

فإذا ولدى الزبير وأخوه عبدالله يقفان على رأسى يسمعان الصوت ويأخذانه
عننى .

فلما شعرت بهما قطعت الغناء ، وقلت لهما :

- انما أتسلى بمراجعة الماضى ! ... وقد حدثنى من سمع هذا اللحن من
صاحبه ابن مسجح شيخ الغناء المتقن الأول ، أن الطير كانت تقف على شجرة
قريبة منه إذا غناه ، لاتزقزق ولا تتحرك ، فإذا فرغ من غنائه عادت تتحرك وتزقزق
وقد استطارها الحبور ! ...

يوميات الزبير بن دحمان :

الفناء في الصحراء



● اليوم الأول :

لما تلقينا الأمر من والى « المدينة » - أنا وأخى - بالسفر إلى بغداد ، تذكرت أبى - رحمه الله - وقلت فى نفسى : لولا أن أبى كان مشهورا بالغناء عند الخلفاء والكبراء فى بغداد ، لما أرسلوا يطلبوننى أنا وأخى لنملا مكانه عندهم ، وقد علموا أننا نغنى ونضرب بالعود ونروى الغناء الذى كان يرويه أبى عن أستاذه الكبير « معبد » ! ...

كان أبى يلقب « دحمان » ... واسمه عبدالرحمن بن عمرو ، وأصلنا من الموالى ، وسكنانا فى « المدينة » ... وأبى - مع شهرته بالغناء - كان رجلا صالحا كثير الصلاة ، مقبول الشهادة عند القضاة ، مدمنا للحج ، وكثيرا ما كان يقول مارأيت باطلا أشبه بحق من الغناء ! ...

قال لى أخى ونحن فى طريقنا إلى بغداد

- يازبير ... أترانا نفوز بطائل من الخليفة والكبراء ، وعندهم إبراهيم الموصلى وابن جامع ويحيى المكى ، فضلا عن إبراهيم بن المهدي وهو أخو الخليفة ، وصوته أجمل الأصوات ؟ ! ...

قلت لأخى

- يا عبيد الله ... إن أبانا - رحمه الله - كان يجد مكانا عند الخليفة المهدي ، قبل أن يتولى الخلافة ابنه موسى الهادي ، ثم هارون الرشيد ، وقد أخبرنى الثقات أن الرشيد بصير بجيد الغناء ... وعندنا من الغناء الجيد ما يعجب الخليفة إن شاء الله !

وقفنا على باب قصر الخليفة فى بغداد فقبل لنا :

- من أنتما ؟ ! ...

قلت

- هذا عبيد الله بن دحمان ، وأنا أخوه الزبير بن دحمان ، ابنا دحمان الأشقر المغنى الذى عرفتموه قديما ! ...

رحبوا بنا وأدخلونا من فورهم إلى القصر ، واستأذنوا لنا ، فوقفنا فى حضرة الرشيد ، ومجلس الغناء متعقد هناك ، وفيه ابن جامع وإبراهيم الموصلى وابنه اسحاق وإبراهيم بن المهدي وآخرون

فلما أمرنا الرشيد بالجلوس ، كان مجلسنا بجنب إبراهيم الموصلى وابنه ،

فسمعت اسحاق يهمس لأبيه :

- يا أبت ، إن الزبير أفضل من أخيه فى الغناء !

- وكيف تحكم بهذا وأنت لم تسمع شيئاً منهما بعد ؟ !

- عرفت هذا بالظن والتخيل والفراسة ! ...

- ننظر فى فراستك يا اسحاق ! ...

ثم غنى أخى عبيد الله ، وغنيت بعده ، فسمعت اسحاق يقول لأبيه

- قد بان الآن فضل الزبير على أخيه وصحت فراستى ! ...

كان المغنون فى تلك الأيام حزبين : حزب إبراهيم الموصلى ، وحزب ابن جامع وإبراهيم بن المهدي ، فقال أخى إلى حزب ابن جامع وابن المهدي ، وملت أنا إلى حزب إبراهيم الموصلى لما رأيته من إعجابه بى ، وتقريظه لى ، ولما ثبت لى من فضله فى صناعة الغناء على جميع أهلها !

وكان ميل أخى إلى جنبه ابن جامع وابن المهدي ، ميلا شديدا فكرهه الموصلى وابنه اسحاق وأنكرا فضله فى الصناعة ، وحكما - بغير حق - أنه متخلف عنى ، حتى قال اسحاق بن إبراهيم الموصلى

- لو كان عبيد الله بن دحمان مملوكا يباع ويشترى ما طابت نفسى على أن أشتريه بأكثر من عشرين دينارا ... أما أخوه الزبير ، فلو كان مملوكا لأشتريته بعشرين ألف دينار ! ...

● اليوم الثانى :

لم أكد أحضر الليلة الأولى فى مجلس الرشيد ، حتى تجهز فى الصباح للخروج بالجيش إلى « الرى » فى بلاد فارس لمحاربة بندگان هرمز ، فاقمنا فى منظره لإبراهيم الموصلى على الطريق ، نظيفة الفرش ، طيبة الهواء واسعة ، فلما انقضت مدة الحرب ، وعاد الرشيد ظافرا ، قال الشعراء فى ذلك أشعارا كثيرة ، تخيرت منها هذا الشعر لأبى العتاهية ولحنه وغنيت فى أول مجلس للغناء فى القصر بعد عودة الرشيد

الا إن حزب الله ليس بمعجز

وأنصاره فى منعة المتحز

أبى الله أن يعصى لهارون أمره

وذلت له طوعا يد المتعز

أطاعت لهارون العداة لدى الوغى

وكبر للإسلام بندگان هرمز

فاستحسن الرشيد اللحن ، وأمر لى بألف دينار ... وغنى بعدى المغنون وأجازهم ، ثم تغنيت صوتا ثانيا :

وأحور كالغصن يشفى السقام
ويحكى الغزال إذا مارنا
شربت المدام على وجهه
وعاطيته الكأس حتى انثنى
وقلت مديحا أرجى به
من الأجر حظا ونيل الغنى
وأعنى بذاك الامام الذى
به الله أعطى العباد المنى

فما فرغت من الصوت حتى أمر لى بألف دينار ثانية ... واستطرفنى وصرت
خفيفا على قلبه ! ...
فلما انتهت السهرة استبقانى الرشيد واستبقى إبراهيم الموصلى ، فغنيناه عدة
الحن ، فطرب وامتلا سرورا ، ثم قال للموصلى وكأنه يتفكه
- يا إبراهيم ... ماثقول فى الزبير بن دحمان ، وفى أخيه ، وفى أبيه ؟ ! ...
قال الموصلى :

- أما الزبير فمن أحسن من عرفت عقلا ودينا ونبلا وأدبا وسكونا ووقارا ، وكان
أبوه قبله كذلك ... ولكن أباه ما كان يساوى على الغناء أربعمائة درهم ، وكذلك ابنته
عبيد الله ، أما الزبير فقد أجازته أمير المؤمنين فى ليلتنا هذه بألفى دينار ، وهو
مستحق للجائزة ! ...

هممت أن أتكلم زيادا عن أبى وأخى ، فضحك الرشيد وقال :
- يازبير ... إن إبراهيم صديقك ، وهو غير جاد فيما يقوله عن أبيك وأخيك ! ...

● اليوم الثالث :

أغننتنى جوائز الرشيد فى مدة يسيرة من الأيام ، فأقمت ببغداد ، وأرسلت إلى
حرمى وأولادى فجاءوا من المدينة وأقاموا بالدار الواسعة الجميلة التى اشتريتها ،
وصرت دائم الحضور لمجالس الغناء فى القصر ، واشتد احترام المغنين لى ،
لاينادوننى إلا بكينيتى .. حتى إبراهيم الموصلى وابنه يقولان لى : يا أبا العوام ،
ولا يقولان : يازبير ...

نحن الآن فى مدينة « الرقة » بالشام ، بصحبة أمير المؤمنين ، وهو يحب هذه
المدينة ويستطيب هواءها ، ويخرج إلى ظهرها للصيد ، ويقضى أيامه فيها هائنا
سعيدا فيطول به وبنا المقام هناك حتى يهتاجنا الشوق إلى بغداد والعراق ..

طالت أيامنا بالرقّة ، فتشوقت إلى بغداد ، وذكرت ذلك لاسحاق الموصلي ،
فانبعث شوقه الى بغداد وطيبها وأهله بها وإخوانه وأولاده ، وعرض له الهم والفكر
حتى بكى وأبكاني ، ونظم هذه الأبيات ، يخاطبني في مطلعها بكنيتي
أسعد بدمعك يا أبا العوام

صبا صريع هوى ونضو سقام
لم يبد مافي الصدر إلا أنه
حيا العراق وأهله بسلام
ودعاه داع للهوى فأجابه
شوقا إليه وقاده بزمام

وصنع اسحاق في أبياته هذه لحنا ، وغناه في مجلس الرشيد ، فقال له :
- تشوقت والله يا اسحاق ، وشوقت ، وبلغت ما أردت ! ...

وأمر له بثلاثين ألف درهم ! ...

وأمر لي بعشرين ألفا ! ...

ثم أمر بالرحيل إلى بغداد !

وأرحنا في الطريق ...

فخرجنا إلى صحراء الرقة - أنا واسحاق - وليس معنا أحد ، فتمشينا وتحدثنا
واكلنا ما حملناه معنا من طعام ، ثم جلسنا فغنى اسحاق لحن أبيه في شعر أبي
العتامية :

أشاقك من أرض العراق طول
تحمل منها جيرة وحمول ؟
وكيف الذ العيش بعد معاشر
بهم كنت عند النائبات أصول

فقلت له :

- أنت الأستاذ وابن الأستاذ السيد ، وقد أخذت عن أبيك هذا اللحن كما أخذته
أنت ، ولكنني أغنيه أحسن ، فقال :

- والله اني لا أحب أن يكون ذلك كذلك ! ...

فغضبت وقلت :

- فأنا والله أحسن غناء منك ! ...

وتلاحينا طويلا حتى كدنا نتشايك بالأيدي ، فقال لي اسحاق

- أترضى في الحكم بأول من يطلع علينا في هذا الطريق من الناس ؟ !

فطلع علينا رجل حبشى الخلقة يحمل فأسا ، وإذا هو أجير ممن يفلحون الحقول ، فحدثناه بالقصة ، واندفعت فغنيت اللحن ، فطرب الحبشى وحرك رأسه ، وأظهر فهما وتذوقا عجيبا للغناء ، وتكلم فإذا هو من أقصص الناس ثم غنى اسحاق اللحن ، فصار الحبشى يتأمله وهو يغنى وتتسع عيناه دهشة حتى صاح فى وجه اسحاق - أى شيطان أنت ؟ ! ...

فما أذكر أن اسحاق الموصلى ضحك مثل ضحكه يومئذ ، فضحكت أيضا ، ولكن ضحك اللامبالاة والتسليم لا ضحك الظفر والاعجاب بالنفس ! ثم قلت لاسحاق :

- جعلنى الله فداك ... أين أنا منك ، وأنت أنت ... وإنما أنا وأمتالى أخذون هذه الصناعة من أبيك ومنك ! ... قال لى

- فما عندك لهذا الرجل الطروب الصحيح التمييز فى الغناء ؟ ! أفرغت ماعندى من دراهم وأفرغ اسحاق ماعنده فى حجر الرجل ... فنهض فانتثر ماقى حجره من المال ودخل فى الرمال ، ولم يلتفت إلى درهم ، ومضى يحمل فأسه ليفلح الأرض التى يزرعها ! ...

● اليوم الرابع

غضب الرشيد على زوجته زبيدة ، وغضبت هى منه ، لأمر من الأمور التى تعرض للسادة والسيدات فى القصور العالية ، فأرق الرشيد ليلته وأمر ففرشوا له سريرا فى شرفة بالقصر فوق نهر دجلة ، فقعده ينظر فى النهر يتلأل بالأضواء المنبعثة من القصور القائمة على شاطئيه ، وقد زاد فيه الماء زيادة عجيبة

وكننت فى تلك الليلة مدعوا للغناء فى قصر لبعض الكبراء قريب من قصر الرشيد ، فرفعت صوتى فى سكون الليل أغنى فى شعر العباس بن الأحنف :

جرى السيل فاستبكاني السيل اذ جرى
وفاضت له من مقلتي غروب
وملاذك الا حين خبرت أنه
يمر بواد أنت منه قريب
يكون أجاجا مأوه فإذا انتهى
إليكـم تلقى طيبكم فيطيب

فقال الرشيد لمن حوله

- هذا غناء الزبير بن دحمان ، وهذه نبرات صوته لا يخطئها سمعى ، فابعثوا إليه ! ...

فلما وقفت بين يديه سألتني عن قائل الشعر ، فقلت : هو العباس بن الأحنف ،
فأحضره واستنشد هذه القصيدة وغيرها ، فجعل العباس ينشد وأنا أغنى ،
والرشيد يستعيدنا حتى طلع الصبح ، فأجازنا بمال عظيم ، وقام فدخل إلى زبيدة ،
فرضى عنها ورضيت عنه ! ... وعرفت زبيدة أنني والعباس بن الأحنف كنا سبب
رضا الرشيد عنها ، فأرسلت إلى كل منا ألف دينار ! ...

صحبنى العباس بن الأحنف هذا اليوم وقال لى

- والله لا أدعك حتى تغنى لى فى شعر الأخوص لحنا كان يغنيه أبوك ، وسمعته
من بعض المغنين :

وإنى لآتى البيت ما إن أحبه

وأكثر هجر البيت وهو حبيب

وإغضى على أشياء منكم تسوءنى

وإدعى إلى ماسركم فأجيب

وأحبس عنك النفس والنفس صبة

بقربك والممشى إليك قريب

فغنيته اللحن على وجهه الصحيح ، وجودت فى أدائه ، فصاح العباس طربا ،
ولطم خديه ، وبكى ، فسألته عما حرك فيه هذا الغناء من الوجد والشجن ، فقال
- أنا والله هذا المحب الذى يحبس نفسه عمن أحبه !
فبقيت عنده حتى سكنت نفسه ، وسليته بحكايات ، وغنيته أهزاجا خفيفة ...
وعرفت منذئذ أن العباس بن الأحنف هو أعشق الناس ، وأشد الناس اكتواء بلهيب
الحب والهجران ! ...

يوميات ابن جامع :

مطرب من قریش



● اليوم الاول :

صحت قبل الفجر بساعة ... توضأت وخرجت من بيتي مسرعا إلى أقرب مسجد ، وما أكثر المساجد في بغداد ... جلست في ركن من المسجد أتلو لنفسي القرآن الكريم بصوت هامس حتى تحين الصلاة .. قمت إلى الصلاة وقد قرأت قرأنا كثيرا .

تلك عادتي كل يوم ، إلا يوم الجمعة ، فإنني لا أبرح المسجد بعد الفجر ولا بعد الشروق ولا في الضحى ، بل أجلس في مكانى من الفجر إلى الظهر أتلو القرآن لنفسى حتى أختمه كله ، فإذا أدبت صلاة الجمعة انصرفت قريير العين بما قرأت وبما صليت ..

أعود إلى بيتي فأنام إلى صلاة العصر ، فإذا قضيتها ، قمت أستجمع همتي ، وأجمع أدواتي والاتي لعملى كل ليلة في قصر الخليفة هارون الرشيد ، أوفى قصر أحد عظماء الدولة ...

صوتي - والحمد لله على نعمائه - أجمل الأصوات ، وأحلاها جميعا ، يشبهون حلاوته بعسل النحل ... لا ينافسني مطرب آخر في جمال الصوت وحلاوته ، أما براعة التلحين فينافسني فيها إبراهيم الموصلي وابنه اسحاق ... كلاهما بارع في الصنعة ، ولا أعرف أحدا يقاربهما في العلم بالغناء ..

إن إبراهيم الموصلي هو صديقي وأخى في الفن ، وليس صوته بمكتمل الجمال ، وإن عيوب حنجرته لكثيرة ، ولكنه يداريها بجودة لحنه ، وحسن أدائه ، واكتمال معرفته بصناعة الغناء ، أما أنا فإن صوتي هو سلاحى الأول في معركتى التى أخوضها كل ليلة ضد المغتئين فى سهرات الرشيد وغيرها من سهرات صفوة بنى هاشم وأرباب السيوف والأقلام فى بغداد من عرب وعجم ! ..

اسمى اسماعيل بن جامع ... لست بفارسى ولا نبطى ولا رومى ، وهذا ما يثير حسد أهل صناعتى الذين ينحدرون جميعا من أصول عجمية .

لم يكن أبى حائكا ولا حجاما ولا بيطارا ولا خرافا ولا صاحب حرفة من هذه الحرف التى يرتزق بها سوقة الأعاجم والموالى الذين تغص بهم بغداد ، فهم طبقتها الدنيا ، وهم الخدم والأرقاء والشطار وقاطعو الطرقات ليلا ونهارا ..

أنا ولا فخر عربى قرشى الأب والأم .. مات أبى وأنا رضيع فلم أره ولا أعرف عنه شيئا ، فلما كبرت قليلا تزوجت أمى برجل من اليمن وهى يومئذ أرملة جميلة

صغيرة ، أما زوجها الذى مازلت أتذكره ، فكان كهلا دميما ، من حشوة الناس ، فلم
تصبر على الحياة معه فى بلده ، وتشوقت إلى أهلها فى مكة ، فذهبت إلى أمير
اليمن حينذاك تطلب الطلاق من هذا الزوج الذى نكبتها به الأقدار ، فقال لها حاجب
الأمير : تعالى غدا تجدى الأمير جالسا للمظالم فأعرضى عليه قصتك ! ...
عادت أمى إلى بيتها وأنا فى أثرها ممسك بذيلها ، وألقت على زوجها الراقد فى
البيت نظرة ، ثم قالت له :

- موعدا غدا فى مجلس الأمير لتطلقنى .

قال زوجها معاندا

- بل تقيمين فى بيتى ولا أطلقك أبدا .. لن تبرحى صنعاء ولن ترى مكة مادمت
حيا ..

فلما جلس الأمير « معن بن زائدة » أمير اليمن لينظر فى المظالم ، رفعت إليه
أمى قصتها وقالت له

- إن عمى فى مكة قد زوجنى هذا الرجل وليس بكفاء لى ، فإنى من قريش رهط
النبي صلى الله عليه وسلم .. ففرق أيها الأمير أصلحك الله بينى وبين هذا
الزوج !

قال الأمير لزوجها :

- أيها الرجل ... خل سبيلها ... فليست لها بكفاء ! ...

طلقها الرجل ، وأمر لها الأمير الكريم بمائتى دينار ، نفقة تتجهز بها إلى مكة ...

● اليوم الثانى :

المغنون الآن - وأنا الآن أكثرهم قبولا عند الخليفة وعند الوجهاء والكبراء -
يستخفون بنسبى وحسبى ، ويقول لى السفهاء منهم :

- ما أنت إلا من شحاذى بنى سهم ، ولاينفعك أن يكون بنو سهم من صميم
قريش ... ولئن صرت الآن غنيا تملك ألوف الألوف من الدراهم والدنانير ، إنك لعار
على قريش ، لأنك إنما اكتسبت الثراء بالغناء وضرب العود ، فلا فرق بينك وبين
المغنين والضاربين والزمارين من الموالى ! ..

فأقول لهم :

- وهل مس العار إبراهيم بن المهدي وقد اشتهر بالغناء وهو ابن خليفة وحفيد
خليفة ... وأخو خليفتنا هارون الرشيد ؟ ! ...

فيقولون :

- وهل هو إلا ابن جارية سوداء كانت تسمى « شكلة » اشتهاها الخليفة محمد
المهدي فولدت منه إبراهيم هذا ، فجاءت به نصفه من قريش ونصفه من

الزنج ! ...

إن حسد المغنين بعضهم لبعض لا ينتهى ، وقد تعلمت ألا أبالى مايقولون ! ...
ولقد صرت غنيا بفضل الغناء وضرب العود كما يقول أولئك السفهاء ، ولكنى لم
انس ماتعلمته فى مكة - قبل سكناى بغداد - من الفقه والحديث واللغة والشعر ...
ولم أهجر مادرجت عليه من العبادات ، برغم ما أنغمست فيه من صناعة الغناء وما
أخذت به من عادات جديدة فى بغداد ، بعضها من أسوأ العادات ! ...

● اليوم الثالث :

خرجت فى بكرة الصباح أتجول فى طرقات بغداد ، وأفكر فى كلب أشتريه ،
أضمه إلى مجموعة كلابى النادرة ...

فى مكة لم أكن أتصور أنى أشتري الكلاب وأقتنيها يوما من الأيام ! ...
أما الآن ، وأنا مغنى بغداد الأشهر ، فالكلاب الفارحة النادرة هوايتى ... ولها
عندى اعزاز شديد ! ..

الناس يعيبيوننى بهذا ... ويعيبيوننى أيضا بلعب القمار ، ويقولون لى مشفقين أو
هازئين ! ...

- لقد أنفقت فى الكلاب والقمار أكثر مما أنفقت بنو سهم كلها فى الطعام
والشراب ! ..

فى بعض الطريق ، وثياب الخز والوشى تلتمع فى الضحى على جسدى ،
سمعت فقيها كبيرا يتحدث عنى إلى جلسائه ويتحدثون عنى إليه ...

توقفت ناحية أسمعهم كأننى أنتظر شيئا ، فسمعت الفقيه يقول للقوم الجلوس :
- بلغنى أن هذا القرشى قد أصاب ثروة كبيرة من أموال الخلفاء والكبراء ،
فبأى شىء أصابها ؟ !

قالوا :

- بالغناء !

قال :

- فمن منكم يذكر بعض مايغنى فيه من الشعر ؟ !

قال أحدهم :

- إنه يغنى

وأصحب بالليل أهل الطواف

وأرفع من مئزرى المسبل

قال الفقيه :

- هذا كلام حسن ! ... هيه ... ثم ماذا ؟ ! ...

قال الرجل : ويغنى أيضا :
وأسجد بالليل حتى الصباح
واتلو من المحكم المنزل

قال الفقيه :

- وهذا أحسن ! ... هيه ! ...

قال الرجل

عسى فارح الكرب عن يوسف
يسخر لى ربه المحمل

فأشاح الفقيه بوجهه مستنكرا وقال :

- أما هذا البيت الثالث ... فلا ! ...

تعجبت لهؤلاء القوم ، فلولا كثرة ما يأخذه القمار وحب الكلاب منى ، لأذهلت
ضخامة ثروتى هذا الفقيه والجالسين معه ! ... وإنه ليسأل من أين جاءت
الثروة ، كأنه لا يعيش فى بغداد ولا يعرف شيئا عما يجرى فيها ، وكيف يعيش سادة
بغداد لياليهم ، وكم من ألوف الجوارى والغلمان فى قصورهم ، وكم فى هذه
القصور من بذخ يفوق الخيال ! ...

يتهامسون على فى غيظ : ألا يستحي هذا أن يغنى وهو رجل من قريش ؟ ! ...
ثم لا يتهامسون عن أبناء الخلفاء الذين يغنون ويفعلون ما يشاءون

حتى الخليفة هارون الرشيد يريد أن ينتقصنى فيقول لى :

- أى بنى الانسان قومك يا اسماعيل ؟ !

فأكاد أموت غيظا ، فهو يعرف أنى من قريش أما وأبا ، وأنه هو من قريش أبا
فقط ... وأمه الخيزران المجلوبة من سوق الرقيق ! ...

فأقول له :

- إن كنت تجهل نسبى فاسأل عنه إبراهيم الموصلى هذا الذى بجانبى ! ...

فيغضب الخليفة ويقول :

- قبحك الله شيخا من قريش ... كيف أسأل عن نسبك هذا الرجل وهو من

العجم ؟ ! ...

● اليوم الرابع :

قاضى القضاة أبويوسف وقف معى اليوم على باب الوزير يحيى بن خالد
البرمكى ، وحدثنى وحدثته ! ... اليس هذا عجيبا ؟ ! ...

إن أبا يوسف صاحب الامام أبى حنيفة ، رجل دين مشهور بالورع والأمانة ،

ولكن أمره عجيب ، فهو يتجاهل أو يدعى الجهل بأن هارون الرشيد يجلس للمغنين
كما يجلس للعلماء والفقراء ... والأدباء والشعراء ...

- هل يعلم القاضى أبو يوسف أو يجهل دقائق حياة أمير المؤمنين ؟ ! ...
سؤال صريح ، لو أجاب عنه بصراحة ، لقلت : هذا القاضى هو صاحب أبى
حنيفة حقا ... مع أن أبا حنيفة رفض أن يتولى القضاء لأبى جعفر المنصور جد
الرشيد ... وضربه المنصور لارغامه على القبول ، فلم يقبل ... ومات جريحا
سجيناً ! ...

وأبويوسف - وهو التقى الورع - يجوس خلال قصور الخليفة ويعلم أنها تحوى
اللقى جارية ، عدا الفلمان والخصيان وصنوف الخدم من كل لون وشكل ...
ولكن صناعة الغناء هى وحدها حرام عنده بين جميع « الصناعات » التى تدخل
هذه القصور ...

وقفت على باب الوزير يحيى بن خالد البرمكى ريثما يأذن لى وللناس بالدخول ،
فجاءنى القاضى أبويوسف فقال لى ولم يكن يعرفنى :
- أمتع الله بك أيها الشيخ ... توسمت فيك الحجازية والقرشية ! ...

فقلت فى نفسى : « قد اتخذ القاضى والله فى سمتى وحلاوة هيئتى وعمامتى
السوداء على قلنسوتى الطويلة ، وما أخذ السجود الكثير من جبهتى ... فظننى من
فقهائى الحجاز » !

ثم قلت للقاضى وأنا أقمص وقار الفقيه :

- أصبت ... أنا حجازى قرشى ...

قال القاضى مبتهجا متلففا

- فمن أى قرشى أنت ؟ !

- من بنى سهم !

- فأى الحرمين الشريفين منزلك ؟

- مكة ...

- ومن لقيت من فقهاءها ؟

- سل عمن أردت وعما شئت ...

ففاتحنى قاضى القضاة فى الفقه والحديث ، فوجد عندى ما يحب فأعجب بى
وارتاح إلى الوقوف بجانبى كأنه يستظل بحجازيتى وقرشيتى ، وهو الفقيه ذو
الأصل العجمى ...

ونظر الناس إلينا فسمعت بعضهم يقول همسا : « أرايتم القاضى قد أقبل
يتحدث إلى المغنى ؟ ! » ..

فلما اذن لنا بالدخول إلى الوزير ، افترق عنى وسمعت رجلا من أصحابه يقول له

- أتعرف هذا الذى واقفته وحادثته ؟ ! ..

قال القاضى :

- نعم ... رجل من قريش ... من أهل مكة ، من الفقهاء ! ...

قال الرجل :

- أصلح الله مولانا القاضى ... إنه ابن جامع المغنى ، وقد أنكر الناس ذلك من فعلك ! ...

قال القاضى أسفا نادما :

- إنا لله ! ...

وظفق يستغفر الله كأنه قارف أعظم الذنوب ! ...

● اليوم الخامس :

التقيت والقاضى مرة أخرى على باب الوزير البرمكى ، فلما بصرتى انحرف عنى ، فرفعت صوتى قائلا والناس يسمعون :

- يا أبا يوسف ... مالك تنحرف عنى ؟ ! ... أى شىء أنكرت ؟ ! ... أترامهم قالوا لك إني ابن جامع المغنى فكرهت أن تقف إلى جانبي ؟ ! ... إني أسألك عن شىء ثم أصنع ماشئت ...
ثم قلت له :

- يا أبا يوسف ... لو أن أعرابيا جلفا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة لسان :

يادار مية بالعلياء فالسند

أقوت وطل عليها سالف الأبد

أكنت ترى بذلك بأسا ، أو تحكم بأنه أنشدك كلاما حراما لا يصح إنشاده ؟ ! ...

قال أبو يوسف :

- لا ... فقد سمع رسول الله الشعر من الشعراء وغيرهم .

قلت :

- فإن قلت أنا هكذا ! ... ثم اندفعت أغنى هذا البيت بأجمل صوت حتى رأيت الناس يتميلون طربا إلا القاضى ، فقلت له :

- يا أبا يوسف ... أنت صاحب الفتيا ... وأنا مازدت هذا البيت على أن حسنته

بلحن جميل ، فوصل إلى القلوب .

قال لى أبو يوسف ضارعا يستعفينى من الكلام :

- عافاك الله ... أعفنا من ذلك ! ...

وفى سهرة الرشيد قصصت عليه القصة فضحك كثيرا ، وغنيته ومعه زوجته زبيدة التى قلما تجلس معه للسمع ، فأمرت لى زبيدة بأربعمائة ألف درهم ، فقال لها الرشيد :

- غلبتنا يابنت أبى الفضل ، وسبقتنا إلى بر صيفنا وجليسنا ...

ثم جعل لها الرشيد مكان كل درهم أمرت لى به ، ديناراً من الذهب ! ...

وفى تلك اللحظة خطر فى بالى مولانا قاضى القضاة ! ...

ذكریات البرامكة



● اليوم الأول :

دعاني القائد الكبير على بن هشام وهو صديق لى يحبني ويحب فن الغناء .. الى الصبوح فى قصره مع عدد من كبار المغنين والندماء .. فعاقنتى عن البكور اليه عائق قاطع ، فلم أستطع أن أوافيه الا ظهرا ، وكان ينبغي أن أكون فى مجلسه قبل طلوع الشمس ، فقال لى :

- أين كنت حتى هذه الساعة ياأبا محمد ؟
قلت :

- عاقنتى أمر لم أجد من القيام به بدا ..
فوثب عليه الأعسر - وهو تلميذ أبى وتلميذى ولكنه شديد الحسد لى - فقال
لعلى بن هشام وكأنه يداعبنى :
- أيها الأمير .. إن اسحاق الموصلى الذى يعتذر اليك بالعوائق ، ولايجيء اليك الا ظهرا ، كان فى الماضى سريع التلبية لدعوات البرامكة ، ولو دعوه فى منتصف الليل ! ..

قلت لعلويه

- كذبت يا أعسر .. وما أردت مداعبتى ، ولكنك تريد التحريض والدسياسة ! ..
فأراد عليه أن يشغب ويصيح ، فأسكته الأمير ابن هشام وأمره بالجلوس ،
ودعا لى بطعام وشراب ، ثم أشار الى عليه فغنى
إلهى منحت الود منى بخيلة

وأنت على تغيير ذاك قدير

شفاء الهوى بث الهوى واشتكاؤه

وإن امرا أخفى الهوى لصبور

فأخطأ عليه فى بعض أقسام اللحن ، فقلت له بعد أن فرغ منه :
- أخطأت يا عليه .. ويك !

فما رد على قولى ، ووضع عوده وشرب شيئا ، ثم تناول العود فغنى
ولقد أسمو الى غرف فى طريق موحش جده
حوله الأحراس تحرسه ولديه جاثما أسده

فأخطأ فى غناء هذا اللحن ايضا ، فقلت له :

- أخطأت يا أعسر ثانية .. ويك !

فوضع العود من يده وأقبل بوجهه ناحيتى محنقا :

- يا اسحاق !.. دعاك الأمير - أعزه الله - لتبكر اليه ، فجنّته ظهرا ، وغنيت
لحنين يشتهيها الأمير - أعزه الله - فخطأتني فيهما ، وأنت تزعم أنك لا تغنى
الا بين يدى خليفة أو ولى عهد .. وقد كنت أراك تسرع الى البرامكة قديما
فتغنى منذ الصباح الى الليل !
قلت لعلويه :

- إني والله ما أردت إنتقاصا منك ولا أقول لغيرك ماقلته لك تقويما
لصناعتك فى الغناء وما أردت بذلك ازدراءك ، ولكنى أردت تهذيبك لأنك
منسوب الصواب والخطأ الى أبى الذى علمك الصناعة ، فإن كرهت منى ذلك
تركته وقلت لك كلما سمعتك تغنى أحسنت وأجملت ! ..

ثم أقبلت على الجلوس فقلت :
- أما البرامكة فقد ذهبوا ، ولكنى لا أحدهم حقهم ، فوالله لقد وجدنى
الوزير يحيى بن خالد البرمكى يوما لا انشط للغناء ولللمنادمة ، فقال لى :
أراك مهموما ، كأنك مفتقر الى شىء .. ثم صاح :
- يا غلام .. دواة ورقعة وقلما ..

فوقع لى بمائتى الف درهم ! .. وكان فى مجلسه أولاده الأربعة جعفر
والفضل وموسى ومحمد ، فوقع لى جعفر بمائة وخمسين الف درهم ، ووقع
لى الفضل بمثلها ، ووقع لى موسى ومحمد بمائة الف ، مائة الف ! ..
فخرجت فى ساعة واحدة من عندهم بسبعمائة الف درهم ، ووالله ماسألتهم
أن يعطونى شيئا ، ولا غنيتهم لحنا ولا فعلت شيئا الا الجلوس بين أيديهم
صامتا فى تلك الساعة .. ولا والله ما كان هذا بأكبر شىء فعلوه لى .. فهل
يلومنى منصف على شكر هؤلاء وقد ذهبوا ولم تبق الا ذكراهم ؟!
فبكى على بن هشام وكل من حضر ، ومن بينهم علويه ، وقالوا
- لا يرى الناس والله مثل البرامكة ابدا ...

وقام علويه فقبل رأسى وقال لى :
- أنت أستاذنا وابن أستاذنا ، وبنا الى تقويمك حاجة فى كل وقت !
ثم جاءونى بعود ، فغنيت اللحنين اللذين أخطأ علويه فى غنائهما ،
وصححتهما له وبينتهما على وجههما حتى فهم علويه خطأه ، فقام يرقص
ويصيح :

- والله لو غنى ابليس هذين اللحنين لعجز عن مثل اتقائك هذا
يا اسحاق ! .. يا أستاذى وابن أستاذى
فضحك على بن هشام وقال :
- صدقت والله يا علويه ! .. هكذا يقول من يعقل لا كما كنت تقول وتشغب
من قبل على أستاذك اسحاق !

● اليوم الثانى :

فى مجلس أمير المؤمنين المعتصم ، غنيت لحنا جديدا قطرب طربا

شديدا ، ثم تأملنى لحظة وقال لى
- ياأبا محمد .. لقد ضحك الشيب فى عارضيك !
قلت وقد فاجئنى الحزن على ذهاب شبابى
- نعم ياسيدى .. فإن سبعين سنة ليست بالزمن القصير ، وقد تخطيتها
أسأل الله أن يمد فى عمر أمير المؤمنين !
ثم بكيت حتى اشتفيت ، وبكى المعتصم لبكائى ، وكان رقيقا على جبروته
وكثرة حروبه !
ووجدتنى أمسك بالعود وأغنى

تولى شبابى الا قليلا
وحل المشيب قصيرا جميلا
كفى حزنا بفراق الصبا
وأن أصبح الشيب منه بديلا
ساندب عهدا مضى للصبا
وأبكى الشباب بكاء طويلا
فطرب المعتصم ، وظهر التأثير الشديد على وجهه ، وقال لى
- والله لو قدرت على رد شبابك بشطر ملكى لفعلت !
فلم يكن لكلامه عندى من جواب الا تقبيل البساط بين يديه ! ..

● اليوم الثالث

اجتمعنا عند الواثق - ولى عهد المعتصم الآن - أنا ومخارق وعلويه
وغيرنا ، فأراد الواثق أن يؤلب مخارقا وعلويه ويغريهما بى ، ليتسلى
ويضحك ! .. ففعل ذلك حتى تهاترنا وتبادلنا قوارص الكلم ، ثم قال لى
الواثق .

- ماتقول ياسحاق فى مخارق ؟
قلت :
- هو مناد طيب الصوت ، ولكنه يخرج بالألحان عن أصولها فتكثر
أخطاؤه ..
- فما تقول فى علويه .. أهو أفضل أم مخارق ؟
قلت :

- أيها الأمير قيل لأحد العرب : أى حمارك شر ؟
فأجاب : هذا .. ثم هذا ! .. فعليه هو خير الحمامين فى الغناء .. وهو
على كل حال شئىء - أردت تصغيره - وخير منهما أبو حشيشة الطنبورى !
فوثب علويه مغضبا وقال للواثق :
- نسائى طوالق ، وچوارى حرائر ، لئن لم تستحلفه أن يصدق عما أسأله
عنه ، لأتوبن عن الغناء ما عشت

فقال الواثق لعلويه

- لاتعربد يا علويه .. نحن نفعل ماسألت
ثم حلفتني الواثق أن أصدق عما يسألتني عنه علويه ، فحلفت ، فسألتني
علويه

- من أحسن الناس اليوم صنعة فى التلحين بعدك ؟!

- أنت يا علويه .

- فمن أطيب الناس صوتا بعد مخارق ؟

- أنت !

- فمن أبرعهم ضربا على العود بعد زلزل قديما وبعد ثقيف الآن ؟!

- أنت !

فصاح علويه وكأنه أنتصر

- هذا قولك ، فانا الثانى فى كل مجال من صناعة الغناء ، وأنا ثلاثة فى

واحد ، وكل منكم واحد فقط لايتعدى مجاله فى الصناعة ، فمن يكون فى

الدنيا مثلى من نظرائى فى صناعتي ؟!

ثم التفت علويه ناحيتي وقال معربدا

- وما أنت وصوتك هذا الذى ضعف حتى صار لاتسمعه الأذن

انخفاضا ؟!

فأنتهره الواثق وقال له

- دع ذاعنك ، فلولا ما علمك اسحاق وأبو اسحاق من هذه الصناعة أنت

وغيرك ما كان فى بغداد أحد من المغنين

وغاظنى علويه ، فأخذت عودا فنقلت أوتاره من مواضعها حتى صارت

مشوشة لاتصلح للضرب ، ثم قلت : ليغن من شاء منكم وأنا أضرب له على

هذا العود الذى شويشت أوتاره ، فأدهشهم ذلك ، وغنى مخارق ، وضربت

له ، فلم يظهر فى الضرب اثر لتشويش الأوتار ، ولافقد الايقاع شيئا ،

ولا اختل من اللحن أدنى شيء .. فعظم عجب الواثق من فعلى ، وقام على

رجليه فقال :

- هذا والله ما لايفعله الا السحرة ! .. ومارأيت مثله قط ، ولاظننت أن مثله

يكون ابدا ..

فوثبت فرقصت طربا حتى تعبت ، فضحك الواثق وقال لى

- أنت والله أرقص من كبيش وعبد السلام ، وهما أرقص الناس فى بغداد

الآن كما يقال !

ثم قال الواثق :

- لا يكمل أحد فى صناعته كمثّل كمال اسحاق ..

ثم التفت الى الجلوس ، وبينهم مخارق وعلويه فوصفنى وقرظنى

وامتدحنى وقال

- والله ما ذكرت من اسحاق شيئا يقارب وصفه ، فهو واحد فى دهره علما

وفقها وأدبا ووقارا ووفاء وجودة رأى وصحة مودة .. لا يمل جليسه مجلسه

إن حدثك الهالك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك .. والغناء فرع من

دوحته ، وأما أمثال مخارق وعلويه فالغناء هو كل شيء عندهم ، وهم بغير
الغناء لا يكونون شيئا !
فرايت عندئذ مخارقا وعلويه ينكمشان وقد انكسرا وانهزما وأوشك أن
يقتل الحسد علويه خاصة !

● اليوم الرابع :

تولى الواثق الخلافة بعد أبيه المعتصم ..
الواثق يلحن ويغنى ويعتبر نفسه تلميذا الى فى هذه الصناعة ، وهو لطيف
غير مغرور بجاهه وسلطانه العظيم ، وإذا صنع لحنا عرضه على ، لأصلحه له
إذا كان فيه خطأ إلا أن ألحانه والله لاتقل جودة عن الحان مشاهير
المغنين ، بل لعلها خير من الحانهم لأنه يصنعها هواية وتطريا ، لاصناعة
وتكسبا ..

انحدرت مع الواثق وجمع من حاشيته الى مدينة « النجف »
قلت له : ياأمير المؤمنين .. قد قلت فى النجف قصيدة ، فقال : هاتها ،
فأنشدته

ياراكب العيس لاتعجل بنا وقف
نحى دارا لسعدى ثم فتصرف

ثم أتيت على قولى
لم ينزل الناس فى سهل ولاجبل
أصفى هواء ولا أعذى من النجف
حفت ببر وبحر من جوانبها
فالبر فى طرف والبحر فى طرف
ومايزال نسيم من يمانية
يأتيك منها برياً روضة انف

فقال لى الواثق صدقت ياسحاق .. هى كذلك ! .. ثم مضيت أنشدته
حتى أتيت على قولى فى مدحه

لايحسب الجود يقنى ماله أبدا
ولايرى بذل مايحوى من السرف

ومضيت فى القصيدة حتى أتممتها فطرب ، وأمر لى بمائة ألف درهم ..
ثم انحدرنا الى « الصالحية » فمكثنا أياما فاشتقت الى أهلى فى بغداد ،
فبكيت ، فبان التأثر فى وجهه ، واذن لى بالتصريف الى بغداد وأمر لى
بمائة ألف درهم .. فعدت من رحلتى هذه بمائتى الف درهم ! .. وماوصلنى
أحد من الخلفاء قط بما يصلنى به الواثق فى كل حين ، على أن أباه
المعتصم وعمه المأمون وجده الرشيد كانت الأموال تجرى بين أيديهم
كالأنهار ، وأما هو فقد غيض بحر المال فى عهده الا قليلا ! ..

يوميات دنانير البرمكية :

غفيرة زبيدة



● اليوم الأول :

تعود بى ذاكرتى الى السنين الخالية .. أيام كنت جارية مغنية فى قصر الوزير يحيى بن خالد البرمكى ، وزير الخليفة هارون الرشيد
كان الرشيد مشغولاً بفنائى ، لا يرى لى شبيهة بين الجوارى المغنيات البارعات اللاتى يملك منهن العشرات ، وما منهن الا من تميزت بصوت حسن ، أو أداء متقن ، أو جمعت بين حسن الصوت واتقان الأداء الا اننى أملك من جمال الصوت وصناعة الغناء والضرب على العود ، والعلم بالشعر وفنون التلحين ، مالا تعلمه الجوارى .

أرأنى أتحدث عن هذا الماضى كأننى أعيش فيه والحق انى أعيش فيه بأحلامى ، خلال يقظتى ومنامى ، ولكنه انقضى منذ عهد أراه بعيداً وهو قريب ، وأنا الآن امرأة تعيسة أدبرت أيامها السعيدة ولم تبق لها من تلك الأيام الا مرارة الذكرى !
وها آنذا أقلب طرفى فى « يومياتى » القديمة ، عائدة اليها بأحلامى ، وإن صارت الآن مجرد كلمات قديمة على أوراق صفراء عبثت بها الأرضة وابتلعت منها كلمة من هنا وكلمة من هناك .. وإنما ابتلعت فى هذه الكلمات قطعاً حية منى .
وآه من تلك اليوميات التى أكل الزمن كلماتها كما أكل كلمات حياتى ! ..

اليوم الثانى

اقرأ الآن حياتى من أولها ..

كنت جارية ليحيى البرمكى .. لم ير جارية مغنية أحسن منى وجهها ولا أظرف ولا أكمل أدبا

سمعتنى يحيى ثم اشترانى ، فقال لى - يادنانير .. إن لك صوتاً بارعاً جداً ، وطبعاً فى الغناء لم أر له مثيلاً ، على كثرة من سمعت من المغنيات المدربات الحاذقات .. ولكن تنقصك الدربة على أيدى فحول هذه الصناعة ، فإنيك متى أخذت عنهم أسرارها ، وتخرجت على أيديهم ، صرت واحدة زمانك فى الغناء ..

ثم دعا الوزير الى قصره كبار الملحنين والمغنين ليطارحونى الألحان ، فأخذت عن فليح بن ابى العوراء وهو أكبرهم سناً ، ثم عن اسماعيل بن جامع وهو أحسنهم صوتاً ، ثم عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ، وهما أعظم أهل الأرض علماً بصناعة الغناء ..

قال لى ابراهيم الموصلى يوما

- والله ماأرى فى غنائك نقصا يحتاج الى زيادة ، ولافى طبعك الا السلاسة والقوة ، كأنك زهرة عطرة نابئة بقوة فى أصل بذرتها ، لابرعاية بستانى يتعهدا ويسقيها ، فكيف كانت نشأتك فى هذا الفن يابنيتى ؟!

قلت

- كنت لرجل من أهل المدينة وأنا صبية صغيرة ، فخرجنى وأدبنى ، وأسمعنى غناء مطربى المدينة ، وما أكثرهم ، فأستجاب طبعى للغناء ، ورويت مأسمعتة ، فلما رأى سيدى ذلك منى ، علم أننى صرت غالية الثمن ، فعرضنى على الوزير يحيى البرمكى فاشترانى فهذه والله نشأتى وقصتى !

قال لى الموصلى

- فىنى جئت اليوم أسمع لحنك الجديد

- وما هو ؟!

- هو الذى حدثنى عنه الوزير أعزه الله ، وقال لى إنك به معجبة ، وترين أنه لحن فائق لامطعن فيه ..

أدهشنى أن يهتم الوزير بالحنانى حتى ليحدث عنها ابراهيم الموصلى ويدعوه الى سماعها منى ! ..

واقبل الوزير فقال للموصلى

- يا ابراهيم أسمعت اللحن من دنانير ؟!

قال الموصلى

- إنها تجس عودها لتبدأ ، ولكنك - أعزك الله - معجب بهذا اللحن الجديد ، وإعجابك به شهادة له لاحتاج معها الى شهادتى ، فإنك والله ثاقب الفطنة ، صحيح التمييز فى هذا الفن ، ولم أرك مثيلا فى ذلك الا أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وأعز نصره

أهتز الوزير يحيى لثناء الموصلى عليه وقال :

- يا أبا اسحاق لا أقول لك : أعجبنى هذا اللحن من دنانير ، ثم لايعجبك وأنت عندى رئيس صناعتك ، تعرف منها مالا أعرف ، بل مالايعرف الحذاق من أهلها .. وأنت تقف من دقائقها ولطائفها وأسرارها على ماخصصت به من بين الناس جميعا وإنما يتم سرورى بلحن دنانير اذا صادف منك استجابة وتصويبا .

ثم غنيت لحنى هذا وتحفظت فى أدائه على أحسن وجه ، حتى كدت أفتتن بغناء نفسى ، وغرنى مابلغته فى صناعة الألحان ! .. وكأننى كنت أضع مع أنفاسى دقات قلبى ، تدور بدمى فى هذين البيتين

نفسى أكنت عليك مدعيا

أم حين أرفع بينهم حُنتِ

أن كنت مولعة بذكرهم

فعلى فراقهم ألا مُتُّ ؟!

حتى فرغت من اللحن ، فكانما اكتملت لى فيه جهة كانت ناقصة فى وجدانى ،
فضلا عن فنى ..

ورأيت الوزير والموصلى قد استخفهما الطرب ، حتى صاح الوزير والموصلى
معا .

- أعيديه ! ..

فأعدته .. ولم يزالا يستعيدان حتى قلت : قد جن الرجلان بما يسمعان منى !
فلما هدا الوزير والملحن الكبير ، قال الوزير له :

- كيف رأيت صناعة هذا اللحن يا أبا أسحاق ؟!

قال الموصلى ولم تزياله بعد هزة طربه :

- انى طلبت أيها الوزير - أعزك الله - موضعا فى اللحن أصلحه وأغيره لتأخذه
عنى دنانير ، فلا والله ما قدرت على ذلك ، وقد أعادته علينا ، فإذا هو كالذهب
المصفى ، ليس فيه الا رونقه يزداد لمعانا ..

ثم خاطبنى الموصلى قائلا :

احسنت والله يابنية وأصببت ، فأنت الآن سيدة المغنيات الضاربات الملحنات ،
وإنك لتحسنين الاختيار ، وتجيدين الصنعة .. والله ما يحسن كثير من حذاق
المغنين مثل هذه الصنعة وأنت تتعلمين على أيديهم !

فضحك الوزير يحيى وقال للموصلى

- تأبى إلا أن تغمز ابن جامع ونظراءه من المغنين الذين تأخذ عنهم دنانير ،
ولاتنسى نقارك معهم ابدا !

قال الموصلى

- لا والله ، لقد أعادت اللحن مرات ، وأنا أريد أعانها لأفتح لنفسي مدخلا الى
تعديل أو تصحيح فيه ، فلا والله ما وجدت الى ذلك سبيلا !

قال الوزير

- قد والله سررتنى ، وسأسرك !..

ثم وجه الوزير الى الموصلى بمال عظيم ! ..

● اليوم الثالث :

جاء الرشيد الى قصرنا خلصة ، لأن زوجته زبيدة تغار عليه منى ، وتشكوه الى
كبراء بنى هاشم ، تقول لهم

- أمير المؤمنين ينتقل الى قصر وزيره لسماع جارية مغنية ؟ ؟
الا تنصحوه ؟!

فلما أُلح عليه كبار عمومته بالعتاب ، وقالوا له : فى قصرِكَ من المغنيات اللاتي هن ملك يمينك فلانة وفلانة .. وعشرات أخريات ، فما يحملُك على الخروج الى بيت الوزير لسماع تلك الجارية ؟!

قال لهم

- ليس لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، ولكن مَأربى فى غنائها ، فاسمعوها ان شئتم ، فإن لها من جمال الصوت وكمال الصنعة ما ليس لغيرها ، وقد شهد لها ابراهيم الموصلى الذى لا يشهد لأحد من مغن أو مغنية ، ولو عرضوه على السيف ، إلا أن يراه مجيدا

وقد سمعنى هؤلاء العاذلون ، فعذروا الرشيد ، وعادوا الى زوجته زبيدة فأشاروا عليها إلا تلح فى غيرتها حتى قبلت منهم ذلك ، وقالت

- والله ماهى الغيرة ، والاففى القصر ماتعلمون من عدد الجوارى اللاتي يملكنهن ، ولكنى خشيت عليه من استدراج البرامكة اياه إلى بيوتهم ! ..

وارادت زبيدة أن تنفى تهمة الغيرة عن نفسها فأهدت الى الرشيد عشر جوار جديديات ، منهن : ماردة ، ومراجل ، وفاردة ! .. وقد ولدن له أولاده المعتصم ، والمأمون ، وصالحا .. وهم ينافسون ابن زبيدة محمدا الأمين ، فى التطلع الى الخلافة ..

● اليوم الرابع

صحوت اليوم من نومي وأنا جائعة أشد الجوع ، فدعوت بالطعام فى بكرة الصباح ، فدهش الخدم ، فليست شرهة ، وأكلت من طلوع الشمس الى ارتفاع الضحى فما شبع ، والخدم يتعجبون ويتغامزون حتى جاء الوزير ، فقلت له انى اكل ولا أشبع ، فأدهشه الأمر ، وقام فاستدعى الطبيب ابن بختيشوع ، فلما فحص عن علتى ، انتحى بالوزير ناحية ، وسمعته يقول له متوجعا لما أصابنى من سعار الجوع

- قد أصابتها العلة الكلبية ! ..

فدعر الوزير وسأله :

- وما العلة الكلبية ؟ ! ..

- تأكل ولا تشبع ولا تصبر عن الأكل ساعة واحدة ! ..

- وما علاجها ؟ !

- اختلف الأطباء فيه ، ولكنى سأشرع فى علاجها متحرزا من الخطأ .. والله

المستعان ! ..

فرايت الوزير كأنه يوشك ان يبكى حزنا ، وأنصرف الطبيب للبحث عن دواء !

● اليوم الخامس

تناقصت حدة الجوع الذى أشعر به ، ولعل ذلك من أثر دواء الطبيب الذى اتعاطاه كل يوم مرات ، قبل الأكل وبعده
ولعل ذلك من أثر الصدقات الكبيرة التى يتصدق بها الوزير ، فقد أظلنا شهر رمضان المبارك ، ولم استطع صومه ، فأخذ الوزير يتصدق عنى فى كل يوم من أيام الشهر المبارك بألف دينار ، وفى الصدقة بركة لاشك فيها !
زارنى الرشيد حين سمع بعلى ، قرأيته مكتئبا من أجلى ، وأخرج من صندوق صغير يحمله بعض خدمه ، عقدا من الجواهر قيمته ثلاثون ألف دينار ، فأعطانيه ، وهو يبتسم لى مشجعا !
أنقضى شهر رمضان ، فشعرت كأننى شفيت من العلة الكلبيّة تماما . فأخذت أنفض الغبار عن عودى ، فقد شاقنى الغناء كثيرا
ولكنى لم أجد من الوزير اقبالا ، ورأيته اليوم مجتمعا وابنيه جعفرا والفضل . يتهامسون ، وقد ركبهم الهم والكرب فعجبت لذلك ، فلما انصرف جعفر والفضل قلت للوزير يحيى

- ياسيدى .. أى شيء أهمكم وطراً على أحوالكم ؟!

لم يجب الوزير ..

والتفتنا فإذا بمسرور خادم الرشيد يدخل القصر ويدعو يحيى لمقابلة الرشيد مع ابنه جعفر والفضل
انتظرت عودته ساعات طوالا ، حتى سمعت ضجة حول القصر ، وإذا بعسكر الرشيد يدخلون ويصادرون كل مافى القصر ، حتى العقد الذى وهبه لى الرشيد وقال العسكر : إن أمير المؤمنين قد نكب البرامكة جميعا وقتل جعفر بن يحيى وحبس أباه وأخاه !

● اليوم السادس :

دعانى الرشيد الى الغناء فى قصره ، فلما جلست بين يديه قلت له
- ياأمير المؤمنين .. إنى أليت الا أغنى بعد سيدى ابدا !
غضب الرشيد وأمر بصفعى ، فصفعنى الخدم ، وأقامونى على رجلى ، وأعطونى العود ، فأخذته وأنا أبكى أحر بكاء وغنيت مع ذلك متحفظة فى غنائى ، قائمة بأصول الصناعة :

يادار سلمى بنازح السُّند

بين الثنايا ومسقط اللبد

لمارأيتُ الديارَ قد دُرِسَتْ

أيقنت أن النعيم لم يَعدِ

رق لى الرشيد وأمر باطلاقى !

انصرفت الى البيت الذى أسكن فيه ، فجاء ابراهيم بن المهدي أخو الرشيد ،

وهو من أجمل الناس صوتا ، فقال لى مواسيا يتحزن لمصابى

- قد والله أبكىتنى بما غنيت ، ولكن اضطرابك من الحزن لم يذهب بشيء من جمال

صوتك وصناعتك ، فقد رأيتك تَحْتَلِينُ اللحن برفق ، وتقهرينه بحذق ! .. فله أنت ..

ما أكرمك وأنبلك !

وأراد أن يعطينى بعض المال فأبيت ، وانصرف والدمع فى عينيه !

زارنى المطرب « عقيد » وهو من موالى الأمير صالح بن الرشيد ، ويحببنى من

قديم ، وكان ينتظر أن أتحري من الرق ليتزوجنى ، فلما تحررت بعد نكبة البرامكة ،

جاء يخطبنى ، فرددته برفق ، وأقمت على الوفاء لمولائى ! ..

وتعود بى ذاكرتى الآن الى السنين الخالية .. أيام يحيى وجعفر ، والرشيد ،

وغيره زوجته زبيدة .. ومطارحات الموصلى الألعان ! ..

يوميات دنانير الكناسية :

جارية الرجل الصالح



● اليوم الأول

سيدي الذي اشتراني اسمه محمد بن كناسة .. رجل عربي النسب ، كوفي المولد والمنشأ .. صالح السيرة ، ذو مروءة وأدب وعلم ، وله شعر جيد ، ولكنه لا يقصد بشعره ذوى السلطان والثراء ليمدحهم كما يفعل غيره من أهل الأدب والعلم ! .. سمعت مرة أحد أصدقائه يقول له

- عجبت لك يا أبا يحيى فى قعودك عن باب السلطان ، ورفضك انتجاع الكبراء والعظماء بأدبك وعلمك وشعرك ، كما يفعل كل من له فضلة أدب أو علم أو شعر فى هذه الدولة العباسية التى راجت فيها سوق أناس هم دونك علما وأدبا ، وإنك لمن رواة الحديث الشريف ، وقد أخذت عن الثقات من المحدثين ، ورأيت الأعمش الفقيه الكبير ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وسفيان الثوري ، وهم فى العلم جبال شامخة ! ..

فقال له محمد بن كناسة

- أصون عرضى عن الوقوف على أبواب السلطان ، ولا أطلب الرفعة بإغماض العينين ، ولا أجرح وجهى بالمطامع ! ..
ثم ارتجل :

معاشى دوين القوت والعرض وافر
وَبَطْنِيْ عن جدوى اللئام خَمِيصُ
سألقي المنايا لم أخالط دنية

ولم تسر بى فى المخزيات قُلوص

فلما خرج صاحبه هذا ، دخل شيخ الملحنين والمغنين اسحاق الموصلى ، فهش له سيدي ، وقال له :

- تغنيك جاريتنا أم تغنيانا أنت متفضلا يا أبا محمد !؟ ..

قال اسحاق :

- لولا وجع فى حلقى من أثر البرد لغنيتك متشرقا بالغناء بين يديك ! .

فناداني سيدي

- يادنانير .. هذا أبو محمد اسحاق الموصلى أعزه الله .. هاتى عودك فأسمعينا مما تحفظين من ألحانه ! ..

فلما غنيتهما طربا .. وقال له اسحاق :

- ياأبا يحيى .. أراك تنقبض عن الناس ولا تمازجهم ولا تكثر من التحدث إليهم ،
ولكنك تخصصنى بالاقبال والمودة والمداعبة واللفظ والتواضع ، فجزاك الله عنى
خييراً ، ونفعنى بعلمك وأدبك وجعلنى فداك ! ..

فصمت محمد بن كناسة قليلاً ثم أجابه ببيتين ارتجلهما فرأيت اسحاق الموصلى
يتمائيل طرباً للبيتين ، ومارأيت الله يطرب لغناء أحد طربه لهذين البيتين .
ثم قال سيدى لاسحاق الموصلى

- ياأب محمد .. إن فى علمك وأدبك وعفافك وظرفك ما يجعلنا نرسل أنفسنا على
سجيتنا معك ، فى حين نقبض عن كثيرين من الناس ، وإن كان الفضل لك علينا
فى كل حال ! ..

● اليوم الثانى :

سمعت بعضهم يقول لسيدى ابن كناسة :

- أنت امرؤ صالح ، يقصدك العلماء ، فما حظك من جاريتك دنانير المغنية هذه
التي يسمعونها عندك أصحابك ممن ترضى أخلاقهم وتتق بحسن ذوقهم فى
السماع ؟ ! ..

قال له سيدى

- قد أجبته بنفسك عن سؤالك ! .. فإنما أسمع غناها ويسمعوته معى ، على
غير فاحشة ، وهى ملك يمينى ، اشتريتها بمالى ، ولى فيها غنى عن سماع غيرها
فى بيوت الناس ، وهى بارعة فى صناعة الغناء ، وحسبك أن اسحاق الموصلى قد
شهد بذلك ! .. ولها إلى ذلك أدب وذكاء وعفاف ..

ثمة سريخفيه هذا الشيخ الطيب عن أصحابه ، فهو لا يجب زوجته التى بنى بها
منذ ثلاثين سنة ، فتقل عليه مكانها فى بيته ، لسوء عشرتها ، وحدة لسانها ، ثم
جعلت لنفسها ركناً فى البيت ، وجعل لنفسه ركناً آخر .. وما أظنه اشتراى لغنائى
فحسب ، بل لأكون أنيسة له أيضاً فى هذا البيت الموحش ..

صحبته أمس فى زيارة بعض أقاربه فمررنا فى طريق بغداد برجل مصلوب على
جذع شجرة ، يقول الناس إنه من المفسدين فى الأرض .. فنظر إليه ابن كناسة
لحظة ، وحوقل ، ولم يتذكر وهو يرى هذا المنظر المرعب إلا زوجته التى تركها فى
البيت ولم يقل لها وهو خارج بى إلى أين نحن ذاهبان ! .. فقال مرتجلاً وقد أنزل
عينيه عن الرجل المصلوب وأغمضهما كأنه يستجمع صورة تلك المرأة :

ايا جذع مصلوب أتى دون صلبه

ثلاثون حولاً كاملاً .. هل تبادلاً ؟

فما أنت بالحمل الذى قد حملته

بأضجر منى بالذى أنا حامل !

فحزنت والله من أجل الشيخ ، لأنه يرى أن الرجل المصلوب أخف وزنا على الجذع الذى يحمله ، من وزن امراته هو التى حملها على قلبه مكرها ثلاثين سنة !
مع ذلك فالشيخ من أبر الناس بعياله ، وقد رأيته منذ أيام يحمل إليهم بيديه بطن شاة من عند الجزار ، فقلت له هات أحمله عنك ! .. قال

لاينقص الكامل من كماله

ماجر من نفع إلى عياله

● اليوم الثالث :

يعجبني فى سيدى ابن كناسة ، فوق علمه وتقواه وطربه لغنائى ، أنه يثق بفهمى وعلمى وسرعة فطنتى ..

كنت أمس أجلس خلف ستارة فى بيته ، وهو جالس إلى أصدقاء له من الأدباء والعلماء .. فذكرنى أحدهم فأتنى على غنائى وضربى بالعود ، وهو لايعلم أننى جالسة وراء الستارة ..

فقال ابن كناسة لأصحابه :

- إن الغناء هو أقل فضائلها على براعتها فيه .. ولو شئتم لاختبرت لكم فهمها وعلمها الساعة ..

ثم أخذ قلما وكتب رقعة ، ونادى خادمة فأمرها بإيصالها لى ، فقرأت فيها « يادنانير .. إنك أمةٌ ضعيفة لكعاء فإذا جاءك كتابى هذا فعجلى بجوابى .. والسلام » ! ..

فلما تأملت كلامه علمت أنه لايريد أن يقول شيئاً ، وأنه إنما يختبر فطنتى فى الوقوف على معانى الكلام وإدراك مراميه .. وكلامه هذا لامعنى له ولامرمى ! .. فكتبت إليه : « ياسيدى ساعنى تهجينك إياى .. وإن من أعيال العى ، الجواب عما لاجواب له ! .. والسلام » ! ..

فلما بلغته رقعتى قراها على صاحبه وقال لهم :

- أرايتم كيف فطنت الجارية إلى أننى إنما كتبت إليها ثرثرة لامعنى لها ؟ !
قال القوم :

- والله .. إن دنانير جاريتك هذه لأعظم قدرا من دنانير جارية البرامكة ! ..
قال سيدى :

- صدقتم والله .. فإننى سمعت غناء دنانير البرمكية مرة ، فوالله ما أراها تعدل فى الغناء دنانير جاريتى .. أما الأدب والذكاء والكمال فليس لجاريتنا فيها مثيل فما رأينا ولا سمعنا أفضل منها ! ..

● اليوم الرابع :

زوارنا اليوم كثيرون .. جاءنا واحد من العلماء النبهاء فذاكره سيدى فى شىء من الأدب والعلم ، حتى قال له الرجل :

- ياأبا يحيى .. والله إنى لأستحسن أبياتك التى أولها : « ومن عجب الدنيا » .. وأريد أن أكتبها فلاتضيع منى فهلا أنشدتنيها ؟ .. فأنشده سيدى هذه الأبيات

ومن عجب الدنيا تُبْقِيكَ لِلْبَلَى

وانك فيها للبقاء مُرِيدُ

وإى بنى الأيام إلا وعنده

من الدهر ذنب طارف وتليد

ومن يأمن الأيام .. أما انبياعها

فَحَطَّرُ وأما فَجَعُهَا فعتيد

إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى

فإن فطام النفس عنه شديد

فلما كتب الرجل الأبيات وانصرف ، قلت لسيدى

- ماهو « الانبياع » ؟ .. وماهو « الخطر » ؟ .. بسكون الطاء - فى البيت الثالث من هذه الأبيات ؟!

أجاب

- الانبياع هو الوثوب بعد السكون ! .. تكون الدنيا ساكنة هادئة فينخدع بها المرء حتى تثب عليه وثبا فتقتله أو تسلبه عافيته أو تهتك ستره .. وأما الخطر ، فهو ضرب البعير الهاثج بذيله يمينا وشمالا .. أردت تشبيه الدنيا حين تهيج على صاحبها بهذا البعير حين يهيج على صاحبه ! ..

ثم قال لى :

- يادنانير ! إياى تخدعين ؟! .. أترين أنى لا أدري معرفتك بهذا الكلام كله ؟! .. وإنما أردت أن تسلينى وترفهى عنى ، وتعرفينى أنك معجبة بشعرى ! ..

قلت له :

- والله ياسيدى إنك لمن أشعر الناس ، وإنى سمعت اسحاق الموصلى يوما يقول لك وقد سمع بيتين من شعرك فاهتز لهما إعجابا :

- ياأبا يحيى .. وددت أنه نقص من عمرى سنتان وأنى كنت سبقتك إلى هذين البيتين ! ..

فأطرق ابن كناسة لحظة ثم سألنى
- قد نسيت ذلك ، فما هما البيتان ؟!

قلت

- بيتاك ياسيدى اللذان تقول فى أول شطر منهما : « فى انقباض وحشمة .. » !

فايتسم ابن كناسة سرورا وقال :

- لله درك يادنانير .. قد أذكرتنى من نسيان ، وشوقتنى والله إلى اسحاق الموصلى ! ..

واندفعت ، حين ذكر اسم الموصلى ، فغنيته البيتين :

فى انقباض وحشمة فإذا

صادفت أهل الوفاء والكرم

أرسلت نفسى على سجيبتها

وقلت ماقلت غير محتشم

فطرب لغنائى طربا ماعهدته من قبل ، ثم بكى وقال

- قد كبرت سنى ، وضعفت عن مواصلة إخوانى بالزيارة ، ولولا ذلك لقمتم الساعة فركبت إلى الموصلى .. ثم أنشد

ضعفت عن الاخوان حتى جفوتهم

على غير زهد فى الوفاء ولا الود

ولكن إيامى تَحْرُفُ مُنْتَبِئِي

فما أبلغ الحاجات إلا على جهد

وسمعنا طرقا على الباب فإذا بصديق لابن كناسة جاء يزوره فرحب به ، وأخذا يتجاذبان الحديث ..

صديقه هذا رجل كثير المزاح ، لكنه تقى عفيف ، يدخل إلينا فيسمع غنائى ، ويلمع لى بهواه فلا أجيبه بشيء .. ولكنه اليوم أكثر من التلميح فى سياق مزاحه ، فغنيت :

يا فؤادى فازدجر عنه ويا

عبث الحب به فاقعد وقم

صائد تآمنه غزلانه

مثلما تآمن غزلان الحرم

ففهم الرجل ما أعنى ، وفهم ابن كناسة كذلك ، ومازالا يطربان على غنائى ولايشربان كما اعتاد جميع الناس أن يفعلوا حتى قام الرجل يستأذن فى الانصراف ..

لم يكد الرجل ينصرف حتى أقبل صديق آخر من أصدقاء ابن كناسة يتعاطى العلم ، وكان يكتب الحديث ويتفقه ويتلمذ على « ابن كناسة » ويظهر فى حضرته أدبا ونسكا .. ثم اطلع منه ابن كناسة على باطن ردىء يخالف ظاهره الحسن ، فلم يعد يطبق مجالسته لتناقض ظاهره وباطنه ، وتكذيب أعماله لأقواله .. فلما جلسا لم يفاتحه ابن كناسة فى شعر ولا أدب ولاحديث ولافقه ، واكتفى بإنشاده هذه الأبيات

ما من روى أدبا فلم يعمل به
ويكف عن دفع الهوى .. بأديب
حتى يكون بما تعلمُ عاملا
من صالح فيكون غير معيب
ولقلما يغنى إصابة قائل
أفعاله أفعال غير مصيب

ففهم الرجل ما يعنيه ابن كناسة ، وقام يعتذر إليه ويحلف أنه قد تاب وأناب .. ثم انصرف ! ..

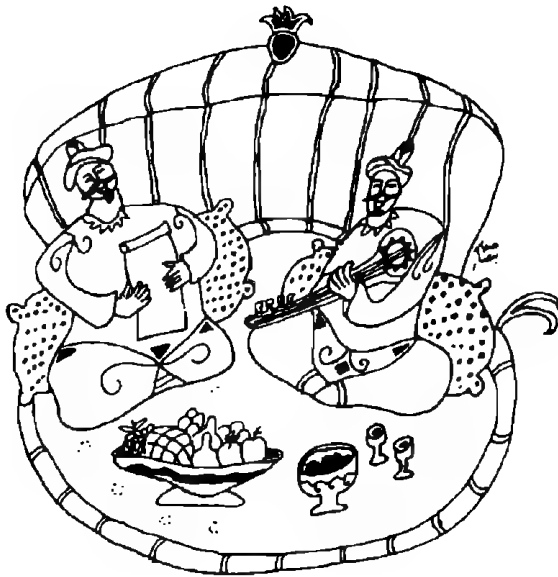
● اليوم الخامس :

« هذا اليوم لم تكتبه دنانير ، وإنما كتبه سيدها محمد بن كناسة .. قال » :
- ماتت جارىتى دنانير المغنية الأدبية العفيفة التى كانت أنس حياتى ! ..
يرحمها الله ! .. ويعجل بى بعدها إلى رحمته ! ..
أفحمنى موتها وجاء الناس يعزوننى ، إلا امرأتى فإنى أحسست حركتها فى البيت ، كأنها امتلأت مرحا ونشاطا .. فقلت أرشى دنانير :

الحمد لله لأشريك له
بالبيت ماكان منك لم يكن
إن يكن القول قلُّ فيك فما
أفحمنى غير شدة الخُرْنِ !

يوميات مُخَارِق

هدية الموصل إلى البرامكة



● اليوم الأول :

نشأتى كانت متواضعة فقيرة ، لا أمل فى تغييرها وكيف يتسنى تغييرها وأبى جزار فقير ، من أفقر الجزارين بالكوفة ، لم يكن يملك محل جزارته ، ولا الذبائح التى فيه ، لأنه هو نفسه كان عبدا مملوكا ، اجتلبه سيده من سوق الرقيق وكلفه أن يذبح الخراف والثيران والجمال ويبيعها لأهل الكوفة ! ..

ومن لحظة ميلادى صرت مملوكا مثل أبى للرجل صاحب المال والجاه الذى يمت بالنسب إلى حاكم الكوفة ! ..

كبرت قليلا فصرت أساعد أبى المسكين فى عمله ، حتى بلغت بضع عشرة سنة من عمرى ، فاكتشفت كما اكتشف الناس أن لى صوتا فائق الجمال .. كان أبى يأمرنى أن أنادى على مايبيعه من اللحوم ، فأرفع صوتى وأنادى وأترنم وأتصرف فى المناداة حتى اعتاد الناس أن يجتمعوا كل يوم عند دكان اللحوم ليسمعوا صوتى ! بعضهم يشتري اللحم محبة فى سماعى ! .. وبعضهم يسمع ولا يشتري ! ..

علم سيدى بجمال صوتى فأخذنى إلى مغنية بارعة فى الكوفة وطلب إليها أن تعلمنى الغناء وضرب العود ، فلما سمعت المرأة صوتى هالها جماله فاشتريتني من سيدى ، وثابتت على تعليمى حتى أخذت عنها كل ماتعرفه من صناعة الغناء وضرب العود ، ولم يكن كثيرا

ذات يوم ألبستنى المرأة ثيابا جديدة وسافرت بى إلى بغداد ، فعرضتني على نخاس يبيع المغنين والمغنيات .. قال لها : اذهبي به إلى ابراهيم الموصلى ، فإن كان له صوت جميل حقا فسيشتريه منك ! ..

سمعنى ابراهيم الموصلى ، ثم قال للمرأة :

- كم درهما تأملين من بيع هذا الغلام !؟ ..

قالت مغالية فى الثمن :

- عشرة آلاف درهم !

قال الموصلى ضاحكا :

- قد أخذته بها ، وهو خير منها ! ..

ندمت المرأة ، واستعطفت الموصلى أن يعفيها من البيع بهذا الثمن « البخس » وقالت فى إصرار :

- لا أبيعها إلا بعشرين ألف درهم ! ..

قال الموصلى ساخرا

- قد أخذته بها وهو خير منها !

صرخت المرأة :

- أقتلى .. أقالك الله من كل عثرة خذه بثلاثين ألف درهم لا أمتنع بعدها من بيعه لك ! ..

غاطها الموصلى قائلا بلا مبالاة :

- قد اشتريته بثلاثين ألف درهم ، وهو خير منها !

ارتسم الغيظ فى وجه المرأة ولكنها صفقت على يد ابراهيم وبايعته ، وأعطاه ثلاثين ألفا ، ثم زادها ثلاثة آلاف درهم وقال لها : هذه تكون لهدية تهدينها ، أو كسوة تكتسبونها ، ولا تتلعبن المال ! .

فرحت المرأة بهذه الآلاف الثلاثة أكثر من فرحتها بالثلاثين ألفا .. وعرفت أنها منذئذ أن ابراهيم الموصلى إنسان طيب كريم ..

● اليوم الثانى :

تعلمت كثيرا من أمور الفن وأمور الدنيا منذ صرت مملوكا لابراهيم الموصلى وعرفت أن ماتعلمته عند سيدتى الكوفية من الغناء ، لايزيد على قطرة من بحر هذه الصناعة الكبرى .. ووجدت الموصلى بحرا فى هذه الصناعة لاساحل له ، فاغترفت منه ماشئت من لؤلؤ لامثيل له عند أحد غيره من عظماء هذه الصناعة ..

أخذنى سيدى إلى الوزير الفضل بن يحيى البرمكى فسمعنى ثم سأل سيدى أن يبيعنى إياه ، فقال سيدى بصدق وكبرياء :

- أبيع به ثلاثة وثلاثين ألف دينار ، وقد اشتريته بثلاثة وثلاثين ألف درهم ! ..

امتنع الفضل بن يحيى من شرائى بهذا المبلغ ، كآته استكثره ، فغضب الموصلى وقال له :

- فانا أهبه لك أيها الوزير ولا أقبل أقل من ثمنه ! ..

قال الوزير من فوره :

- قد قبلته ! ..

هكذا صرت غلاما للوزير ، وغازبنى أنه ساوم فى ثمنى ولم يعرف قيمتى ، مع أن الموصلى قال له وهو يحاوره :

- أيها الوزير .. هذا الغلام لم يكن لأحد فى الدنيا صوت كصوته ، ولا يكون أبدا

● اليوم الثالث

فى سهرة الرشيد ، كانت أخبارى قد وصلت .. قال الرشيد لابراهيم الموصلى

- يا ابراهيم .. ماغلام بلغنى أنك وهبته للفضل ؟!

قال الموصلى :

- غلام يا أمير المؤمنين ، لم تملك العرب ولا العجم مثله صوتا ، ولا يكون مثله أبدا

سأله الرشيد

- كم يساوى ؟!

أجاب الموصلى فى حماسة وانفعال

- يساوى خراج مصر وضياعها ! ..

دهش الرشيد وقال للموصلى :

- ويك ! .. أتدرى ماتقول ؟! .. مبلغ هذا المال جسيم جدا ! ..

فثبت الموصلى فى موقفه ، ولم يهدىء من حماسه ، وقال :

- ومايكون هذا المال فى صوت لم يملك أحد مثله قط ؟!

أخذنى الرشيد من الفضل بن يحيى ، ووقفت لأول مرة أغنى بين يديه ، كما يغنى
الغلمان المبتدئون ، أما المطربون الكبار فيغنون جالسين ..

سمع غنائى فطرب حتى كاد يطير فرحا ، وقال لى :

- يا مخارق .. إجلس مع أصحابك ، فقد تجاوزت مرتبة من يغنى واقفا ! ..

ووصلنى بثلاثة آلاف دينار ، وهى صلة يطمع فى مثلها كبار المطربين الذين
يغنون بين يديه منذ عشر سنوات أو أكثر !

● اليوم الرابع :

غنيت الرشيد :

ياربع سلمى لقد هيجت لى طربا

زدت الفؤاد على علاته وصبا

ربيع تبدل ممن كان يسكنه

عفر الظباء وظلمانا به عَصَبَا

فبكى الرشيد ، وقال لى

- أحسنت يامخارق ، فسلنى حاجتك ! ..
فانطلقت أقول كأنى أخشى فوات الفرصة :
- حاجتى أن تعتقنى يا أمير المؤمنين أعتك الله من النار ! ..
- أنت حر لوجه الله ! .. فأعد الصوت ..
فأعدته فبكى وشرب رطلا ثم قال :
- أحسنت يامخارق فسلنى حاجتك ! ..
قلت
- ضيعة أنتفع بغلتها .. ومنزل وفرش وخدم ! ..
فأمر لى بكل ذلك ! .. ثم استدعى قائد جيشه هرثمة بن أعين ، فدخل إليه وهو
يجر سيفه الثقيل ، فقال له الرشيد :
- ياهرثمة .. أتتذكر مخارقا الخارجى الذى قتلناه بناحية الموصل ؟ .. ماكانت
كنيته ؟ ..
قال هرثمة كأنه يقرأ من كتاب :
- كنيته « أبو المهنا » ..
قال له الرشيد :
- انصرف ! ..
انصرف هرثمة ، لكونه من رجال الحرب ، فهو ممنوع من حضور مجالس الغناء
فى حضرة الخليفة .. وقال لى الرشيد :
- قد كنيتهك أبا المهنا لاحسانك ، وأمرت لك بمائة ألف درهم ! ..

● اليوم الخامس :

طرق باب بيتى الشاعر أبو العتاهية الذى نسك وزهد فى الدنيا كما يزعم ، مع أن
بيته مشحون بالأموال التى كسبها من العطايا ولم ينفق منها إلا دراهم معدودة ! ..
قال لى أبو العتاهية وهو يتربع جالسا :
- يا أحسن من غنى فى هذا الاتليم ! .. يا حكيم أرض بابل ! ..
أصيب فى أذنى شيئا من غنائك يفرح به قلبى ، وتنعم به نفسى ! ..
غنيته فجعل يبكى بحرقة ، ويكاد يمشى على وجهه طربا .. ثم قال لى :
- يادواء المجانين ، لقد رق صوتك حتى كدت أحسوه ، فلو كان غناؤك شرابا لكان

ماء الحياة ! ..

لم يكد أبو العتاهية ينصرف حتى خطر لى أنه سيموت وأنى لن أراه بعد هذه الساعة ، فصرت إلى داره فوجدته قد خلع ملابسه وجلس عاريا فى أثناء اسطوانى من الفخار يظهر صدره من أعلاه ، ويظهر من أسفله ساقاه إلى ركبتيه ، وسائر جسده عار داخل الاسطوانة ..

أذهلنى منظره ، ثم انفجرت ضاحكا من هذا الرجل الملتاث ، وقلت له :

- ويحك يا أبا العتاهية ! .. ما هذا الذى صنعتته بنفسك ؟!

بكى وقال :

- هذا والله مقدار حاجة الحى من الدنيا ، ولكن حاجة من عاش لاتنقضى ! ..

قلت

- أفتستغنى بهذا عن كل لباس على جسمك ؟ ! .. فإن الله لم يأمر بذلك ، وإنك لتعلم أن المتقين يلبسون الحرير فى الجنة ، فليس العرى من الدين فى الدنيا ولا فى الآخرة ! ..

خجل أبو العتاهية وسألنى أن أنتظره حتى يرتدى ملابسه فى إحدى الحجرات .. فلما ارتداها جلسنا وأمر بطعام وشراب فطعمت قليلا ، وشربت أقل من القليل ، وتولى هو ابتلاع « المائدة » كلها طعاما وشرابا .. ثم قال لى :

سيعرض عن ذكرى وتفسى مودتى

ويحدث بعدى للخليل خليل

إذا ما انقضت عنى من الدهر مدنى

فإن غناء الباكيات قليل

غنيتة فى شعره هذا فبكى حتى اخضلت لحيته ، وقال لى :

- إذا حانت مدتى ودعاك أهلى إلى رؤيتى فلاتتأخر عنى ، واصيب فى أذنى هذين البيتين قبل أن أسلم الروح ! ..

تأثرت من حال هذا الرجل الذى صار فى شيخوخته خليطا من الضعف والعتة وحب الدنيا وكراهية الناس والرغبة فى الموت والخوف منه ! ..

● اليوم السادس :

عشت حتى الآن سبعين عاما ومازال صوتى أجمل صوت سمعه الناس من عصر الرشيد إلى عصر حفيده المتوكل على الله .. وأنا صحيح معافى ، لكنى أشعر بأن دنياى قد انتهت ! .. لقد تغيرت دنياى ودنيا الناس من عهد الرشيد إلى عهد

المتوكل .. أكثر من خمسين عاما ، غنيت فيها لسته خلفاء ولمئات الأمراء والوزراء والكتاب وغيرهم ! .. وعشت كما يعيش أغنياء بغداد ، بعد أن بدأت حياتي في الكوفة أنادى على اللحوم في دكان جزارة سيدى وسيد والذى الذى باعنى ، فانتقلت منه إلى السيدة التى باعتنى .. إلى الموصلى .. إلى الوزير البرمكى .. إلى الخليفة الرشيد .. إلى أن صرت المطرب الأول فى بغداد ، وكسبت ما لو أردت أن أشتري به مائة ألف دكان للجزارة لفعلت ! ..

أنا لا أحب اللحم ، وبالأمس قال لى ضارب رمل إننى سأموت قريبا مسموما من أكل قنبيطية باردة ! .. وحذرنى الرجل من أكل كل طعام بارد ! .. الحياة نفسها صارت باردة كالشتاء ، فلتجىء النهاية كما تشاء .. حارة ، أو باردة ! ..

يوميات عُليّة

بين الفناء والتسليّة



● اليوم الاول

● مازلت أذكر والدتي - رحمها الله - كانت من أحسن النساء وجها ، ولا مثيل لها في جودة الغناء .. حدثتني كثيرا عن جارية زميلة لها تسمى «بصبص» .. كانتا معا في «المدينة» .. ثم بيعت والدتي إلى والدي المهدي - رحمه الله - وبقيت «بصبص» في المدينة تغني لأهلها ..

كانت والدتي تسمى «مكنونة المروانية» .. وليست من آل مروان بن الحكم ، وقد غلبت بجمالها وغنائها على أبي - رحمه الله - حتى كانت زوجته الخيزران والدة هارون الرشيد وموسى الهادي تقول : ما ملك المهدي جارية أغلظ على قلبي من مكنونة المروانية ! ..

من والدتي تعلمت الغناء ، وكانت زميلتها «شكلة» جارية أبي ووالدة أخى إبراهيم ابن المهدي ، تألفها وتتودد «إليها» .. ومن والدتي تعلم إبراهيم بن المهدي أول ما تعلمه من الغناء ، فكنت أنا وهو نتعلم منها معا .. وقال كل من سمعنا من أهلنا ومن المغنين المحترفين : ما سمعنا قط أخوين أحسن غناء من عُلَيَّة وأخيها إبراهيم ..

والناس يظلمون الآن أخى إبراهيم بعد أن كبر واشتهر بالغناء ، ويظنون الغناء تبذلا منه ، وليس كذلك ، وإنما أكتمل بالغناء ، وقد شهد له اسحاق الموصلى الذى لا يشهد بشيء حسن لأحد من الناس إلا نادرا ، فقال : «ما ولد العباس بن عبدالمطلب بعد عبدالله بن العباس ، رجلا كإبراهيم بن المهدي» .. ذلك أن إبراهيم رجل عاقل ذكى متدين شاعر راوية للشعر وأيام العرب ، خطيب فصيح حسن العارضة .. لم ينتقص الغناء من فضله بل تم فضله به ، مع تصرف فى الفقه وسائر العلوم الشريفة والآداب العالية ! ..

وهو يصنع الألحان وينسبها إلى جاريته «ريق» و«شارية» ترفعا عن الدخول فى مضمار الملحنين .. وإذا قيل له فى ذلك شيء ، قال : إنما أصنع الألحان تطربا لا تكسبا .. وأغنى لنفسى لا للناس ! ..

فهذا هو شأن أخى إبراهيم فى الغناء ، وإن أكثر القول فيه عائيه من الخاصة والعامة

ولا أطيل الدفاع عن أخى ، فما هو عندي بمتهم ولا عند من يعرفه من أهل العلم وكبراء الدولة ، فضلا عن أخيه أمير المؤمنين الرشيد ..

أما أنا ، فوالله إنى لحسنة الدين ، لا أغنى ولا أقرب شرابا إلا إذا كنت معترلة الصلاة لعذر شرعى ، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ، ولا الذ

بشيء غير قول الشعر أحيانا ، إلا أن يدعوني أخى الخليفة إلى شيء من الغناء فلا أقدر على مخالفته .. وإنى لأقول لنفسي وللناس : ما حرم الله شيئا إلا وقد جعل فيما حلل منه عوضا .. فبأى شيء يحتج عاصيه والمنتكح لحرماته !؟ ..

وإنما يرميني بعض الناس بالتم لم يقرأونه فى بعض شعري من العيب ، والله ما فى شعري إلا مجرد الكلام ، وإنى لأقول فيه مالا أفعل ، ولا غفر الله لى فاحشة ارتكبتها إن كنت ارتكبت فاحشة قط ! ..

ومن هذا العيب الذى هو كلام لا غير ، ما نظمته فى خادم اسمه «طل» .. من خدم أخى هارون الرشيد ، فحلف الرشيد ألا أكلم خادمه ولا أسمىه باسمه أبدا ، فضمنت له ذلك . فبينما أنا أقرأ سورة البقرة يوما بلغت إلى قوله عز وجل «فإن لم يصبها وابل فطل» .. وإذا بأمير المؤمنين قد جاء إلى مجلسى ، وقد سبق لى أن ضمننت له ألا أذكر اسم خادمه «طل» أبدا .. فقرأت وهو يسمع «فإن لم يصبها وابل ..» .. ثم قطعت ، وقلت : «فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين» ..

فتنبه الرشيد إلى ذلك وقبل رأسى ، وعرف أنه قد اشتد فى التضيق على حتى فى ذكر الأسماء ، وقال لى لا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه ! .. ولما نظمت هذه الأبيات :

أيما سرورة البستان طال تشوقى
فهل لى إلى ظل لديك سبيل
متى يلتقى من ليس يقضى خروجه
وليس لمن يهوى إليه دخول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا
فيلقى اغتباطا خلة وخليل

زعم بعض من سمع هذا الشعر أنه غزل نظمته فى «طل» وصحفت اسمه فى أول بيت .. ففاظننى قولهم ، فلحنت الشعر وغنيته ! .. ولى خادم اسمه «رشأ» .. فلما نظمت الأبيات التى أولها :

وجد الفتواد يزينا
وجدا شديدا متعبا

قال أولئك الناس : على بنت المهدي تنظم الشعر فى خادمها «رشأ» .. وتكنى عنه بزيتب ! ..

● اليوم الثانى :

سمعت أن أسحاق الموصلى عمل لحنا جميلا فى هذين البيتين

سقىا لأرض إذا ما نمت نبهني
بعد الهدوء بها قرع النواقيس
كان سوسنها في كل شارقة
على الميادين أذئاب الطواويس

دعوت اسحاق ، وسمعت منه اللحن فأعجبني كل الإعجاب ، فقلت له
- يا اسحاق .. أنت أعددت هذا اللحن للخليفة ، ولكنه قد يسمعه فلا يأمر لك
بشيء ، ولا يقع غناؤك منه بحث توخيت ، فيذهب سعيك باطلا ! .. وهذه عشرون ألف
درهم وعشرون ثوبا ، تأخذها مني وتعطيني هذا اللحن فإني قد حفظته منك
الساعة !

قال اسحاق متخابثا
- فلعل اللحن لم يستقم لك ، فأسمعيني إياه ، فإن كان فيه شيء لم يستقم لك بعد
بصرتك به ! ..

إندفعت فغنيته اللحن وقلت له :
- كيف تراه يا اسحاق ؟!
- أراه أحسن ما يكون الغناء ! .. والله ما صافح سمعى غناء أجمل منه قط ! ..
فأحضرت له عشرين ألف درهم وعشرين ثوبا أخرى ، وقلت له بحزم :
- يا اسحاق .. هذه أربعون ألفا .. هي ثمن لحنك هذا ، وأنا الآن داخلة إلى أخى
أمير المؤمنين الرشيد لأغنيه هذا اللحن وأدعيه لنفسى وأنه من صنعتى .. والله لئن
نطقت أن لك فيه صنعة لأقتلك ! ..

فأخذ اسحاق جائزته وانصرف واجما ، كأنه محزون على اللحن ، وإنه لضنين
بالحانه ، وكان خليفا أن يكسب بلحنه هذا مائة ألف درهم وأكثر لو غناه للرشيد ! ..

● اليوم الثالث :

أهدى بعض حكام الأقاليم إلى أخى الرشيد جارية فى غاية الجمال والكمال ،
فانقطع لها يوما ، ودعا كل جارية إلى مجلسه واصطبح ، فكان جميع من حضره من
جواريه المغنيات والخادמות فى الطعام والشراب ، زهاء ألفى جارية فى أحسن رى
من كل نوع من أنواع الثياب والجواهر ، فكان أحسن منظر تراه العيون ! ..
ولم يدع إلى هذا المجلس زوجته زبيدة والدة ولى عهده محمد الأمين ، فغلظ ذلك
عليها ، وحزنت ولم تجد من تشكو إليه سوى ، فأرسلت لى رقعة تشرح فيها أمرها ،
فكتبت إليها : « لا يهولك هذا ، قوالله لأردنه إليك ، وقد عزمت أن أصنع شعرا
وأصوغ فيه لحنا وأطرحه على جوارى ، فلا تبقى جارية من جواريك إلا بعثت بها إلى
دارى ، والبسيهن جميعا ألوان الثياب ليأخذن هذا اللحن مع جوارى » ..
ففعلت زبيدة ما أمرتها به كله ، حتى جاء وقت صلاة العصر ، فلم يكد الرشيد

يفرغ من أدائها ، حتى خرجت إليه من حجرتي ، وخرجت زبيدة مع جواربها من حجراتهن ، فاجتمع في حضرة الرشيد منهن زهاء ألفي جارية عليهن غرائب الثياب ، وغنين في لحن واحد هزجا صنعته لهذا اللقاء خاصة :

منفصل عني وما قلبى عنه منفصل

يا قاطعى اليوم لمن نويت بعدى أن تصل

فطرب الرشيد ، وقام على رجليه حتى استقبل زبيدة ، واستقبلنى وهو على غاية السرور ، وقال لنا

- لم أر كالיום قط ! ..

ثم التفت إلى خادمه مسرور فقال له

- يا مسرور لا تبقي من المال درهما إلا نثرته على الجوارى ! ..

فكان مبلغ ما نثره عليهن ستة آلاف ألف درهم ! .. وما سمع أحد بمثل ذلك اليوم قط ! ..

● اليوم الرابع :

جاءت عندي الجارية المغنية الحاذقة «عريب» .. وهى مازالت صغيرة السن ، ولكنى أراها مطبوعة على التلحين ، جميلة الصوت .. وإن لها لثأنا عظيما فى المستقبل بين الجوارى المغنيات المبدعات فى الصناعة ..

قالت لى عريب :

- يا سيدتى كم لحنا لك حتى الآن ؟ ..

قلت :

- ستون لحنا .. وأظن أنى لن أخرج من هذه الدنيا حتى أجاوز سبعين لحنا

دعت لى عريب بطول العمر ، وقالت لى

- يا سيدتى إنى حفظت من ابراهيم الموصلى لحنا من الحانك .. أفتحبين أن

أغنيه ، حتى أكون قد أخذته عنك لا عن الموصلى ؟ ..

ضحكت لظرف عريب وأعجبني ذكاؤها فأمرتها بغناء اللحن ، فغنت :

يا مورى الزند قد أعيت قوادحه

أقبس إذا شئت من قلبى بمقباس

ما أقبح الناس فى عينى وأسمجهم

إذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فسمعت من عريب أجمل صوت فى أحسن أداء ، وطربت أشد الطرب ، وبدا اللحن لى جديدا كأننى لم أصنعه ولا عرفته قط ..

فبينما نحن كذلك ، جاء أخواى : ابراهيم ويعقوب .. فأما ابراهيم بن المهدي فهو صاحب أجمل الأصوات الرجالية فى عصرنا ، لا أستثنى مخارقا ولا ابن جامع ولا

غيرهما من أصحاب الأصوات الجميلة التى سمعتها .. وأما يعقوب بن المهدي فهو
أحذق الناس بالزمر ..

بدأت فغنيت لحنا لى ، وأخى يعقوب يزمر على غنائى بنغمة عجيبة
تحبب فإن الحب داعية الحب

وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

فلما فرغت من غنائى ، غنى أخى إبراهيم فى صناعته وزمر عليه يعقوب :

يا واحد الحب مالى منك إذ كلفت

نفس بحبك إلا الهم والخزُّ

لم ينسنيك سرور لا ولا حزن

وكيف لا ! .. كيف ينسى وجهك الحسن

ولا خلا منك قلب لى ولا جسد

كلى بكلك مشغول ومرتهن

نور تُولد من شمس ومن قمر

حتى تكامل منه الروح والبدن

ثم غنيت وإبراهيم معا ، وزمر علينا يعقوب ، فوقعت الجارية عريب على الأرض
طربا ، فلم نبال بها وظنناها تقيق بعد لحظة فما أفاقت ، فقطعنا غناؤنا وجسناها
فإذا هى قد غشى عليها ! ..

جاء طبيب مسرعا ، فلم يزل يداويها حتى أفاقت ، فلما استردت وعيها وجلست
واستراحت ، قلت لها مشفقة :

- يا عريب مآدهاك يا بنيتى !؟ ..

قالت لى ودموعها على خديها :

- يا سيدتى .. والله ما سمعت مثل الذى سمعته منكم اليوم قط .. وإننى لأعلم
يقينا أننى لن أسمع مثله أبدا ولو عشت أسمع الغناء ألف سنة ! ..

● اليوم الخامس

زارنى جعفر بن يحيى البرمكى ، فتجارينا فى الحديث ، وأنا خلف ستارة ، فقال
لى : إنى محدثك بقصة أرجو أن تكتمها ثم قال :

- منذ عام وبعض عام ، أخذ أمير المؤمنين بيدي حتى انتهى بى إلى حجرة مغلقة
فتحت له ورجع من كان معنا من الخدم ، ثم صرنا إلى حجرة مغلقة ففتحها بيده
ودخلت معه وأغلقها من داخل بيده ، ثم صرنا إلى رواق ففتحته وفى صدره مجلس
مغلق فقع على باب المجلس فنقر الباب نقرات فسمعنا حسا ، ثم أعاد النقر فسمعنا
صوت عود ، ثم أعاد النقر ثالثة فسمعنا صوتا لا مثيل له فى حسن الغناء مع جودة
ضرب العود ، فقال أمير المؤمنين : غنى صوتى ! .. فغننت من كانت وراء الستار

ومخنت شهد الزفاف وقبله
غنى الجوارى حاسرا ومنقبا
لبس الدلال وقام ينقر دفه
نقرا اقر به العيون واطربا
إن النساء رأيته فعشقته
فشكون شدة ما بهن فاكذبا
فطرب الرشيد ، وطربت أنا طربا هممت معه أن أنطح برأسى الحائط لولا توقيري
لأمير المؤمنين !
ثم غنت

طال تكذيبى وتصديقى
لم أجد عهدا لمخلوق
إن ناسا فى الهوى غدروا
أحدثوا نقض الموائيق
لا ترانى بعدهم أبدا
أشتكى عشقا لمعشوق
فقلت أريد أن أرقص طربا ، لولا الاحتشام .. وقام الرشيد واخذنى ، وقال لى : امضى
بنا فإنى أخاف أن يبدو منك ما هو أكثر من هذا
قلت لجعفر البرمكى :
- ومن كانت صاحبة هذا الغناء ؟!
قال
- لا أدرى ! ..

ولكنه فى الحقيقة يدري أنه يحدثنى عن غناء سمعه منى فى تلك الساعة من
ساعات صفو الرشيد ، ويبالغ فى وصف طربه إرضاء لى ، والتماسا لحسن ظنى ! ..
والرشيد لم يقل له إننى صاحبة ذلك الغناء ، فهل كان جعفر يحتاج إلى كلام فى
ذلك اللقاء ليعرف صوتى من وراء حجاب ؟!
ما أشد دهاء جعفر البرمكى .. وياله من ظريف أديب أريب ! .. ولكن أخى الرشيد
ظريف أديب أريب داهية أكثر منه وأعجب .. وأطرب ! ..

المفنى الراوية



● اليوم الاول :

أول ما طرق سمعى حين ولدت ، رنين العود .. فقد كان أبى من أكابر المغنين المتفوقين فى الغناء وضرب العود ! .. وكان بيته لا يخلو من رنين العود ليلا ولا نهارا

أبى هو يحيى بن مرزوق المكى ، كان شيخ المغنين والضاربين ورواة الغناء فى عصره نشأ بمكة ثم استوطن بغداد ، فكان أكبر المغنين فيها سنا ، وأعرفهم بالغناء وأوسعهم رواية لصناعة فحول المغنين القدماء الذين أدرك بعضهم فى مكة والمدينة أو أدرك تلاميذهم ورواتهم ..

فكان ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع وغيرهما من أعظم المغنين والملحنين فى عصر الرشيد ، يلجأون إلى أبى ليطرحهم ما يجهلونه من الحان القدماء ، فلا يعطيهم شيئا إلا بثمن باهظ ، لأنه يعلم أنهم بما يعطيهم يكسبون أضعاف أضعاف ما يغرّمونه من المال ...

وكان أبى حريصا واسع الحيلة ، يصنع ألحانا وينسبها للقدماء ، وليست لهم فتجوز هذه الحيلة على من لا يعرفون أسرار صناعة الغناء ويتناقلون تلك الألحان ، فوقع التخبط والتخليط فى رواية الألحان ، حتى تتبع اسحاق الموصلى - وهو أعلم الناس بالغناء قديمه وجديده - ما اخترعه والدى ونسبه للقدماء ، فبين للناس زيفه ، وحذرهم منه ، ووقف بالمرصاد لوالدى فى هذا المجال ، حتى كف عن وضع الألحان ونسبها إلى القدماء .

وقد رأيت أبى وهو لا يخشى أحدا من المغنين والملحنين إلا اسحاق الموصلى .. فإذا حضرا معا مجلس غناء ، لم يغن أبى الا الصحيح من الألحان ، ولم ينسب لحنا لغير صاحبه ..

وقال لى أبى يوما :

- يا بنى .. إن كنت كذبت أحيانا على بعض الناس ، فخلطت ألحان القدماء بألحان من صنعتى ، فإنما فعلت ذلك حتى لا يأكلنى المغنون والملحنون ويهدموا مكنتى ويستأثروا بجوائز الخلفاء والكبراء ، وما تطيب نفسى أن أعطى هؤلاء المغنين شيئا بلا ثمن !

قلت :

- يا أبى .. طارحنى إذن ألحان القدماء على وجهها الصحيح ، وطارحنى ألحانك ، لأحفظها وأدونها فى كتاب يكون أصلا من الأصول المعمول بها فى صناعة الغناء ، وأكون أنا المكى الصغير وأنت المكى الكبير فى هذه الصناعة ..

فحفظت من أبى ما لا أحصيه من ألحان القدماء والمعاصرين ومن ألحانه ،

وجعلتها في كتاب يتداوله الناس الآن ، ولا يكف الوراقون في أسواق بغداد عن نسخه وبيعه .

وتوثقت الصداقة بيني وبين اسحاق الموصلي ، فقال لي يوما :
- يا أبا جعفر .. إنك والله من المحسنين المبرزين في صناعتنا ، وروايك كثيرة صحيحة ، وحسبك فخرا أنك أصلحت ما كان والدك - رحمه الله - قد أفسده بما وضعه من الحان نسبها الى الاقدمين ، فأنت المكي الصغير ولكنك لا تقل قدرا عن المكي الكبير ..
قلت له

- نعم .. قد فعلت ، ولكن صناعة والدي التي نسبها للأقدمين ليست دون صناعتهم
قال

- لو تأملت ما لم تجدها كذلك ! .. وهبها كانت مثل صناعتهم في جودتها ، فإن ذلك لا يشفع له ولا لغيره من الوضاعين في هذه الصناعة .. وقد رأيت ما صنع الوضاعون في الشعر .. وحتى في الحديث النبوي الشريف ! ... وهل تقوم الرواية أو يوثق بها إلا بنفي الوضاعين عنها ، مهما خفى على الناس أمرهم ؟ ! ..

● اليوم الثاني :

كنت أغني الليلة في دار الحسن بن وهب ، من كبار رجال الدولة ، فدخل علينا اسحاق الموصلي ، فقال صاحب الدار :

- يا أبا محمد اشتقنا إليك ، وقد نسبنا الليلة فأين كنت ؟ !
فاعتذر اليه اسحاق بأنه كان في قصر أمير المؤمنين ولم يفرغ إلا الساعة من نوبته في الغناء والمنادمة ، فخشع الحسن بن وهب حين ذكر اسحاق اسم الخليفة ، وبألف في الترحيب بإسحاق ثم جلسنا واستأنفنا ما كنا فيه من المسامرة والغناء ..

فلما غنيتهم لحنا ، طرب اسحاق والحسن بن وهب ، ومال الحسن على أذن اسحاق فسمعته يقول له :

- يا أبا محمد .. كم يساوي أحمد بن يحيى المكي هذا لو كان مملوكا في سوق الرقيق ؟ !

قال اسحاق

- يساوي عشرين ألف دينار ! ..

ثم أمرني الحسن بن وهب فغنيت هذا اللحن من الحان « معبد » سيد القدماء من مطربي « المدينة » وملحنها :
لولا الحياء وأن الستر من خلقى

إذن قعدت اليك الدهر لم أقم

فطرب الحسن وإسحاق طربا شديدا .. ومال الحسن على أذن اسحاق يسأله

- كم يساوى وقد سمعت منه هذا الصوت ، لو كان مغنيا مملوكا يباع فى السوق ؟ ..

- يساوى أربعين ألف دينار ! ..

ثم غنيت صوتا ثالثا ، وكرر الحسن سؤاله هذا ، فقال اسحاق : هو بهذا الصوت يساوى ثمانين ألف دينار !

ولم يزالا كذلك سائر الليلة حتى بلغ ثمنى مائتى ألف دينار ، وهما يتضاحكان ، وأنا أظهار بأننى لا أسمع مايتهاامسان به .. حتى قمت للانصراف فقلت للحسن بن وهب

- ماهذا الذى أسمعكما تقولانه ، ولست أدرى معناه !

قال ضاحكا

- نحن نبيعك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدري !

● اليوم الثالث :

سهرنا عند الخليفة .. غنى ابراهيم بن المهدي ومخارق وعلويه ، وكان اسحاق الموصلى حاضرا فلم يغن ، وقتما يغنى اسحاق ، ولكنه إذا حضر مجلس الغناء اجتهد المغنون فى الأداء وجاهوا بأفضل ما عندهم ، وأكبر ما يتمنونه عندئذ أن يرضى عنهم ، فإذا قال لأحدهم أحسنت لم تسعه الدنيا سرورا وزهوا بهذه الشهادة من اسحاق الموصلى ، وقد يؤثرها على جائزة الخليفة ؟ .. غنيت :

أبعد الله من يلوم محبا ولحى الله من يحب فيأبى
رب إلفين أضمرنا الحب دهرنا فعفا الله عنهما حين تابا

فعارضنى ابراهيم بن المهدي وخطأنى فيما غنيت ، فاستشهدت باسحاق الموصلى ، وقلت له :

- أترأه صحيحا أم خطأ يا أبا محمد ؟ !

- بل أراه صحيحا ..

واتبعه علويه ومخارق وغيرهما فقالوا :

- صدق يا أمير المؤمنين اسحاق ..

فالتفت إلى ابراهيم بن المهدي فقلت

- أنا أغنى ثلاثين لحنا قديما ، لاتعرف منها لحنا واحدا ..

ثم اندفعت فغنيت عشرة ألحان كلها من الغناء القديم من صنعة الملحنين والمغنين المكيين الحذاق الخاملى الذكر الذين حفظت غنائهم عن أبى ، فاستحسن الخليفة ما غنيت ، وأمر لى بألفى دينار ، وأمر ألا يراجعنى أحد من المغنين ولا يعارضنى أحد

تفترت وحدى فى هذه السهرة بالجائزة ، ولم يغن فيها أحد غيرى ، ولا نال جائزة ..

وسأل الخليفة اسحاق الموصلى :

– ما تقول يا اسحاق فى المغنى الذى يسمونه « وجه القرعة » ..

– قال اسحاق :

– مغن صالح الغناء لبق الأداء !

– فما تقول فى أحمد بن يحيى المكى

– يخ بخ .. ذاك المحسن المجمل الضارب المغنى القائم بمجلسه ، لا يحوج أهل المجلس إلى غيره ! ... وقد رأيت يا أمير المؤمنين كيف انقطع المغنون بين يديه !

● اليوم الرابع :

توفى الخليفة الواثق منذ أسابيع ، ودخلت الليلة على الخليفة المتوكل ، فقال لى لا تغننى « عش عمر نوح » ! ..

فانكسرت وجلست محزونا ، ذلك أثنى فى آخر ليلة بمجلس الواثق كنت قد غنيته :

فعش عمر نوح فى سرور وغبطة وفى خفض عيش ليس فى طوله إثم
تساعدك الأقدار فيه وتنتثنى اليك وترعى فضلك العرب والعجم

فلم يعش الواثق إلا يوما واحدا بعد سماعه هذا الصوت ، وكذلك كانت قصة الخليفة محمد الأمين مع أبى حين غناه هذين البيتين ، فإنه لم يعش بعد سماعهما إلا مدة ثم خلع وقتل ودالت دولته ! ..

غنى المغنون فى حضرة المتوكل .. فكان منهم أبو حشيشة ويزرور الكبير وعثعث .. فقلت فى نفسى : أين هؤلاء – على جمال أصواتهم – من فحول المغنين الذين سمعناهم من عصر الرشيد الى الأمين فالأمون فالمعتصم فالواثق ؟ .. فوالله ما فى هؤلاء المطربين الذين نراهم الآن من يساوى قلامة ظفر مخارق أو ابن جامع أو ابراهيم الموصلى .. أما ألحانهم ، فإنها إذا قيست إلى ألحان اسحاق الموصلى الشامخة الرائعة ، لم تكن إلا كغناء القرادين ! ..
جاء دورى فى الغناء ، فغنيت لحنا لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة :

عندما أبصرننى اثبتننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى اتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟ !

فطرب المتوكل طربا شديدا ، وعرف فرق ما بينى صناعتى فى الغناء وصناعة

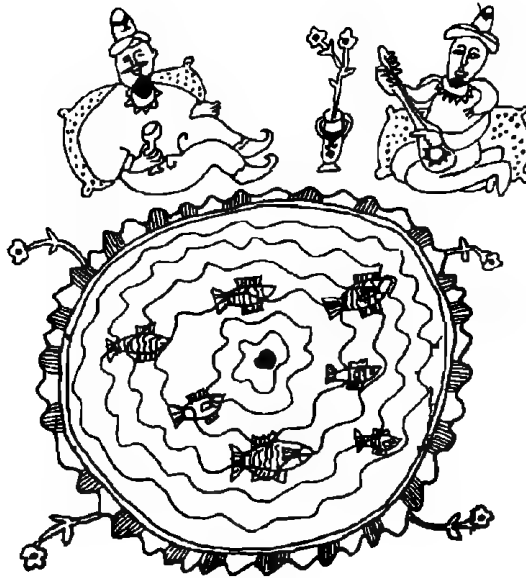
مطربى هذا الزمن الأخير ، وأمر لى المتوكل بجائزة أكبر من جوائزهم
ثم سألنى المتوكل عن اسحاق الموصلى ، فأخبرته أنه قد ضعف وكف بصره
بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتوجع له المتوكل ، وقال : لئن ذهب اسحاق من
الدنيا ، ليذهبن صدر عظيم من بهاء الملك ! ..
ثم قال لى :
- إن رأيته قادرا على الانتقال من بغداد إلينا فى « سر من رأى » .. فادعه
إلينا ..

● اليوم الخامس

عدت فى حراقة صغيرة الى بغداد ، وقد صارت الحراقات تملأ سطح دجلة ليلا
ونهارا ذاهبة إلى « سر من رأى » وجائية منها إلى بغداد
قصدت إلى دار اسحاق الموصلى ، فوجدته قعيدا هناك لا يزوره أحد ، وكان بيته
فى الماضى مزار الناس كبارا وصغارا ، خاصة وسوقة ..
قال لى اسحاق وقد نقلت اليه رغبة الخليفة
- إني يا أبا جعفر كما ترانى ! .. وإن السفر على حراقة فى الماء يتعبنى ، وأما
السفر برا على بقل أو جمل فيكاد يقتلنى ! .. وقد ذهبت أيامى يا أبا جعفر ، ورأيت
من الدنيا ما لم يره أحد .. ولكنى لا أعصى للخليفة أمرا .. وأنا على الأهبة لتلبية
رغبته ، فأى شيء يعجبه من الغناء ؟ ! ..
- الغناء الخفيف والأهزاج !
- كذلك ظننت ، فإن الغناء المتقن ينحدر ويضعف شأنه ، وحسبك أن أكثر من
يرويهِ الآن ، الجوارى أمثال عريب وشارية ! ..
صحبت اسحاق الموصلى فى حراقتة ، قاصدين « سر من رأى » ورأيت
الموصلى يتسمع صوت الماء فى دجلة ، ثم يقول لى
- وودت يا أبا جعفر لو استطعت أن أرى ماء دجلة ! ..
لم أخرج جوابا .. وصمت اسحاق ولم أنبس بحرف .. حتى انقضت ساعة ، فقال
لى اسحاق :
- هات العود .. اختبر يدى فيه ، وأختبر صوتى ، أو ما بقى من صوتى ! ..
وفى مجلس المتوكل فى قصره بسر من رأى ، جلس اسحاق على وسادة وأمسك
بعوده وغنى هزجا راقصا بديع الصنعة ، وضرب بالعود ضربا لا يلحق به أحد من
الضاربين ، حتى رأيت الخليفة يتحرك فى فراشه طربا ، والتفت حولى فإذا الغلمان
الخدم - وهم واقفون فى أدبهم المعهود - قد نسوا أنفسهم فأخذوا يتميلون يمنا
ويسرة مع ألحان الهزج وضربات العود ! ..
وكان هذا آخر ما سمعت من اسحاق ، وآخر غناء حقيقى سمعته بعد أن دالت
دولة الغناء ! ..

يوميات علّوية :

الضرب باليد اليسرى



● اليوم الاول :

أنا على بن عبدالله بن سيف ! ..
جدي - الذي لم أره - كان موطنه وراء بلاد العجم ، او فوق بلاد العجم شمالا ،
في ناحية « الصفد » بين بخارى وسمرقند ..
جاء جدي من موطنه ضمن الأسرى الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفان عند
فتح بلاد بخارى وسمرقند ، في عهد بني أمية الذين كثرت الفتوح في عهدهم ..
عاش جدي إلى أواخر دولة بني أمية ، وعاش أبي حتى أدرك عهد بني العباس ،
ولا أذكر كيف انتقلت أسرتي من دمشق إلى بغداد فقد كنت حينذاك في عالم
الغيب ! ..

يسمونني « علويّه » .. وهو اسم فارسي ، كأنهم لا يرضون باسمي العربي
« على » أو يستكثرونه على رجل مثلي من الموالى ..
وكنيتي « أبو الحسن » .. وكذلك كان يكنى الامام على بن أبي طالب رضى الله
عنه ، غير أنني لست شيعيا ، وإنما أنا رجل من أهل السنة كغالبية سكان بغداد ،
وجميع المسلمين أهلى وعشيرتى ! ..
إن سألت عنى الناس ، قالوا لك : علويه ، مطرب حاذق ، ملحن متقن ، أديب
شاعر ، ضارب بالعود ينذر مثيله ! ..

وأنا - على تفوقى فى ضرب العود - أعسر ، استعمل يدي اليسرى ، وعودى
مقلوب الأوتار ، البم أسفل الأوتار كلها ، تليه الأوتار الثلاثة الأخرى : المثلث
والمثنى والوزير ..

أمسك عودى باليمنى ، وأضرب باليسرى ، والعود مقلوب فى حجرى ، ولكن
انقلابه هذا هو عندى الاستواء الصحيح ! ..

ولما جلست أول مرة بين يدي استاذى إبراهيم الموصلى ليطارحنى الألحان
ويثقفنى فى الصناعة ، فوجيء بأنى أعسر ، استخدم يسراى ، فحاول أن يعلمنى
ضرب العود بيمينائى فلم يستطع ، فقال لى ضاحكا :
- يا علويه الأعسر .. أنت أحسن ضربا بيدك اليسرى من كثيرين يضربون
باليمنى ! ..

صار لقبى « الأعسر » منذئذ .. واهتم بى إبراهيم الموصلى وعلمنى وطارحنى
الغناء القديم حتى برعت فقال لى :

- أنت أجمل المطربين صوتا بعد مخارق ، وأحسن الضاربين بعد زلزل ،
وسأحدث عنك الرشيد ، فإنه يحتاج فى مجلسه إلى مثلك من المطربين الضاربين
البارعين ..

ولما التحقت بمجلس الغناء في قصر الرشيد ، أيقنت أن الحظ ابتسم لي ، فإن مئات المغنين المحترفين من الأرقاء والأحرار ، لهم أصوات حسنة وصنعة طيبة ، ولكنهم لا يحلمون بالوصول الى مجلس الرشيد .. والفضل في وصولي أنا ومخارق والزبير بن دحمان وغيرنا ، يرجع إلى ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق اللذين يرعيان المواهب الحقيقية .. فضلا عن تعلم علي أيديهما من جوارى وغللمان الكبراء والسراة والعظماء ، فإن عدد تلاميذهم هؤلاء مئات كثيرة في بغداد وسائر مدائن الإسلام ..

● اليوم الثاني :

الفضل بن الربيع صار وزيرا للخليفة الأمين الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه الرشيد ، وهو أيضا حاجب الخليفة ، وقد اهتمنى ذلك وملانى غما وكمدا ، فإن ابن الربيع هذا كثير الطعن على غنائى وإن كان دائما يقصد الطعن في اخلاقى واعمالى ، أما غنائى فإن ابن الربيع يعلم اننى من اعظم المغنين ! .. غنيت في مجلس الخليفة محمد الأمين لحنا جديدا لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة

ليت هذا أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد

فقال لى الفضل بن الربيع متصنعا الغضب :

- ومن هند هذه التى تستنجزها ماتعد ؟! ..

قلت متوجسا شرا :

- لا أعرفها ، فالشعر كما تعلم ياسيدي لعمر بن أبى ربيعة !

قال مكشرا عن أنيابه

- فى هذا تعريض ! .. كأنك تستبطن المأمون فى الخروج على أمر المؤمنين ومحاربتة ، وقد كنت قديما من حاشية المأمون ..

قلت وأنا بين اليأس والرجاء وقد أذهلتنى هذه التهمة التى رمانى بها :

- والله ما كنت عنده إلا مغنيا كسائر المغنين ! ..

ونظرت فرايت الأمين مغضبا كالحا ، ثم صاح فى غلمانه :

- خذوا هذا فاضربوه خمسين سوطا واقدفوا به خارج القصر ! ..

● اليوم الثالث :

عدت إلى بيتى مثخنا من ضرب السياط ، فعالجنى أهلى بالمراهم وغيرها ، واعتكفت أفكر فى أمرى ! ..

الفضل بن الربيع يريد اقصاصى عن مجلس الخليفة ، وفى ذلك بوارى ، فإن خاصة أهل بغداد إنما يطلبوننى لمكانى فى مجلس الخليفة مع اكابر المغنين .. فإذا علموا أنه غضب على واقصاصى ، تجافونى وأغلقوا أبوابهم دونى .. وهذا هو الموت الذى يريده لى الفضل بن الربيع ، وإن فى هذا الرجل لرغبة عارمة فى ايذاء

الناس ، وقدima أهلكت دسائسه البرامكة وهم سادة الناس ، فأين أذهب أنا مما يدبر لى هذا الرجل من الأذى ؟! ..

فكرت فى « كوثر » .. غلام الأمين ، الذى يؤثره على جميع غلمانه ، ولايرد له طلبا .. وكل الناس يقولون .. كوثر .. كوثر .. كوثر ! ..

تعرفت إلى كوثر فى مجلس الخليفة ، وخصصته بنوادر وحكايات وأصاحيك أقصها عليه فيضحك لها ضحك الأطفال ، وعرف كوثر خفة روحى وطيب مجالستى وملاحة نواذرى ، فكان إذا رانى أقبل فجلس معى ! ..

قلت فى نفسى « لم يبق من حيلة أعود بها إلى مجلس الأمين ، وأقهر بها الوزير ابن الربيع إلا التوسل بكوثر ، فنهضت فطلبت عودى ، وركبت إلى القصر ، فدرت حوله حتى جئت إلى باب أعرف أن الغلمان يدخلون منه ويخرجون كثيرا ، فسألت بعضهم عن كوثر ، فقالوا انه الساعة يخرج للنزهة ! .. فترقبته حتى بصرت به خارجا وبصر بى ، فنادانى ، فطرت اليه ! ..

فلما دنوت منه ، ضحك حتى استغرب ، وقال لى :

- لو كنت حاضرا ذلك المجلس لما تركتهم يضربونك يا أبا الحسن ! .. وقد أبلغنى الغلمان نبأ ذلك المجلس ! ..

قلت له متوسلا :

- فما أصنع الآن ياسيدى ؟! ..

- لاتصنع شيئا .. ولكن تعال بعد ثلاث ليال إلى القصر فستجد الخليفة قد رضى عنك ، وتغنى كعادتك إذا جاء دورك فى الغناء ، وستلقى خيرا إن شاء الله ! ..

وقد كان ، فرددت إلى الخدمة فى القصر ، وأمر لى الأمين بخمسة آلاف دينار ، وعدت الى موضعى من رضاه ! ..

● اليوم الرابع :

تولى المأمون الخلافة بعد حربه مع أخيه الأمين ، فلما قدم من خراسان الى بغداد ، ذهبت الى مجلسه مدلا بما كان من جفاء الأمين لى ، وضربه اياى خمسين سوطا .. ولكن المأمون كان يعلم أنى رميت نفسى على « كوثر » ليترضى لى الأمين ، وأنه ترضاه لى ، فاسقطنى ذلك من عين المأمون لأنه كان يستنكر نفوذ كوثر وأمثاله فى قصر أخيه ..

أذهلنى ما صار اليه امرى ! ..

كنت أتصور أنى سأكون المغنى الأول فى مجلس المأمون ، لأننى المغنى الوحيد الذى اتهمه الفضل بن الربيع بممالة هذا الخليفة الجديد حين لم يكن إلا مجرد أمير على خراسان ! ..

فكرت .. ماذا أصنع ؟! ..

لا استطيع أن أرمى نفسى والقى بكرامتى عند قدمى كوثر ليصلنى بالمأمون .. فلا كوثر عنده ، وقد قتل كوثر مع الأمين فى الحرب ! ..

فبينما أنا أفكر ، طرق بابي طرعا شديدا ، وإذا بعض جند الخلافة ، يقولون
أجب أمير المؤمنين ! ..
كدت أطير فرحا ، ودخلت مجلس المأمون وأنا أرقص من أقصى الايوان وأصفق
واغنى

عذيرى من الانسان لا إن جفوته
صفا لى ولا إن صرت طوع يديه
وانى لمشتاق إلى ظل صاحب
بروق ويصفو إن كدرت عليه
فسمع المأمون ومن فى مجلسه من المغنين لحنا بديعا ظريفا ، وقال لى
المأمون

- ادن يا علويه واعد هذا اللحن ..
فرددته عليه سبع مرات ، وهو لايشبع منه ، ثم قال لى :
- يا علويه .. وأين هذا الصاحب الذى يصفو إن كدرت عليه .. خذ الف الف
دينار واعطنى هذا الصاحب ! ..

عدت إلى مكاني عند المأمون !
بل صرت شفيعا عنده لاسحاق الموصلى ، فإن المأمون حين جلس لسماع
الفناء بعد قدومه إلى بغداد بمدة ، أقبل عليه كبار المغنين جميعا ، ماعدا اسحاق
الموصلى ، فقال المأمون لجلسائه مستنكرا
- ما يترك هذا الرجل الخيلاء والته أبدا ..
وتجافاه ، وأمر الا يستدعى الى مجلسه
فقممت واسترضيت المأمون وقلت :

- اسحاق عبدك وابن عبدك ، وهو لايعلم أن أمير المؤمنين قد أمر باعادة مجالس
الفناء بعد قطعها ، فأرسل اليه يا أمير المؤمنين ، فانه يجيء سعيًا على الرأس لا
على القدمين ! ..
وعاد اسحاق إلى مجلس المأمون ، وتصدره ، وصرنا كلنا « أقل من التراب »
بالقياس اليه ! ..

● اليوم الخامس :

اجتمعت فى سهرة عند بعض سرة البغداديين مع اسحاق الموصلى ..
غنيت :

ألا يا حمامى قصر دوران هجتما بقلبي الهوى لما تغنيتما ليا
وابكيتمانى وسط صحبى ولم أكن أبالى دموع العين لو كنت خاليا
فطرب الناس طربا شديدا .. ولم يدهشنى ذلك ، فإن هذا من أجمل الحانى وقد
ادبته باتقان وتحفظ لوجود اسحاق الموصلى فى المجلس ..
فوجئت باسحاق يصيح وقد تملكه الاعجاب بما غنيت :
- أحسنت والله يا أبا الحسن .. أحسنت والله كل الاحسان ! ..

فقممت من مكاني فقبلت رأس اسحاق وعينيّه ، وجلست بين يديه ، وسررت بقوله
سرورا شديدا ، ثم قلت له « أنت سيدى وابن سيدى ، واستاذى وابن استاذى ،

ولى اليك حاجة » !

قال اسحاق :

- قل فوالله انى ابلغ فيها ماتحب ان شاء الله ..
قلت

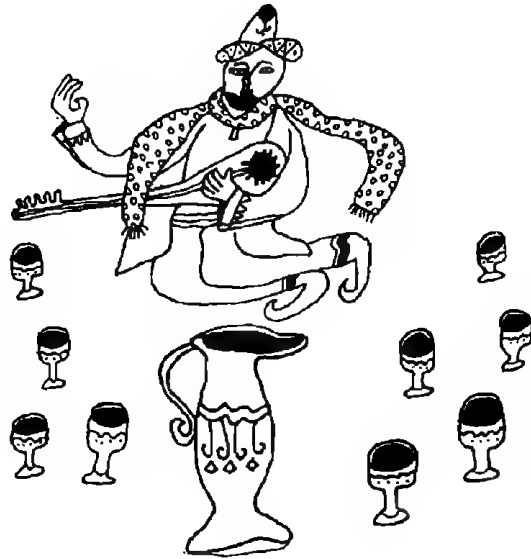
- ايمافضل عندك أنا أو مخارق ؟! .. فإننى احب أن أسمع منك فى هذا
المعنى قولاً يؤثر ، ويحكى عنك من حضر مجلسنا هذا ، فتشرفنى به .. وقد سألتك
بحقى عليك ، وبتربية ابيك لى ، وبكل حق تعظمه ، إلا حكمت ! ..
قال :

- ويحك ! .. والله لو كنت استجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب من هذا
الأمر ، ولكنى لا استجيز إلا الحق ولا أقول غيره .. وهاك ما عندى : فلو خُيرت أنا
من يطأ رخ جوارى وغامانى ، أو يغنينى لما اخترت غيرك ، لأنك أعلم بالصناعة
والرواية ، ولكن مخارقاً يغلبك عند الخلفاء والأمراء بطيب صوته وغزارة ألحانه ! ..
فلم أفز من اسحاق بشهادة كاملة يحكيها الناس وتكون حجة لى عندهم على
مخارق ، فأتقدم عليه ! ..

واسحاق - مع ذلك - ليس بمحب ولا معجب بمخارق إلا ما يخرج من نبرات
حنجرته ، ولكنه يأبى إلا أن يشهد بما يراه حقاً ..
وقد غضبت من كلامه وقمت فقلت له :
- أف من رضاك ومن غضبك ! ..

يوميات علوية

الشاعر الخنجرى



● اليوم الأول :

اعود فأسجل يوميات أخرى من حياتي ..
ضقت ذرعا بابن أختي عبد الله بن محمد الخنجي الذي يتولى القضاء في محلة
بالجانب الغربي من بغداد
إن ابن أختي هذا ، أنا ربيته وعلمته وأنفقت عليه حتى صار كاتباً شاعراً فقيهاً ،
وسعيت له حتى نال وظيفة القاضي ، ولكنه بعد أن صار قاضياً عفى وتنكر لي
وأصبح تياها صلفاً ، ولو لم يكن من حق لي عنده إلا حق الخنولة ، لكان خليقاً أن
يكون باراً بي ، ولكنه نسي ذلك كله ، فأقسمت لأكيدن له كيذا
علمت انه حين يحكم بين المتخاصمين يجلس الى اسطوانة من أساطين
المسجد فيستند اليها بجميع جسده ولا يتحرك ، فإذا تقدم اليه الخصمان ليسمعا
الحكم أقبل عليهما بجميع جسده وترك الاستناد حتى ينطق بالحكم ويفصل بينهما
ثم يعود لحاله من الاستناد بجميع جسده الى اسطوانته ! ..
فأعزت إلى بعض الخبثاء ، فعمد الى رقعة من الرقاع التي تكتب فيها الدعاوى
فألصقها في موضع ذنبه القاضي التي يغطي بها رأسه ، وأكثر من الغراء في
موضع اللصق حتى تمكن منها ، فلما تقدم اليه الخصوم وأقبل عليهم بجميع جسده
كعادته انكشف رأسه وبقيت الذنب في موضعها مصلوبة ملتصقة بالأسطوانة ،
فقام الخنجي مغضباً ، وعلم أنها حيلة وقعت عليه ، فغطى رأسه بطيلسانه
وانصرف وترك ذنبه في مكانها حتى جاء بعض أعوانه فأخذها ..
تعالم الناس الخبر فضحكوا ، وضع الجانب الغربي من بغداد بالنكات على
الخنجي المتكبر التياها ، وقال احد الشعراء ساخراً :

إن الخنجي من فتايه	اثقل باد لنا بطلعته
ما إن لذي نخوة مناسبة	بين أخاوينه وقصعته
يصالح الخصم من يخاصه	مخافة من الجور في قضيته
لو لم تدبقه كف قانصه	طار تياها على رعيته

شهرت الأبيات وطارت في بغداد ، فعملت فيها لحنا سوقياً أعطيته
للرقاصين والقرادين والمختئين فطافوا المدينة يغنونه حتى أخرجوا
الخنجي وفضحوه ، فاستعفى من القضاء ببغداد ، وولاه السلطان القضاء

فى حمص بالشام ..

قلت فى نفسى : والله لأكيدن له شرا من هذا كله ، فعملت لحنا فى شعر
له علمت انه لن يقع من الخليفة المأمون موقعا حسنا

برئت من الاسلام ان كان ذا الذى اتاك به الواشون عنى كما قالوا
ولكنهم لما راوك غريفة بهجرى تواصلوا بالنميمة واحتالوا
فقد صرت أذنا للوشاة سميعة ينالون من عرضى وإن شئت مانالوا

فلما سمع المأمون غنائى فى هذه الأبيات سألنى

- من يقول هذا الشعر؟!

قلت بخيث

- قاضى حمص !

فسكت المأمون ، وأمرنى بالانصراف ولم يأمر لى بجائزة !

● اليوم الثانى

حضرت مجلس المأمون ، فإذا القاضى الخلجى هناك .. سألت بعض الخدم فعلمت أن
الخليفة حين سمعنى أغنى شعره أمر باحضاره على خيل البريد ، فأحضر
قال المأمون للخلجى :
- أنشدنى قولك فى الغزل :

برئت من الاسلام ان كان ذا الذى اتاك به الواشون عنى كما قالوا

فقام الرجل على رجليه ضارعا يقول

- ياأمير المؤمنين .. هذه أبيات قلتها منذ أربعين سنة وأنا صبى ! .. والذى أكرمك
بالخلافة ، وورثك ميراث النبوة ما قلت شعرا منذ أكثر من عشرين سنة إلا فى زهد أو عتاب
صديق ! ..

قال له المأمون :

- إجلس ! ..

فجلس الرجل وكأنه ينتظر الموت ، فنأوله المأمون قدح نبيذ التمر ، فقال : لا والله يا
أمير المؤمنين ما أعرف شيئا من هذا ! ..

فقال له المأمون

- أما والله لو شربت شيئا من هذا لضربت عنقك ، وإنى لأظن أنك صادق فى قولك كله ،
فأنت لاتشرب نبيذا ولا تتغزل فى النساء ، ولكن لايتولى لى القضاء رجل بدأ فى قوله

بالبراءة من الاسلام ، مهما كان صادقا فيما أقسم عليه من كذب الواشين به كما يقول !
فوثب الرجل يتوسل
- يا أمير المؤمنين .. إنما كان هذا في زمن الحداثة ولم يكن لى بصير بالشعر ، ولا لبلابة
فى الكلام ، وقد أقسمت صادقا ، فلا إثم فى قولى ! ..
فنهزه الخليفة :
- كانتك تحكم هنا فى قضية ! .. قم فانصرف الى منزلك ، فلا يصلح مثلك للقضاء ! ..
فلما انصرف ابن أختى هذا أحزننى أمره ، وقصصت على الخليفة قصتى معه ، وأنى
كدت له وشنعت عليه لتيهه وأعجابه بنفسه ، وإلا فهو قاض عادل فطن نزيه .. قال
المأمون :
- يا علويه .. ماتطيب نفسى باعادته الى عمله ، لقوله « برئت من الاسلام » .. فليس هذا
من كلام القضاة ! ..
قلت
- يا أمير المؤمنين .. لقد كان حين قال هذا الشعر صبيا غريرا دون العشرين من
عمره ، وما هو بشاعر يتصرف فى القول تصرف الشعراء الذين يعرفون غث الكلام من
سمينه !
فما استطعت ان ازحج المأمون عن رأيه .. وندمت على ما صنعت بابن أختى ، على
شدة نفورى منه ! ..

● اليوم الثالث :

قضيت ساعة عند ابراهيم بن المهدي ، الأمير الذى يتعاطى الغناء وهو جميل الصوت
حقا ، ولكنه قليل العلم بأسرار الصناعة ، فقال لى :
- ما الذى أحدثت بعدى من الصنعة يا أبا الحسن ؟
فغنيته لحنا ثم لحنا ، فرايته قد كاد يموت من حسده لى ، ولم يدر مايقول ، حتى غنيته
الصوت الثالث وهو :

إذا كان لى شيئان ياأم مالك فإن لجارى منهما ماتخيرا
وفى واحد إن لم يكن غير واحد أراه له أهلا إذا كان مقترا

فكاد ابراهيم بن المهدي يموت حسدا لعجزه عن صنعة مثل هذا اللحن ، فلم يجد
مايقوله ، الا ان سألنى متهمكا :
- فإن كانت لك امرأتان يا أبا الحسن ، حبوت جارك منهما واحدة ؟ ..
فغضبت وقلت عنه وانصرفت نادما على ماضيت من وقت عنده ، وعذرت اسحاق
الموصلى فى طعنه على هذا الرجل وتجهيله فى صناعة الغناء ! ..
نزلت فى زويق صغير بدجلة أتفرج وقد أوغلنا فى الليل ، فرايت حراقة القائد على بن

هشام ، الضخمة الفاخرة المشعة بأنوار الشموع الكبار ، تنهادى على مياه دجلة ، فقلت للملاح صاحب الزورق : اطرح زورقك على هذه الحراقة العظيمة ، ففعل ، وصحت بالخدم أستاذن فى الصعود الى السفينة ، فجاعونى بالاذن من على بن هشام ، فدخلت وهو مع الجوارى يسمع ويشرب ، ولم تحتجب الجوارى عنى ، لأن على بن هشام لا يحجب الجوارى ما لم يلدن ، فعندئذ يصرن امهات اولاد ويعاملن كالزوجات فيحببن ، وليس كل الناس على هذه الطريقة فى أيامنا ..

كانت هناك أعظم مطربتين فى عصرنا كله : بذل ومتميم . وقد أحب على بن هشام المطربتين ، وأظنه سيتزوج من متميم لأنه يهيم بها حبا ولا يرضى لها بأقل من منزلة الزوجة ! ..

غنيت لحنى « إذا كان لى شيئان يا أم مالك » الذى كنت غنيته عند ابراهيم بن المهدي وتحفظت فى الأداء وجئت فيه بكل ما قدرت على من إجادة حتى زلزلت الحراقة وصاح على بن هشام وبذل ومتميم طربا ..
وحسبك بلحن يطرب له على بن هشام وبذل ومتميم وهم أصفى الناس ذوقا وأعظمهم علما بالغناء ..

قال لى ابن هشام

- لمن هذا اللحن يا أبا- الحسن ؟!

- هذا لحن صنعته وأهديته لك ، ولم يسمعه أحد قبلك ! ..

أعجبه قولى هذا وأمرنى أن أطرح اللحن على بذل ومتميم لتأخذاه ، ففعلت ، وقضينا أحسن وقت فى هذه الليلة حتى قال لى ابن هشام :
- ما أجد لك مكافأة على هذه الهدية إلا أن أتحوّل عن هذه الحراقة بما فيها وأسلمها اليك ! .

فتسلمت الحراقة العظيمة ، وهى من أفخر سفن أمراء بغداد فى دجلة ، وتحول على بن هشام بجواريه وخدمه الى حراقة اخرى له ..
فى الصباح ، سارعت فبعت الحراقة ، لأن مثلى لا يقتنى مثلا ولا يقدر على صيانتها والانفاق على من يخدم فيها ويحفظها ، فكان ثمن بيعها مائة وخمسين ألف درهم ، وقال لى العارفون اننى بعتها بثمن بخس ! ..
اعتزم ان شاء الله أن اشترى بهذا المال ضيعة تكون سندا فى تصارييف الزمان !

إن سفينة واحدة من السفن الفاخرة التى تمخر دجلة أو ترسو فى مراسى القصور المطلة عليه ، تساوى ضيعة كبيرة خصبة ، فكم ضيعة تمخر مياه دجلة أو ترسو عند قصورها ؟!

وإن رجلا كريما عظيما مثل على بن هشام يحبو فقيرا مثلى هذه الضيعة العائمة ، وكأنه لم يعطنى الا درهما واحدا ، فكم من الضياع العائمة وغير العائمة عند عشرات الألوف من أمراء وكبراء بغداد والعراق ودولة الخلافة العباسية العظيمة ؟ !

● اليوم الرابع

خرجت مع الخليفة المأمون الى الشام فدخلنا دمشق فطفنا فيها على قصور بني أمية ، فدخل صحننا من صحنهم مفروشا بالرخام الأخضر كله وفيه بركة ماء ، وفي البركة سمك ، وحولها أزهار ورياحين ، فأعجبه ذلك فجلس وقال لى : غننى ونشطنى ، فكأننى نسيت الغناء كله ولم أذكر الا هذا اللحن :
لو كان حولى بنو أمية لم تنطق رجال اراهم نطقوا
من كل قرم محض ضرائب عن منكبيه القميص ينخرق

فنظر إلى مغضبا وقال : عليك وعلى بنى أمية لعنة الله ! .. ويلك ! .. ألم تجد إلا هذا الكلام ؟ ..

فأققت من غفلتى وقلت مع البديهة :

- ياأمير المؤمنين .. أتولمنى أن أذكر بنى أمية ؟ ! هذا عبدكم زرياب الذى أبق منكم إلى بنى أمية فى الأندلس ، صار يملك هناك ثلاثمائة الف دينار وهبوا له سوى الخيل والضياع والرقيق .. وأنا عندكم أموت جوعا ، وكان زرياب عندكم عبدا من العبيد لاتأبهون له !
قال :

- فكيف كان زرياب هذا الذى هرب إلى الأمويين ؟ !

- كان وسطا فى جمال الصوت وجودة الصناعة ، لايعلو ولايسفل ، ولم يجد مكانا بين فحول الصناعة فى بغداد ، ولكنه صار نجم قرطبة الأوجد ! ..
قال المأمون :

- إنما صيره الأمويون كذلك ، نكاية فىنا ، لارغبة فيه ، ولو كانت لديه بضاعة تتفق عندنا لعرضها علينا .. فهو عند بنى أمية ، عبد بنى العباس الأبق ، فلهذا يظهرون له احتفاءهم وكرمهم ، فاذهب اليهم ، وانت خير منه ، لعلك أن تكون عندهم احظى وأوفر نصيبا من المال والخيل والضياع والرقيق ! ..
فأخرجنى المأمون - والله - فقلت :

- لاوالله ياأمير المؤمنين ! .. لو اعطانى بنو أمية قرطبة كلها ، ماعدلت بها حفنة تراب تطوؤها نعلكم على أرض بغداد ! ..
فانبسطت أسارير المأمون ، وأجزل جائزتى ! ..

يوميات محمد الزف

مجل الأصوات



● اليوم الأول

يسميني المطربون « الزف » .. وقد نسي الناس أن اسمي محمد بن عمرو ، وأنتى كوفى الأصل والمولد والمنتشأ ، من موالى بنى تميم .. ولم يعد أحد يذكر الا هذا اللقب : « الزف » .. الذى اتساهم اسمى وأصلى وبلدى والقبيلة التى انتمى بالولاء اليها ! ..

سبب ذلك أننى أسرع خلق الله جميعا الى حفظ آية أغنية أسمعها ولو مرة واحدة ... فإذا سمعتها أديتها أداء متقنا لا يكون بينه وبين من أخذتها عنه أدنى فرق الا فى نبرات الصوت .

لهذا سميت « الزف » .. ومعنى الزف والزفيف الإسراع ، وأنا أسرع خلق الله أخذاً للغناء ! ..

وأنا والله مغن ذو صناعة وبراعة ، صحيح الأداء ، ذكى الفؤاد ، مليح النادرة ، لكننى فى الحقيقة قليل الحظ من جمال النبرات ! .. فإذا سمعنى أحد قال : مغن بارع الأداء ، ولم يقل : جميل الصوت ! ..

وإلى ما ابتليت به من خشونة النبرات ، فإنى معربد سبىء العشرة إذا انتشيت بالنبيذ ، ولو فى مجلس الخليفة .. وقد عربدت فى حضرة أمير المؤمنين الرشيد ذات ليلة فأمر بإخراجى من مجلسه ، ثم أمر بمنعنى من الوصول اليه ، وجفانى وتناسانى ، والزمنى بيتى ، لا أبرحه الا الى بعض السهرات المتواضعة التى لا يكاد يقى ما أكسبه منها بعيش الكفاف ! ..

وأنا الآن متعطل عن العمل أو شبه متعطل ، فالسهرات الغنائية الحقة انما تقام فى بيوت العلوية من الأمراء والوزراء والكتاب والقواد وسراة بنى هاشم والبرامكة وأمثالهم .. أما هذا الذى أنا فيه من طلب العيش بالغناء للسوقة وأشباه السوقة ، فهو الاملاق والشقاء ! ..

● اليوم الثانى :

طرقات خفيفة مفاجئة على باب منزلى أخرجتنى من عزلتى وملأت قلبى أملا بعد اليأس الطويل ، فهذا خادم من خدم أمير المطربين والملحنين ابراهيم الموصلى يقول لى :

- سيدى يقرئك السلام ويقول لك إنه ينتظرك بمنزله فى هذه الساعة ، لأمر فيه خير لك إن شاء الله ! ..

همست لنفسى وأنا أحت الخطي الى دار صديقى الموصلى : فزت والله يازف
 إن كان ما تحدثك به نفسك صحيحا ! .. إنه ليبدو لى أن المحنة قد تقضت ، وأن
 رضا الخليفة يوشك أن يعود فيعمرنى بنعمائه ! .. وكيف لا يعفو عنى الخليفة حفظه
 الله وهو الانسان الرقيق الغزير الدمع ، على جبروته ؟ ! .. وهل ينسى لحنى البارغ
 الذى غنيته فى حضرته ذات ليلة ، فسار فى الآفاق وتناقلته الأسماع وتغنت به
 الحناجر :

يا زائرينا من الخيام حياكما الله بالسلاام
 يحزننى أن أطمعتمانى ولم تنالا سوى الكلام
 بورك هارون من إمام بطاعة الله ذى اعتصام
 له إلى ذى الجلال قربى ليست لعدل ولا إمام

ثم إننى كنت أضحكه كثيرا بنوادى ، وبما أذعيه من الحان المطرب
 والملحن الكبير اسماعيل بن جامع منافس ابراهيم الموصلى .. فإن ابن
 جامع ، برغم نسبه فى قریش ، وانفراده دون المغنين جميعا بهذا النسب
 العربى الكريم ، يضمن بدرهم واحد يمنحني ولهذا تعودت أن أضع عينى
 عليه حين يغنى ، وأصغى اليه فأحفظ لحنه بعد أن يغنيه مرة واحدة ، ولم
 يكن يغنيه مرة واحدة ، لأن الرشيد لاجبابه بصوته الجميل كان يستعيده
 مرتين أو ثلاثا فيزداد لحنه تمكنا فى رأسى وأحكيه كأننى أنا هو .. لافرق
 بينى وبينه الا جمال صوته ! ..

وقد غنى مرة لحنا جميلا جدا أحسن فيه كل الاحسان ، فحفظته وخرجنا
 ساعة من مجلس الرشيد للراحة ، فأعدت اللحن على مسامع الموصلى حتى
 حفظه ، وحفظه أيضا المطربون الآخرون : مخارق وعلويه وعقيد ..

فلما عدنا الى مجلس الرشيد بادر الموصلى فغنى هذا اللحن ، وقال
 للرشيد : هذا لحن كنت أرويه قديما وقد أخذته عنى مخارق وعقيد وعلويه ! ..
 فأمر الرشيد كلا منهم بأداء اللحن ، ففعلوا .. فوثب ابن جامع وهو يكاد
 ينشق غيظا يقول للرشيد :
 - ياسيدى .. وحياتك ما صنع هذا اللحن أحد غيرى ، وقد سرقه هؤلاء
 ليسقطوا منزلتى عندك ! ..

فقال الرشيد للموصلى .. بحياتى اصدقنى عن القصة ياموصلى ! ..
 فصدقته الموصلى عن القصة ، فجعل الرشيد يضحك ويصفق ويقول :
 - لكل شىء أفة .. وأفة ابن جامع فى غناؤه محمد الزف ! ..
 حدثت نفسى بذلك كله وأنا مسرع الى منزل الموصلى ، وتلقانى الرجل
 مرحبا ، وأجلسنى فى رواق أنيق .. ومد الخدم لنا السفرة حافلة بالطعام

والشراب والرياحين ! ..

قال لى الموصلى :

- إننى اخترتك يا صديقى لأمر لا ينهض به غيرك ، فانظر كيف تكون !

قلت متلهفا لمعرفة ما وراء كلامه :

- أبلغ فى ذلك محبتك إن شاء الله ! ..

ففكر الموصلى قليلا ، ثم قال لى متمهلا :

- ماتقول فى اسماعيل بن جامع ؟!

- بخيل شديد البخل ، أما أنت فبحر من الكرم لا ساحل له ! ..

- ماسألتك عن هذا .. إنما أسأل عن غنائه وألحانه ونبرات صوته ! ..

- هو والله محسن بارع فى التلحين ، وضىء نبرات الصوت ، وقد صدق

من قال إن فى صوته مثل حلاوة العسل ! ..

- إنه والله لكذلك ، وما كنت أنتظر أن تقول عنه الا هذا .. ولكنه -

يا صديقى - غلبنى البارحة فى مجلس الخليفة وفاز بجوائز عظيمة ، وانخذلت

انا وانكسرت وخرجت بلا جائزة !

قلت متعجبا :

- وكيف يغلبك عند الخليفة وأنت من أنت ؟!

- غنى صوتا فأحسن فيه وطرب له الرشيد وسأله : أهذا الصوت من

صنعتك يا اسماعيل ؟ ..

فأجابه لا .. ولكنه من صنعة ابن سريج رئيس القدما من أهل

صناعتنا ، وقد كذب ابن جامع فإن اللحن والله من صنعته هو ، ولكنه أراد

أن يرى أمير المؤمنين اتساعه فى رواية الغناء القديم ، وتفوقه فى ذلك على

جميع المطربين وأولهم انا .. فلما سمع الرشيد منه ذلك أمرنى بغناء هذا

اللحن فاعتذرت وانكسرت وانهزمت فى مجلسه وابن جامع ينتفش كالديك

ولايالى أن يكذب ويزعم تلك المزاعم ! .. حتى قال لى الرشيد ساخرا

- ألسنت تزعم أنك تحفظ الغناء القديم كله ، لا يفوتك منه شيء ؟!

ومضى الموصلى يروى لى قصته :

- ثم غنى ابن جامع صوتا ثانيا أحسن من الأول من تلحينه وزعم أنه من

صناعة القدما ، فقال لى الرشيد :

- هات هذا اللحن يا ابراهيم لنرى فرق ما بين أدائك وأداء ابن جامع ! ..

فاعتذرت وقلت : « ولا هذا أعرفه يا أمير المؤمنين أبياك الله » !

ثم غنى ابن جامع صوتا ثالثا هز الخليفة طربا ، وزعم كذلك أنه صنعة

قديمة ، وإنما هو من تلحينه ، فأمرنى الرشيد بغنائه فلم أستطع .. وانصرف

ابن جامع من مجلس الخليفة ظافرا ، وخرجت أنا مخذولا ! ..

ثم نظر الموصلى فى وجهى لحظة كأنه يستطلع أثر قصته فى نفسى

فقلت له :

- وماتطلب منى الآن يا أبا اسحاق ؟!

قال

- تذهب الى ابن جامع فتهنئه على فوزه هذا وتنتقدني وتشتمني ثم تحتال على سماع الأصوات الثلاثة حتى تحفظها وتعود بها الى منزلي فتنطرحني إياها حتى أحفظها وأذهب الى الخليفة وأغنيها وأفسد على ابن جامع مكيدته ! .. ولك بعد ذلك ماتحبه من جهتي ، مع رضا الخليفة وعودتك الى مجلسه إن شاء الله ! ..

● اليوم الثالث :

استأذنت على ابن جامع في منزله وقلت له متهللا :
- جئتكم مهنتا بما بلغني من خبرك في مجلس الخليفة أعزه الله ! ..
فالحمد لله الذي أخزى على يدك الموصلي الدعي ، وكشف الفضل في محلك من صناعتك وفنك ! ..
ضحك ابن جامع مسرورا وقال :
- ويحك ! لقد كان خبرا يجلب عن الوصف ، وما علم به الا جلساء الخليفة ، فكيف بلغك !؟ ..
قلت متملقا متزلفا :
- هو أشهر من أن يخفى على مثلي ، وقد سرى في بغداد كلها .. فهلا سررتني أيها الأستاذ بأن تسمعني الخبر كله حتى أرويه عنك !؟ ..
قال ابن جامع والنصر يملا كلماته :
- أقم عندي ساعة حتى أروي لك كل شيء ! ..
وروى لي ابن جامع القصة ، وغناني الأصوات الثلاثة مجتهدا في أدائها على أحسن وجه ، وأنا أصفق وأصيح طربا وأشرب رطل النبيذ وأسجل الألحان في دماغى بغاية الانتباه حتى أخذتها كلها بحذافيرها .. ثم ودعته وانصرفت أتعجل الوصول الى منزل الموصلي ! ..

● اليوم الرابع :

في سهرة أمير المؤمنين دعا بالمغنين فلما بصر بالموصلي بينهم قال له ساخرا : « أوقد حضرت !؟ .. أما كان ينبغي أن تجلس في منزلك شهرا بسبب انتكسارك من ابن جامع أمس !؟ .. »
فقال الموصلي : « ولم ذلك يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك !؟ .. »
فوالله لئن أذنت لي أن أقول لأقولن ! ..
قال الرشيد والسخرية لم تزل في لهجته : « وما عساك أن تقول !؟ »

قال الموصلى : « انه ليس ينبغى لى ولا لغيرى أن يراك نشيطا لشيء فيعارضك ! .. والا فما فى الأرض صوت لا اعرفه » .. قال الرشيد : « دع ذاعتك ! .. قد أقررت أمس بالجهالة بما سمعت من ابن جامع ، فان كنت امسكت عنه عن معرفة ، فهات اليوم تلك الالحان ، فليس ها هنا عصبية ولا تمييز » ! ..

ضرب الموصلى بعوده فغنى عليه الالحان الثلاثة كما غناها ابن جامع تماما ، فاندفع ابن جامع يحلف للخليفة ان هذه الالحان من صنعته هو لا يعرفها غيره ولا يدرى كيف اخذها الموصلى منه ! ..

التفت الرشيد الى الموصلى وسأله متبسما :

- يا ابراهيم .. ما أحدثت بعدى ؟! .. بحياتى اصدقنى ! ..

قال الموصلى

- رميته بمثل سهمه يا امير المؤمنين .. بعثت اليه بمحمد الزف مغنيك وعبدك الذى غضبت عليه وأبعدته والزمته بيته ، وضمنت للزف ضمانات ، اولها ان ترضى عنه وتعيده الى مجلسك ، فمضى الزف فاحتال لى على ابن جامع حتى نقل الاصوات الثلاثة وطارحنها حتى احكمتها كما سمعت يا امير المؤمنين ! .. وقد سقط عنى الآن اللوم بإقرار ابن جامع أنها من صنعته هو لا من صنعة قدماء أهل الصناعة ، ولا يلزمنى أن أعرف ما يصنع ابن جامع ولا غيره من نظرائى ، وإنما يلزمنى ان يعرف هو شيئا من غناء الأوائل وأجمله انا .. وان ابن جامع ليشهد انى اكثر منه رواية للغناء القديم ، وما غنى القدماء لحنا الا وهو عندى ، لا ينكر ذلك ابن جامع ولا غيره ! .. ضحك الرشيد انبساطا وقال :

- صدقت يا ابراهيم ، وأبطلت كيد ابن جامع ، وقمت بحجتك ! ..

ثم التفت الى ابن جامع وقال له متفكها مواسيا :

- هيه يا اسماعيل .. الا ترى الموصلى كيف ابطل عليك مكيدتك وانتصف

منك ؟ !

● اليوم الخامس :

لما انتهت السهرة قال الخليفة للموصلى :

- قد رضىنا عن الزف ، وأمرنا أن يؤذن له بالدخول مع المغنين فى مجالسنا ، على الا يعربد على احد من المغنين أو الندماء ! ..

أبلغنى الموصلى هذا الخبر السعيد فقلت له :

- سألتزم الصمت المطبق ، لا اصنع شيئا الا الإصغاء الى ابن جامع

وتسجيل اغانيه فى دماغى ، لعلك تحتاج اليها يوما ! ..

ضحك الموصلى وضحكت ، ثم اخرج ثلاثة الاف درهم فأعطانيها ، وقال

لى :

- ولك عند الخليفة ماتحب إن شاء الله ! ..

يوميات عبد الله الربيعي :

ابن الحاجب والوزير



● اليوم الأول :

اسمى عبدالله ، واسم أبى « العباس » أما جدى فهو الفضل بن الربيع حاجب أمير المؤمنين الرشيد ووزيره ، ورث الحجابة عن أبيه « الربيع » الذى نشأ فى كنف أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور جد الرشيد ، وارتفع من خادم يمسك للخليفة إبريق الوضوء ، حتى بلغ رتبة الحجابة الرفيعة الشأن !

يرانى جدى الفضل بن الربيع - حفظه الله - فيتذكر أبى الذى مات شابا صغيرا فتدمع عيناه ويضمنى الى صدره باكيا .. كان جدى شديد المحبة لابنه وقد سماه « العباس » تيمنا باسم الجد الأكبر لخلفاء الدولة العباسية ، وسمانى « عبدالله » تيمنا باسم عبدالله بن العباس ، بحر العلوم ، وإمام العلماء ، وجد الخلفاء .. عمتى « رقية » فى حال لا نهاية وراءها من الرقة والمحبة لى .. كلما رأتنى بكت ، لما يساورها من الحزن الدائم على أخيها أبى رحمه الله !

أحببت جارية مغنية من جوارى عمتى ، حبا ملا قلبى ، ولكنى لم أستطع ملازمة الجارية خوفا من أن ينكشف لعمتى ولجدى حبى لها فأمنع من لقائها ادعيت لعمتى أننى أشتهى أن اتعلم الغناء من هذه الجارية ، فى ستر عن جدى الذى يرشحنى للحجابة أو الوزارة متى كبرت ، ويريدنى أن أطلب العلم الذى أبلغ به هذه الرتبة الرفيعة فى الدولة ، ولا يخطر بباله أنى أطلب علم الغناء فأسقط به من عين الناس كما سقط إبراهيم بن المهدي الذى يغنى ويلحن وهو ابن خليفة وحفيد خليفة وأخو خليفة ! ..

قالت لى عمتى :

- يابنى .. لاتجعل الشهوة للغناء تغلب عقلك .. إن جدك يعلق أماله عليك ويعدك لكبرى الوزارة ! ..
قلت

- ياعمتى إن منعتمونى من تعلم الغناء مت غما وكمدا !

قالت مشفقة غير متشدة :

- أكره يابنى أن تحذق الغناء وتشهر به فتسقط ويفضح بك أبوك - رحمه الله -
وجدك أطلال الله بقاءه ! ..
قلت أطمئنها :

- لا تخافى ياعمتى ، فإنما أنال منه مقدار ما ألهو به ، لا أزيد على ذلك شيئا إن شاء الله ..

قالت

إن كان قصدك أن تلهو بما تأخذ من الغناء ، ولا تظهره أبدا للناس ، فذلك إليك ، وأنت به أعلم

● اليوم الثانى

لازمت الجارية المغنية التى شغفتنى حبا ، فتعلمت منها ضرب العود وأخذت عنها وعن الجوارى الأخريات فى قصرنا ألحانا كثيرة ، وأنا سريع الأخذ والحفظ ، ولى فى الغناء طبع أصيل ..

تأثرت على حضور مجالس جدى التى يغنيه فيها اسحاق الموصلى ومخارق ولويه وغيرهم ، فلم يبق لحن من ألحانهم إلا حفظته ، حتى أحسست من نفسى قوة فى صناعة الغناء ، فلحنت فى شعر للعرجى حفيد عثمان بن عفان
اماطت كساء الخز عن حر وجهها

وأدنت على الخدين بردا مهلهلا

عرضت لحنى على حبيبتي الجارية المغنية فقالت لى

- والله ما يقدر اسحاق الموصلى على أحسن من هذا ..

وبعض الجوارى المغنيات يجئن إلى دارنا فيطرحن على جوارى عمى وجوارى جدى ألحانا كثيرة ، ويأخذن منهن ألحانا أخرى ، وقد أسمعتهن لحنى فى شعر العرجى فأخذنه وغنيه ، ثم اشتهر اللحن حتى غناه بعض المغنين لأمير المؤمنين هارون الرشيد فاستحسنه ، وقيل له إنه من صناعتي ! ..

دعا الرشيد جدى وقال له :

- يا فضل .. يكون لك ابن يغنى ويصنع ألحانا جميلة ، ولا تخبرنى بذلك ؟ !

قال جدى :

- بحق ولائك يا أمير المؤمنين ، ونعمتك ، وإلا فأنا نفى منهما برىء من بيعتك ، وعلى العهد والميثاق ، والعق والطلاق .. إن كنت علمت بشيء من هذا قط إلا منك الساعة ! .. فمن هذا من ولدى يا أمير المؤمنين ؟ ! ..

قال الرشيد :

- حفيدك عبدالله بن العباس .. فهلا أحضرته عندنا يوما فنسمع منه صنعته وقد سمعناها من غيره ؟ ! ..

عاد جدى الى قصرنا يكاد ينشق غيظا ، فشتمنى وقال لى : يا كلب ! .. بلغ من حمقك أن تتعلم الغناء بغير إذن ، ثم زدت فصنعت ألحانا وألقيت صنعتك على الجوارى فى دارى ، ثم تجاوزتهن الى جوارى المغنين ، حتى بلغت قصتك أمير المؤمنين ، ففضحت أباك فى قبورهم ، وسقطت الى الأبد إلا عن رتبة المغنين .. وكنت أظنك تبلغ مرتبة الحجابة أو الوزارة من بعدى ! ..

فبكيت غما بما جرى ، فرحمنى وضمنى اليه وقال :

- قد صارت الآن مصيبتى فى أهلك مصيبتين .. إحداهما بموته ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ! .. أما مصيبة العار فهى باقية علينا وعلى أهلنا من بعدنا ! .. ثم بكى جدى أحر بكاء ، حتى هان على أن أموت وتوارينى الأرض فى جوفها ! ..

● اليوم الثالث :

● رأيت جدى اليوم هادئاً مستسلماً للأقدار ، وابتدرنى .
- يعز على يابنى أن أراك على غير ما أحب لك .. كنت أرشحك حاجباً أو وزيراً ،
فالآن سقطت عن هاتين الرتبتين الرفيعتين فى الدولة .. وقد خرج الأمر من يدي
فليست لى فيه حيلة ! ..
ثم قال منكسراً محزوناً
- يابنى .. جئنى بعود وأسمعنى صوتك والحنانك حتى أنظر كيف أنت فى صناعة
الغناء ، فإن كنت تصلح للخدمة عند الخليفة فى هذه الفضيحة ، وإلا جئت أمير
المؤمنين بك منفرداً وعرفته خبرك وأنتك تلهو ولا تحسن شيئاً ، واستعفيته لك ،
لتقصر بك فى هذه الصناعة .. وأمير المؤمنين خير من يستر عورتنا ! ..
فلما غنيته ، بكى وقال :
- الآن بطلت والله حجتى ، وخاب فيك أملى ، فإن صناعتك فى الغناء جيدة ،
وصوتك حسن ، والله ما أراك إلا صائراً إلى احتراف الغناء طول حياتك ، فوا
حزنى عليك وعلى أبيك ! ..
قلت ضارعاً متألماً :
- ياسيدى .. ليتنى مت قبل هذا الذى أنكرته من امرى ! .. لكنى وحياتك
ياسيدى لا غنيت أبداً إلا لخليفة ، أو لولى عهد مرشح للخلافة
قال وهو يمسح دموعه :
- قد أحسنت يابنى فيما نبهت عليه من هذا ، فلا تغن إلا للخليفة أو لولى
عهده ! ..

● اليوم الرابع :

أخذنى جدى إلى مجلس الرشيد فوقفت بين يديه أرعد ، فاستدنانى حتى
صرت قريباً منه ، ومارحنى وأقبل على بوجه منبسط ، وهذا من روعى ، وأمر جدى
بالانصراف لكىلا أخجل من الغناء فى محضره ومن حولى المغنون المحترفون ! ..
ثم أمر المغنين فحدثونى وتفكهوا معى بالنوادر ، وسقونى أقداحاً ، ثم غنوا
واحداً بعد واحد .. فلما جاءت نوبتى فى الغناء أمسكت بالعود ووقفت استأذن فى
الغناء ، فضحك الرشيد وقال لى : غن جالساً .. فجلست وغنيت ، فطرب واستعادنى
ثلاث مرات وشرب أقداحاً ..
ثم دعا بمسرور الخادم فقال له :
- يا مسرور .. أحمل الساعة مع عبدالله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوباً من فاخر
ثيابى وصندوقاً مملوءاً بالطيب ..

● اليوم الخامس :

قال لى جدى وقد مضت أسابيع على غنائى فى قصر الرشيد :
- كانت سررت بما أعطاك أمير المؤمنين من الدنانير .. ولوددت والله أنى أضع
ألف ألف دينار ولا يكون لك أدنى علم بالغناء ، ولكن قضاء الله لا مرد له ، وإن تغلح
أبدا ! ..

قلت

- ياسيدى هل جنيت جنابة ؟ !

صاح مفتاظا :

- أخبرنى عنك أيها الغلام .. هل كنت منذ يوم أو يومين فى « قطربل » تشرب
النبيذ بغير غناء فى حانة هناك مع بعض الفساق ؟ ! ..
لم أحر جوابا فمضى يقول :

- قد جاءنى من أخبرنى بذلك .. فهل هذا فعل من يفلح ، وهل هذا إلا من ضعة
النفس وسقوط الهمة والتبذل والانخفاض عن مراتب أهلك ، والتدلى الى السوق
والشطار والراقصين فى الأفراح ؟ ! وقد بلغنى أنك تتفكه بغناء شعر مدحنى به
اسحاق الموصلى منذ بضعة عشر عاما ، وكنت أنت وقتئذ فى نحو السنتين من
عمرك ، فأراك اسحاق جالسا فى حجرى فقال ذلك الشعر يمدحنى ويبشرنى
بمستقبلك العظيم ! ..

فاجأنى كلامه هذا فقلت متظلما :

- والله ياسيدى ما أعرف هذا الشعر الذى تتحدث عنه فكيف أغنيه وأتفكه
به ؟ !

أشاح عنى

- كذبت يا غلام ! .. أما تروى الرجز الذى نظمه اسحاق يمدحنى ويذكرك بقوله :

مد لك الله الحياة مدا
حتى يكون ابنك هذا جدا
مؤزرا بمجده مردى
ثم يفدى مثلما تفدى
أشبه منك جبهة وخدا
وشيما محمودة ومجدا
كأنه أنت اذا تبدى

- لا والله ياسيدى ما أروى هذا الرجز ولا سمعته إلا الساعة منك ! ..
زمجر متعجبا متحزنا على مصيرى :

- إن مصيبتى فيك لعظيمة ! صرت مغنيا وصارت حانات قطربل مكان
صبوحك وغبوقك ! .. تتكلم فتكذب وتنكر ما ترتكب من الموبقات ، والناس يرونك
هاژئين متندرين بك وبى ويقولون شامتين :

- هذا حفيد حاجب الخلافة ووزيرها ! ..

● اليوم السادس

مرت الأيام مر السحاب .. تسارعت السنون .. مات جدى رحمه الله حسران على أننى لم أسلك مثله الطريق إلى الحجابة والوزارة .. وقد مات الرشيد ثم لحق به الأمين والمأمون والمعتمد .. وما نحن أولاء فى عصر الخليفة الواثق بالله !
أراجع نفسى أحيانا : هل أخطأت ؟! .. هل كان طريق الوزارة والحجابة خيرا من طريق الغناء ؟!

ركبتنى الهموم فصرت لا أفارق رطل النبيذ لا فى الصباح ولا فى المساء ، إلا يوم الجمعة ، أو فى شهر رمضان ، أو فى الحج ! ..
أثقلتني الديون فاستترت من الغرماء الذين أقرضوني بالربا الفاحش ، فشكوت إلى الخليفة ، فأمر بقضاء ديني وألا يحتسب للدائنين إلا رؤوس أموالهم ويسقط الربا كله ، وينادى بذلك فى سامرا وبغداد ، فلا يدفع مدين إلى دائن إلا رأس ماله فقط فسقط عني وعن الناس من أرباح الربا زهاء مائة ألف دينار
علمت أن أمير المؤمنين الواثق وجاريته « فريدة » المغنية البارة الحسنة قد تغاضبا وتهاجرا ، ولزمت فريدة مقصورتها ..

حدثت نفسى بأن فريدة قد امتلكت قلب الواثق امتلاكاً ، ولابد له من مراجعتها واسترضائها ، فنظمت أبياتا فى معنى خصام الاحبة ، وغنيتها فى سهرة الخليفة ، ففطن إلى معناها واستعادها مرارا وشرب عليها ، وأمرلى بألف دينار وثياب فاخرة ، وقام من وقته فاسترضى فريدة وعادا أحسن مما كانا ..
أقبلت فريدة بعد انصراف المغنين وليس عند الخليفة غيرى ، فأخذت عودا وتغنت فانت بالسحر فى غنائها حتى كاد الخليفة يشق ثيابه طربا .. وتماسكت أنا حتى لا أسوء الأدب إذا أظهرت ما داخلنى من الطرب ! ..
فلما هدا الواثق اقترح أن أغنيه هذا اللحن من صنعتى وشعرى :

أفدى التى قلت لها

والبين منا قد دنا

هجرك قد انحل صبرى

وأذاب البدنا

قالت فماذا حيلتى

كذاك قد ذبت أنا

غنيته وفريدة مرفهة السمع تحفظ اللحن ، وهى سريعة الحفظ ، تسمع اللحن مرة واحدة فتؤديه كأنه من صنعتها ! ..

فبينما نحن فى ذلك ، دخل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لأمر من أمور الدولة ، فقال للواثق بعد أن فرغت من الغناء منوها بى :
- هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بأقبالك عليه ، واستحسانك له ، واصطناعك إياه ! ..

قال الواثق :

- أجل لاغرو .. إن عبدالله هو ابن موالى أبى وجدى ! ..

قال الوزير :

- ليس كل مولى يا أمير المؤمنين ولا كل خادم ، يجمع ما جمع عبدالله من ظرف وأدب وصحة فكر وجودة شعر وحسن غناء !
فلما كان من الغد قصدت الى الوزير شاكرًا فقلت له : قد أفرط الوزير - أعزه الله - فى وصفى وتقريظى عند أمير المؤمنين حتى وصفنى بجودة الشعر ، وليس الشعر من شغلى ، وإنما أعبث بنظم البيتين والثلاثة ، وذلك يصغر عن أن يصفه الوزير ويثنى عليه ومحل الوزير فى الشعر هو المحل الرفيع المشهور .. فقال الوزير
- والله يا أخى لو عرفت مقدار إحسانك فى قولك :

يا شادنا رام إذ مر

فى السعائين قتلى

يقول لى كيف أصبحت ؟ !

كيف يصبح مثلى !

لما استهنت بما تنظم من الشعر ! .. فوالله لو لم يكن لك شعر فى عمرك كله إلا قولك « كيف يصبح مثلى » .. لكنت شاعرا مجيدا !
لم تدهشنى دقة ذوق الوزير وفهمه العميق للشعر ، فإن له وهو الكاتب العظيم - فرائد فى الشعر عجيبة ! ..

● اليوم السابع :

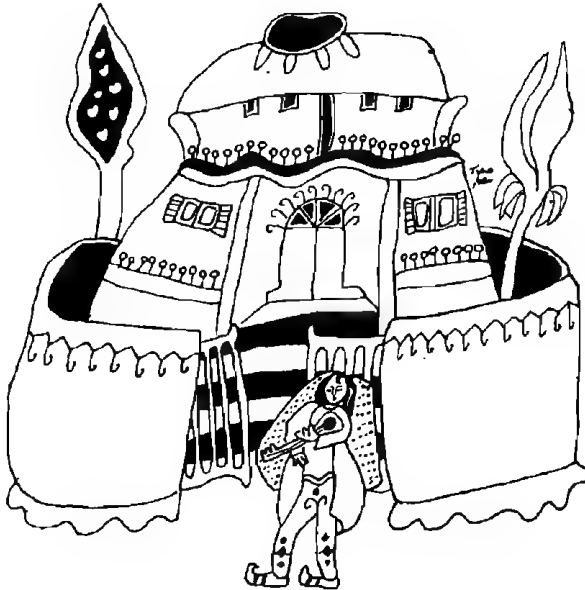
اشترت لى عمتى رقية من مالها جارية امتلأ قلبى بحبها فقلت لى المغنية الكبيرة ، بل أستاذة المغنيات « بذل »
- يا عبدالله .. بلغنى أنك عشقت جارية وعشقتك واشتريتها ، فاعرضها على ، فإما عذرتك لعشقها ، وإما عذلتك وأنكرت عليك ..
فلما أحضرتها قلت لبذل :
- هذه هى ياستى ، فانظرى واسمعى ثم مرينى فيها بما شئت أطلعك ! ..
فقلت له الجارية عاتبة
- يا عبدالله .. أتشاور الناس فى أمرى ؟ ! .. فوالله ما شاورت فيك أحدا لما أحبيتك ! ..

فنعرت « بذل » وصاحت وقد هزها الاعجاب العظيم بالجارية :
- إيه ! .. أحسنت والله يا صبية جدا .. ولو لم تحسنى شيئا ولا كانت فيك خصلة محمودة ، لوجب أن يعشقك عبدالله لهذه الكلمة البارة التى قلتها له ! .. أحسنت والله فى كلامك وجئت بأحلى المعانى !
ثم قالت لى « بذل » :

- يا عبدالله .. ما ضاع شئ من مالك فى هذه الجارية .. ولو أنفقت عليها ألف ألف دينار لكنت رابحا ! احتفظ يا عبدالله بصاحبك ! ..
لقد طربت « بذل » لأربع كلمات فاهت بها جاريتى .. ولم أرها قط تطرب مثل هذا

الطرب لمغن أو مغنية !
وهكذا أنا أمضى فى الحياة .. أغنى وأحب الجوارى وأنادم الملوك والأمراء
والوزراء ، وأتذكر جدى - رحمه الله - إذ يقول لى فى سالف الزمان « والله لن
تقلح أبدا » !
كان يريدنى وزيرا أو حاجبا للخلافة العباسية الجليية ، كما كان هو يرحمه الله !
ولكننا نريد ، والدنيا تذهب بنا حيث تريد ! ..
فهل ترانى أفلحت فى شىء ؟ ! ..

مائة ألف دينار .. وولاية مصر



● اليوم الاول :

أخذت فن الغناء وصنعة الضرب بالعود ، عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ، وطارحت يحيى المكي المغنى العجوز الحان الاقدمين حتى حفظتها وأحكمت حفظها ، وتفوقت على الجوارى المغنيات ، ونزلت سوق الرقيق فاشترانى سيدى صالح بن عبدالوهاب .. ولما قبض النخاس ثمنى همس فى اذنى :

- أبشرى .. فإن الله أراد بك خيرا ، فهذا السيد الذى اشتراك من أكبر بيوتات بغداد .. أخوه من حاشية أمير هاشمى قريب النسب من الخليفة المعتصم بالله ! ولما صرت فى بيت سيدى هذا عرفت أنه ليس من حاشية أمير عادى ، بل من حاشية أمير من أبناء الرشيد ، واسمه صالح أيضا .. صالح بن الرشيد ! .. وفى أولى سهراتى فى بيت صالح بن عبدالوهاب ، جاء أخوه أحمد .. وجاء أيضا الأمير صالح بن الرشيد ! أخو الخليفة المعتصم ..

ولم أكد أسسك بالعود لأضرب وأغنى ، حتى دخل علينا اسحاق الموصلى ! .. جاء متأخرا ، لايبالى أن يجيء بعد الأمراء والكبراء ، فقد اعتادوا أن يتيه عليهم ، وأن يتلطفوا فى معاملته ، إكبارا لشأنه ، وانهم ليرىون الخليفة المعتصم نفسه يعلى مكانه ويحبه ويجزل له العطاء ، وربما خصه بالحديث فيما لايتحدث فيه مع أكبرهم شأنًا ، وكذلك كان يفعل الخليفة المأمون من قبل .. والخليفة هارون الرشيد أيضا ..

قال لى صالح بن الرشيد فى كبرياء ابن الخليفة وأخى الخليفة وعم ولى عهد الخليفة :

- ماذا تحسنين يا جارية من الغناء ؟ ! ..

فبادر اسحاق الموصلى فقال :

- إنها تحسن الغناء والضرب بالعود ، ولها فى التلحين صنعة تفضل صنعة بعض كبار المغنين ! ..

قال صالح بن الرشيد لاسحاق ضاحكا متأدبا :

- لم يزل دأبك يا أبا محمد انتقاص كبار المغنين ، ولا يلومك من يعرف قدرك فى الصناعة ، فأين هم منك ؟ ! ..

ضربت بالعود وغنيت لحنا لى فى شعر لمحمد بن كناسة كان اسحاق الموصلى معجبا به :

فى انقباض وحشمة فإذا صادقت أهل الوفاء والكرم
ارسلت نفسى على سجيبتها وقلت ما قلت غير محتشم

فارتج الحاضرون طربا ، وعلى رأسهم صالح بن الرشيد ، ورايته يحملق فى وجهى ، كأنه يقول فى نفسه ما أجمل هذه الجارية ! ..

● اليوم الثانى :

أقبل على سهرتنا بعض كبار المطربين وقد تسامعوا بجمال صوتى وإحسانى فى التلحين والضرب بالعود ..

رأيت المطربين الكبار مخارقا وعلويه لأول مرة ، وكنت أسمع بهما ويقول لى من يحدثنى عنهما مخارق أجمل المغنين المحترفين صوتا .. ثم علويه ! .. وفى بغداد التى يبلغ عدد سكانها ألف ألف نسمة ، لايعرف الناس وجوه المغنين الكبار ، ولا يلتقون بهم ، لأن هؤلاء المغنين الكبار يتحركون فى دائرة القصور فقط .. قصور الخليفة والأمراء والوزراء والكبراء .. إلا أن أسماءهم الشهيرة تملأ أسماع بغداد ..

ويسكن هؤلاء المغنون فى الأحياء الفخمة القريبة من قصور العظماء ، وقد فرض عليهم قربهم من الطبقة العليا فى المدينة ، أن يحجبوا أنفسهم عن العامة ، فلا يعرف العامة إلا عبيدة الطنبورية وهى أحسن المغنيات الطنبوريات صوتا وصناعة ، ولكنها ابتذلت نفسها فى أعراس العامة وسهراتهم ، فصار أجرها لايتعدى دينارين فى الليلة ، فى حين يتقاضى المغنى الكبير ألوف الدنانير ! .. وقد أوشكت أنا أن أصير مغنية مغمورة فى بيت من بيوت النخاسين الذين يجمعون فيها المغنيات ويدخلها الناس تظير أجر معين ، ويسمعون الغناء - وهم كثيرون - فى صخب وجهل بأصول السماع وأدابه ! ..

ولكن حظى الطبيب عدل بى إلى بيت سيدى صالح ، فصرت كبيرة الأمل فى أن أصير يوما الى منزلة أكون فيها مساوية أو مقاربة للمغنيات المترفات اللاتى أسمع عما يتمتعن به من مال وجاه ومجد فى قصور الأمراء والكبراء ..

غنيت فى السهرة طويلا ، ومخارق وعلويه يسمعان ، وينظران إلى يدى على أوتار العود ، حتى فرغت من غنائى ، فقال لى مخارق :

- والله .. ما أنت يا جارية بأقل شأننا ممن سمعنا غناءهن فى قصر الخليفة وقصور الأمراء والوزراء .. وإنك فوق جودة غنائك لفائقة الحسن .. فما اسمك أيتها الحسنة ؟ !

قال سيدى

- اسمها قلم ! ..

قال علويه :

- فهى إذن قلم الحسنة ! ..

● اليوم الثالث :

مات الخليفة « المعتصم » .. وتولى الخلافة ولده « هارون الواثق » .. وهو يحب

الغناء .. وسمعت اسحاق الموصلى منذ قليل يقول : « الواثق أكثر معرفة بالغناء من المعتنقين الذين يسمعونهم » ! ..
وحدثنى سيدى صالح بن عبد الوهاب أن الواثق لما جلس أخيراً بعد مبايعته بالخلافة ، دخل عليه الشاعر على بن الجهم ، فأنشده :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين بدولة الواثق هارون
وعم بالاحسان من فعله فالناس فى خفض وفى لين
ما أكثر الداعى له بالبقا وأكثر التالى بأمين

ثم أنشده ابن الجهم أيضا :

وثقت بالملك الواثق

بالله النفوس

مالك يشقى به المال

ولا يشقى الجليس

يابنى العباس يابى الله

إلا أن تسوسوا

فقلت لسيدى :

– ألم ينشده أبو تمام الطائى عظيم الشعراء شيئاً ؟ !

قال :

– الواثق لا يقرب إلى مجلسه إلا صغار الشعراء ، وأظن أن أبا تمام لن ينال منه شيئاً مدة خلافته ، مع أن أبا تمام هو الذى أغرى « المعتصم » بجعله ولياً للعهد ، بمدائح كثيرة مشهورة .. حسبك منها قوله :

فاشدد بهارون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بغير سوار

صنعت لحنين جميلين فى الشعر الذى نظمه ابن الجهم ، وجاءت إحدى جوارى صالح بن الرشيد فحفظت اللحنين .. ثم بلغنى أن الواثق لما سمعهما أعجب بهما وسأل عن صاحبهما ، فذكروا له اسمى وحدثوه عنى ..

● اليوم الرابع

غنت إحدى جوارى الواثق لحنى فى شعر محمد بن كناسة : « فى انقباض وحشمة » .. فسأل عن صاحب اللحن فذكرونى له ، فقال :

– أهى « قلم » التى لحننت من قبل فى شعر ابن الجهم ؟

ثم أرسل إلى وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، فأمره بأن يشخصنى إليه مع سيدى صالح بن عبد الوهاب ..

غنيت فى حضرة الواثق فطرب أشد الطرب ، وقال لسيدى

- بكم تتبعها ؟ !

- بمائه ألف دينار وولاية مصر ! ..

فغضب الواثق ، وظننت أنه سيأمر بقتل سيدي ، ولكنه هدا .. وأعرض عنى وعن سيدي ، وأمر فغنى المطرب زيزور الكبير لحنا ، فلما أتمه سأل عن صاحب اللحن ، فقال : قلم ! ..

فرايت الواثق قد تحير ، وتنازعت الرغبة فى شرائى ، والنفقة على سيدي الذى اشتط فى ثمنى حتى اشتطت الولاية على مصر ! .. ونظرت إلى سيدي صالح فوجدته قد قطن الى خطئه وخشى مغبة تطاوله على الخليفة ، فقام بين يديه مطاطنا يقول :

- يا أمير المؤمنين .. أما وقد رغبتم فيها فما يجوز أن املك شيئا لكم فيه رغبة ، وقد أهديتها إلى أمير المؤمنين ، فإن أكبر ما يتناهى إليه أمل هذه الجارية أن أصيرها إليه ، فبارك الله لك يا أمير المؤمنين فيها ! .. وتهدج صوت سيدي فى آخر كلماته هذه كأنه ينتزع روحه من بين جنبيه ، فلم يبال الواثق بحاله هذه التى تدعو للشفقة ، وقال له :

- قد قبلنا الهدية ! ..

ثم التفت إلى ابن الزيات الوزير وقال

- ادفع إليه خمسة آلاف دينار ! ..

فكادت الأرض تميد بى ، فقد أنحط ثمنى من مائه ألف دينار وولاية مصر ، إلى خمسة آلاف دينار ! ..

● اليوم الخامس .

تسللت إحدى الجوارى وأخبرتني أن سيدي السابق صالح بن عبد الوهاب يستنجد بى ، لأن الوزير المتعسف ابن الزيات قد مطله بثمانى قلم يعطه دينارا واحدا ، فضاعت منه مائة ألف دينار وولاية مصر .. ثم ضاعت الألف الخمسة المتواضعة من الدنانير ! .. فكأنه أهدانى للخليفة بلا مقابل ، أو باعنى بلا ثمن ! ..

غنيت الخليفة لحنا جميلا فطرب وقال له :

- بارك الله فيك وقيم رباك وعلمك ! ..

قلت :

- ياسيدي ... وما نفع من ربانى منى إلا التعب والغرم على تربيتى ثم الخروج منى صفر اليدين ؟ !

قال متعجبا :

- إنى أمرت له بخمسة آلاف دينار ! ..

قلت

- بلى .. ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئا ! ..

فغضب الواثق ودعا بخادم من خاصة خدمه ، وكتب إلى ابن الزيات بحمل
الخمسة آلاف الى سيدى ومعها خمسة آلاف دينار أخرى .
وأخذ الخادم بيد سيدى الى ابن الزيات ، فجزع الوزير وقال لسيدى :
- أما الخمسة الآلاف الأولى فخذها فقد حضرت وهذه هى فى متناول يدك ! ..
وأما الأخرى فأنا أدفعها إليك بعد أسبوع ! ..
فأخذ الخمسة الأولى ومضى وانتظر الوزير فتناساه كأنه لم يعرفه ! ..
فبلغنى أن سيدى صالحا لما تجاهله الوزير ومطله بالخمسة الأخرى كتب إليه
يقتضيه ، ثم خشى أن يلفق له الوزير تهمة ويدخله فى «التنور» الذى يرمى فيه من
يغضب عليهم .. وكان ابن الزيات غليظ القلب ، يقول «الرحمة خور فى الطبيعة» ..
وبحث الوزير عن سيدى فلم يجده فى أى مكان يعرفه فخاف أن يعود فيشكوه
للخليفة ، فأرسل إليه المال المتأخر كله بعد أن عثر رجال الشرطة على سيدى ،
واستكتبه الوزير كتابا بقبض المال ! ..
اهتم الواثق بقصة سيدى اهتماما كبيرا ، لأنه كان مغیظا من وزيره الذى كثرت
منه شكاوى الناس ، وبخاصة من رماهم فى «التنور» وعذبهم فيه أشنع عذاب ! ..
وبعد مدة أرسل لى سيدى من يخبرنى أنه ابتاع بالمال ضيعة طيبة ، جعلها
مورد رزقه ، وأقسم ألا يقترب مرة أخرى أبداً من عمل للخليفة أو الوزير أو لأحد
من رجال السلطان جميعا .
وقال لى من أبلغنى رسالته إنه أقسم أيضا إلا يشتري جارية مغنية ولا غير
مغنية أبداً بعد الآن ، لكيلا تقع عليها رغبة كبير من الكبراء أو عظيم من العظماء ،
فإذا عارض رغبته هذه كان فى ذلك حتفه ! ..
ودعوت لسيدى الذى ريانى بطول البقاء !

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
يوميات جميلة :	
المغنية الأولى	٧
أحزاب الغناء	١٥
زينة الجوارى	٢١
عندما يطرب عمر بن أبى ربيعة	٢٧
يوميات الغريض :	
قتيل الجن	٣٥
يوميات سلامة القس :	
أزهد الناس .. وأطرب الناس	٤٢
يوميات حبابة :	
للحب وقت وللموت وقت	٥١
يوميات أحمد بن اسامة :	
مخترع النصب	٥٧
يوميات ابن عائشة :	
الوليد والساقى	٦٥
يوميات عطر	
سقوط الفساد	٧٣
يوميات عمر الوادى :	
المهندس المغنى	٨١
يوميات دحمان :	
المغنى والقاضى	٨٩
يوميات الزبير بن دحمان :	
الغناء فى الصحراء	٩٧

يوميات ابن جامع :	
مطرب من قریش	١٠٥
يوميات اسحاق الموصلي	
ذكریات البرامكة	١١٢
يوميات دناتير البرمكية	
غيرة زبيدة	١١٩
يوميات دناتير الكناسية :	
جارية الرجل الصالح	١٢٧
يوميات مخارق :	
هدية الموصلي إلى البرامكة	١٣٥
يوميات عليّة :	
بين الغناء والتسلية	١٤٣
يوميات الملكى الصغير :	
المغنى الراوية	١٥١
يوميات علوية :	
الضرب باليد اليسرى	١٥٨
الشاعر الخننجى	١٦٣
يوميات محمد الزف :	
مسجل الأصوات	١٦٩
يوميات عبدالله الربيعي :	
ابن الحاجب والوزير	١٧٥
يوميات قلم الحسناء :	
مائة ألف دينار .. وولاية مصر	١٨٢

يوميات المغنين والجـواري

الناشيء
الجزء الأول

يطلب من دار الهلال
والمكتبات الشهيرة

الناشور

رقم الايداع ٨٨ / ٢٠٥١

الترقيم الدولي : ٧ - ٣٤٢ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

الناشئ

